خلاصة المتون

في

أنباء ونبلاء اليمن الميمون

للسيد العلامة المؤرخ الشهير

محمد بن محمد بن يحيى زبارة

الجزء الرابع

من سنة ١٠٠١ إلى ١٠٧٤هـ

أيام الإمام القاسم بن محمد وبنيه

تنويه:

جاء عنوان الكتاب في الأجزاء السابقة هكذا (خلاصة المتون في أبناء ونبلاء اليمن الميمون) وهو خطأ من المطابع وقع أثناء تصميم الغلاف، وقد تم تصحيحه في هذا الجزء.


مركز التراث والبحوث اليمني

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ /٢٠٠٣م



مركز التراث والبحوث اليمني

صنعاء ــ الجمهورية اليمنية

هاتف: ٢٠٥٤٧٠ فاكس: ٢٠٥٤٥١

البريد الإلكتروني: YemenHRC@y.net.ye

Yemen Heritage and Research Center

6918 Jones Branch Dr., Suite 600

Mclean, VA 22102 USA

Fax (703) 918 4925 :Tel (703) 918 4924

البريد الإلكتروني:

YHRC@yemenhrc.org

WWW.YemenHRC.org

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المؤلف - رحمه الله - في أول بعض مؤلفاته مؤرخاً سنة (١٣٧٦هـ) هذه الأبيات:

جُبلتُ على الصراحة في التواصي	بحق في النصيحة لا أباهي
وتذكيري لأولادي ونفسي	وإخواني بآيات التناهي
وعزوي كل أبحاث حوتها	مجاميعي إلى الراوين ما هي
على أسلوب أسلاف حراص	على الإسناد تجتنب المناهي
وأوجبت الحميّةُ طبع باقي	مجاميعي وأبحاثي كما هي
وأرجو خالقي تحقيق سؤلي	وسؤلي العام (يغفر لي إلهي)[1]

(١٣٧٦هـ)

وكتب المؤلف - رحمه الله - مادة خاتمة صحيحة على أسلوب الأوائل الموثقات بنصوصها، وأما كتابة بعض العصريين باعتبار أمويتهم وميولهم وفهمهم بنصوص أخرى فقد يخالفهم غيرهم، فيختلف التاريخ ويضطرب؛ لأن لكل كاتب فهماً واتجاهاً، كما يقال (الأخبار شفوف)، فإبقاء عبارة الأولين أضمن لصحة التاريخ، فليس التاريخ مثل سائر الفنون كالعربية والأدب والفقه التي تكون صياغتها بعبارة عصرية أوضح، لا سيما التاريخ القديم قبل قرون مخالفة لمفاهيم عصرنا.

* * *

(١) لعل مجموع الملول الحسابي لحروف العبارة (يغفر لي إلهي) يساوي ١٣٧٦.

قراءة الإمام القاسم بصنعاء سنة ١٠٠١هـ

قال في الجامع الوجيز للمولى أحمد بن عبد الله الجنداري: في آخر يوم من شعبان سنة (١٠٠١ هـ) كسفت الشمس في برج الجوزاء، عم الكسوف صفحة الشمس، وأظلمت الدنيا، وظهرت الكواكب، وتجلّى بعد نصف ساعة، وكان توسطه ساعة أربع، فذكروا أنها تظهر فتن بعد أربع سنين.

وكان الإمام القاسم في صنعاء للقراءة على العلامة علي بن قاسم السنحاني، وكان هو وعمه السيد الشهيد عامر بن علي إذا عثرا على منكر يغيّرانه بالضرب، فنَمَا خبرُهما إلى الوزير حسن باشا، فخرجا من صنعاء، فكتب الوزير حسن إلى الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين أمير كوكبان في أمرهما، فحبس السيد عامر، وترك الإمام القاسم، ثم تخلص السيد عامر من الحبس بعد مدة.

(سنة ١٠٠٢هـ) فيها وصل وزير الهند المسمى (عزيركوه) بهدايا نفيسة للباشا حَسن، فتلقاه الباشا بالإكرام والإقبال التام، ثم توجه لسفر الحج.

وفيات

إبراهيم بن محمد الجملولي

في (سنة ١٠٠٢هـ) توفي العارف مفتي الحنفية للأتراك بصنعاء إبراهيم بن محمد الجملولي الأهنومي، وكان زيّدي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الحنفية، وحصّل كثيراً من كتبهم، ودفن في مقبرة خزيمة قريباً من قبة المطهر بن الشويع، وجُملول محل بالأهنوم.

(سنة١٠٠٣هـ) فيها توفي السلطان مراد خان باستنبول وقام بعده السلطان محمد خان.

عبد الرحمن بن عبد الله الحيمي

قال السيد الحافظ إبراهيم بن القاسم بن المؤيد بن القاسم في طبقات الزيدية: في (٣ شوال سنة ١٠٠٣هـ) توفي بصنعاء، وقُبِر بجربة الروض القاضي العلامة الأصولي المحدث السائح المتألّه، شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن عبد الله بن داود بن إبراهيم بن أحمد

بن علي بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن دُغَيش بن غسان بن محمد الشعبي الخولاني، ثم الحرازي المعروف بالحيمي. قرأ على الفقيه أحمد بن يحيى الضبياني الأهنومي، والسيد أحمد بن عبد الله الوزير والسيد علي بن الإمام.

ومن تلاميذه: الإمام القاسم، والسيد صلاح بن أحمد الوزير، وعبد الهادي الحُسوسة، وكان لا يُلحَق في علم الكلام وإماماً في العربية ومفسّراً للقرآن صنف تفسيراً وكتبه على هامش المصحف، وكان يسيح في البلاد في الهجر، ومواقف العلماء ويصحح النُسَخ، ويُحشّي عليها، ويلبس الخشن، وكان إماماً جليلاً. وله رسالة في نظر الأجنبية ضعّف الرواية بجوازه عن الحنفية والشافعية، ووصل إليه الإمام القاسم قبل دعوته إلى هجرة الحَدَب.

وقد يلتبس بعبد الرحمن بن محمد بن نهشل الحيمي، وبعبد الرحمن بن عبد الله الحيمي الذي تولى القضاء بالحيمة.

(سنة ١٠٠٤هـ) لم يبلغ فيها من الحوادث ما يوجب رقمه.

وفيات

المطهر بن صلاح بن شمس الدين

في (رمضان سنة ١٠٠٤هـ)، توفي بكوكبان السيد المطهر بن صلاح بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين، فعمر عليه قُبةً أميرُ كوكبان السيد أحمد بن محمد بن شمس الدين، ولما فرغ من عمارتها (سنة ١٠٠٥هـ) قال السيد محمد بن عبد الله شرف الدين قصيدة في ديوانه، منها:

يا لها قبةً تلألأ نوراً ما حكاها السماك والمريخ
من يَسمني تاريخَها في دعاء فليؤمّن عليه وهو مصيخ
خلّد الله وجه أحمد، آمين و(سلطان ملكه) التاريخ

وهذا التاريخ غير موافق.

(سنة ١٠٠٥هـ) فيها تم للباشا حسن بناء قبة البكيرية بصنعاء.

وفيها ظهرت دلائل قيام الإمام القاسم، فمنها ما ظهر للناس بصنعاء من سماع المنادي

في الليل (يا إمام، يا قاسم)، استمر مدة شهرين، فيقصدون إلى موضع النداء، فلا يجدون شيئاً، وكان القاسم مقيماً في صنعاء للتدريس بمسجد داود بن المكين، وليس له التفات إلى القيام بالإمامة، فإن بعض تلاميذه عرض عليه هذا الشأن، فأنكر قوله واستبعده لقوة الترك باليمن، وما هو عليه من الضعف وقلة الناصر وميل الناس إلى الحطام، ويأبى الله إلاَّ ما يريد، فإن الباشا حسن ومن بحضرته لَمّا سمعوا بقضية المنادي أقامهم وأقعدهم وحاولوا يتوصّلون إلى معرفة القاسم بكل ممكن حتى قيل إنهم طلبوا من بُنيان المنجم الدلالة على موضعه، فأخبرهم. فخرج القاسم من صنعاء خائفاً يترقب ومعه رجلان من تلاميذه حتى وصل شبام كوكبان، وتوجه إلى بلاد الشرف، فاستقر في بلده ومحل أهله بلدة القويعة بالشاهل، وكان والده وجده من أنصار المطهر بن شرف الدين، وقتل جده في بعض حروب المطهر مع الأتراك بخوشان.

قال السيد عبد الله بن علي الوزير في طبق الحلوى، والذي سمع النداء للإمام القاسم هو الفقيه الزاهد العابد التقي عبد الهادي القويعي الحضرمي الشافعي المتوفى (سنة ١٠٦٨هـ).

قال في الجامع الوجيز: وكان الإمام القاسم قد حج (سنة ١٠٠٤هـ)، ثم رجع يجول في البلدان، فوصل أولاً إلى بلاد خولان، فلم يجد مرامه، ورحل إلى المشرق بلاد الرصاص، ثم يافع، ثم الحجرية والمعافر، ثم سمع بشريف من ذرية الإمام يحيى بن حمزة يقال له (صاحب الجعدي) من الصوفية أهل الكشف، فقصده فحال دخوله عليه قال له: مرحباً بالإمام القاسم، فأنكر، فقال له: لا، بل أنت الإمام الداعي، وستملك البلاد وأولادك، ثم رجع القاسم إلى بعدان، ثم رياب، ثم آنس والحيمة.

وقال السيد الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين - مؤرخاً إكمال البكيرية - سنة (١٠٠٥ هـ):

شاد الوزير جامعاً يلوح نوراً ساطعاً
وقد أتى تاريخه (لكل خير جامعاً)

(سنة ١٠٠٥هـ)

ومن التاريخ المرسوم على محراب البكيرية:

بـــنى جامعــاً للإلـــه   وطـــرزه عســـجدا
وفي الفـــتح أرِّخ (تـــرا   هـــم ركعـــاً ســـجداً)

(١٠٠٥هـ)

ثم لما كان استيلاء الأتراك على اليمن في (آخر القرن الثالث عشر) كان من بعض الولاة العثمانيين زخرفة البكيرية وتحسينها في سنة (١٢٩٨هـ)، وأرَّخ ذلك بعض الأدباء، قيل: إنه السيد الشاب عبد الله بن إبراهيم بأبيات مرسومة على بابه، منها:

ذا جـــامع تاريخـــه جامـــع   للفتح والنصر لـــذاك النجيـــب
عبد الحميد النـــدب ســـلطاننا   سيف رسول الله ذاك الحبيـــب
لـــذا أتـــى تـــاريخ إكمالـــه   (نصر من الله بفـــتح قريـــب)

(سنة ١٢٩٨هـ)

وكانت الأتراك تقيم صلاة الجمعة والعيدين بالبكيرية، وكـــان للنســـاء التركيـــات مقصورة في الجانب الشرقي الجنوبي، وكان إمامه خوجةً علامةً فاضلاً، وكان معمـــوراً بالعبادة والدرس، لا سيما في رمضان، تقام فيه صلاة التراويح ويضيق بالأتراك وأعوالهم؛ وللوالي وكبار معاونيه مقصورة في جنوبيه بدرج، وفي المناسبات كالمولد النبوي وجلوس السلطان، تقام فيه حفلات فيغصُّ بصروحه وحماه وتوزع الحلوى ونحوها، وكان بيـــت الخوجة قريباً منه جنوباً، وكان من مات من كبراء العثمانية يدفن بالقبة غـــربي الجـــامع كالوالي إسماعيل حافظ، أما أكثر الأتراك فيقبرون في مقبرة كبيرة مفتوحة شمالي البكيرية، وكانت دوائر الحكومة غربي البكيرية، فيخرج بعضهم للصلاة بها.

ولما دخل الإمام يحيى صنعاء (سنة ١٣٣٧هـ) تردد للصلاة بالبكيرية، وأمر بإقامتها وتعيين السادن والمؤذن والإمام بعد ذهاب الأتراك، وأجرى المقررات لولاتها كغيرها من المساجد، وأمر بتطهير صرحها، ومنع دخول الناس إليه بنعالهم، كما كان. وقد كـــان وقع الشروع في إهمالها آخر أيام الأتراك، وسرق بعض مفروشاتها، وممن تعين لإمامتـــها السيد الفاضل علـــي بن أحمد أبو طالب من الروضة، ثم خلفـــه إلى الآن.

علي بن قاسم السنحاني

وفي (سنة ١٠٠٥هـ) توفي بصنعاء شيخ القاسم وغيره من الأعلام، القاضي العلامة المحقق علي بن قاسم بن جابر السنحاني الصنعاني، وكان له شهرة عظيمة وحظ كبير بفصل الخصومات، ولا يرضى أكثر الناس بغير حكمه، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وما زال ملطوفاً به من ضرر الأتراك مدرساً بمسجد داود، والناس يسلمون إليه زكواتهم ليفرقها في مستحقيها، وقبره جنوبي قصر صنعاء، كان عليه لوح فيه إن وفاته (سنة ١٠٠٥هـ).

وترجمه أبو الرجال في مطالع البدور ترجمةً ذكر فيها ما له من القضايا في إنكار المنكرات أيام الأروام، ونقل منها الشوكاني في البدر الطالع، فقال: كان هو القائم بمذهب الزيدية أيام ولاية الأتراك على صنعاء، وكانوا يجتمعون إليه إلى مسجد داود بصنعاء ويأخذون عنه فقه الزيدية ويقصده أهل الأموال بالنذور الواسعة، فيصرف ذلك في تلاميذه، وبالغ أمراء الأتراك في اتصاله بهم، فلم يفعل. واتفق في أيامه قضية: هي أنّ بعض أولاد الأشراف بصنعاء دخل يتوضأ في مطاهير مسجد داود، فلم يشعر إلاّ بتركي قد دخل عليه، وأراد به الفاحشة، فطعنه بسكين، فمات، وخرج من المطاهير إلى المسجد، وصاحب الترجمة يُقرئُ الطلبة، فسارّه بما وقع، فطلب من السّاني أن يكثر الْمَسنَى إلى المطاهير، وأمر بتغليق أبواب المطاهير، فملأ الماء ساحة المطاهير، ثم أمر بتقطيع التركي قطعاً صغاراً، وأُخرِج إلى محل بعيد.

ومما يحكى عنه أنه بلغه أن رجلاً من أهل صنعاء له ولدان جميلان، وأن لهما دكانين يقعدان فيهما، ويصل إليهما أهل الفساد من الأتراك، فتقع المعاصي والمغاني ونحوها هنالك، فقال صاحب الترجمة لرجل من أهل الصلاح له علاقة: هل يمكنك أن تدعيَ أن الدكانين لك وأحكم لك بهما؟ فقال: ليس لي فيهما ملك، فقال: قد علمت ذلك، ولكن هذا مما يُسوّغه الشرع، ففعل الرجل ذلك، وحكم له صاحب الترجمة، وكان له من إنكار المنكرات قضايا مستحسنة، وله تلامذة نبلاء، منهم القاضي يوسف الحماطي.

وكان اعتماد أهل صنعاء في الفتاوى عليه ولهم فيه اعتقاد عظيم.

الحاج علي بن عبد الله الأسطى

ومن ذريته الحاج العالم الفاضل علي بن عبد الله بن حسين بن قاسم بن قاسم بن محمد بن أحمد بن القاضي العلامة الشيخ علي بن قاسم بن جابر السنحاني.

مولده في (آخر رمضان سنة ١٣٢٩هـ) بحجر والده الحاج الفاضل عبد الله المتوفى في (ربيع الأول سنة ١٣٧٢هـ)، وكان أسطا تجاراً كبيراً كأبيه وأسرته، بأمانة وخبرة كبيرة.

وقد درس الحاج علي بن عبد الله في الفقه وعلوم العربية والحديث والتفسير وعلوم القراءات لدن مشائخه عبد الخالق الأمير وأحمد زبارة وحسين المغزلي ويحيى الإرياني، ومحمد عبد الله شرف الدين، وحسين الرقيحي، وحسين الغيثي، وأجازوه وجوَّد القرآن غيباً، وهو من الذين يمشون على الأرض هوناً، ويطالع في الكتب المفيدة، وهو شيخ قرآن حافظ، ويعمل كأسرته في النجارة بأمانة وإتقان، وعمل محاسن نجارة في مساجد لله، وقد وهب الله له ولداً صالحاً.

الحاج علي بن علي الأسطى

فاضل حسن السلوك كوالده. مولده في (٢٢ رمضان سنة ١٣٦٤هـ) بحجر والده وجده، وقد أعان والده في أعماله المبرورة، وهو مثل والده في الأمانة والخبرة العظيمة والإتقان، وقد وهب الله له أولاداً صالحين عبد الله ويحيى ومحمداً وإبراهيم.

الحاج محمد بن عبد الله الأسطى

والولد الثاني للحاج عبد الله، هو الحاج العزي محمد بن عبد الله بن حسين الأسطى. مولده (سنة ١٣٣٣هـ) درس كثيراً في كل الفنون سنين كثيرة حتى استفاد واستمر على المطالعة والدراسة، ومن مشائخه أحمد زبارة، وعبد الخالق الأمير، ويحيى الإرياني، ومحمد الفران، وحمود المؤيد، وغيرهم، وهو مثل أسرته في الفاضل وحسن السلوك والعمل في النجارة بأمانة وإتقان، وقد وهب الله له أولاداً صالحين عبد الله ويحيى ومحمداً. ولعبد الله ولدان محمد وإبراهيم، ويدرّس في مسجد الجلا في عدة فنون.

الحاج حسن قاسم الأسطى

ومنهم الحاج حسن بن قاسم بن حسين بن قاسم بن قاسم بن محمد بن أحمد بن القاضي العلامة علي بن قاسم بن جابر السنحاني. مولده (سنة ١٣٢٦هـ)، وقد فتح الله عليه برزق واسع وعمر مسجد الأسطى في طريق عصر وجامعاً واسعاً في بني قُشيب شرقي الجراف مثل جامع الروضة، ووقف على المسجدين ما يكفيهما. وسبق أن هاجر إلى الحبشة سنين كثيرة وتزوج بها، وقد وهب الله له أولاداً صالحين محمداً، وقاسماً، وتوفيقاً، وسامياً، وعبد الرزاق، ولهم أولاد. وأخوه الحاج الفاضل عبدالله بن قاسم الأسطى، فاضل، حسن السلوك، أمين، خبير في عمل النجارة كأسرته، وفعل منابر لمساجد، وله ولد واحد.

(سنة ١٠٠٦هـ) في شهر محرم وقعت آية سماوية في بيت الفقيه الزيدية، وهي حصول رعد عظيم وبرق خاطف من غير مطر ونزل حجران من السماء، فوقعتا في محلين متقابلين بينهما نحو ميلين إذا حُكَّ أحدهما ظهر منه شبه الذهب والآخر شبه الفضة فسبحان القادر على ما يشاء.

وفي (صفر سنة ١٠٠٦هـ) كانت دعوة الإمام القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين الأملحي بن علي بن يحيى بن محمد بن يُوسُف الأشل بن القاسم بن الداعي يوسف بن يحيى بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. مولده في (١٠ رمضان سنة ٩٦٧هـ) ودعوته في محل من بلاد حجور، يعرف بجديد قارة قبلي الشرف، وأجابه بتلك الجهة الشيخ أبو زيد وأصحابه وجماعة من الأهنوم وبنو عباس وغيرهم حتى اجتمع عنده نحو أربعمائة نفر؛ وكان العامل للأتراك في الشرف الأمير حسين بن ناصر، كان في سفر الحج فتقدم نائبه لحرب الإمام فهزمه أصحابُ الإمام، ثم تقدم لمحاصرة حصن وشحة؛ ونما خبر قيام الإمام إلى الباشا حسن وهو بالروضة، فعلم أن حوادث الأيام قد نظرت إليه بطرف غير نائم فرجع إلى صنعاء وبرزت خيام (الكيخيا) سنان إلى البستان الغربي خارج صنعاء، ثم وجه الباشا حسن الأمير عبدالله المعافى في عساكر كثيرة إلى الأهنوم فاستقر في الهجَر

وكان الأمير عبد الرحيم بن عبدالرحمن بن المطهر عاملاً على حجة وبلادها للأتراك فتوجهت عساكره لمحاربة الإمام، وانضم إليهم جميع عساكر الأروام في الشرف فأمر الإمام أصحابه المحاصرين لحصن وشحة بالاجتماع في حديد قارة، فاجتمعوا، ودهمتهم العساكر، ووقع الحربُ فحصلت جراحات خفيفة في بعض أصحاب الإمام: كالسيد عبدالله بن هادي الحيداني، والسيد ناصر بن داود الظاعني، والشيخ علي بن وهان العذَري؛ وتأخر الإمام إلى بعض الأودية، فاجتمع إليه أصحابه، ثم توجه إلى عذر وأمر بمحاربة من في قرن الوعر، فخرج منه السيد عبدالرحمن المدايري، وكان الأمير عبدالله المعافَى قد أمره بحفظه، ولما عرف الإمام أن العساكر قد توجهت إليه فرَّق أصحابه في البلدان وسار إلى برط، فعلم به (قَرَى جُمعة) نائب الباشا بصعدة، فبذل للشيخ عُبيد البرطي وجماعته مالاً جزيلاً في قبض الإمام، فأحضره إلى الإمام وأخبره الخبر، وأرجع المال إلى قرى جُمعة، فشكره الإمام، وكان الأمير مطهر بن الشويع عاملاً للباشا على الظاهر، وعنده أمراء كالأمير عبدالله بن المطهر وغيره، فأمده الباشا بعسكر وأمره بتنفيذهم مع من عنده إلى الأهنوم، فلما وصلوا (أخرف) أقبل عليهم أصحاب الإمام مع الحاج أحمد الشاطبي والحاج أحمد بن علي دعيس، وهم ألف نفر، من غربان، والظاهر، وحاشد، وبكيل فقتلوا من أصحاب مطهر بن الشويع ستة عشر رجلاً، وانتهبوا سلاحهم وحصروهم إلى أن أغار عليهم مطهر بن الشويع بنفسه من خمر فاستنقذهم.

وفي هذه السنة دخل أهل الحيمة في طاعة الإمام وقائدهم الفقيه المجاهد يوسف بن علي الحماطي.

أسر الفقيه يوسف الحماطي وقتله

فنهض (الكيخيا سنان) إلى حضور. وكان الحماطي قد كتب إلى الإمام يُخبره بطاعة أهل الحيمة واستمد منه الإعانة، فبعث إليه عمه السيد عامر بن علي، والسيد محمد بن علي بن الحسين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى، وهو المعروف بالقراع، ففوَّض الفقيه يوسف الأمرَ إلى السيد عامر، واجتمع الناس إليه وأطاعوه واستقر في الحيمة، فقصدته محطةُ الأروام خيلاً ورجلاً وقائدهم الأمير إبراهيم طويل، والشيخ عبدالله

الرمَّاح إلى محل يعرف بالسلف، وتلقاهم السيد عامرٌ وأهل الحيمة إلى جبل الثورين، ووقعت بينهم معركة عظيمة، واتصل السيد القراع ببعض أصحاب الرَّماح، فمالوا إليه وحملوا على محطة الأروام، فقتلوا قائدهم الأمير إبراهيم طويل، واستولوا على خزانتهم، وكانت وِقْر سبعين جَملاً، وطلب الشيخ عبدالله الرماح الأمانَ لنفسه ومن بقي معه فأمَّنهم السيد عامر، فخرج بمن عنده وكانوا زهاء ألف وخمسمائة راجل ونحو سبعين فارساً، ثم تقدم السيد عامر بمن معه إلى جبل بيت خولان، فقصده (الكيخيا سنان) ومن انضم إليه من قبائل سنحان، وخولان، وهمدان، ووقع حرب شديد، قتل فيه من أصحاب السيد عامر نحو (سبعين رجلاً)، واستولى سنانٌ على قرية بيت خولان وبيت معدن.

ثم عطف السيد عامر وأصحابه في ذلك اليوم وأبلوا بلاءً حسناً وحَمل الشيخ محمد بن ناصر صاحبُ الأحبوب فقتل من أصحاب سنان عدة وكادوا يستولون على سنان، فوصلت إليه غارة كوكبان، فتأخر السيد عامر وأصحابه إلى عِزّ بني الأعطب، وتقدم سنان إلى جبل الثورين واشتدت وطأته على من ظفر به من أهل الحيمة، فجعل يقتل كلَّ أسير أُتي به إليه، حتى لقد أتي بطفلة صغيرة فأمر بسلخها بعد أن استجارت بأهل كوكبان فلم يجيروها.

وتقدم الفقيه يوسف الحماطي إلى آنس ومنه إلى ذمار فجهَّز عليه الباشا عسكراً مع رجل يعرف بالواعظ، وكان متنسكاً بجامع صنعاء مالت به الدنيا، فخرج الحماطيُّ خارجَ ذمار فقصده الواعظ وحصره حتى خرج إليه فأرسله إلى صنعاء، فمات في السجن وقتل ممن كان معه الفقيه محمد بن عبدالله العياني النسري من العيانة بلاد التلث حراز، وهو الذي ذِكْره الإمام القاسم في قصيدته التي أولها:

سحَّت مدامعُ مقلة المجروح لدمٍ لآل المصطفى مسفوح

حتى قال فيه: ومن العيانة عابدٌ متبتلٌ .. إلخ.

ولما وقع الحرب المتقدم ذكره في أخْرَف وقُتل فيه من أصحاب أمير الأتراك مطهر بن الشويع (١٦ رجلاً)، كتب الحاج أحمد بن علي دعيس إلى الإمام القاسم يستدعيه من برط ويخبره بما وقع.

وكان الأرْوامُ الذين خرجوا مع الفقيه عبدالله المُعافَى من صنعاء إلى الهَجَر قد تقدموا إلى وادعة، وحَشدوا قبائل الأهنوم وغيرَهم حتى بلغوا (أربعة عشر ألفاً)، ودخلوا الحصن فانتهبوه وأخربوا بعض بيوته، وجعل الأمير حسن بن ناصر الغرباني يغير عليهم بمن اجتمع إليه من أهل وادعة وشظب وغيرهما.

وفي خلال ذلك وصل الإمام إلى شاطب، فرجع أهلُ الأهنوم الذين كانوا مع محطة الأتراك بوادعة إلى بلادهم وأظهروا الدعاء للإمام والميل إليه، وانضم إليهم أهل ظليمة وعذر، ثم تقدم الإمام إلى المحراب ودخل في طاعته أهل الهجَر، وتقدم السيد العلامة إبراهيم بن المهدي جحاف، والفقيه علي بن محمد الشهاري عن رأي الإمام بقبائل الأهنوم وعذر وظليمة إلى شظب وجبل بني حجاج والموسم. وكان في السودة عسكر من الأروام قدر (أربعمائة نفر)، فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب في جبل بني حجَّاج، قُتل فيه من أصحاب الإمام (ثلاثة أنفار).

ولم يزل أصحاب الإمام يشنون عليهم الغارات حتى دخلوا في طاعة الإمام ولم يبق في السودة إلاَّ الأمير عبدالله المعافَى. ولما استقر الإمام في الأهنوم بعث السيد عبدالله بن هادي الحيداني والقاضي حسن بن علي البشاري وغيرهما بعسكر إلى بلاد الشرف، فأجابهم أهل حجور وعاهم وظاعن، فوقع بينهم وبين عسكر الأروام وأصحاب عبد الرحيم حرب في بلاد الشرف انهزم فيه عسكر الأروام وأصحاب عبد الرحيم وانتُهبت أثقالهم.

وفتح أصحابُ الإمام حجة وطووا ما قابلهم من الجهة اليمانية إلى أن بلغوا جبل تيس، ومنهم من تقدَّم إلى عفَّار وبعضهم أقام الحصار على الأروام في نعمان حجة حتى خرجوا إليهم وبعثوا بهم إلى الإمام تحت الأسر.

وأقام السيد عبدالله الخيواني الحربَ على الذَّنوب ومَبين، وفيه عبد الرحيم، فخرج متجهاً إلى الإمام في (خمسمائة) من أهل الجبَر وغيرهم، أكثرُهم ببنادق، فأكرمه الإمام ثم أخذ عليه العهد مع البيعة وأمره بالتقدم إلى جبل عيال يزيد؛ لمحاربة سنان في عمران، فأضمر في نفسه الخديعة للإمام وراسل سناناً سراً إلى أن يتنحَّى عن عمران، فمتى دخلها بمن معه من أصحاب الإمام رجع سنان للقبض عليهم، فعرف بمكيدته بعضُ أصحاب

الإمام فأشار إلى بقية أصحابه فتأخروا عن عبد الرحيم، وتقدم إلى عمران بخاصته فقط وفاته ما أراد.

وفي هذه السنة أخذ السيد شرف بن حسن الكحلاني من أصحاب الإمام حصن ثلا ومُدَع وبلادهما، فخشي سنان على أصحابه الذين في متنه وجبل الثورين من السيد عامر بن علي، فرفعهم إلى صنعاء.

واستولى الإمام في هذا العام على كثير من المعاقل كشهارة والسودة وغيرهما. وخرج ابن المعافَى إلى حضرة الإمام. ولم يبق في يد الأروام من المدن الكبار إلا صنعاء وصعدة، ومن البلاد اليمن الأسفل وتهامة. ولما استقر الإمام في حصن السودة أراد ناصر البُهيلة صاحب حصن حقل أحد خواص عبد الرحيم المكر بالإمام، فاستدعاه ليسلم حصنه إليه، فسار إليه الإمام بنفسه، وكان أشار عليه بعض أصحابه أن لا يأمنَ مكرَه، فلم يُسعد، فلما وصل قُربَ الحِصن رماه البُهيلة بثلاث رصاصات دفعة واحدة، فسلّمه الله منها وعاد إلى السودة.

وفي هذه الأيام أمر الباشا حسنٌ الواعظَ ومعه الأمير أحمد الأدرن بالخروج إلى أسناف وما إليها ولم يكن للواعظ معرفة بالحرب ولا ثبات.

وكان الحاج أحمد بن عواض الأسدي قد جمع خولان وغيرهم بعد أن أجابوا الإمام، فلما استقروا في أسناف قصدهم الحاج أحمد الأسدي، فقتلوا الأدرن وعدة من العسكر، وانتهبوا المحطة وغنموا الزبارط والبنادق، وفرَّ الواعظ ومن بقي منهزمين، وبطلت رئاسة الواعظ وأهانوه وظهر للباشا عدم معرفته بالحرب، وأن فعلته مع الحماطي كانت اتفاقية فأودعه السجن في ذي مرمر وبعد مدة أمر سنان بضرب عنقه.

وفي شوال استقر السيد عامر في موضع يقال له معفور الحصان قرب كوكبان، فقصد السيد أحمد بن محمد بن شمس الدين ومن معه، فأنزل الله مطراً أطفأ فتيل البنادق، وعند السيد عامر جنود كثيرة، فخرجوا فيهم بالسيف، ورجع أحمد بن محمد إلى كوكبان. وقتل من أصحابه السيد لطف الباري بن محمد بن عبد الله شرف الدين والسيد الهادي بن رضي الدين، وأُسِر السيد علي بن الحسن بن علي بن الإمام شرف الدين، وقصد السيدُ عامرٌ أحمدَ بن محمد، وكاد أن يستأصله، فما خرج إلا من تحت

السيوف، ودخل السيد عامر إلى جبل تيس بأهل الحيمة ومن معهم واستولى على تلك الأقطار، و لم يبق لأحمد بن محمد إلاَّ حصن كوكبان والطويلة.

وفي هذه المدة ثار أهل يافع على عامل الباشا وهو الأمير أحمد، وكان مستقراً في الحلقة، فوجَّه إليهم الباشا الأمير عبدالله بن المطهر وغيره من الأمراء في عسكر كبير، فلما قربوا من الحلقة، أقبلت عليهم قبائل يافع من كل مكان، ووقعت بينهم معركة عظيمة في نجد السلف، وهو الحد فيما بين بلاد الرصاص وقيفة وقُتل كثير من الأروام ونُهبت خزائنهم ورجع بقيتهم إلى رداع، وقُتِلَ الأمير أحمد الذي كان في حصن الحلقة.

وفيها خرج (الكيخيا سنان) إلى هِزَم من أرحب فأخْرَبَ أهلها ونالتهم منه معرةٌ، وكان أكثر الضرر عليهم من أهل همدان لعداوة بينهم وخرج من كان عندهم من أصحاب الإمام وجاءت الغارة من الحاج أحمد الأسدي بخولان فاشتد الحرب ونصب سنان المدافع.

الوفيات سنة ١٠٠٦هـ

في (سنة ١٠٠٦هـ) توفي بالشاهل السيد العلامة علي بن إبراهيم بن علي القاسمي الملقب العالم، عن (٧٦ سنة) من مولده (سنة ٩٣٠هـ) في ١٣ صفر كما في الطبقات، أخذ بصنعاء عن ابن راوع في الفِقْه والفرائض وغيرهما. وأخذ عنه الإمام القاسم ووفاته بعد دعوة الإمام بشهرين.

وقال في اللآلئ المضيئة: إن هذا السيد العالم الفاضل علي بن إبراهيم بن علي بن المهدي بن صلاح بن علي بن أحمد بن الإمام محمد بن جعفر بن الحسين بن فليتة بن علي بن الحسين بن أبي البركات بن الحسين بن أبي البركات بن الحسين بن يحيى بن علي بن القاسم بن محمد بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وهو المعروف بالعالم- كان قيامه في (سنة ٩٨٠هـ) وكانت له وقعات مع المتولّي للشرف من جهة الأتراك مرجان شاوش، وكان مع العالم أيضاً العابد، وهو الإمام علي بن إبراهيم بن علي بن محمد بن صلاح بن محمد بن أحمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود بن يحيى بن عبدالله بن القاسم بن سليمان بن علي بن

محمد بن يحيى بن القاسم الحرازي بن محمد بن الإمام القاسم الرسي. ولما عاد أهل الشرف إلى مسالمة مرجان سكن هذا السيد علي العالم بمحله في الشاهل، فاحتال في ضبطه أولاد المطهر وأطلعوه إلى حصن ذي مرمر ثم نقلوه إلى حصن مدوم الشرف على حالة جليلة يُقرِئ العلومَ وأطلقوه وسكن بيته بقرية الجاهلي من الشاهل، وعند دعوة الإمام القاسم أجابه ثم مات في ربيع الآخر (سنة ١٠٠٦هـ) وقبره بقريته المذكورة وبجنبه ولده السيد العلامة محمد بن علي.

محمد بن علي الشكايذي

وفي (سنة ١٠٠٦هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة محمد بن علي الشكايذي الذماري. وهو العالم الزاهد المتبتل، أخذ عن والده وغيره؛ وعنه إبراهيم بن يحيى بن محمد السحولي، وأحمد بن عبد الله الغشم وغيرهما.

ولما كانت دعوة الإمام القاسم خاف العجم من صاحب الترجمة فأطلعوه من ذمار إلى صنعاء، وكان يبقى في مسجد أبي الروم بصنعاء، ولما ظهرت قصيدته المعروفة في تحريض المسلمين على الجهاد مع الإمام القاسم، اغتالته العجم بالسم كما أخبر تلميذه أحمد الغشم، وقبر بجربة الروض، ثم قبر بجنبه تلميذه أحمد بن عبدالله الغشم، وقصيدته المشار إليها تلحق إن شاء الله.

حوادث سنة ١٠٠٧هـ

في (محرم سنة ١٠٠٧هـ) وجه الإمامُ القاسمُ السيدَ عبدَالله بن محمد المحرابيَّ في عسكر كثير إلى الجهة الصعدية لمحاربة السيد محمد بن عبدالله - المعروف بأبي علامة- وكان في ابتداء أمره من أعوان الإمام، فوقع بينه وبين عامل الإمام تفاوت على رازح آل إلى الحرب، وأسر عامل الإمام. ولما التقى أبو علامة والقائد المحرابي انهزم أبو علامة إلى قراض، ثم والَى الأتراك الذين في صعدة وجعلوا إليه ولاية خولان صعدة، فرجع إلى فللة فقصده أصحاب الإمام وأمده الأروام من صعدة، فرجع أصحاب الإمام عن تلك الجهة، ولم يزل موالياً للأتراك إلى أن استُفتحت صنعاء.

وفيها غزا الحاج أحمد بن عواض الأسدي بخولان إلى محطة (الكيخيا سنان) في خُزيمة

جنوبي صنعاء عند البستان، فحصلت معه ومع أهل صنعاء روعة عظيمة وضربوا بالزبارط، وخرج خواص الباشا حسن للغارة.

وفيها توجه (الكيخيا سنان) إلى ثلا لمحاصرة السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني عامل الإمام. وتقدم سنان لإعانة الأمير أحمد بن محمد واسترجاع بلاده، وحطّ بموضع يقال له: أنْوَد غربي الضلع.

فتأخر أصحاب الإمام المحاصرون لحصن الطويلة، وتوجه سنان لمحاصرة من في حصن مُدَع، ولم يزل يستميل القبائل بالمال. ثم وجَّه عسكره إلى بيت عذاقة فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب، هنالك قتل فيه من أعيان أصحاب الإمام السيدان المجاهدان الأخوان أحمد بن محمد الحرابي، وأخوه علي بن محمد، وهما القائدان ودفنا في بيت ريب في جبل مسور وانهزم الباقون، وقتل قَتْلَى من الفريقين، وخرج مَنْ في مدع بأمان. وبعد أيام طلب السيد الحسن الكحلاني الخروج من ثلا على يد الأمير أحمد بن محمد، وكان سنان قد انتقل إلى خَمِر، فرجع إلى ثلا وخرج السيد الحسن إلى يده، فتقدم به سنان إلى كوكبان، ولبث تحت الأسر، وحضر سنان وليمة السيد محمد بن أحمد بن محمد بابنة عبد الرحيم بن عبد الرحمن ثم رجع خمر.

وفي هذه الأيام بعث الإمام ولده محمداً في جماعة من الأعيان والعساكر إلى ظفير حجة، فمرَّ بصَبَرة ونيسا، وجعل في نيسا جماعة من العسكر، ثم تقدم إلى الظفير، فاستقر فيه والحرب قائمة على عبد الرحيم في مبين و(الكيخيا سنان) يمده بالعساكر، فلما توافروا لديه تقدم على أصحاب الإمام في نيسا، فلم يظفر بهم، فرجع لمحاربة الظفير وشدد في حصاره وأصابته رصاصة في شدقه ذهبت منها أضراسُه، ولما اشتد الحصار على أهل الظفير وعلموا أنهم إن خرجوا إلى يد عبد الرحيم لم يُبق منهم أحداً لشدة غيظه عليهم كتبوا إلى سنان أن يرسل إليهم الأمير عبدالله بن المطهر، فتقدم بهم إلى سنان فأكرمهم في ذلك الأوان واستبقاهم حتى رجع صنعاء فأودعهم السجن ومات أكثرهم فيه، وبقي بقيتهم إلى الصلح الواقع بين الإمام وجعفر باشا بعد سنين.

وأما محمد بن الإمام فرجع سالماً إلى أبيه.

وفي هذه الأيام انتقل سنان إلى الصرارة وجعل يستميل مشائخ تلك الجهات بالذهب

الأحمر المغشوش حتى أفسدهم، ثم قدَّم عسكره إلى السودة والإمامُ يومئذ بها متأهب للحرب، فأدرك من عبدالله المعافَى الميل إلى سنان. وكان الإمام قد خرج من حصن السودة في بعض الأيام ثم رجع فمنعه المعافَى عن الدخول، فتوجه إلى المحراب بالأهنوم، واستولى عسكر سنان على السودة وسار المعافَى إلى سنان فأكرمه وضاعف له الإحسان.

وفي هذه الأيام وجَّه الباشا حسن قدر (خمسمائة) من العساكر، فيهم الشيخ حُميد صاحب ريمة حميد إلى وادي الفروات فأقبل عليهم الحاج أحمد الأسدي بخولان وغيرهم، فقتلهم عن آخرهم ومال الناس بعد هذه الفتكة إلى موالاة الإمام. وفي هذه الأيام توجه السيد عامر إلى حضرة الإمام فأمره بالتقدم إلى خولان، فسار إليها عن طريق نِهم ثم تقدم إلى آنس ثم الحيمة، وقصد بأهل الحيمة جبل تيس فاستفتحه تارةً أخرى وضيَّق على الأمير أحمد بن محمد فنهض إلى الطويلة والسيد عامر يتردد في بلاده حتى وصل المحويت ولبث بها يومين، ورجع إلى محل ببني حيش يُعرَف بالعُذيبة، فتزوج فيها وحاصر من في الأكمة من أصحاب الأمير أحمد حتى كاد أن يستولي على المحصورين، فوجَّه الأميرُ أحمدُ الشيخَ عبدَالله الرواسي وبعض النقباء لتخليص المحصورين بالأكمة، فمروا بالعُذيبة، ولا علم لهم أن السيد عامر فيها، فأخبرهم به امرأةٌ، فمالوا عليه وأحاطوا به من كل جانب. وكان قد أشار عليه بعض أصحابه بالانتقال، فلم يُسعد ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقبضوه أسيراً ودخلوا به إلى الأكمة التي فيها المحصورون، وأشعروا أصحابه بأسره ففشلوا وانهزموا وقُتِل منهم قدر ستين أكثرهم من بني عمرو وأهل الحيمة، وتردَّى بعضهم في الشواهق وأُسِر منهم سبعة، وتقدم الرواسي وأصحابُه بالسيد عامر إلى الأمير أحمد فعاتبه وذكر له إحسانه إليه أيام إقامته بكوكبان، ثم بعث به وبالأسرى إلى سنان وهو في خمر فقتل الأسرى وسلَخ جِلدَ السيد عامر وأسيرين، ودفن جسده في خمر، وعليه الآن مشهد، وفتَّ قتله في عَضُد الإمام، ورثاه بالقصيدة الطويلة:

سحت مدامع مقلة المجروح.. إلخ.

وفي مطلع البدور لأبي الرجال والبدر الطالع للشوكاني أن سَلْخ السيد عامر في (١٥ رجب سنة ١٠٠٨هـ) عن ٤٣ سنة وأشهر؛ لأن مولده (سنة ٩٦٥هـ). وأنه قرأ على القاضي العلامة عبد الرحمن الرجمي، وقرأ الغريب والكشاف على السيد عثمان بن علي

بن الإمام شرف الدين بشبام وأن مشهد جسمه بمدينة خمر وقبر رأسه وجلده في باب اليمن بصنعاء شرقي الباب من خارجه، ومن المراثي فيه:

أزائر هذا القبر من جئت زائراً ونلت به سهماً من الأجر قامرا
وأديتَ حق المصطفى ووصيه وأهليه لما زرت والله عامرا
سليل الكرام الشم من آل أحمد ومن كان للدين الحنيفي عامرا
وعمّ الإمام القاسم بن محمدٍ إمام الهدى من قام للحق ناصرا
ومن شدَّ أزراً منه حين دعا إلى رِضَى ربه أكرِم بذلك آزرا
فقلده المنصور سيفاً مهنداً وكان له في وجه أعداه شاهرا
فجاهد في الرحمن حق جهاده وبايَن من أضحى عن الحق سادرا

...إلخ

وفي هذه السنة وصل الباشا علي من الحبشة إلى اليمن، فوقف في القبتين وكتب إلى سنان أن يلقاه إلى بلاد خولان، فدخل سنان من قبلي بلاد خولان والباشا علي من جنوبيها، واشتد غيظ سنان على أهل خولان خصوصاً الفقهاء؛ لأنهم الذين يحرضون القبائل على طاعة الإمام، فخرج الفقهاء إلى (بِذْبِدة) واضطر بعضهم إلى تغيير زيِّه، ثم رجع الباشا علي إلى ذمار وبَنَى بها الدار المعروفة، ورجع سنان إلى صنعاء ولبث بها أيام عيد النحر ثم توجه لاستفتاح الحيمة، فاستقر في جبل الثورين.

وفي هذه المدة وقع حرب بين أهل خبان وبين من لديهم من الأتراك وقتل من الفريقين نحو خمسين نفراً، وفيها تسلم عبد الرحيم حصن ذروان حجة وأخربه.

وفيات سنة ١٠٠٧هـ

تقدم قريباً في حوادث السنة من ترجمة السيد الشهيد عامر بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد عم الإمام، ونأمل له ترجمة وافية.

أحمد بن محمد المحرابي

في (٩ ربيع الأول سنة ١٠٠٧هـ) استُشهد السيد الإمام أحمد بن محمد بن علي

المحرابي مع جماعة من المجاهدين في بيت عذاقة من مَسْوَر، وكان هذا السيدُ علامةً كبيراً فاضلاً شهيراً.

يقال: إن الإمام القاسم لم يقم حتى عرض عليه الدعوة. وقال في اللآلئ المضيئة: إنه استُشهد معه صنوه علي بن محمد بن علي وقطعت رأساهما وخمسة وأربعين نفراً من أصحابه وأن قتله كان رزءاً في الإسلام جليلاً، فإنه كان قد جمع من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيَم والكرم وحسن البشر والإيثار على النفس والتواضع والوفا بالحقوق ولين الجانب وسعة الصدر والهمة العالية والنفس الأبية؛ ما تكلُّ الأقلام عن رقمه. وبلغ رتبة الاجتهاد في العلم، وقرأ في جميع الفنون وتجرد للتدريس اثنتَي عشرة سنة.

حوادث سنة ١٠٠٨هـ

فيها نهض الباشا علي الواصل من الحبشة لاستفتاح بلاد ريمة، فلما وصل نقيل بني الطُليلي ثار عليه أهل تلك الجهة فقتلوه في آخر القوم، بحيث لم يعلَم بقتله من تقدمه من أصحابه؛ لضيق المحل والتقاء أشجاره حتى خالطتهم القبائل وانتهبوا سلاحهم واستولوا على خزائن الباشا، وتوجه بعض أصحابه إلى رصاب بأمان من أهل البلاد. ولما بلغ الباشا سنان قتل الباشا علي رجع من عر الحيمة إلى صنعاء. وخرج الفقيه علي بن يوسف الحماطي في أهل الحيمة إلى آنس، فاستدعاه أهلُ حصن مسار حراز، فسار إليهم، فلما استقر في الحصن عظم الأمر على الأروام وما زالوا يبعثون العساكر لحربه حتى قُتل قائدهم النقيب سعدان وقتل معه من الأروام قدر ثمانمائة نفر في مدة المحاصرة.

وفيها اجتمع أصحاب الإمام في بلاد صعدة وقصدوا من فيها من الأروام وقائدهم يومئذ الأمير مصطفى، فخرج إليهم وناوشهم القتال فقتل من الفريقين جماعة، وانهزم أصحاب الإمام إلى بعض الجبال، وانحصر بقيتُهم في بيوت رحبان، ثم خرجوا إلى يد مصطفى بأمان، فمال عليهم بعد الأمان فقتلهم عن آخرهم، وهم زهاء ستمائة نفر، وأسر العالم علي بن محمد بن الهادي الجديري - نسبة إلى جُدَيرة قرية من بلاد خولان - وأودعَهُ السجن، ثم قتله، فلم يمهله الله بل مات بعد أسبوع ويُروَى أنه كان يقول عند النزاع: (كان يا سيد علي).

وفيات سنة ١٠٠٨هـ

فيها مات السيد العلامة الأديب الكبير محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين في ذنوب حجة. وله الديوانان المشهوران الحكمي والحميني، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠١٠هـ)، وأرخه السيد عيسى بن لطف الله بن المطهر (سنة ١٠١٦هـ) وسيأتي له ذكر (سنة ١٠٤٨هـ) عند ذكر وفاة السيد عيسى لمناسبة هناك، وهو الذي جرت بينه وبين الإمام القاسم قصائد المهاجاة.

إبراهيم بن محمد بن مسعود

وفي (ربيع الأول من سنة ١٠٠٨هـ) توفي بالظهراوين من حجة الشيخ العلامة إبراهيم بن محمد بن مسعود الحوالي، وهو شيخ الإمام القاسم، والسيد محمد بن عز الدين المفتي، والقاضي عامر الذماري وغيرهم. قال في الطبقات: كان من العلماء الأكابر في مغارب حجة ونواحيها، وسكن الظهراوين. وقبره بقرب قبر القاضي علي الحميري، ورثاه السيد محمد بن عبد الله بن شرف الدين بقصيدة أولها:

نُبِّئْتُ أن الحبر إبراهيما ... أزكى الورى سَمْتاً وأكرم سِيما

علم الشريعة خير أرباب الحِجَى ... خَلقاً وخُلقاً كالربيع وسيما

..إلخ

الشيخ ياقوت الحنفي

وفيها توفي الشيخ ياقوت الحنفي. كان مملوكاً لعلي بن الإمام شرف الدين، ثم تفقه على مذهب الحنفية في الفروع. وفي الأصول على مذهب الأشعرية، وأعتقه سيدُه، وصنَّف كتاباً في التصوُّف، وإباحة السماع، وكان أولاً من عبيد الإمام شرف الدين وممن أدرك أيامَه ومدتَه. ومات بحصن مَبْيَن حجة، وجرت بينه وبين محمد بن عبد الله بن الإمام قصائد في ذلك.

حوادث سنة ١٠٠٩هـ

فيها جمع الباشا حسن جميع الجيوش الجرَّارة لاستفتاح شهارة، وجعل قائدهم الأمير عبد الله المعافَى وأولاده، فمرَّ ببلاد غَشْم بني صريم فأخربها، ودخل ظليمة، وأخرب حبوراً، وتقدم إلى نجد بني حمزة وأقام الحصار على شهارة قدر (سنة وثلاثة أشهر) حتَّى نفد ما فيها من الطعام وغيره.

واضطر محمد بن الإمام القاسم وأهل شهارة إلى المصالحة على يد أمراء كوكبان على أن ابن الإمام وخاصته ينتقلون إلى كوكبان: وبقية أهل شهارة ينتقلون إلى حيث يريدون.

وكان الإمام القاسم قد اضطر للخروج من شهارة وولداه الحسنان والفقيه علي بن محمد الشهاري والشيخ علي بن وهَّان العذري إلى برط.

من رسالة أميرة المداح السعودية:

وقد لخصت الكاتبة القديرة (أميرة علي المداح) السعودية، في رسالتها الجامعية (العثمانيون والإمام القاسم) هذه الحوادث أحسن تلخيص من سيرة الجرموزي واللآلئ المضيئة وغيرهما. فقالت: إن العثمانيين أرسلوا على الإمام بشهارة (سنة ١٠٠٩هـ) الحملة تلو الحملة، وحاصروها من (٣ شوال) وجعلوا عليها الحراس من العثمانيين والعرب، فقائد العثمانيين ذو الفقار والعرب عبدالله بن يحيى المعافَى بعد أن والاه الأهنوم إلا شهارتين وجماعة من مشائخ الأهنوم انحازوا إلى الإمام، وجعل أميراً من العثمانيين يسمى رمضان فيما بين شهارة ونجد بني حمزة في عسكر كثير، ووجه الأمير ذو الفقار إلى جميمة شرق شهارة، ورتب جميع جوانب شهارة لكي يظفروا بالإمام، لكن دون طائل. خلال ذلك وقعت عدة وقعات منها وقعة (المحافر) (سنة ١٠١٠هـ سنة ١٦٠٢م). فقد جهَّز ابن المعاف جيشاً في مكان يسمى المحافر - عبارة عن أكمة- وبذل الأموال الطائلةَ للعسكر ليثبتوا، وعمروا أربعين موضعاً، وجلبوا أهل الأهنوم للعمارة وجلبوا الأخشاب والأبواب من كل مكان. ولما استقروا في المكان خرجت عليهم جماعةٌ من شهارة وأصحاب الإمام نحو مائة نفر لتخريب المكان، ولكنهم لم يستطيعوا لقوة العثمانيين، ورغم ذلك فإنهم حاربوهم يوماً كاملاً، وكان سلاحهم الحجارة من فوق

المكان حتى انتهت المعركة بقتل رئيسهم الآغا محمد، فتركوا المكان وما به من خيام نحو تسع خيام أخذها أصحاب الإمام ونصبوها في شهارة عند الإمام في نفس (سنة ١٠١٠هـ سنة ١٦٠٢م)، وعمل ذو الفقار على قطع طرق الاتصال بين شهارة الفيش وشهارة الأمير، ونصب مترساً مرتفعاً وحصَّنه، فلما علم الإمام بذلك اجتمع مع أهل الشهارتين وطلب منهم الاستعداد للقتال وأن يهَبوا له أعمارَهم ذلك اليوم، فكان له ما أراد واستعدوا لتخريب المترس هذا.

فنزل الإمام معهم حتى ركزهم بالقرب من حصن المنصورة. فلما أكملوا التعبئة كبروا والتقى الفريقان فرماهم العثمانيون بالبنادق واختلط الرجال ودخان البنادق وشعاع النيران حتى صار الضوء كالشمس وخسفت القمر فأظلم المكان، ورجع أصحاب الإمام بعد أن هزموا العثمانيين وأخربوا المترس، ولم تكن خسائرُهم كبيرةً.

[نهاية النهضة الأولى للإمام القاسم]

استمرت الحروب المتتالية على شهارة طول مدة الحصار، فكان بعض أصحاب الإمام ينزلون على بعض مواقع العثمانيين فيأخذون ما فيها ويقتلون من يتعرض لهم، وكانت الحرب سجالاً.

ونظراً لطول مدة الحصار وقلة المؤن في شهارة اختفى الإمام في كهف بالقرب من المنصورة بشهارة، وكان الحاج أحمد بن علي بن دغيش الغشمي يرسل السُعاةَ سراً في البلاد الخاضعة للإمام ليجمع المؤنَ والزاد للإمام ويعطيها للحاج سالم الحكمي والحاج محمد بن زياد - وهم من بلد قريب من شهارة الفيش - ليصلوا بهذه المؤن للإمام لمعرفتهم بالطرق. وكان الإمام ينزل إليهم ليأخذ ما معهم بعد التأكد منهم.

ولما طالت مدة الحصار وعانت شهارة من قلة المؤن أكثر فأكثر يَئِسَ الإمامُ من التفريج على شهارة فوجد أن الحل الوحيد هو خروجُه منها ليسهُل رفعُ الحصار عنها ودخول المؤن لأهلها. وبعد أن شاوَر أصحابَه في كيفية الخروج، واجتَمع رأيُهم خَرَجَ الإمامُ في يوم (٣ شوال سنة ١٠١٠هـ سنة ١٦٠٢م)، وفرح أصحابه بذلك، وصحب معه الفقيه علي الشهاري والرئيس علي بن وهَّان العذري وترك أبناءَه محمداً والحسنَ

والحسينَ وعلياً وأحمدَ وترك خطاباً عند الشيخ إبراهيم بن المهدي الجحَّافي ليجيب عن مطالب أهل شهارة وما يحتاجون إليه.

وجد الإمامُ وأصحابُه الكثيرَ من المشاق في الخروج من شهارة إلى جهات برط لشدة الحراسة على شهارة من قِبَل العثمانيين وصعوبة الهبوط في الليل لعسرها وطول مساحتها وعدم معرفة الطرق ليلاً إذ كانوا يسيرون ليلاً ويختفون نهاراً. فلما وصلوا بلاد بني سفيان وبها أمير من العثمانيين اختبأوا في مغارة عظيمة. وكان هناك شيخان من نهم هما الشيخ سريع والشيخ سعيد عَملا على إخفاء الإمام في تلك المغارة وما جاءَ إليها أحدٌ إلاَّ صرَفاه، وكان العثمانيون كلما اختفى الإمامُ عن أعيُنهم شدَّدوا في الحراسة، فكانوا يُخرجون الخيلَ تطوف حول الأماكن لتستطلع أخبار الإمام.

ولما جاء الليلُ خرجوا إلى البَطَنة فسمعوا صوتَ الخيل فاختفوا حيث أمضَوا ليلتَهم. وكان نَعْلُ الإمام قد سقَط فقطع الطريقَ وهو حافي القدمين فشقَّ عليه المشي حتى أنه قطع من ثيابه على أقدامه وأكمل سيره في الليلة الثانية حتَّى وصلوا حُوثَ وطلعوا الجبلَ الأسودَ من بلاد سفيانَ. وأشعلوا النار فوق الجبل لتدل من في شهارة أنهم وصلوا بأمان ففرح أهل شهارة بسلامة وصول الإمام. وفرح ولده محمد وأظهر البُشرَى. ثم ارتحل الإمامُ إلى برَط (برَط جبل متين واسع الأطراف في رأسه أودية زراعية وآبار جوفية يُزرَع فيه العنب ومن الشمال يشرف على نجران) ولما وصل هناك احتفر بئراً وبَنَى مسجداً جعله مقراً لدعوته وسمَّى الموضع (الهجرة) وهو قريب من ذي محمد بطن من بطون برط. والتفَّ حولَه بعضُ أتباعه من العلماء والفقهاء وقصده مريدوه من كل أنحاء البلاد لتلقي تعاليمه أو لتسليمه الأموالَ والنذُورَ التي يتبرعُ بها أتباعُه.

بقي الإمامُ في برط بعضَ الوقت بعيداً عن متناوَل العثمانيين حتى أُتيحت له الفرصةُ لإعلان الحرب ثانيةً. غيرَ أنَّ إقامتَه هناك لم تكن آمنة تماماً. فقد تبرَّم بعضُ أهالي برَط من إقامته بينهم خوفاً من بطش العثمانيين بهم إذا امتدَّت أيديْهم إلى بلادهم، كما لم تكن إقامتُه آمنةً كذلك؛ لأن حاكمَ صعدةَ المسمى (قَرَا جُمْعَة) وصل إلى الهجرة التي بناها الإمام مما اضطر الإمام إلى الخروج منها في القفار البعيدة. ولما وصل العثمانيون خربوا الهجرةَ وهدموا المسجد، واتَّجهوا إلى جهات برط للقبض على الإمام لكن لم يتم

لهم ذلك فهم يبذلون الأموال الكثيرة للقبض عليه وجعلوه همَّهم وموضعَ قصدهم لظنهم أنهم إذا تمكّنوا منه أطفأت نارُ الفتنة. وقد بعثوا الجواسيسَ وأكثروا من الجند للبحث عنه؛ لما ذاقوه من مرارة حربه منذُ ظهورِ دعوته، ولما عرفوا عنه من الهمَّة والصبر وإقبالِ الرعية إليه.

وقد حاول الإمام الارتحالَ إلى نجرانَ في الشَمال أثناءَ وجوده في برط بعد أن والاه بعضُ أهلها، لكن عندَ وصوله إليها حدثَت حروبٌ استُشهد فيها بعضُ أصحابه؛ لأن أهلَها من الباطنية. فلم يستقر بها لخوفه من خُبث أهلها ومُعارضَتِهم للأئمة فعاد إلى جهات برط ثانيةً.

خرج الإمامُ من شُهارةَ كما ذكرنا وترك أمر الدفاعِ عن الحصن لابنه محمدٍ الذي واصلَ الحربَ والصبرَ في وجه العثمانيين. لكنَّ الإمامَ أثناءَ وجوده في برط عَمِلَ على إخراج أولاده علي والحسَنِ والحسين من شُهارةَ. فقد ارتدَى بعضُ أصحابه ملابسَ الحطَّابين ليحتالوا على حُرَّاس العثمانيين ويستطيعوا دخولَ شهارة وإخراجَ أولادِ الإمام. وبالفعل تم لهم ذلك. وقد حاولوا إخراجَ ابنَيْه أحمدَ ومحمد في المرةِ الثانية لكنَّ محمداً أبَى ذلك، وقال: (لقد وهَبتُ نفسي لله سبحانه ولمن في شهارةَ المحروسة بالله مع المسلمين والعلماءِ والمستضعفين. وأن الإمامَ لم يأمرني بذلك وفي بقائي سلامةٌ لمن في شُهارة).

لما عَلِمَ العُثمانيون بخروج الإمامِ وأولاده من شهارة اضطربت أحوالُهم وهاجوا وصبوا غضبَهم على القبائل. وأخذوا منهم الرهائنَ وهدَموا بيوتَهم وخاصةً قبائلَ حاشد وبكيل. وأما أهلُ شهارة فقد صبروا بعدَ خروجِ الإمام وخاضوا عِدةَ حروبٍ كاد يَذهبُ فيها ابنُ الإمام لكنَّ العثمانيين وأعوانَهم من آل شرفِ الدين كانوا ما زالوا محاصرين لشُهارةَ. وقلَّتِ المؤن أكثرَ وأكثرَ. وأهلُ شهارة يعانون من التعب، فاضطرَّ محمد بن الإمام إلى الموافقة على تسليم نفسه للعثمانيين. فأرسلَ الفقيهَ صلاحَ بنَ عبدِ الله الشظبيَّ إلى ابن المعافَى بخطاب. فما كان من ابن المعافى إلا أن أرسلَ يستدعيه لتمام تسليم شُهارةَ إلى أيدي أحمد بن محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان. وكان هو من جملة المحاصرين لشُهارةَ. وشرطوا أن تخرج القوَّاتُ الإمامية من الحِصن بأمانٍ ومعها أسلحتُها. وأن يذهبَ الجنودُ إلى حيثُ يشاءون.

وهكذا تمَّ تسليمُ الحصنِ للعثمانيين على هذه الشروطِ في (أول شهر محرم ١٠١١هـ سنة ١٦٠٢م)، وإن كان قد ذكر في بعض المخطوطات أن خروج ولد الإمام في (٢٧ ذي الحجة سنة ١٠١٠هـ)، وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ التأريخين متقاربان. فيكون بذلك حِصارُ شهارةَ حتى خرج الإمامُ منها أحدَ عشرَ شهراً وسبعةً وعشرين يوماً، ثم حَفِظها محمدُ بن الإمام سنةً كاملةً. وقد وافقَ العثمانيون على هذه الشروطِ خوفاً من انتقام الإمام رغمَ ضعفِ قوَّتهِ حينذاك وحتى لا يثيروا الأهالي ضدَّهم إذا قتلوا محمدَ بن الإمام أو نكَّلوا به.

بذلك انتهت النهضةُ الأولى من دعوة الإمام القاسم والتي دامت خمسَ سنوات، استطاع الإمامُ خِلالَها أن يبسُط سيطرتَه على أغلب الأقاليم الشمالية وحصونها، ثم عاد فخسر كلَّ هذه الممتلكات ولجأ إلى برط. واستعمل العثمانيون القسوةَ البالغةَ في مناهضة الإمام، فقد طاردوا رُسُلَه في البلاد ونكَّلوا بهم وجعلوهم عِبرةً لغيرهم وقتلوا عمَّه عامراً، كما سبقت الإشارةُ إلى ذلك، واشتدوا في معاملة أتباعِه وجيوشِه عندما بدأت سيطرتُه في الانكماش. فقد أخذوا ينكّلون بالأسرَى ويقتلون بعضَهم ويأخذون من بين قبائلهم الرهائن الكثيرة. وقد آتت هذه السياسةُ أُكلَها في مناهضة الإمام حيثُ تقاعست بعضُ القبائلِ عن مناصرته، عندما قررَّ إعلان الحرب من جديد على العثمانيين من برط، وذلك كما فعلت قبائلُ وادعةَ الشام فقد رفضت الاستجابةَ لدعوته بل واستعدت لمحاربته، وذلك رغم أن هذه القبائلَ كانت من أهل السبقِ والمحبة له.

هذا بالإضافةِ إلى تعاوُنِ أمراء آل شرف الدين وغيرهم من الأمراء الزيديين الموالين للعثمانيين. هذا التعاون القائم على المصلحة. ومع ذلك فإنَّ الإمام استعد من جديد ليخوض غُمارَ الدَّعوة والحرب من برط. وبدأت بذلك النهضةُ الثانية.

انتهى ما نقَله أحمد بن المؤلف زبارة من كلام أميرة التاريخ الواضِح، وقد لَذَّ لي نقلُه وسأنقل منه في أبحاثه، فقد كفتنا مؤنةَ التلخيص الأمين العصري كفاها الله مهمات الدارين آمين. وعندَ نشرِ هذا (خلاصةِ المتون) في أجزائه نحو العشرة ونزهة النظر الجديد أربعة أجزاء في الأنساب ومشجراتها في أجزاء سأهدي منها إلى الأميرة علي المداح

تقديراً لعلمها وتعبها وأمانتها وإحاطتها بتاريخ اليمن وكتبه.

حوادث سنة ١٠١٠هـ

في (آخر سنة ١٠١٠هـ) كان خروج محمد بن الإمام ومن يلوذ به من شهارة إلى كوكبان، فلم يزل فيه إلى أن تم الصلح بين الإمام القاسم والباشا جعفر (سنة ١٠١٦هـ)، وفي خلال الست السنوات التفت إلى الدرس والتدريس مع آل شرف الدين وخاصته مجلّلاً محترماً وبعد الصلح عاد ومعه خاصته إلى أبيه الإمام كما سيأتي.

وفيات سنة ١٠١٠هـ

لطف الله بن المطهر

في (صفر سنة ١٠١٠هـ) توفي مسجوناً بالقسطنطينية، السيد الأمير لطفُ الله بن المطهر بن الإمام شرف الدين ولم يخلف هناك إلاّ ولداً اسمُه محمدٌ على جاريةٍ رومية. وفي الجزء الذي قبل هذا ذكرُ أسره وإرساله إلى استنبول ومكاتبته المؤثرة إلى زوجته وأهله باليمن وبعض أحواله وغدر الأتراك به وبذويه في (سنة ٩٩٤هـ).

مهدي بن أحمد الرُّجُمي

في (سنة ١٠١٠هـ) توفي بالأهجر القاضي العلامة عمدة أهل زمانه مهدي بن أحمد بن داود الرجُمي، وهو أحد العلماء المشهورين، وهو من مشائخ الإمام القاسم. قال في الطبقات: وجاهد مع الإمام القاسم ثم اعتقله الأمير أحمدُ بن محمد بنِ شمس الدين الكوكباني، وبقي مسجوناً حتى مات، وقبره بموضع يُسمَّى حصن صالح من جهة الأهجر بكوكبان.

سعيد بن داود الآنسي

في (١٥ جمادى الآخرة سنة ١٠١٠هـ)، توفي الفقيه العلامة النحوي الزاهد المقري سعيد بن داود اليمني الآنسي، وكان منقطعاً في مسجد النور بصعدة وأشعاره كثيرة منها تخميس لامية ابن بهران:

الجِدُّ في الْجِدِّ والحرمانُ في الكســـل　　فانصبْ تُصبْ عن قريبٍ غايةَ الأملِ

وله قصيدة جواباً على مُتعصّب منها:

قـــال الخبيـــثُ تعصباً وجهـــالة　　لمقالـــــةٍ عدليـــةٍ مستطرفـــــة

عبد العزيز بن محمد بهران

وفي (رجب سنة ١٠١٠هـــ) تُوفِّيَ بصعدة الشيخ الحافظ عبد العزيز بـــن الشـــيخ الحافظ محمد بن يحيى بهران، وكان صدراً في العلماء الأعلام وشـــيخَ أهـــلِ عصـــره في الحديث وجميع علوم الاجتهاد، قرأ على والده وعلى العلامة الضمدي، وأجاز للإمـــام القاسم، وعنه أخذ السيد داود بن الهادي المؤيدي والإمامُ القاسم. قـــال في الطبقـــات: ووفاته عن (٧٨ سنة) وإن مولده (سنة ٩٤٨هـــ) فعلى هذا وفاته عن (٦٢ سنة) فقط، وفي خلاصة الأثر إن وفاته (سنة ١٠١٦هـــ).

لم يتفق في سنة (١٠١١هـــ) من الحوادث ما يوجب ذكره.

حوادث سنة ١٠١٢هـ

فيها توفي السلطان محمد خان بن مراد وقام بعده ولده السلطان أحمد.

وفيها وصل طلاب من السلطان للباشا حسن ليتولى مصر، وكانت مدته في اليمن قد طالت (٢٥ سنة من سنة ٩٨٨هـــ إلى سنة ١٠١٣هـــ)، وهيبته عظمت وقوته ظهرت حتى بلغت (سناجقُه) أربعين سنجقاً.

ومن مآثره قبة البكيرية، نسبة إلى متولي بنائها، وهو بكير آغا، ولما مات أراد الباشا حسن دفنه فيها، وكان يحبه، فأشار عليه بعض أصحابه أن يتركها مسجداً، ويدفن بكيراً خارجَها، فبنى عليه القبة الصغيرة إلى جانب الكبيرة. وقبة البكيرية من أعجب ما بنـــاه الأتراك في اليمن. ومن مآثر الباشا حسن عمارةُ حمَّام الميدان بصنعاء، ووقفه على قبـــة البكيرية، وتجديدُ عمارة مسجد فروة بن مسيك.

وذكر الفقيه عبدالله بن صلاح داعرِ في تاريخه الذي وضعه للباشا جعفر أن السلطان جعل للباشا حسن ولاية مصر بعد اليمن، ولما توجه للعزم في أول (سنة ١٠١٣هــــــ) استخلف في اليمن (الكيخيا سنان) وجعله باشا.

وبعد استقرار الإمام في برط سعَى الأميرُ أحمد بن محمد بن شمس الدين بالصلح، فأمرَ السيد العلامةَ الحسنَ بن شرف الدين الكحلاني من أصحاب الإمام، وكان معتقلاً بكوكبان بعد تسلُّمه من ثلا كما سبق، فقال له: اكتب إلى الإمام القاسم بتسكين الفتنة وتُجعل له قطعةُ بلادٍ أو كفايتُه هو وأولاده، وذلك عن مواطاة بينه وبين الباشا سنان.

فكتب السيدُ الحسنُ إلى الإمام، وأنه يسكن حيث أحَبَّ من الهجَر ويُجرَى له ما يريد، فكان جواب الإمام إلى السيد الحسن بعدم الإسعاد إلى ذلك إلاَّ أن يكون على جهة الصلح مدةً يراها بعد أن أثنى على الأمير أحمد بن محمد في كتاب طويل منه قوله: وتحققنا ما ذكرتم أبقاكم الله تعالى، ولم تذكروا في كتابكم تحقيق أحوالكم وتحقيق أحوال أولادنا السادة مع أنه نُقِل إلينا حُسنُ صنيع الأمير صفي الدين أحمد بن محمد بن شمس الدين بن شرف الدين من فعل المعروف، وقد جاء شكرُه على كل لسان وورد به الرجال والركبان، فالله تعالى يحسنُ إليه ويمده بألطافه الخفية ويأخذ بناصيته إلى الخير ويدفع عنه كل مكروه وضير، فتلك شنشنة أخزمية بل شيمة هاشمية توارثها آباؤه من قبلُ وما أحقه بقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الولدان فينا على ما كان عوَّده أبوه

وإن ذلك عند الله لا يضيع إن شاء الله ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[الشورى/٢٣] وقال -صلى عليه وآله وسلم-: ((من كفارات الذُنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس على المكروب))، وأنا أقول كما قال بعض أئمتنا عليهم السلام شعراً:

فلتشكروه فإني اليوم شاكرُه
سراً وجهراً وهذا بعض ما يجب

إلى قوله في آخر الجواب: وأما ما ذكرتم من إقطاع بلاد فإني أحق بها بلى أن يتركوا شهارة وبلادها ووادعة وبلاد خولان وجبل رازح مع برط ويُعقد الصلح مدةً معروفة طولُها وقصرها إليهم، فإن ذلك مشروع، فإن يرضوا به فقد رضينا ولا ننقض إن شاء الله عهداً، قال تعال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[الإسراء:٣٤] والأمير صفي الدين يضمن لنا وعلينا. إلى آخر كتابه. فلما وصل لم يوافق قصدهم، فلم يتم شيء.

وفيات سنة ١٠١٢هـ

عبد القادر حمزة

في (جمادى الآخرة سنة ١٠١٢هـ) توفي القاضي العلامة الحافظ عبد القادر بن حمزة التهامي حافظ الفروع العالم الزاهد. وهو من أنصار الإمام الحسن بن علي بن داود والإمام القاسم.

إبراهيم بن علي بن إبراهيم

وفيها توفي بحوث السيد العالم الفاضل إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي بن صلاح بن أحمد بن الإمام محمد بن جعفر القاسمي المعروف بالعالم الشرفي.

حوادث سنة ١٠١٣هـ

فيها جواب الإمام القاسم على السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني بإيعاز الأمير أحمد للصلح، ولم يَتِمّ، وقد ذكرناه في (سنة ١٠١٢هـ). فيها كانت أهل الحيمة لا تزال على طاعة الإمام. فتوجه الباشا سنان ولقيه الأمير أحمد بن محمد، ودخلوا الحيمة عنوةً، وقُتِل من أهلها عدة، وامتدت أيدي العساكر في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وأسروا كثيراً من النساء من المركز عر الحيمة، فتشفَّع فيهن الأمير أحمد فأُرجِع أكثرُهن، وذهب البعض منهن مع العسكر قسراً.

ثم توجه سنان إلى حراز، فتسلم حصن مسار بعد طول الحصار، ثم لم يبق للأتراك مخالف، فأرسلوا إلى أمير صعدة (قَرَى جُمْعة) أن يتقدم على الإمام إلى برط، كما سبق في المنقول من الرسالة الجامعية للكاتبة القديرة (الأميرة علي المداح) ثم عدتُ إلى رسالتها، فوجدتها فيما كتبته تغني عن غيرها بتحليلها الصحيح الأمين الذكي.

[بداية النهضة الثانية]

قالت في الفصل الثاني:

ظل الإمام القاسم في برط لمدة سنتين يجمع الأعوان حوله ويتأهب لبدء الحرب على

العثمانيين من جديد. ومن هنا تبدأ النهضةُ الثانيةُ من دعوته لكن أهل برط كانوا يكرهون بقاءَه في بلادهم خوفاً من سنان الذي أصبح والياً على اليمن بدلاً من حسن باشا في (سنة ١٠١٣هـ سنة ١٦٠٥م).

وَجَد سنان أنه من الأفضل بعد هذه الحرب المضنية بالإضافة إلى تألُّب الأهالي عليه أنه يعقد صلحاً مع الإمام، ومن ثمة اتفق مع الأمير أحمد إلى آخر ما سبق، وقالت: إنَّ سناناً والأميرَ أحمدَ تواطئا لكي يُغرُوا الإمام بإقطاعه أرضاً حتى يترك هذا الأمر ظناً منهم أن هدفَه من وراء تلك الدعوة والحروب المميتة هو السيادة والحكم، لكن الإمام رفض؛ لأن ذلك لم يكن هدفَه من وراء هذه الحروب.

فرفض سنانٌ شروطَ الإمام؛ لأنه كان مراده أن يمنح الإمام أرضاً باسم إمارة ويُخضعه كباقي أمراء آل شرف الدين، ولكن الإمام لم يرض بذلك، فما كان من سنان إلا أن أرسل للإمام مرة أخرى بواسطة أحمد بن محمد بن شمس الدين يهدده بأن يقبل ذلك ويتخلى عن هذا الأمر وإلاَّ فسوف يعذِّب أولاده ويقتلهم. فلم يكن من الإمام إلا أن رد عليه بقوله (أمَّا من عندكم من المأسورين، فافعلوا بهم ما بدالكم، وأقسمُ بالله لأبلغنَّ في حربكم ونكالكم كلَّ مبلغ ولأروغنَّ لكم روَغانَ الثعلب ولأثبَنَّ عليكم وثوبَ الأسَد).

فقد وقع هذا الخطابُ في قلوب العثمانيين موقعاً عظيماً هدَّ من قواعدهم وأيقنوا أن الإمام ليس بالشيء السهل الذي يستهان به أو تُغريه مباهجُ الحياة الدنيا، فقد قدَّم أولادَه فداءَ دعوته وتحقيقَ هدفِه وغايته.

وهنا نلاحظ أن الإمام هو الذي أملَى شروطَ الصلح على سنان مما يظهر لنا مدَى تخوُّف العثمانيين منه ومدى ما وصل إليه من مكانة خلال خمس سنوات خاض فيها غُمَارَ الحرب. ورغم ما كان الإمام يعانيه من شدة من أهل البلاد، ومن التنقل من مكان لآخر، لم يقبل هذا العرضَ المغري، ففي أيام بقائه في برط ومعه أولادُه وأصغرُهم الحسينُ كانوا يعانون من شدة الجوع حتى أن الإمام كان يبكي وولده الحسين قد سقط من شدة الجوع، فلو كان هدفُه السيادةَ أو الإمارةَ لقبل بعرض سنان فوراً.

وانتقاماً لرفض الإمام عرْضَ سنان باشا توجَّه سنان إلى الحيمة، وكان أهل الحيمة قد

طلبوا من الفقيه علي بن يوسف الحماطي التقدمَ إلى بلادهم والجهادَ معهم فوصل إليهم، واستخلف على مسار بعضَ أصحابه.

فلما وصل الحماطيُّ إلى موضع يُسمَّى (حد بني النِّمري) بقي به، وتوجه إليه من صنعاء النقيب سعدان بن عبيد أمير كبير في عسكر العثمانيين، وأرسل ابن شمس الدين بعض أمرائه في جمع كبير من الشاحذية ليدخلوا الخيمة من أسفلها. وكل هذه الجموع التقت بالحماطي ووقع القتال، فلما رأى أهل الخيمة تلك الجموع انكسرت عزائمهم وخافوا على حريمهم وبيوقمم ورجع الحماطي مسار وقتل العثمانيون أكثر من ثمانية وعشرين رجلاً وتشفع الأمير أحمد للنساء عند النقيب سعدان، وبعد أن أعطوه العهود والمواثيق على سلامة من في الحصن من الرجال والنساء والأطفال، وكانوا زهاءَ سبعمائة شخص ولكن النقيب سعدان نكث العهد وأباح من في الحصن للعثمانيين، فأسروا النساء والأطفال وهرب الرجال، ثم سعَى ابن شمس الدين في إطلاق بعض المأسورين، واختُير منهم أربعون شخصاً كرهائن، كل رهينة امرأة وطفل وطفلة وأطلق الباقون. هذه المعاملة القاسية التي عاملوا بها أهل البلاد زادت من كراهية أهل اليمن لحكم العثمانيين، فكانوا ينضمون إلى أي حركة مضادة، لهذا الحكم، لكن هدف العثمانيين كان الإرهابَ لكي لا ينضموا إلى الإمام القاسم. وقد آتت هذه السياسةُ أكلَها في أول الأمر، ولكن بعد انتهاء المعارك كانوا ما يلبثون أن يرجعوا للانضمام إلى الإمام وتشجيع دعوته والنصرة له للتخلص من الحكم العثماني، وقد اتخذ الإمامُ الجانبَ الديني، والاختلافَ المذهبي بين الأهالي والعثمانيين سبباً لجذب هذه القبائل إليه مرة ثانيةً. ثم توجه سنان إلى حراز لحصار حصن مسار لوجود الحماطي به، وبعد حصار دام ثلاثة أعوام وأربعة أشهر تسلّم سنانٌ الحصنَ.

ووجَّه سنانٌ أميرَ صعدة (قَرَى جمعة) لحرب الإمام إلى برط، وكان الإمام قد تحوَّل، فلم يجدوه فرجعوا إلى صعدة مدة، ثم عادوا إلى برط، وشدة خوف أهل برط تغيروا على الإمام؛ لأن العثمانيين كانوا يأخذون الرهائن منهم ويكتبونهم في ديوان عساكرهم ويوجهونهم إلى اليمن الأسفل مع أمير لهم يُسمَّى أحمدَ الأخرم. وكذلك كانوا يفعلون مع باقي قبائل حاشد وبكيل؛ لأن الأمير سعدان العبدلي، قال لسنان: (كلُ من كان في دفتر الإمام فأنا زعيم بإدخاله في دفترك) وقرب الجندُ العثماني من محل الإمام، لكن

النزاع بينهم دب فتفرقت كلمتهم وعادوا صعدة.

ورأى الإمام أن الأرجح خروجُه إلى بلاد سفيان، فطلع الجبل الأسود أعلى من عيان لكن العثمانيين كانوا حريصين كل الحرص على توزيع الجنود على المحطات المختلفة للانقضاض على الإمام خاصة بعد تفرق أهل البلاد عنه لخوفهم من العثمانيين ولكثرة هزائمهم في هذه الفترة، ووضعوا في بلاد حاشد وبكيل فرقةً من الجند، وكذلك في خمر، والصرارة، وعمران، وذيبين، ووادعة، والهجر، والسودة، وذيبان. وتفرَّق العلماءُ والفضلاءُ في أطراف البلاد في غايةٍ من التخفي، فلما وصل الإمام إلى عيان رفض أهلُه نصرتَه، فخرج إلى الشرف ثم وصل إلى خيار بني صُريم. يئس الإمام لتفرُّق الأهالي عنه ومنعه من دخول بلادهم لتخوُّفهم من العثمانيين. وتوالت على الإمام الهزائم، وتربَّص العثمانيون به من كل الجهات، وشدَّدوا في التجسس عليه، وأرسلوا ضدَّه الحمَلات من صعدة، وكوكبان وغيرهما، واشتد الأمر على الإمام. وكان يعتقد أن ما أصابه سببُه عدمُ الجهاد، وعدم الاستعداد لمنابذة العثمانيين، وبقاؤُه في برط مدةً دون حرب العثمانيين. لكن ما الحيلةُ، وقد تفرقت عنه جميعُ القبائل والعلماء؟ ففكَّر في أن يرحَل إلى البصرة (سنة ١٠١٣هـ سنة ١٦٠٦م)، حتى يأتيَه الفرجُ والنصرُ من الله. ولا ندري لماذا وقع اختيارُه على البصرة بالذات؟ ولكنا نرجّح أن يكون هذا الاختيارُ راجعاً إلى أن العراقَ هو مهدُ الشيعةِ حيث أقام به الخليفةُ علي بن أبي طالب مدةَ خلافته، وحيث كثرت زياراتُ مؤَسسِ المذهب الزيدي الإمام زيد إلى العراق. وقد يكون تفكيرُه هداه إلى الذهاب للعراق لطلب العون من الدولة الفارسية الشيعية، حيث كان النزاع قائماً ومستمراً بين الشيعةِ في العراق والدولة العثمانية السنية للسيطرة على العراق، وكانت كل منهما تسعَى لفرض زعامتها على العالَم الإسلامي حينذاك. ونحن نعرفُ تأريخياً أنه من ضمن الأسباب غير المباشرة لدخول العثمانيين اليمن هو مهاجمةُ الشيعة الصفويين من الجنوب حين عجزوا عن حسم الموقف معهم في العراق، ومن محاربتهم من الشمال حيثُ الجليد وصعوبة الجبال. وبعد خروج الإمام من برط إلى بلاد خيار بني صريم ذهبَ إلى شاطب، ومنها إلى وادعة.

ولما وصل الإمام أطرافَ البلاد اضطربوا وخافوا العواقبَ لما قد أصابهم أيامَ استجابتهم له في أول الدعوة، ومن أسْرِ مشائخهم الذين لهم الرئاسة، وحبسهم في الدار

الحمراء بقصر صنعاءَ، وتنكيل العثمانيين بهم، ورغم أن أهل وادعة قد وعدوا الإمامَ بالنصر والقيام معه إلاَّ أنهم بعد وصوله إلى المصنعة رموه بالبنادق ومنعوه من دخول بلادهم، فأرسل الإمامُ الشيخَ عبدَ الله بن سعيد الطير ليُشعل النيران في بلده العفيرة، وهي أعلى من وادعةَ، وقد أعطى الإمامُ الشيخَ عبد الله الطيرَ نقوداً فضية ليُؤَلفَ بها قلوبَ أهل العفيرة، فتم له الأمرُ، وكانت تلك الوسيلة لتأليف قلوب القبائل التي كانت تعاني من الفقر وقلة المال بسبب الإنهيار الاقتصادي للبلاد في تلك الفترة وكثرة الضرائب والأموال المفروضة عليهم من قِبَل العثمانيين، فكان المالُ يغريهم للإنضمام إلى أي فريق.

لما رأى الإمام النيرانَ قال لأهل وادعة: (هؤلاء أهل العفيرة أقرب منكم إلى العدو وقد والونا) فكان ذلك من أسباب صلاحهم ونصرتهم للإمام. وكانت تلك طريقة (تكتيكية) من طُرق الإمام القاسم في جذب القبائل، فأجاب الإمامَ بعضُهم على خوف وخطر. وبعضهم امتنع عن إجابته لشدة الحذَر، واستجاب للإمام ما يقرب من الألف وبايعوه، وقد جمع الإمامُ أهلَ وادعة في قرية الصبيحات وتكلم فيهم وهدَّأ من روعهم، وقال: (إن كان لكم رهائن فأولادي وأصحابي أكثر رهائن في كوكبان وها أنا وأولادي بينكم - وأشار إلى أولاده الثلاثة - رهائنُ عندكم ولا فارقتُ وادعةَ إلاَّ منصوراً أو مقتولاً). فقام أهلُ وادعة وتشاوروا في الأمر، وتم الرأيُ على نصرة الإمام وعاهدوه على ذلك؛ وكان ذلك في شهر جمادى الثانية (سنة ١٠١٣هـ سنة ١٦٠٦م)، ثم كتب الإمامُ بعد ذلك إلى بني جُبَر، فأجابوه فوجَّه إليهم ولده الحسَنَ والسيد علي بن صلاح العُبَاليَّ. وكانت هذه أول مرة يخرج فيها الحسنُ وهو يومئذ ابنُ خمس عشرةَ سنةً.

ولما وصل إلى ذيبين، وبلغ سناناً بقاءُ الإمام في وادعةَ وجَّه الأمير عبدَالله بنَ المعافَى إلى خَمر، والأميرَ درويشاً إلى الصرارة، والأميرَ عبدَالله بن المطهر إلى بلاد عبد الرحيم والأميرَ أحمدَ الأخرمَ إلى ذيبين، فلما رأى الحسنُ بنُ القاسم تلك الجموعَ رجع إلى مرهبة مختفياً وبقي فيها عشرين يوماً، ثم رجع إلى وادعةَ عند والده، ودخل الأميرُ أحمدُ الأخرمُ ذيبين وخربها وأخذ ما فيها، فهربت قبائل بني جُبَر وتركوا بلادَهم خاليةً.

وأما ابن المعافَى فقصدَ وادعةَ فتلقَّاه الشيخُ عبدُالله بنُ سعيدٍ الطيرُ وقبائل وادعة

فهزموه أقبحَ عزيمةٍ وقُتِل من أصحابه عدةٌ وقطعت رؤوسهم، كان لهذه الوقعة أهمية عظيمةٌ في نفس الإمام، إذ بعدَ انتصار أصحابه فيها تقوَّت عزيمتُه وعدل عن فكرة الرحيل إلى البصرة وانضمَّ إليه بعض القبائل ونصروه.

كانت هذه الهزيمةُ قاطعةً لطمع العثمانيين، فلم يعودوا لمحاربة وادعة بعد ذلك، وكان عبدُ الرحيم قد أرسل إلى الإمام في برط يعتذر ويتوب عمَّا حدَث منه بعد نكثه العهدَ والتغرير بأصحاب الإمام. وإن مرادَه القيام مع الإمام ونصرته والنهوض بدعوته واحترام المواثيق والعهود. ومع هذا فقد تمهَّل عبد الرحيم في إعلان انضمامه إلى الإمام خوفاً من أن ينقلب عليه سنانٌ عند ما تستتب له الأمورُ نظراً لقوة العثمانيين وكثرة جنودهم وأموالهم وخيلهم بالنسبة لعبد الرحيم.

فلما بلغه قيام أهل وادعةَ مع الإمام وانتصارُ أصحابِ الإمام في ذيبين ووادعة تقوى في إعلان انضمامه إلى الإمام. وفرحت القبائل والإمام بذلك رغمَ ما كان يشتهر به عبدُ الرحيم من سوءِ الخلق، لكنَّ انضمامَه قوَّى من شوكة الإمام لما لعبد الرحيم من قوة وشدة، بالإضافة إلى أن الإمام يكون قد كسبَ أميراً زيدياً تابعاً لأعدائه العثمانيين؛ خاصةً وأن نفوذَ عبد الرحيم قد تقوَّى واتسع في البلاد أثناءَ انشغالِ العثمانيين بمناهضة الإمام في النهضة الأولى، فالعثمانيون كانوا يعتمدون عليه إلى حدٍ كبير، وكان سنان باشا معروفاً بأنه لا يرضى بوجود شخصية قوية إلى جواره.

وكانت الوحشةُ بين عبد الرحيم وسنان سببُها أن الشيخَ حسنَ بن عاطفٍ الأهنوميَّ كان في شهارة عندما تسلَّمها العثمانيُّون في النهضة الأولى. وذهب هذا إلى محمد بن عبد الرحمن، ثم إلى أخيه عبد الرحيم هرباً من سنان، لما كان بينهما من ضغائن فأمَّنه عبُد الرحيم عنده في حجةَ لكنَّ سِناناً أرسل في طلبه، فخاف عليه عبد الرحيم من سنان، فأرسل له سنانٌ عهداً أنه إذا وصل إليه سوف يعود سالماً فأرسلَه عبدُ الرحيم فقتله سنانٌ. فعظم ذلك على عبدِ الرحيم وتيقَّن من غدر سنانٍ به أو بغيره إذا تمكن منه، فأضمر عبد الرحيم في نفسه الخلاف.

ومما أشعلَ نارَ هذا الخلافِ والفتنة أكثرَ، أن الشيخ ناصراً البهيلةَ كان منحرفاً عن الباشا سنان فرفع إلى مسامعِ عبدِ الرحيم أقوالاً ملفقة ووشايات زادت من تلك

الوحشةِ. وقيل: إن سببَ الوحشة بين عبد الرحيم وسنان أنه بعدَ استيلاءِ عبدِ الرحيم على بلاد الشرف وحجة من الإمام في النهضة الأولى قد جعل العثمانيون إقليم الشرف وحجة له وكتبوا له عهداً بذلك، وكان للشرف مكانة عظيمة عند العثمانيين لما يتحصَّل لهم منه من أموالٍ طائلةٍ من الخراج، فخاف عبدُ الرحيم أن يترِعَ العثمانيون هذا الإقليمَ من يده، فهم لا تطِيب أَنفسهم بتركه، وأنه لا بد أن يأتيَ اليومُ الذي يقاتلونه من أجله ويخرجونه منه وذلك عظيم على نفسه، فهو لا يستطيع مقاومة العثمانيين لما لهم من رجال وخيل. وكان عبد الرحيم يعلم بمحبة الرعايا للإمام وميلهم إليه وإسراعهم إلى جانبه؛ لذلك لم يتردد في إعلان نُصرته للإمام وخلافه مع سنان.

لَمَّا علم سنانٌ بخروج عبد الرحيم عليه أظهر عدمَ الاهتمام، لكنَّه هدَّد قائلاً: (ما غيَّر عبد الرحيم إلاَّ على نفسه ولا أزال إلاَّ نعمتَه وسوفَ أملأها عليه خيلاً وأوسِعُ أصحابَه أسراً وقتلاً).

وسرعان ما تحول التقاربُ بين الإمام وعبد الرحيم إلى خطوات عمليَّة فقد أمر عبدُ الرحيم بالدعاء للإمام القاسم في الأقاليم التابعة له.

وفي مقابل ذلك طالب الإمامُ أتباعَه المنتشرين في تلك الأقاليم بالوقوف إلى جانب عبد الرحيم الذي كان يُمثِّل سلطة العثمانية في أقاليمه، فتشجع هؤلاء على الإعلان عن أنفسهم دونَ خوفٍ من العثمانيين أو دون خوف من عبد الرحيم نفسه - وهو الذي كان يشتهر بالغِلظة والشدة - وتشجع الإمام بدورِه كذلك على إعلان الحربَ ثانيةً على العثمانيين والانتقال إلى منطقة الظاهر التي تقع إلى الجنوب من صعدة لإثارة قبائلها ضد العثمانيين وذلك بعد أن ضاقت به بلادُ برط وضاق به الحالُ من القبائل وفكَّر في الرحيل إلى البصرة، كما سبق، فكان انضمامُ عبدِ الرحيم وأصحابِه هو الذي أحدث هذا التغييرَ في الموقف.

وأرسل عبدُ الرحيم أخاه أحمدَ بنَ عبد الرحمن إلى بلاد قراضة ولاعة فاستفتحها وجرد عسكراً إلى جزع وبلاد عفار وجهَّز أخاه مطهر بن عبد الرحمن إلى ظليمة والأهنوم، وما والاها فاستفتحها. وبعد أن انتهى أحمد بن عبد الرحمن من فتح قراضة ولاعة تقدم إلى بلاد كوكبان فاستفتح أكثرها. فخرج الأمير محمد بن أحمد إلى الطويلة

وجهز النقيبَ سنبلاً بعسكر كوكبان إلى بني الذوّاد وانضم إليهم الأميرُ عبد الله بن المطهر بجماعة من العثمانيين، فجهز إليهم عبد الرحيم طائفة من عسكره، وانضمت إليهم قبائلُ تلك الجهة فحاصروهم حتى سلّموا وخرجوا إليهم، ولما وصلوا إلى عبد الرحيم أخذ ما معهم من السلاح الكامل والعدة الوافرة وملأ بهم السجونَ وافتتح الحرب على العثمانيين من جميع الجهات.

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها عبد الرحيم وهو في جانب الإمام تشجع كثير من مشائخ القبائل ممن يسيطرون على قبائل وبلاد واسعة بالخروج على العثمانيين مثل: الشيخ علي بن فلاح صاحب قبيلة الحدا، كذلك الحماطي - صاحب آنس- لَّما علم بخروج الإمام من برط إلى وادعة جمع مشائخ الحيمة وعسكرها وطلع جبل تيس في جمع كبير، فوصل إلى رئيسهم فأطاع، وخرج الأمير أحمد محمد بن شمس الدين من كوكبان إلى الطويلة، ثم جهز عسكراً إلى الشاحذية وأمرهم بحرب من في شمسان من أصحاب الحماطي، فانهزم من في شمسان من أصحاب الحماطي، ودخل ابن شمس الدين شمسانَ والشاحذيَة، ثم ذهب الفقيهُ علي بن يوسف الحماطي ومن معه إلى الشاحذية لحرب أصحاب ابن شمس الدين، فلجأوا إلى شمسان وحوصروا فيه.

في ذلك الوقت وصلت نجدة من سنان إلى ابن شمس الدين حوالي ثلاثمائة مقاتل رئيسُهم الشريف صلاح الوزلي وضم إليهم ما أمكنه من القبائل لاستخلاص أصحابه في الشاحذية، فلما رأى الحماطي هذه الغارةَ تأخَّر إلى الحيمة وأخذ بذلك ابن شمس الدين جبل تيس من أصحاب الإمام، لم يستسلم الحماطي للهزيمة، بل رجع إلى الحيمة ليجمع الجنودَ والقبائل حولَه ويستعد للقاء ابنَ شمس الدين ثانيةً، فبقي في الحيمة خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى أصحاب ابن شمس الدين في شمسان، فوقعت الحرب بينهم، وكان النصر فيها للحماطي.

وفي اليوم الثاني أرسل بن شمس الدين من الطويلة بفرقة قاتل بها الحماطي فقتل من أصحابه اثنان وعاد بمن معه إلى الحيمة مرة ثانية دون أن يحصل على شيء، في نفس الوقت تجهز الهادي بن غوث الدين أحد قادة الإمام لقتال من في الأهجر، فانتصر عليهم واستقر في الأهجر ثلاثة أيام، ثم عاد إلى الحيمة هو ومن معه إلى الحماطي ليعاودوا القتالَ

على ابن شمس الدين من جديد.

وبعد شهر مالوا إلى الشاحذية، وكان في شمسان أصحاب ابن شمس الدين مع فرقة قدرها ألف، رئيسهم النقيب ياقوت والنقيب سنبل أشول والشريف صلاح الوزلي، ووقعت الحربُ فانهزم أصحاب ابن شمس الدين وقُتل النقيبُ ياقوتٌ وعشرةٌ من رجاله، بعد هذه الهزيمة خرج أصحابُ ابن شمس الدين لمقاتلة الحماطي والهادي بن غوث الدين في نواحي الأهجر ولكنهم عادوا منهزمين وقُتل النقيبُ سنبلٌ وسبعةَ عشرَ من رجاله.

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها الحماطي ورفع بها من شأن الإمام وأصحابه رجع الحماطي إلى الحيمة.

في نفس الوقت الذي كان أحمد بن عبد الرحمن قد استولى على حصن الجميمة بالقرب من كوكبان استولى عبدُ الرحيم على بلاد مسور وملك حصونها كلها وتقدمت عساكرُه إلى بيت عذاقة، فاستقرت فيه، وبقي أحمد بن عبد الرحمن محاصراً لحصن عُولي مدة سنة، ثم تسلمه بعد موت أحمد بن محمد بن شمس الدين في أول شهر ربيع (سنة ١٠١٥هـ سنة ١٦٠٨م)، كذلك استولَى مطهر بن عبد الرحمن على بلاد شظب وغربان ودخل مدينة السودة قهراً، وقتل جماعةً وحاصر حصن قرن الناعي وفيه حسين بن المعافَى حصاراً شديداً حتى أشرف على الهلاك لكن حدث خلاف بين مطهر وأخيه عبد الرحيم جعله يترك حصار السودة.

فخرج ابن المعافَى من السودة وفتح بلاد شظب وسَلِمَ هو وأولاده من الوقوع في يد عبد الرحيم فتقدم عبد الرحيم بعساكره إلى السودة واستدعَى أصحابَ الإمام منهم الفقيه علي بن محمد الشهاري، فتقدموا جميعاً إلى السودة وقصدوا ابن المعافَى الذي لاقَى هزيمةً منكرةً هو وأصحابُه واستولَى عبد الرحيم على السودة. بعد ذلك استطاع الإمام أن يمد نفوذه على بلاد الظاهر جميعها وبلاد ذيبان وبني علي وعيال عبد الله وبعض بلاد همْ القريبة من صنعاء و لم يبق في يد العثمانيين إلا الرَّجْوّ وهِزَم وما حولها. وكانت جنود العثمانيين في هذه الأماكن وأصحاب الإمام في أطراف البلاد ووقعت بين الطائفتين حروب كثيرة وبقي الأمر كذلك مدة، وصبرت القبائل الذين في جانب الإمام صبراً عظيماً حتى ملوا لما أصابهم من تخريب بيوتهم ووصل جنود العثمانيين إلى قرية مدر

وحاصروا أصحابَ الإمام فيها وانتهى أمرهم بأخذ تلك القرية وما حولها، فرجع أصحاب الإمام إلى الظاهر، واستولى العثمانيون على أكثر البلاد وظلت الحال على ذلك إلى (سنة ١٠١٦هـ سنة ١٦٠٩م).

أوضحنا أن الإمام استطاع أن يمد نفوذه على أكثر البلاد الشمالية بمساعدة عبد الرحيم وأصحابه مما أقلق سناناً وأرهبه، فاشتد غضبه على من في السجون من الرهائن والأسرَى من الرجال والنساء والصبيان، فضيق عليهم أشد التضييق حتى هلك أكثرهم.

في ذلك الوقت كانت شهارةُ في يد عبد الله بن المعافَى بعد أن خرج الإمام منها، فتركها له العثمانيون على أن يكون تابعاً لهم مع تعيين فرقة من الجيش عليها آغا من العثمانيين وشيخ من العرب، هو الشيخ ناصر بن الأبيض، وآخران من مشائخ حاشد وبكيل، وضموا إليهم نحواً من مائتي نفر لحفظها، وبدأوا في تعميرها وأصلحوا مدرَّجَها الكبير وأكثروا فيها المؤَنَ. وعيَّن عبدُالله بنُ المعافَى أخاه إبراهيمَ في الهجر مع فرقة من الهجر ليحفظوها وبقي هو في السودة، وكان عبد الرحيم بعد انضمامه إلى الإمام قد أخذ يفتح البلاد طولاً وعرضاً باسم الإمام ويدعو له على المنابر والإمامُ يكاتب الناسَ بإجابته ويأمرهم بمواصلته ومناصرته.

أرسل أخاه المطهر بن عبد الرحمن إلى أبرَق ظُليمة فافتتحها، وكذلك بيت ابن علا، ثم أرسل من حاصَر شهارة بمن معه من عسكر عبد الرحيم، وكذلك السودة، وطال الحصار عليهما، و لم يستطع تخليصها من مطهر بن عبد الرحمن فأرسل ابن المعافَى سراً إلى الإمام أنه يريد تسليم شهارة له لتخوُّفه من عبد الرحيم، فإن عبد الرحيم كان يقول: لئن ظفر به ليكونن عليه من المثلة ما لا يفعلها إلا هو.

وكذلك أهل الأهنوم كانوا لا يحبون عبد الرحيم، لما يتميز به من الغلظة والقسوة، فقد وصفه الشرفي في مخطوطته بقوله: (كان عبد الرحيم سيءَ الطبع سريعَ البادرة، ملولاً عظيم السطوة لا يراعي حقاً في الأغلب وأن الصديق والعدو كانا بمنزلة واحدة في الخوف منه مع عدم وفائه بالعهود)، لذلك خافت قبائل الأهنوم أن تسلم عبدَ الرحيم شهارة خوفاً من انتقامه منهم وإذلالهم، فلما طلب عبد الله بن المعافَى من الإمام الحضورَ لتسليمه شهارة، كان يضمر في نفسه شيئاً لكي يخلص شهارة من وقوعها في يد عبد

الرحيم، فكان يرى أن حضور الإمام سوف يستغرق وقتاً، وفي هذا الوقت تكون قد وصلته نجدة من سنان باشا تساعده على رفع الحصار. ولكن الإمام كان أسرع مما تصور ابن المعافَى فأرسل في الحال جماعة من الأعيان لمعاونة مطهر بن عبد الرحمَن وأرسل أحد أصحابه إلى عذر والياً.

كما أرسل ولده الحسَن وتقدم الإمام إلى شهارة، فلما علم ابن المعافَى بمقدمه دخل شهارة بمن معه من عسكر العثمانيين، وكانت شهارةُ تعاني من قلة المؤن لطول الحصار عليها وبدخول ابن المعافَى بمن معه من العسكر زاد من هذه الشدة وقلة المؤن أكثر فأكثر حتى قيل عنهم: أنهم أكلوا الكِلاَب ولحومَ الدواب، وبلغت الوقية الملح ثلاث كبار، وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى تسليم شهارة للإمام.

ولما وصل الإمام إليها خرج إليه جميع العسكر، فأمّنهم وجمع سلاحَهم وأخذ عليهم عهداً ألاّ يعودوا إلى حربه مرةً ثانيةً فعاهدوه على ذلك، وكان تسليم شهارة إلى الإمام في شعبان (سنة ١٠١٥هـ سنة ١٦٠٧م)، حيث استمر حصارُها أكثر من سنة.

كان تسليم شهارة للإمام نصراً عظيماً لما لها من منزلة عند الإمام، فهو محبٌّ لها ولأهلها، وقد فتحها الله عليه دون قتال. وكانت فرحةُ الإمام وأصحابه بذلك عظيمةً واجتمع أهل شهارة على الولائم تعبيراً عن فرحتهم بمقدم الإمام إليهم بدلاً من عبد الرحيم، وقد قيل الكثير من الشعر تعبيراً عن هذا النصر العظيم، ومما قيل (قصيدة للسيد علي بن صلاح العبالي منها):

هنيئاً بهذا الفتح يا ابن محمدِ ... وحمداً لمن أولاك سؤلي ومقصدي
على بُعد عهدٍ في الزمان وموعدِ ... وبعد أياسٍ من وليٍ ومعتدي
وثَبتَ إلى العليا بصدق عزيمةٍ ... فنلتَ الثنا والنصرَ والفتح عن يد

خرج الجميع إلى الإمام فأطلق سراحهم وأمّنهم إلا إبراهيم بن المعافَى، فقد اعتقله الإمام في شهارة وشدّد عليه الحراسةَ لأنه كان يريده رهينة عنده ليستطيع أن يفديَ به ولديه المأسُورين في كوكبان محمداً وأحمدَ منذ حصار شهارة (سنة ١٠٠٩هـ)، لكن إبراهيم بن المعاف استطاع الفرار من شهارة بمساعدة بعض أهلها وأخفوه في بعض الأودية فعلم الإمام، فأغار على ما يجاور شهارة ووصل إلى صور من أعمال شهارة

الفيش وأمر الناس بالتفتيش عنه في تلك الأودية وتظاهر أن المعافَى هو الذي هرب بنفسه كي لا يُربِّي العداوات بينه وبين أحد في شهارة، وكان هذا من حسن صنيع الإمام وإحسانه معاملة أهالي البلاد التي يفتحها. وعَهِد إلى المفتِّشين بأنهم إذا وجدوه عظَّموه وعاملوه معاملةً حسنةً، فلما وجدوه طلعوا به إلى الإمام فأحسنَ معاملتَه.

أما شهارة فكانت تعاني من قلة المؤن وارتفاع الأسعار لطول مدة الحصار، وكان أصحاب الإمام لا يأكلون إلا العنَبَ أو من النذور والعطايا من الأهالي. وجمع الإمامُ مشائخَ الأهنوم وطلب منهم طعاماً لمن يحفظ شهارة، فأرسل المشائخ نحو ثلاثين زيدياً يطوفون في البلاد لجمع الإمداد، حتى اجتمع قدر عظيم من الأقوات جُعلت لمن يحفظ حصن شهارة.

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة للإمام اشتد غضبُه على أخيه المطهر وعزله عما كان تحت يده، فلما تيقن المطهر بعزله رفع الحصار عن السودة التي كان بها عبد الله بن المعافَى، وكان ذلك سبباً في انحلال قوة عبد الرحيم، خاف المطهر سوءَ المصير الذي سوف يلقاه من أخيه جزاءَ عمله. فكاتب العثمانيين سراً بأنهم إذا جعلوه أميراً على شهارة وبلاد الشرف كان تابعاً لهم، ويدخل في خدمتهم فوعدوه بذلك، وأرسل جنوده إلى بيت ابن علا. كما أرسل فرقة من جنوده لحراسة طريق حجة خوفاً من أن يغزوَه أخوه منها، فقلَّت بذلك جنوده المحاصرة لشهارة. فكان ذلك من أسباب تمكُّن الإمام من شهارة بدون عناء، لكنَّ مطهراً تيقن عدم مساعدة العثمانيين له، وأنهم لا يوفون بعهدهم وهو خائف من أخيه، فأرسل إلى جنوده بترك ساحة القتال ليصلوا إليه ليحتمي بهم من العثمانيين ومن أخيه، ووقف الجند ومطهرٌ بمكانٍ يُسمَّى (المسارحة)، ووقف العثمانيون في الجهة الأخرى من نفس المكان. بينما كان عبد الله بن المعافى في السودة، وكانت أصواتهم المرتفعة تُسمع بوضوح من شدة الاختلاط والكثرة. فخاف أصحاب الإمام من هجومهم على شهارة وهم قلة، وقد تفرقت أكثر القبائل عنهم لعدم توفر ما يأكلونه بشهارة، لكن النزاع حدث فيما بينهم وتفرق شملهم وبقيت شهارة بيد الإمام.

وخرج منها الإمام بعد أن ولّى عليها من يحفظها وأقام الجنود ليحفظوا أطراف البلاد ممن في السودة - أعني من عبد الله بن المعافَى والعثمانيين - ووصل الإمام إلى ظليمة

وولى عليها ابنه الحسن ثم عاد هو إلى وادعة لتجهيز السرايا إلى الشمال والشرق وبلاد الحيمة وجهات اليمن.

لمَّا علم عبد الرحيم بتسليم شهارة إلى الإمام ورأى ما أحرزه الإمام من انتصارات وقعت في قلبه الغيرة والتكبُّر، وأصبح ينشر بين الناس أن الإمام لا رأي له، وأنه لولا قيامُه معه لما فتح الإمام أيَّ بلَد وأنه كان يُبيّت النيةَ للغدر بالإمام بعد أن يفتح البلاد باسمه. وكان عبد الرحيم يطمع في أن يأخذ شهارة ثم كوكبان، ثم الحيمة، ثم يغدر بالإمام وبأخوته الذين ساعدوه في الفتح.

فلما علم بتسليم شهارة اضطربت أحوالُه، فكان تارة يخطب للإمام وتارةً يثور ويغضب، فأرسل له الإمام حاجبَه المسمَّى البواب ليبشره بما فتح الله عليه من البلاد طمعاً في أن يُهَدِّئَ من غضبه ويكسبه إلى جانبه، فلما وصل إليه الحاجب حاول عَبدُ الرحيم أن يقتله. وبذلك تيقن الإمام سوء نية عبد الرحيم.

في هذه الأثناء علم الباشا سنان بعزله عن اليمن فخاف أن يخرج والفتنةُ في أثره وأنه يخشى وثوبَ الإمام أو عبد الرحيم على صنعاء في أثناء تغيُّر الولاة؛ لذلك أرسل سنانُ باشا الحاجَّ التاجر أحمدَ الوادي للوساطة عند الإمام لطلب الصلح لمدة سنة أو أكثر لكنَّ الإمام استغرب طلَبَ سنانٍ لما له من السطوة والقوة والبغض للإمام، فظن الإمامُ الظنونَ في سنان والحاج أحمد الوادي، وخاف أن تكون خدعة، فأرسل إلى القاضي علي بن أحمد بن أبي الرجال يستشيره في الأمر ويطلب منه تيقنَ الخبر من الأمير علي بن المطهر بن الشويع، وكتب إليه (وصل الحاج أحمد الوادي من عند هذا الطاغية العظيم يطلب صلحاً ولا عرفتُ السببَ الموجبَ لطلبه مع ضعفنا عندهم وقوتهم واستظهارهم علينا، فهل يريدون معرفة حالنا؟ أو هو حق وصدق فهو المحبوب المطلوب) وتمهَّل الإمام حتى علم أن طلب الصلح صحيح، ففرح بذلك وعقد الصلح لمدة سنة بينه وبين سنان بواسطة الحاج أحمد الوادي (سنة ١٠١٥هـ).

أراد الإمامُ أن يشمَل هذا الصلحُ عبدَ الرحيم، لكن عبد الرحيم رفض واتهم الإمامَ بالعجز لقبوله الصلح فتركه الإمامُ وشأنَه مع العثمانيين وعقد هو الصلحَ وحده على أن يكون للإمام ما تحت يده من البلاد المفتوحة. ومعنى عقد الصلح هذا أنه اعتراف صريح

من الدولة العثمانية بالإمام القاسم بعد أن أضنتها الحروب معه.

ولا ننسى ما قد عرضه سنانٌ على الإمام من صلح قبل توليه ولاية اليمن رغم ما يتمتع به سنان من القوة والإمام من الضعف بالنسبة لقوة الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

فلما علم العثمانيون بترك عبد الرحيم للإمام جمعوا جنودهم للحرب ضد عبد الرحيم، واستمرت الحروب أربع سنوات حتى هلك معظم جند عبد الرحيم، وقد قيل: (ما من موضع إلا وسال عليه الدم في بلاده) وقتل عبد الرحيم أصحابه الذين اشتركوا مع أخيه مطهر في رفع حصار السودة ورفعوا الجهاد ومكّنوا ابن المعافَى من دخولها سلماً، وكان عبد الرحيم كارهاً له.

وأما مطهر فإنه استجار بالإمام وترك أخاه يتجرع من حرب العثمانيين، وضعف عبد الرحيم بعد تفرق إخوانه عنه بسبب سوء معاملته وقسوته عليهم، ومن ثَمَّة كان هلاكه كما سيأتي في الفصل الثالث.

انتهى الفصل الثاني من رسالة (أميرة) التاريخ وأمينته، وهو مضمون ما في خلاصة المتون، إلاَّ أنه بعبارة أنسب للعصر وبتحليلات معقولة. ونعود الآن إلى خلاصة المتون: في (سنة ١٠١٣هـ) وصل إلى اليمن شجر الطُّباق الذي انهمك الناس في شُرب دخانه وأول من وصل به الشيخ على المغربي، قيل: من أرض الغرب، وقيل: من الهند، جاء بشيء من بذره، فنبت باليمن، وكان أول وصوله بيعت الوقية بقرش فضة (ريال) ولما كثر في اليمن بيعت الوقية ببقشة، وغلَب عليه اسم (التتن) - وهي كلمة تركية معناها الدخان-.

وقيل: إن فيه منافع يدفع الريح عن البطن ويهضم الطعام ويقطع البلغم، وهو مذكور في كتب المفردات في الطب مثل: مفردات ما لا يسع الطبيبَ جهلُه ومفردات ابن البيطار في حرف الطاء، واتخذ الناس لشربه آلات واخترعوا لذلك هيئات، فمنهم من يشربه مجرداً عن الماء، ومنهم من يشر به بالماء، ولكن الهيئة المجردة أنفع وهي التي كان يستعملها الحكيم الذي جاءَ به واستعمله سنان باشا وغيره.

وللسيد محمد بن عبد الله الحوثي أبيات ذكر فيها الدخان من التتن وهي:

ركبتُ الخيولَ وشُهْبَ البغالِ ومركوبي اليوم غيرُ الأُتُن
وبالمندل الرطب كان البخورُ فصار بخوري بُخارَ التتن
ومن عاش مثلي رأى كلما تقضَّى وكان كأن لم يكن

ولعله أشار إلى ما كان عليه أولاً مع السيد أحمد بن الحسين صاحب صعدة؛ لأنه كان كاتبَه تلك المدة حتى قُتِل السيدُ أحمدُ بنُ الحسين، وصار بصنعاء ساكناً من جملة غيره من أهل وقته، وفيه إشارة إلى أنه كان يشرب التتن كغيره، وقد غضب سنانٌ عليه بسبب القصيدة الميمية التي أنشأها في مدح الإمام القاسم ومكاتبتِه إليه، ولكن لم يثمر غضبُه شيئاً لصلاح السيد المذكور، وأما ظهور التتن في غير اليمن فهو في (سنة ٩٩٩هـ)، كما أرخه بعضهم:

قائل لي عن الدخان أجبني هل له في كتابكم إيماءُ
قلتُ ما فرَّط الكتابُ بشيءٍ ثم أرَّختُ (يوم تأتي السماء)
(٩٩٩هـ)

وفيات سنة ١٠١٣هـ

عبد القادر حمزة

في جمادى الآخرة (سنة ١٠١٣هـ)، توفي العلامة الحافظ العارف عبد القادر بن حمزة التهامي. وقيل: إن وفاته (سنة ١٠١٢هـ)، كما سبق فيها باختصار وهو العالم الزاهد حافظ الفروع ناصرَ الإمام الحسن بن علي بن داود والإمامَ القاسمَ، وأخذ عنه خلق وعُمِّر طويلاً، وكان يقول: احملوني على القعادة إلى المجاهدين، وقبره في بلد عاشر جنب قبر شيخه راوع، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠١٢هـ).

وقال في الطبقات: إنه من حَلْي بن يعقوب بتهامة انقطع إلى اليمن وسكن عاشر من بلاد خولان العالية، وله حاشية على الأزهار مفيدة وفتاوى مدونة على أبواب الفقه، وكان من عباد الله الصالحين، وأصابه طرش في آخر أيامه، وأول هجرته إلى اليمن في أيام الإمام شرف الدين، وكان محبباً للناس لا يكاد يخالفه أحد من مشائخ خولان العالية.

وتوفي بعاشر من خولان، ودفن جنب شيخه بها علي بن راوع دفنه تلميذه القاضي عامر بن محمد الذماري الصباحي. ومن تلاميذه القاضي سعيد بن صلاح الهبل.

أحمد بن محمد بن شمس الدين

في غرة شوال (سنة ١٠١٣هـ) توفي أمير بلاد كوكبان الأمير الشهير أحمد بن محمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين وخلفه ابنه محمد.

الأمير مطهر بن الشويع

وفي (سنة ١٠١٣هـ) توفي الأمير مطهر بن الشويع بن عبد الله بن حسين بن علي بن قاسم بن الهادي بن محمد بن أحمد بن المنصور عبد الله بن حمزة، أحد أمراء الأتراك. ودفن بيفرس.

ومن ذريته بيت الشويع، وبيت الفران، وبيت أبو منصّر.

حوادث سنة ١٠١٤هـ

فيها ظهر رجل في بلاد العدين يُسمَّى الشيخ عبد الرحمن، كان أول أمره متنسكاً بظهور العبادة، فمال إليه كثير من أهل تلك الجهات، ووقعت منه تمويهات منها إخبار الواصلين إليه بما في نفوسهم. ومنها أنه كان يأمر جماعةً ممن قد استغواهم بقبض الأفاعي، وأكلها ولا يضرهم، وكانوا يأكلون الزجاج كالبقل، وقصده الرجال والنساء، ووقع اختلاط ومفاسد وبعث إليه سنانٌ طائفةً من العسكر فبطلت أحوالُه وظهر محالُة ثم قبضوه وأتوا به إلى سنان فسلخه.

حوادث سنة ١٠١٥هـ

وقع فيها حرب بين قائد الإمام القاضي هادي بن عبد الله بن أبي الرجال وبين الأروام في ظفار وكانت الدائرة على الأروام.

وفيها غدر الشيخ الجَرْمِي بالفقيه علي بن يوسف الحماطي قتله غدراً في بيته بالحيمة؛

فأرسل الإمام إلى الحيمة الفقيه عز الدين بن علي بن صالح الأكوع، فبقي يتردد في جهات الحيمة ويقوم بأمرها.

وفيها أمر سنان بالقبض على الفقيه الصالح العارف الصديق بن محمد الخاص الحنفي الزبيدي الساكن صنعاء لمّا أنكر عليه عمله، ثم بعث به إلى ذي مرمر، وبعد مدة يسيرة أمر بقتله بإسقاطه من الحيد، فمات - رحمه الله - فعاجل الله سناناً بالعزل والموت سريعاً.

وفيها توفي الأمير محمد بن أحمد بن محمد بن شمس الدين بالطويلة وحمل إلى كوكبان ودفن به، ويقال: إن سناناً دسَّ له سماً لما خشي منه الميل إلى الإمام، وقام بعده ابنه إسماعيل بن محمد، وكانت به علة الحصار، فكان ضعيف الأمر بسببه، غير أن سناناً أمدَّه وأمره أن يجعل في الطويلة من يحفظها مع ميل أهل جبَل تيس إلى الإمام، فبعث إليها صلاح بن مطهر بن صلاح بن شمس الدين، وكان من أعيانه، فلما وصل الطويلة همَّ بالميل إلى عبد الرحيم، وكتب إليه وإلى القبائل. فأرسل إليه سنان بعبد الله بن المطهر، ولما وصل إليه لامَه وأنكر عليه، وبلغ القبائل القريبة من الطويلة وصول عبد الله بن المطهر، فشنوا الغارة، وامتنع السيد صلاح بن المطهر في البيت الذي هو فيه، فأحاطت به عساكر الأمير عبد الله، ودخل عليه بعضهم فقتل رجلاً منهم، وخرج من بعض طاقات البيت فأمسكوه وضربوا عنقه قبل وصول القبائل، فلما بلغهم قتله (تفرقوا أيدي سبأ).

وفيات سنة ١٠١٥هـ

فيها توفي بكوكبان القاضي العلامة صلاح بن عبد الله بن داود بن أحمد الشَّظَبي. وهو من مشائخ الإمام المؤيد محمد بن الإمام القاسم ومؤدبه بكوكبان، وكان من الذين أسروا من شهارة وحُبسوا بكوكبان مع محمد وأحمد ابني الإمام القاسم.

قال في (مطلع البدور) لأبي الرجال: كان من علماء وحُكماء وقته، وله صناعة في تدبير العامة ومعرفة الموارد والمصادر على قانون العقل، وقبره بجنب قبر السيد العلامة إبراهيم بن المهدي بن علي بن المهدي جحاف المتوفَّى (سنة ١٠١١هـ) وهو أيضاً من الأسرى بكوكبان مع المؤيد محمد بن الإمام.

حوادث سنة ١٠١٦هـ فما بعدها

نتقل الفصل الثالث من رسالة (أميرة) التاريخ بنت علي المداح.

في (١٩ جمادى الأولى سنة ١٠١٦هـ سنة ١٦٠٧م)، وصل جعفر باشا والياً على اليمن بعد عزل سنان باشا الذي كان قد قرر الصلح مع الإمام القاسم قبل رحيله، مع أنه كان قد اتصف بالقسوة والشدة والجور حتى قيل: ((كان اليمن مع سنان وعبد الرحيم كالنار))، وفي ذلك قال الفقيه عبد الله بن داعر: إن الباشا سنان أساءَ السيرة في اليمن وعامل أهله بالإحن ورماهم بالمِحن، وتوصل لأخذ أموالهم الجليلة بكل حيلة، حتى لقد بلغ أهل الأموال في كتم ما بأيديهم منها بكل حال.

وكان سنان قبل خروجه قد قتل الأمير حسين الدفتردارفي ديوان القصر حتى لا يُفشي المظالم التي ارتكبها في حق أهل اليمن فيرفعها إلى السلطان أو الوالي الجديد جعفر، وقيل: إن سبب عزل سنان وقدوم جعفر أن أهل اليمن قد شكوا مراراً إلى مسامع السلطان ما يفعله سنان، ولكنَّ وزير السلطان الأمير درويشاً كانت بينه وبين سنان مودة، فكتم عن السلطان هذه الشكاوى، ثم حدثت بين السلطان ووزيره درويش مخالفة فقتله فوجدوا هذه الشكاوى، فبادر السلطان بإرسال جعفر باشا بدلاً عن سنان.

ويرجع السبب في عدم معرفة السلطان بأمر اليمن وما يحدث فيه من الظلم والجور إلى بعد اليمن عن مركز الدولة العثمانية في الأستانة، وكان من الصعب معرفة أهله ومشاكلهم، وكان سنان قد نجح في إخضاع اليمن للسيطرة العثمانية بالقوة، غير أن هذا النجاح كان مؤقتاً وسرعان ما انقلب إلى اضطراب وفوضى، لذلك ترك سنانٌ اليمنَ وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات، فكان على الوالي الجديد جعفر مواجهة ذلك عند بداية ولايته، فكان من الحكمة أن يغير سياسة سلفه سنان ليستطيع أن يمسك بزمام الأمور، ولذلك أظهر العدل لتهدئة الأحوال باليمن من ذلك أن أهل زبيد شكوا إليه ما نالهم من الجور الشديد والظلم من سنان، وأنه جعل أموالهم أوقافاً فرد جعفر تلك المظالم وأمر بقتل القاضي عمر أفندي صاحب المخا؛ لتواطُئه مع سنان ضد أهل البلاد. وكان الجباةُ يحصِّلون الأموال المقررة في سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هي، بغض النظر عما إذا كان هذا النخيل ما زال قائماً أم لا، مثمراً أم غير مثمر،

فأمر جعفر باشا بإحصاء النخيل المثْمر سنوياً لتكون الضرائبُ مطابقةً للواقع، كما أنه وجد ظاهرة تجميد الضرائب على البقر في وادي زبيد، كما كانت مجمدة على النخيل، فكانت الضرائب تؤخذ على عدد رؤوس الأبقار سواء الحية منها أو الميتة، أي على ما كانت عليها وقت إحصائها، وكان بعض الأهالي أو ورثتهم قد اضطروا إلى احتراف المهن المختلفة لتسديد الأموال المقررة عليهم حسبما هو مسجل في دفاتر الدولة، فأذهب جعفرٌ عنهم هذه المظلمة و لم يبق عليهم الطلب إلاَّ فيما هو موجود.

كانت إزالة هذه المظالم عن الأهالي ذات وقع كبير لما كانوا يعانون من الفقر الاقتصادي للبلاد من جهة بالإضافة إلى الخسائر التي كانوا يتعرضون لها بسبب الآفات الزراعية كالجراد مثلاً، أو انقطاع الأمطار، أو بسبب قطع الأشجار لاستعمالها في البناء، أو أن تيبس الأشجار ذات النفع الاقتصادي كأشجار البن مثلاً، ففي جبل صبر بتعز، كانت أشجار البن قد يبست وقطَعها أصحابُها لعدم نفعها، فقلَّ بذلك المحصول، وقد تعرضت الأراضي الزراعية في نفس هذه المنطقة للحروب المتتالية في (سنة ١٠٠٦هـ) بسبب هجوم أهل الحجرية المتكرر عليها لمناهضة العثمانيين ففي أثناء هذه الحرب أخذ أهل الحجرية في قطع أشجار البن وحرَّقوا جذوعها، فتلفت بذلك الأراضي الزراعية، وقل نفعها الاقتصادي وتعرض أهلها للفقر والتشرُّد؛ لأن الدولة كانت تأخذ منهم خراجاً ثابتاً بصرف النظر عن جودة المحصول أو خرابه.

فلما جاء جعفر باشا أزال عنهم هذه الغمة وأمر بأن يمر وقت ثمرة البن في جبل صبر مباشرون عارفون بغلَّة البن لتقديره مع كاتب من قِبَل الكاشف ومندوب شرعي من قِبل قاضي تعز يكون محل الثقة عارفاً بحق الدولة وحق الرعية معاً ويقدرون ما هو موجود من البن، ويأخذون ما للدولة ويقررون ذلك في سجلات ودفاتر خُصِّصت لذلك واستمر الحال على هذا المنوال.

وقد أدرك جعفر أن رضا اليمنيين على الوالي أو سخطهم إنما يتوقف أساساً على نجاحه أو فشله في النواحي الإدارية والمالية، فعمل على كسب الأهالي إلى جانبه بالقضاء على المظالم المالية السائدة قبيل ولايته، وذلك بأن ربط الضرائب بالثروة الحقيقية للأفراد ومنع من تجميدها رغم تغيُّر الظروف المالية.

وقد عمد جعفر إلى تقريب الفقهاء والعلماء على اختلاف مذاهبهم إليه وإجراء المناقشات الطويلة معهم لإذابة الفوارق المذهبية ولتقريب وجهات النظر في المسائل السياسية والدينية، فقد اشتهر بعلمه وتفقُّهه في الدين وتعظيمه للعلماءِ والأشراف ومعرفته بحقوقهم، لأنه كان على قدر كبير من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية وكان شاعراً مجيداً.

وقد ذكر المحبي في كتابه (خلاصة الأثر)، وقال: سمعت من لفظ والدي، قال: تباحثت أنا وجعفر في خمسة علوم: التفسير، والحديث، والمعاني، والبيان، والقراءات فوجدته في كل منها كاملاً. كما ذكره محمد بن كاني الرومي في تأريخه. كان جامعاً بين محاسن الخصال ومراتب الكمال، وكان عالماً عاملاً، وفيه من الديانة والتهجُّد ما هو كثير على أمثاله، وكان خليقاً بكل وصف حسن، إلا أنه كان يحب الفخر وفيه تيه.

ولو أنه سلم من سفك الدماء في آخر مجيئه إلى اليمن لكان ممن ملك القلوب، لذا نجده قد قرب بعض الفقهاءِ الزيديين المعتدلين وأحسن إليهم مثل السيد صلاح الحاضري والسيد محمد بن عز الدين المؤيّدي المفتي والسيد محمد بن عبد الله الحوثي والسيد الحسن بن شمس الدين جحَّاف وغيرهم، وقد ناقشهم في أمور فقهية عديدة حتى أظهر لهم أنَّ الخلاف إنما هو لفظي فيما بينهم، وذلك يرجع لقدرته على المناقشة وغزارة علمه، إذا يُعتبر ممن يهتمون بنشر العلم حتى قيل عنه إنه هو الذي أخرج تفسير أبي السعود، فنُسخ منه عدة نسخ وانتشر في اليمن (وتفسير أبي السعود نسبة إلى أبي السعود بن محمد بن العماد الحنفي (٨٩٨ ــ ٩٨٢هـ) من علماء العثمانيين المستعربين، كان مفسراً وشاعراً تقلَّد القضاء وأضيف إليه الإفتاء)، وكان هذا التفسير لم يعرف باليمن، فكان جعفر يورد على علمائه مباحث من أبي السعود لم يعرفوها حتى حملهم ذلك على تحصيله وكتابته، وبهذه الطريقة جذب نحوه العلماء والفقهاء؛ ليكونوا بجانبه بدلاً من أن يكونوا ضده، لما للعلماء من تأثير على الأهالي وخاصةً أهل الجبال الشماليين، لما لهذا الجانب من أعظم الأثر في نفس الجبلي أو الصحراوي، لذا كانت خطةُ جعفر ذكيةً في مسٍّ هذا الجانب الحساس.

لكل هذا كانت الفترةُ التي تولاها فترةً هادئةً بفضل سياسته هذه وخاصة أنه عقد مع

الإمام القاسم صلحاً لمدة عشر سنوات، وقضَى على عبد الرحيم بن عبد الرحمن كما سيأتي.

وقد وصف الموزعي في كتابه الإحسان، في دخول اليمن تحت عدالة آل عثمان بقوله: في جعفر (انقادت له الأرض، بالطول والعرض، وكان في أيامه اليمنُ كلُّه جنةَ عدن لما حل في قلوب أهله من الأمان والأمن).

ونحن نرى هنا أن سياسةَ جعفر باشا متمثلةٌ في جانبين:

الأول: رفع المظالم المالية عن الأهالي.

والثاني: الجانب العلمي لفئة واحدة فقط دون سائر الأهالي، وهي فئة العلماء والفقهاء ولم ينظر ولا غيره من الولاة في اليمن إلى جوانب أخرى كتطوير الزراعة مثلاً أو الصناعة، أو التجارة، أو تقديم الخدمات العامة للأهالي مثل: تسهيل طرق المواصلات، والبريد، أو بناء المدارس، والمستشفيات وغيرها، إذ أن هذه الأعمال تركت على أنها من مهمة الأهالي وفقاً لتقاليدهم وأوضاعهم، إنما اهتمام الولاة العثمانيين لهذه الأمور إن اهتموا بها، فإنَّما يكون من أجل زيادة موارد الأهالي في البلاد لزيادة موارد الدولة، أو من أجل رغبة بعض الحكام في تخليد ذكراهم بإقامة المنشآت الدينية كالمساجد، أو بناء القلاع أو الحصون، وكذلك اهتمامهم بمظاهر الحياة الدينية والاجتماعية العامة، كذلك لم نجد أي تغير في الأوضاع القبلية في اليمن التي تحتاج إلى تغيير حضاري كبير؛ لأن قدرة الولاة وإمكانيتهم محدودة إذ لا يمكن تحقيق هذا التغيُّر في أثناء حكم معين أو خلال مرحلة تاريخية معينية؛ وذلك لأنه يحتاج إلى إمكانيات كبيرة، وفترات طويلة، فتغيُّر هذه النظم أو الأوضاع لا يتحقق إلا إذا تغيرت ظروف معيشة القبائل، ولا يتأتى هذا إلا عن طريق نشر التعليم مثلاً بين الأهالي أو عن طريق امتصاص طاقتهم وجهودهم في القيام بأعمال إنشائية وعمرانية كبيرة، زراعية كانت أم صناعية، خاصةً أن أرض اليمن خصبةٌ وغنية بالثروات المعدنية، وتنفيذ هذه الخطْوة الحضارية لا يتم إلا عن طريق حكومة قوية مستقرة ووالٍ قوي يستطيع أن يتعاون مع هذه القبائل ليتغلب على ظروف بيئتها الطبيعية الصعبة التي يغلب عليها الطابع الجَبَلي أو الصحراوي.

وبطبيعة الحال لم يكن في مقدور الدولة في ذلك الوقت القيام بمثل هذه الأعمال؛ لأن

هدف العثمانيين من وراء حكمهم في اليمن في ذلك الوقت لم يكن لإحداث تغيير حقيقي في أوضاع البلاد الاجتماعية؛ ولذلك لم تمتد جهود جعفر باشا لإحداث مثل هذه التغييرات، وإنما اكتفى بهذا القدر الذي أشرنا إليه.

أما عن صلح (سنة ١٠١٦هـ)، واستقرار الإمام في شهارةَ، فقد اتسعت هوة الخلاف بين الإمام وعبد الرحيم وخاصةً بعد أن عقد الإمام مع سنان باشا الصلح قبل رحيله. وقد رغب الإمام في أن يشمل صلحُه مع العثمانيين عبدَ الرحيم، لكن الأخير رفض واتهم الإمام بالضعف والعجز، وكان الوحشة بين عبد الرحيم وسنان؛ لذلك نجد أنه بعد تولي جعفر ولاية اليمن سارع عبد الرحيم بالاتصال به لإقامة علاقات ودية معه تتمثل في صلح يُعقَد بينهما وأظهر له أن خلافه مع سنان كان بسبب عداوة بينهما بسبب الوُشاة، وأظهر منابذته ومخالفته للإمام، وأنه راغب في عقد صلح مع جعفر؛ سُرَّ جعفر لهذه المبادرة من عبد الرحيم، لكن الأخير أرسل أخاه إلى كوكبان للقيام ببعض أعمال عسكرية لتوسيع مناطق سيطرته أثناء مفاوضات الصلح، وكان ذلك سبباً في شك جعفر في صدق نية عبد الرحيم، وزاد من هذا الشك أن جعفراً أرسل إليه أحد الفقهاء ليعرض عليه الصلح على أن يترك له ما تحت يده من البلاد وهو حين ذلك في كوكبان حجة، فلما وصل الفقيه إليه أحسن إليه وأظهر سروره بوصوله لما كان بين الفقيه وعبد الرحيم من مودة.

فلما علم أنه وصل لعقد الصلح وإغماد سيف الفتنة اشتد غضبُه وخرج إلى مكان يسمى (حورة) وأركب الفقيه معه ثم صلبه على شجرة هناك، فاستشاط جعفرٌ غضباً.

قال الشرفي في مخطوطته: كان عبد الرحيم كَتَبَ إلى الباشا جعفر يريد منه أن يكون من جملتهم ويعطوه من البلاد ما يَرضاه، فوقع الخوض في ذلك مدة، فلم يتهيأ بينهما اتفاق لخبث عقيدة الأمير عبد الرحيم وسوء أفعاله، ولم يتم عقد الصلح، ولذلك رأى جعفر أن فتح الحرب في جهتين صعب، وأن الأولى أن يعقد صلحاً مع الإمام القاسم، إذ كان اشتعال الحرب ضد العثمانيين من جهتين، الإمام وعبد الرحيم يغري جعفراً على الصلح مع أحدهما ليتفرغ للآخَر، أو حتى مع كليهما لإطفاء نار الحروب التي واجهته عند ابتداء ولايته، وما دام جعفر قد فشل في عقد صلح مع عبد الرحيم فقد كان ذلك

دافعاً قوياً إلى تقربه من الإمام وعقد الصلح معه.

وقيل: إن سناناً قبل رحيله أشار على جعفر بالصلح مع الإمام ومحاربة عبد الرحيم، وقد أجاب الإمام على جعفر بالموافقة على الصلح؛ وذلك لأن القبائل ملوا الفتنة وطول الحروب، كما أنه رأى أن كثيراً من رجال القبائل كانوا يميلون لمن يدفع لهم أكثر من المال.

ونظراً لقوة الدولة العثمانية بالنظر إلى قوة الإمام فقد مالت قبائل إليها لحاجتهم إلى الأموال بسبب فقرهم بالإضافة إلى ميل أمراء آل شرف الدين للدولة العثمانية وتعاونهم معها ضد الإمام، فكان الإمام يحارب في جهتين، آل شرف الدين والعثمانيين.

وكذلك ما ظهر من عبد الرحيم من كره للإمام والغدر به وخاصةً عندما أرسل حاجبه شمس الدين البواب فأشعل عبد الرحيم النار لإحراقه. كما رأى الإمام أن في الصلح مصلحةً كبيرة لإخراج أولاده ومن معهم من الأسر بكوكبان والرهائن بغيره، فكل ذلك جعل الإمام يبادر بالموافقة على الصلح، فأرسل إلى صنعاء القاضي سعدَ الدين بنَ الحسين المسوري ليعقد الصلح مع جعفر باشا وعَمِل من جهة الدولة العثمانية في الصلح الأمير عبد الله بن المعافَى والحاج أحمد الوادي فعُقِد الصلح في يوم الاثنين ١١ ذي الحجة (سنة ١٠١٦هـ سنة ١٦٠٨م) لمدة (عشر سنين)، كانت شروط الصلح على:

١) أن يبقى للإمام ما تحت يده من المنطقة الشمالية الأهنوم وعِذر ووادعة وظليمة والعصيمات وشهارة وبرط والحيمة.

٢) ورد له جعفر باشا حصن جميمة السعدا وبلادها - وكانت تحت سيطرة العثمانيين-.

٣) وأن يؤمن سكان المناطق من الجهتين ويسمح لهم بحرية التنقل في أي البلاد، وإن كان لأحد حق في أحد الجانبين سمح له بالاتصال به ليأخذ كل ذي حق حقه.

٤) كما وافق جعفر باشا أيضاً على فك أسْر أولاد الإمام محمد وأحمد من كوكبان وجميع أهلهم وأصحابهم، وإطلاق من في سجن صنعاء من الرهائن، وإطلاق رهائن الحيمة - وكان قد قبضهم سنان في حروب الحيمة كما سبق-.

٥) واشترط الإمام أن يبقى سلاح أهل الحيمة معهم لمناصرتهم الإمام، وقد وافق جعفر على ذلك لاسترضاء الإمام ولتهدئة الأوضاع.

وبادر جعفر بتنفيذ الشروط وبدأ بإطلاق سراح أولاد الإمام وأهلهم وأصحابهم من كوكبان فيما بين رجب وآخر رمضان (سنة ١٠١٧هـ سنة ١٦٠٩م)، وقد خرج الجميع إلى شهارة مستقر حكمهم واستقرت بذلك أحوال الإمام وأولاده، وكانت الأمور خلال الصلح على أحسن حال، ولم تحصل أي منافرة بين الجانبين حتى نقض الصلح (سنة ١٠٢١هـ) في النهضة الثالثة كما سيأتي.

والواقع أن هذا الصلح كان تتويجاً لانتصارات الإمام عند نهاية النهضة الثانية وتثبيتاً لأقدامه في المنطقة الشمالية، وذلك على عكس ما حدث له عند نهاية النهضة الأولى التي انتهت بسلب جميع ما استولى عليه من البلاد، فقد استطاع في نهاية النهضة الثانية أن يفرض وجودَه على العثمانيين وأن يُجبرهم على الاعتراف به.

واعترافُهم به وموافقتُهم على شروط الصلح يُعتبَر مظهراً من مظاهر ضعف الحكم العثماني في اليمن وخلخلة نظمه، إذ يُعتبَر ذلك بداية نهاية الحكم العثماني في اليمن؛ لأن العثمانيين كانوا يحرصون على بقاءِ هذا الصلح لحاجتهم إليه فيعملون بدورهم على تهدئة الأحوال مع الأئمة سادة الجبال في الشمال للتفرغ لحل مشاكلهم في باقي أقاليم اليمن.

والحقيقة أن كلاً من جعفر والإمام كان في حاجة إلى هذا الصلح لتنظيم شئونهما داخل أقاليمهما.

فالإمام قد أحرز عدة انتصارات لكنها لم تكن تعني السيطرةَ الكاملة على تلك المناطق نظراً لموقف القبائل منه، كما أنها لم تكن تعني انتشارَ دعوته في المناطق الشمالية جميعها، فقد ظلت القبائل تخاف بطش العثمانيين بها وتتردد في مناصرة الإمام، بالإضافة إلى أن بعض القبائل وقفت في جانبه طمعاً في الغنائم وليس لنصرته التي كانت تعتمد على التعاليم الدينية، تلك التعاليم التي كانت تمثل الفكر السياسي الذي تقوم عليه سيطرتُه ونفوذُه في الأقاليم الخاضعة له، فقد كانت هناك الكثيرُ من البدَع والخرافات منتشرةً بين أهل اليمن ولم يستطع الإمامُ القضاءَ عليها أو إقامةَ الحدودِ لانشغاله بالحروب المستمرة وتنقُّله من بلد إلى آخر، فكان في حاجة لهذا الصلح ليدعم نفوذه في

البلاد ويقيم الحدود الشرعية ويقضي على البِدَع والخرافات ويؤسس البذرة الأولى لتأسيس دولته القاسمية.

أما جعفر باشا فقد كان في حاجة ماسة كذلك لهذا الصلح؛ لأن سناناً قد ترك له اليمن وهو ملتهبٌ بالحروب والاضطرابات، وتعتريه موجات الغضب والتذمر من الأهالي، بالإضافة إلى تمرد عبد الرحيم بعد قتله الفقيه القادم إليه للتفاهم معه لحل المنازَعات مع العثمانيين وإغماد سيف الفتنة، كذلك الاضطرابات السائدة في صعدة من قِبَل متوليها العثماني الذي اتخذ موقفاً استقلالياً متمرداً على الدولة مستغلاً في ذلك بُعد إقليم صعدة عن مركز حكم العثمانيين في اليمن صنعاء، مما شجعه على التشبث به، فقد كان لهذا الأمير حكم صعدة منذ ولاية حسن باشا وطول ولاية سنان الذي قد كان عزم على إقالته عند ما لمس ميولَه الاستقلالية لولا انشغاله بحروبه مع عبد الرحيم، فكان على جعفر التصدي له والقضاء عليه.

وكذلك دارت الحرب بين جعفر والكتخدا عبدالله شلبي الذي أعلن تمردَه عليه كما سيأتي، بالإضافة إلى تعدُّد الاضطرابات في باقي إقليم اليمن مما كان يضعف من جانب العثمانيين.

وهكذا يمكن القول بأن هذا الصلح كان توطيداً وتدعيماً لأقدام الإمام في المنطقة الشمالية، وقد شبَّه الجرموزي هذا الصلحَ بصلح الحديبية.

كذلك كانت الاضطراباتُ على جعفر سواء من حاكم صعدة أو من عبد الرحيم بداية لامتداد سيطرة الإمام على الأقاليم الشمالية، ثم على باقي أقاليم اليمن في عهد أولاده من بعده، كما كان هذا الصلحُ فاتحةَ خير للإمام فقد اتصل به كثير من الناس وناصروا دعوته وانضموا إليه بالآلاف؛ لأنهم آمنوا واطمأنوا لهذا الصلح.

وبعد الصلح ركز جعفر جهوده ضد عبد الرحيم بعد ما تيقن من سوء نيته -كما سبق- وكان أمير كوكبان وهو إسماعيل بن محمد بن أحمد بن محمد بن شمس الدين يرسل لجعفر باستمرار عن جميع الأعمال الجزئية لعبد الرحيم وتعديه على بلاده، فكانت تلك الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم، فانهارت أمور عبد الرحيم وتضعضعت أحوالُه.

عبد الرحيم إلى حصن كحلان الشرف.

فلما بلغ جعفراً أن عبد الرحيم يتنقل من حصنٍ لآخر أرسل له الأميرَ محمد بك الكرديَّ السردار بعساكر كثيرة لمحاربته وأرسل أخوه محمدُ بن عبد الرحمن إلى عمر كيخيا يطلب الأمان وسلم له حصن المفتاح. وسلم الشيخُ ناصر المحبشي وقبائلُه بلادَهم، وسار عمر كيخيا بمحمد بن عبد الرحمن إلى صنعاء، ثم حاصروا عبد الرحيم في حصن كحلان الشرف، فخرج طالباً الأمانَ من الأمير محمد الكردي ومن جعفر باشا (سنة ١٠١٨هـ سنة ١٦٠٩م)، فأخرج له الأمير محمد مرسوماً بالأمان من جعفر. ثم اتجهوا إلى صنعاء، فلما قربوا منها كان في استقباله الأمير عبد الله بن المعافى اختاره الباشا بالذات لما بينهما من العداوة وللشماتة بعبد الرحيم، فلما رآه عرف أن الشر ينتظره، فلما وصل صنعاء كان في استقباله إخوته والأمراء والآغاوات، ولما قابله جعفر باشا وبَّخه على أعماله القبيحة وأمر أن يضعوه في الدار الحمراء بقصر صنعاء لحبسه بها.

استمرت الحرب بين جعفر وعبد الرحيم سنتين بعد الصلح مع الإمام، كان مصير عبد الرحيم إلى الهلاك. كان دخوله الدار الحمراء يوم الأحد ٦ ربيع الآخر (سنة ١٠١٨هـ سنة ١٦٠٩م)، بقي بها سنتين واستولى العثمانيون على جميع ما بيده، أما أخواه أحمد ومحمد فقد جعل لهما العثمانيون مرتبة الإمارة اسماً فقط دون فعل إلى أن مات محمد في شوال (سنة ١٠٢٧هـ)، وكذلك أخوه أحمد.

وفي شعبان (سنة ١٠٢٠هـ) أرسل جعفر بعبد الرحيم إلى استانبول مع آغا من آغواته، فحُبِس هناك في القلعة المشهورة في وسط استانبول المسماة (يَدْيَ قُلَة)، فاجتمع هناك بأعمامه وأولادهم وأولاد المطهر بن شرف الدين؛ بذلك زالت دولة عبد الرحيم ودولة الإمام شرف الدين ولم يبق منها إلا بنو شمس الدين.

وكانت سيرة عبد الرحيم غير مرضية وأعماله قبيحة، اشتهر بقسوته حتى على إخوته وأقرب الناس إليه، مما جعل أخاه محمداً والشيخ ناصر المحبشي يدبران له الحيلة حتى أدخلاه حِصن كحلان الشرف، فتمكن منه العثمانيون، كما أن له أخباراً شنيعةً في مخالفة الشريعة الإسلامية، منها شربه للخمر، وقتله النفوسَ بغير حق، فقد ضرب مرة عنق عبدٍ له، فقيل له: ما السبب؟ فقال: لأن عنقه طويل يصلح لضربه. ومن يقتل والده

فيمكن أن يفعل كل مشين، فقد قتله وادَّعى أن عبداً قتله فقتل العبد. وما فعله في أولاد القحطاني وأمهم فقد علقها في شجرة مع أولادها بحورة مكشوفة بسبب مسيرة القحطاني إلى جعفر باشا في أول الحرب بينهما.

وكذلك عُرف بالغدر، ودليلنا ما فعله مع الإمام القاسم، فتارة يدعو له على المنابر، وتارةً يخرج عليه ويحاول قتل رسله، فتميزت شخصيتُه بالصفات القبيحة، فهي شخصية غريبة جلبت على نفسها المحن. وحتى في استانبول، فقد جهَّزه السلطان في بعض العساكر لقتال الفرنج، ففعل مكيدة للعسكر، فتلف أكثرهم، فأمر السلطان بقتله، وقال: من يفعل هذه المكيدة العظيمة لا تُؤمن مكايدُه، فسلطه الله عليه تعجيلاً لعقوبته (هذا من أنباء الزمن مع غرائب لعبد الرحيم فعلها في ولايته التي دامت (٢٦ سنةً غرائب يستنكرها العقل والشرع).

رجعنا إلى خلاصة المتون عن أنباء الزمن في (سنة ١٠١٦م) لما بلغ سناناً، توجُّه جعفر باشا ظهر عليه الغضب، واستوحش خيفةً مما قدمت يداه من الجرأة، وما اجتناه من تحصيل المال والحطام ورام إقامته بصنعاء حتى يصل إليها جعفر باشا، فرأى جعفر أن الاجتماع لهما لا يكون إلا بتعز، فأعد سنان جميع أثقاله للارتحال، وعبَّأ جنوده بين يديه، تعبأة المحارب، ولم يزل في منازل ارتحاله يضرب الأعناق بموجب توهمه وتخيله وما برح كذلك حتى بلغ تعز. ولما بلغ الباشا جعفراً وشاهده من أحوال سنان، كره النظر إليه واحتال عن الاجتماع به لئلاً تحصل منه خديعة مع توفر الجند لديه، فلم يجتمع به وكره القبض عليه صيانةً للعسكر وللمسلمين من الفتنة وأمره بالانصراف إلى المخا وسنان متوقد بغيظه وسعير قلبه حتى مات في المخا.

ومما جرى من سنان في اليمن تغيير السكة حتى أضر بالناس ضرراً عظيماً، فإن السكك لا ينبغي تغييرها، وكذلك تغيير المكاييل والموازين يحصُل به الخلل على الناس، وكان سنان يبحث عن خفيات الأمور والجرائم، ومتى لاح له أدنَى ذنب بأدنَى قرينة عاقب عليه أشد العقاب والأخذ الوبيل.

ومن مآثره إصلاحُ مدرَّج نقيل شهارة من وادي رجم إلى الباب الغربي بشهارة ورصَّه بالحجارة المحكمة، واخرب حصن براش بصنعاء، وجعل عوضه البناءَ الذي في

رأس نقم، وسببه أن الحرب لما اشتعل كانت قبائل خولان يصلون إلى جبل نقم ويتعرضون إلى أطراف القاع من غير شعور رتبة حصن براش فأخربه وعوضه بحصن نقم لقربه وانتباهه، فكانت الرتبة به إذا أحست بقبائل خولان رموا بالزبارط من نقم فينتبه من في محطة سنان ببستان خُزيمة. وهو الذي رصَّ صرحَ الجامع الكبير بصنعاء بالحجارة الحبَش وبنى القبة وسط الصرح، وبنى منارة مسجد الإمام صلاح الدين، وكانت أعلى منارة بصنعاء، وبنى مسجد جناح وبنى المطاهر لجامع صنعاء، وأسس البركة الكبيرة في القبتين واعتنى برسم دفتر كبير للأوقاف وأمر الأفندية بالحكم بصحته (مسودة سنان المعروفة إلى الآن في مجلدين ضخمين بخط جميل صحيح) وكان الناظر على الوقف محمد بن أحمد البوني، ووضع على الدفتر شهادة العلماء، كالسيد محمد بن عز الدين المؤيدي المفتي، وكان سنان يحترم الوقف، ولا يأخذ منه شيئاً، بل يصير في مصارفه حتى أنه خرج من صنعاء وفي القبة التي بناها بصرح الجامع لحفظ خزانة الوقف بقية دراهم تسعة آلاف قرش (ريال) فأودعها مشائخَ صنعاء آلَ عطية، وقال: ((هذه أمانتكم حق المسجد الجامع وغيره من المساجد))، وكان سنان فتاكاً أهلك كثيرين فهابه الناس، وكان في أيامه الحاج أحمد الوادي التاجر يتفادَى كثيرين ممن قد رسم عليهم القتل بمال يبذله، وكان الحاج الوادي قد سلم من مصادرة سنان، ووقاه الله منه، وكان سنان قد هم بقتله، فرأى في منامه ما صده عن قتله والإيقاع به لحسن نيته.

قال الأمير كابي شلبي: ((ووجد في دولة سنان الموميا في جبل نقم وهو عظيم النفع خير من الذي يخرج من مصر يشبه الدم الأحمر يميل إلى السواد، وأهل صنعاء غافلون عن ذلك ولم ينتبه له إلا الوزير سنان، ولما مات سنان بالمخا أمر جعفر باشا بإرجاع عساكره وخزائنه وابنه محمد)).

قال عبد الله داعر في تاريخه: ((لجعفر باشا في آخر (سنة ١٠١٦هـ) أمر جعفر بصنعاء بعد وصوله بشنق محمد بن أحمد البوني الناظر على الوقف بصنعاء لما كثر شكوى الناس من ظلمه بأنه جعل من أموالهم للوقف كرهاً، وكان قد أمر بحبسه أولاً، وقال: يرد المظالم، فلم يمتثل، فقتله، كما فعل وهو بزبيد بقاضي المخا الذي تظلم الناس منه كذلك كما سبق)).

وفي (سنة ١٠١٧هـ) بلغ موت علي يحيى بن المطهر بن شرف الدين في الروم وهو آخر من مات من أولاد المطهر هناك.

وفيها مات بكوكبان الأمير إسماعيل بن أحمد بن محمد بن شمس الدين وأقاموا بعده عم أبيه الأمير علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين، وكان مُهمَلاً بشبام وولوه أمرهم وكان ابنه الأمير عبد الرب بن علي، هو القائم بالأمر، وكان جماعة من النقباء تواطئوا هم ومحمد بن الإمام القاسم وهو معتقل بكوكبان على أنه يقوم بالأمر وينصرونه، فلم يتم ذلك وكانت الغلبة لعلي بن شمس الدين.

وفيها مات السيد عبد الله بن علي المؤيدي الذي كان دعا بعد أسر الإمام الحسن بن علي بن داود المؤيدي وإدخاله الروم.

وفي (سنة ١٠١٨هـ)، سقط عُمر كيخيا من حصانه، فمات وعيَّن بدلَه جعفر باشا عبدالله شلبي وجهزه بعساكر كثيرة إلى ريمة وبُرَع، وكانت في أيام سنان مخالفة مانعة من مدة قيام الإمام القاسم، وقتلوا الباشا علي كما سبق لما أراد دخول بلادهم ولا قدر سنان لفتحها لعسرها واشتغالهم بغيرها، فاجتمعت العساكر التي كانت مشاغرة لعبد الرحيم فتلقاهم أهل ريمة وبُرَع بالطاعة واستقر عبد الله شلبي بكسمة.

وفي هذه السنة وقع الغلاء في الأسعار فقحطت بلاد صنعاء وغيرها وهلك كثير من الناس جوعاً، وفي (سنة ١٠١٩هـ) توجه جعفر باشا إلى كوكبان أمسى ليلةً فقط، ثم طاف إلى عمران ورجع صنعاء، ووجه عساكر على الأمير محمد إلى صعدة وبلادها للقبض عليه بعد مراجعة طويلة، وكان مراد الأمير محمد الاستقلال ببلاد صعدة؛ لأنها طالت ولايته كما سبق وجَمَع أموالاً كثيرة وعساكر عديدة، فلما قربت منه عساكر جعفر باشا من صعدة عرف أنه لا طاقة له بهم، فحمل ما خف من الذهب الأحمر وركب جواده وسار هو وخاصته جهة الشام عن طريق الحَرَجة.

وفيها جعل جعفر باشا عبد الله شلبي كيخيا، وعزل صفر آغا وجعل كاني شلبي دفتر دار.

وفيات سنة ١٠١٦هـ

أحمد بن معوضة الجربي

فيها توفي بصنعاء الفقيهُ العلامة المذاكرُ أحمد بن معوضة الجِرْبي. وكان عالماً كبيراً محققاً للفقه ملازماً مسجد داود بصنعاء مع زهد وصلاح أخذ عليه جماعةٌ، وقبره بجربة الروض.

قال أبو الرجال في مطالع البدور: ((هو من الجربتين بالقرب من بلاد آل عابس إلى شرقي ذمار. وكان عالماً عابداً في الغاية من الورع، واستقر أولاً بذمار، ثم انتقل إلى صنعاء، واشتهر بصنعاء وسلم إليه الناس واجباهم ليصرفها في مستحقيها، فكان لا يرضَى بقبضها بل يبقيها عند صاحبها ويحوّل للمستحقين من المُزَكّي)). وأصيب بنظره في آخر عمره، فعكف على العبادة بمسجد داود بصنعاء وهو خليفة علي بن قاسم السنحاني بداود، وله ولدان:-

محمد بن أحمد بن معوضة

سلك مسلك والده في العلم والورع والتقشف، وكان إمام مسجد داود لا يفارق المسجد إلاَّ عند مبيته متواضعاً لا يسأل أحداً شيئاً، والولد الثاني:-

عبد الله بن أحمد بن معوضة

ترجَمَهُ في الطبقات، فقال: ((كان يتوقد ذكاءً وفطنةً، وله في علم الكلام اليد الطُّولى، وله ترجيحات في الفقه، وموته وصنوه محمد بالروضة)). وقد استفاض عن كثير رؤية النور عند قبريهما.

أحمد بن محمد بن المنتصر

وفي (سنة ١٠١٦هـ) توفي بالظفير السيد العلامة أحمد بن محمد بن المنتصر بن هشل، وكان علامة محققاً.

رضي الدين العيزري

وفي (سنة ١٠١٧هـ) توفي بشهارة مهاجراً الشيخ الأديب الزيدي رضي الدين أبو بكر بن أبي القاسم بن أحمد بن أبي بكر العيزري.

أحمد بن حسن الدوَّاري

وفي ٢٣ شوال (سنة ١٠١٨هـ)، توفي بصعدة الشيخ العلامة المفتي الصمصامة أحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن حسن بن عطية بن محمد بن المؤيد الدوَّاري - المعروف بالقصعة-.

كان من أكابر العلماء الأخيار زاهداً في هذه الدار، كثير الإحسان إلى الفقراء وغرباء الديار.

قال في (مطالع البدور): ((وكان يسمَّى المُقشقِش؛ لأنه كان إذا حضره طعامُه بصعدة أمر بإيصال من في الجامع من الغرباء للأكل معه، وكان بحراً لا يُجارَى في العلوم وصنف كتاباً في أنواع الحديث وجرت له أمور بسبب محبته الصادقة لأهل البيت ومباينة من تولى صعدة بزمنه من الظلمة، ومن مشائخه السيد محمد بن عز الدين المفتي وعلي بن الإمام شرف الدين وغيرهما)).

علي بن صلاح العبالي

وفي (سنة ١٠١٩هـ) توفي بشهارة السيد العلامة علي بن صلاح بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن إسماعيل بن عيسى بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبدالله بن محمد بن القاسم الرسي بن إبراهيم.. إلخ - المعروف بالعبالي-. سقط من طاقة داره بشهارة.

قال في (البدر الطالع): ((أصله من الحَرَجة ما بين صعدة والحجاز، وهو من أكابر العلماء ومن أنصار الإمام القاسم، كان يبعثه في مهماته، وأرسله لأخذ بيعة القاضي يوسف الحماطي، وقال الإمام القاسم فيه: لست أخاف على أهل اليمن وفيهم هذا السيد العبالي)).

ومن شعره كما في مطالع البدور قصيدة هَنَّأ بها الإمام القاسم بفتح شهارة (سنة

١٠١٠هـ) أولها:

هنيئاً بهذا الفتح يا ابن محمد وحمداً لمن أولاك سؤلي ومقصدي

تقدم منها ثلاثة أبيات.

أحمد بن يحيى الذَّوِيد

وفي ١٥ جمادى الأولى (سنة ١٠٢٠هـ)، توفي إمام المعقول والمنقول المحدِّث الفاضل أحمد بن يحيى بن سالم الذَّوِيد الصعدي، وكان علامةً إماماً له شرح على تلخيص المفتاح، وقرأ الرملَ وحلَّ السحرَ وقرأ التوراة وحفظ الكشاف، وقرأ الأمهات الست، وهو شيخ العلامة محمد بن عز الدين المفتي، قال في الطبقات: «الفقيه أحمد بن يحيى بن سالم بن الذَّويد بن علي بن محمد بن موسى الصعدي، قرأ على عبد العزيز بهران وغيره، وكان عديم النظير في المعقولات وغريب الصفات، وكان آيةً من آيات الله مع مكارم أخلاق تفضح النسيم، وكان من أهل الثروة والمال، واجتمع له من الكتب خزانة ملوكية، ثم تفرقت بعد موته؛ لأنه أوقفها. ودفن بصعدة بقبة له قبلي القرضيين».

نعود إلى الفصل الرابع من الرسالة الجامعية للكاتبة (أميرة علي المداح) فقد تضمن ما في خلاصة المتون بحسن أسلوب.

قالت: سبقت الإشارة إلى أمير صعدة ونزعاته الاستقلالية وتصدِّي الباشا جعفر له، وانهزامه بعد صدام قصير، وما كان منه إلاَّ أن جمع أمواله وغادر اليمن مع بعض أتباعه إلى بلاد الشام، ويبدو أنه كان ذا صلة وثيقة ببعض رجالات الدولة في الأستانة، إذ قيل: إنه كان أحد أسباب عزل جعفر باشا عن اليمن.

فقد عزل في (سنة ١٠٢١هـ ١٦١٢م) وعُين بدلاً منه إبراهيم باشا الذي وصل اليمن في أول ربيع الأول (سنة ١٠٢٢هـ سنة ١٦١٣م)، وقد زادت الاضطرابات في صنعاء بين صفوف العثمانيين عند عزل جعفر باشا، فقد سارع عبد الله شلبي كتخدا جعفر بالانضمام إلى الوالي الجديد إبراهيم، ولم يرحل مع جعفر كما هي العادة ونادى في العسكر يطلب منهم الانضمام معه إلى إبراهيم باشا، فلم يقبل أحد منهم ذلك، فلما علم جعفر بأمر عبد الله شلبي غضب وتعجَّب لحسن ظنه به، فعيَّن جعفرٌ كتخدا له آخر الأمير حيدر.

أما إبراهيم باشا فقد انشرح صدره بانضمام عبدالله شلبي إليه نظراً لمعرفته باليمن فيستفيد من معرفته، فعيَّنه والياً على صنعاء لتمهيد الأمور بها إلى وصوله، وأخذ شلبي يجهز جيشاً لحرب الإمام وطوائف الزيدية خوفاً من اغتنامهم فرصة تغيير الوالي والاستيلاء على البلاد. لكن إبراهيم باشا أصيب بالحُمَّى وهو بذمار، وما لبث أن وافته المنيةُ في يوم الاثنين ٢٨ جمادى الأولى (سنة ١٠٢٢هـ سنة ١٦١٣م)، وقيل: إنه مات مسموماً، وكانت مدة ولايته حوالي شهرين فقط. أدَّت وفاته إلى انفجار الأزمة بين جعفر وشلبي، فقد عاد جعفر من زبيد قاصداً صنعاء بناءً على طلب الإصباحية (هي طائفة من الجند العثماني يبدو أنه تحريف الإصباهية أو السباهية، وهي طائفة الفرسان) الذين خرجوا مع إبراهيم باشا، وكان قائداهم أحمد آغا وسليمانَ آغا، فلما علم شلبي بعودِ جعفر خاف لما سلف منه، فهاج وماج وأخذ ينشر بين الأمراء والعسكر أن جعفراً قد عزل ولا ولاية له على اليمن. والباشا إبراهيمُ قد جعله خليفتَه، وأن مراده حفظ البلاد إلى أن يأتيَ والٍ جديد من الأستانة، فخاف العسكرُ منه ووافقوه في الظاهر، بعد أن أخذ منهم العهدَ على امتثال أوامره، ومنع جعفراً عن دخول صنعاء وتجهز لحربه، وأرسل إلى الإمام يعرض عقدَ صلح معه على ألاَّ يتعدى أصحابُ الإمام المواضعَ التي هم فيها، وذلك ليضمنَ جانب الإمام. والواقع أن أكثر العسكر كانوا يميلون إلى جانب جعفر باشا لكونه أعلى مرتبةً من شلبي، ورغم أن جعفراً كان أرسل إلى شلبي بموافقته على إبقائه في منصبه حاكماً لصنعاء، فقد خاف من انتقام جعفر ورفض الاعتراف بولايته.

وقد اتخذ شلبي موقفاً معارضاً صريحاً لجعفر أدى إلى انقسام صفوف العثمانيين إذ اقترح تقسيم اليمن بينهما على أن يكون له صنعاء وما يليها شمالاً، وأن تكون الأقاليم من ذمار إلى عدن لجعفر، ولما لم يوافق جعفرٌ على هذا التقسيم اتسعت هوةُ الخلاف بين الطرفين؛ فأرسل جعفرٌ الأميرَ حيدراً إلى صنعاء، فاجتمع بعكسر شلبي سراً وأظهر لهم أماناً من جعفر وأنه أولى بالولاية والطاعة.

فمال إليه أكثر العكسر ودارت بينهم الحربُ فانهزم أصحابُ شلبي، فانحاز باقي العسكر إلى جعفر وساروا إليه بذمار، فقتل من الرؤساء جماعةً منهم الفقيه علي الشهاري الذي نكث العهدَ مع الإمام القاسم وسَلِم البعض الآخرُ من القتل.

ثم تقدم الأمير حيدر إلى صنعاء لحرب شلبي، ولما قرب منها وصلت إليه كتب الأمراء والجند بالموالاة لجعفر، والتبرؤ من شلبي، ثم خرجوا من الخندق الذي اختبأوا فيه، وهم عبد الله بن المطهر، وأخوه إبراهيم، وعبد الله بن المعافَى، وصلاح المؤيـدي، ومحمد المؤيدي والأمير درويش، وعلي بن الشويع، والأمير أحمد الأخرم، فأخذوا الأمانَ من حيدر لأنفسهم، ولأهل صنعاء وفتحوا له الخندق على شرط عدم تخريب صنعاء، أو الإضرار بأهلها.

فدخل أصحاب حيدر من الخندق فالتجأ شلبي وجماعة من أصحابه إلى قصر صنعاء، و لم تنهب صنعاء أو تخرب حسب الاتفاق، بل حاصر أصحابُ حيدرٍ القصر الذي فيه شلبي، فلما وجد أن الأمر خرج من يده، ولا مفر له استسلم وطلب الأمانَ من حيدر، فأمَّنه وكتب إلى جعفر بأمانه فلم يجبه إلى ذلك، بل أمره أن يقتله ويأتيَه برأسه، وتقدم جعفر إلى صنعاء فاستقر بها.

هذه الاضطرابات، جعلت الإمام يفكر في نقض الصلح؛ لأنه كما أن يرى في الصلح مصلحةً لأهل اليمن من أجل تسكين الفتنة ما دام جعفرٌ باقياً، أما وقد عُزِل فقد خاف الإمامُ من استيلاء الوالي الجديد على ما تحت يده من البلاد وعدم الاعتراف بحق الإمامة، فاستشار أصحابَه، فاجتمع الرأيُ على نقض الصلح والحرب، فانتظر الإمام إلى أول ربيع الأول (سنة ١٠٢٢هـ سنة ١٦١٣م) بعد خروج الباشا جعفر من صنعاء بأيام.

وبذلك بدأ الإمام النهضةَ الثالثة من دعوته، فقد كان ينتظر وصول موافقة إبراهيم باشا لتجديد الصلح معه غير أنها وافته المنية بذمار، كما أن الإمام لم يثق بما أرسله إليه عبد الله شلبي من تجديد الصلح، ورأى الإمام أن الفرصة مُواتية لتوسيع نفوذه في البلاد خاصةً وأن شلبي قد سحب أكثر الجنود إلى صنعاء لمساعدته في الوقوف أمام قوات جعفر، فأصبحت أغلب المناطق الشمالية خالية من الجند العثماني.

ودفع هذا بالتالي قبائل هذه المناطق على إعلان انضمامهم للإمام ومتابعته؛ ولهذا بدأ الإمام في إرسال قواته إلى المناطق المختلفة فور ذلك، فوجه ولده علياً إلى بلاد الشرف وولده الحسن إلى بلاد شظب والسودة وعفَّار، والقاضي هادي بن عبد الله بن أبي الرجال والحاج أحمد بن عواض الأسدي، والشيخ سعيد الطير إلى بلاد الظاهر، فأمَّا عليٌّ

فاستولى على بلاد الشرف، ثم تقدم إلى بلاد عفَّار فاستفتحها بعد حروب شديدة. وأما الحسن فإنه فتح شظب والسودة وارتفع إلى جبل بني حجَّاج، فالتجأ أصحابُ الأمير عبد الله بن المعافَى إلى قرن الناعي أحَد حصون السودة.

أما الظاهر فدخلوا في طاعة الإمام طوعاً، كما أخضع علي الشهاري بلاد عيال يزيد للإمام، بذلك نجح الإمام في السيطرة على أكثر المناطق الشمالية، وكانت كل هذه الفتوحات أثناء خروج إبراهيم باشا ورحيل جعفر باشا، وفتنة عبد الله شلبي. وفي المناطق الجنوبية تمرد بعضُ حامية تعز على أميرها وعاثوا في المدينة فساداً حتى تم تعيين أمير جديد لها من قِبَل إبراهيم باشا فعمل على إعادة الهدوء إليها بعد أن قبض على زعيم المتمردين.

وقد استغل بعض أهالي ولايتي تعز والحجرية، هذا الاضطرابَ فخلعوا طاعة العثمانيين، مما أجبر جعفراً على إرسال بعض قواته إلى هذه الجهات لإعادتها إلى الطاعة، وذلك بعد أن استقرت أحوالُه بصنعاء ثانيةً.

هكذا أصبحت اليمن في حالة من الفوضَى والاضطرابات في شمالها وجنوبها بسبب عزل جعفر باشا وفتنة شلبي، لكن عودة جعفر إلى الولاية ثانيةً أعطت العثمانيين قوةً جديدة ردت لها بعض ما ضاع منها من أقاليم، فجهز جعفر قواته لحرب الإمام بقيادة الأمير حيدر الذي خرج من صنعاء في تسعة آلاف، وقيل: عشرة آلاف مقاتل، فوصل عمران وأرسل بعض الجند إلى جبل عيال يزيد، وكان الحسن إذ ذاك في موضع يسمَّى بيت علمان، فلما علم بوجود حيدر انتقل إلى الأشمور ولم يكن معه غير مائتي نفر، أما بقية جنوده فتركهم في جبل تيس.

فلما وصل قُربَ عمران ورأى جنودَ الأمير حيدر رجع إلى موضع بالقرب من بلاد المصانع، فخرجت عليه فرقة من جند حيدر من مدع فحدثت مناوشةٌ أثناءَ مروره، ثم أقبل عليٌّ بنُ الإمام من حضور الشيخ لنجدة أخيه الحسن، وكذلك أقبل أحمد بن الإمام الحسن بن علي المؤيدي من حجة والحاج أحمد الأسدي بجموع غفيرة فاشتدت الحربُ سبعةَ أيام، حتى كاد أصحابُ الإمام يتغلبون إلا أن حامل الراية من أصحاب أحمد بن الإمام الحسن انهزم، ومعه أهل حجة، فتضضع بقيةُ الجيش، ووقع فيهم الرعب فتتابعت

الهزيمة على أصحاب الإمام.

فخاف الحسن إن طال عليه الحصار وعلى أهل العِرَّة، أن يأخذهم العثمانيون قهراً، ففضل أن يُسلِّم نفسه ويطلب الأمان لأهل العِرَّة، فخرج إلى الأمير حيدر فأرسله إلى جعفر فسجنه بالدار الحمراء بقصر صنعاء في رمضان (سنة ١٠٢٢هـ سنة ١٦١٣م)، ولما علم الإمام بأسر ولده خاف على بلاده، فأرسل للباشا جعفر يطلب إعادَة الصلح على الشروط الأولى، فلم يجبه جعفر إلى طلبه.

هذه المحنة كان لها أثر عظيم في قلوب الناس، فقد أصابهم الرعبُ والفشَلُ حتى أن بعضَ خواص الإمام وملازميه طلبوا الإذن لهم بمفارقته، منهم الفقيه أحمد بن يحيى الحداد الصعدي، فقال له الإمام: الخيارُ لك إما أن تكون من جملتنا في الشدة والرخاء وترضى بما جاء من عاقبة وبلاء وإما أن تفارقنا ولا أجبرك بشيء، فقال: أمهلني ساعة، ثم قال: قد رضيت أن أبقى من جملتكم.

ومكن ذلك الأميرَ حيدراً كلما قصد مكاناً من بلاد الإمام فتحه دون مشقة وتعب و لم يبق في يد الإمام غير وادعة والأهنوم، وما لبث أن ضاعت منه وادعة.

خرج الإمام من شهارة وهو في أشد المحنة، حتى أنه كان يدعو الله ويتضرعُ ويبكي بكاء شديداً حتى يخرجه الله من هذه المحنة فانتقل بعد ذلك إلى صعدة، فأقبل عليه أهلها واستبشروا بقدومه إليهم.

لما علم الأمير حيدر بوجود الإمام بصعدة توجه بجيوشه وأمرائه إليها منهم الأمير حسين، والأمير رستم، والأمير أحمد الأخرم، والأمير مطهر بن الشويع، والأمير عبد الله بن المعافَى، فلما وصل إلى الهجر ترك الأمير عبد الله المعافى هناك ومعه كثير من الجند، ثم توجه هو وبقية الأمراء إلى صعدة، فلما علم الإمام بالخبر أمر ولديه الحسين وعلياً والسيد أحمد بن الإمام الحسن بالتقدم لمحاربة حيدر، لكنه كان أسرع منهم، ودخل صعدة بدون قتال، فرأى الحسين بن الإمام أن يتفرق الجند في طريق صعدة حتى يقطعوا المؤَن على حيدر، فمَا كان من حيدر إلاّ أن أرسل إلى السيد يحيى المؤيدي والي العثمانيين على أبي عريش أن يتقدم إلى رازح.

فلما علم الإمام بذلك أرسل ولده الحسين لحرب السيد يحيى المؤيدي، فحاربه

وانتصر عليه وأرجعه إلى أبي عريش واستولى على جميع أمواله، فلما رأى حيدرٌ ذلك وجَّه الأميرَ رستماً إلى بعض بلاد صعدة، ولكن القبائل هاجمته، فلما علم حيدر بذلك أرسل الأمير أحمد الأخرم لنجدته، وكان بينهما عداوة قديمةٌ فتمهل الأخرمُ في المسير إليه، فلما وصل إليه كان الأمير علي بن الإمام قد قتل رستماً واستولى على جميع ما معه، فتقدم حيدر إلى أولاد الإمام فوقعت الحربُ بينهم، فانهزم حيدرٌ، وقُتِل من أصحابه جماعة.

فلما رأى ذلك الأمير أحمد الأخرم أراد الالتجاء إلى الإمام خوفاً من ملامة الأمير حيدر؛ لأنه لم يصل إلى رستم في الوقت المناسب، لكن أصحاب الإمام قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الإمام فبعث به إلى ولده محمد إلى شهارة، فأمر أن يعلق خارج بلاد الأمير عبد الله المعافَى في الليل ليثير الرعب والفشل في قلوب العثمانيين، فلما رآه المعافَى انزعج وداخله الخوفُ الشديد، وانحصر المعافَى في الهجر، أما حيدر فقد دبر الحيلة للخروج من صعدة، فخرج منها إلى خمر.

يقول الجرموزي في مخطوطته: ((كان جعفر باشا قد ندم على نقض الصلح، فأمر الشيخ ناصر بن علي المحبشي أن يستوقف الإمام في الشام، ويسعى في الصلح الأول، فلم يجبه الإمام، ولم يوافق الإمام على الصلح رغم ما كان فيه من المحنة؛ لأنه كان قد عاهد أهل خولان على عدم تسليمهم للعثمانيين، وكانت رغبة جعفر باشا العودة إلى صلح (سنة ١٠١٦هـ) لذلك لم يقبل الإمام)).

قويت عزيمةُ أصحاب الإمام بعد حروب صعدة، وخرجت بعض القبائل عن طاعة العثمانيين وخاصةً عندما خرج محمد بن الإمام إلى بني سعد وحارب حسين بن المعافَى الذي فر إلى السودة فقتل محمدٌ من أصحابه عدداً كبيراً، وأخذ ما معهم من سلاح، ثم توجه إلى الهجر وأقام الحصار على عبد الله بن المعافَى، فلما طال عليه الحصار وليس لديه طعام فكر في طلب الأمان من الإمام وتسليم نفسه إليه، على أن يخرج عسكر العثمانيين ويسلموا سلاحَهم كذلك.

ولما علم حيدر بحصار المعاف دبَّر الحيلةَ لإخراجه فأرسل الأمير درويشاً وغيره من الأمراء في جيش وافر إلى الهجر، ولكن المعاف كان في حالة سيئة من شدة الحصار وقلة

الطعام، كما أن درويشاً لم يستصحب معه شيئاً من الطعام والمؤن؛ لأنـه لم يـأت إلاَّ لإنقاذه، فعظم الأمر على المعافَى وأشار على أصحابه بالخروج من الهجَر فـوراً قبـل اجتماع أصحاب الإمام، وكان الإمام قد وصل من جهة صعدة إلى حبور وترك ولـده علياً لحفظ صعدة، و لم يكن معه غير ولده الحسين، فلما استقر في حبور بلغـه مسـير درويش لتخليص المعافى. فأمر ولده الحسين بالتأهب لقتال درويش وجنوده وهم عائدون من الهجر.

فلما عاد درويش ومعه المعافَى وبقية الأمراء إلى المكان المعروف بغارب أثلة – وهو موضع ضيق – الجوانب هجَم عليهم الحسينُ وأصحابُه، وكان أخوه محمد قـد أتـى لمساعدته بمن معه من القبائل وقد أهمل المعافَى ودرويش تحصين قرن الـوعر واغتـروا بكثرتهم وخيولهم، وقال المعافَى لدرويش: نحن في هذه الكثرة والخيل والجمع ما عسى أن تفعل بنا ألفافُ القبائل، فكان ذلك مما يسَّر للحسين الهجومَ عليهم و لم يشعروا إلاَّ وقد هاجمتهم عسكر الحسين فقُتِل درويش والمعافَى وغيرهما من الأمراء، ومن معهـم مـن العسكر و لم ينج منهم غير جماعة قليلة لجأت إلى حصن قرن الوعر، فحاصرهم الحسـين بن الإمام حتى سلموا أنفسَهم، فأخذ الحسين سلاحَهم وعُدَدهم وتقدم بهـم إلى أبيـه، فأودع جماعةً منهم السجنَ وفرَّق بقيتهم في القبائل ينتفعون بهم في أعمـال الزراعـة، وكانت هذه الوقعة يوم الأحد (١٣ جمادى الثانية سنة ١٠٢٣هـ، سـنة ١٦١٤م)، وبعدها استرجع الإمام أكثر البلاد، وكان لها أثر عظيم في نفوس أصـحاب الإمـام إذ قوَّت من عزائمهم، وكان لها وقع سيء على العثمانيين؛ مما جعل كثيراً مـن جنـودهم يلجأون إلى الإمام، وهمَّ حيدر بالإسراع إلى صنعاء، واضطربت أحوالُه، فأشار عليه عبدُ الله بن المطهر بالثبات في خمر، وقوَّى عزيمته، فرجع مرة ثانيةً إلى خمر.

[مقتل علي بن الإمام]

لما بلغ علياً بن الإمام انتصار أبيه في غارب أثلة، وكان هو محاصراً لصـعدة، أراد أن يهجم على من فيها من العثمانيين عله يظفر بهم، فجمع أصحابه وأتباعَه وقصـدهم في موضع يُسمَّى الشَّقَبَات بالقرب من صعدة، – وهو مكان سهل مكشوف– لذا أشـار عليه بعض أصحابه بالبُعد عن هذا المكان، لكنه صمَّم على نزال العثمانيين فيه فوقعـت

حرب عظيمة كانت خيل العثمانيين فيها كثيرة العدد بالنسبة لما لعلي بن الإمام، وانتهت المعركة بقتل علي وقطع رأسه وحمله إلى صنعاء، وقُتل معه جماعة من مشائخ خـولان، وكان ذلك يوم السبت ١٩ جمادى الثانية (سنة ١٠٢٣هـ سنة ١٦١٤م)، وقد حـزن الإمام كثيراً على مقتل ولده.

بعد وقعة الشَّقَبَات، وقتل علي بن الإمام، أخذ العثمانيون يعملون على إفساد القبائل بشتى الطرق ليقضوا على الروح المعنوية المرتفعة عند أصحاب الإمام بعد انتصـارهم في غارب أثلة، وتم لهم ذلك، وفي أول ذي الحجة (سنة ١٠٢٣هـ١٦١٤م)، تمردت قبائل عفار، وكحلان، وبلاد مسور، وحجة على الإمام، فدخلها العثمانيون وأخـذ حيـدر يُعمل فيها السيف، كما استولى على عزان قهرا وأسر جماعة منهم وقتلـهم وأرسـل برؤوسهم إلى صنعاء، ثم وقعت موقعةُ الفائش التي انتصر فيها أصحاب الإمام وغنمـوا غنائم كثيرة من سلاح وآلات حربية، وكانت الحروبُ أيضاً قائمةً في الظفير والموسـم وخلالها وقعت موقعة غربان المشهورة التي انتصر فيها أيضاً أصحاب الإمام، وولى حيدرٌ منهزماً هو وجميع جنوده إلى خمر.

بعد موقعة غربان ملَّ العثمانيون القتال وفلت شوكتهم وأنهكتهم الحروبُ المتتاليـة، وكلما راموا سد ثغرٍ انفتح عليهم آخر. وظلوا هكذا حتى وصل الخبر إلى صنعاء بعـزل جعفر باشا وتعيين محمد باشا بدلاً منه وذلك (سنة ١٠٢٥هـ سنة ١٦١٦م)، فسَـعَى جعفرٌ حينذاك إلى عقد صلح مع الإمام لمدة عام؛ لأنه كما قيل خاف أن يسير والفتنـةُ على أثره.

وقد أشار على جعفر بعضُ أصحابه أن يوسط الحسن بن الإمام المأسور في صـنعاء بطلب الصلح من والده على أن يترك الإمامُ الأميرَ صفراً يخرج من صعدة سـالماً، وإلاَّ فسوف يأخذ الحسن معه إلى الأستانة، ولكن الحسن اعتذر بحُجة أن هذا الأمر ليس في يده، ولكن جعفراً أرغمه على إرسال خطابٍ لوالده، فأرسل هذا الخطابَ على هيئـة أبيات من الشعر دونَ أن يذكر اسمَه قائلاً:

مولايَ إنَّ الصـلح أعـذبُ مـورداً　　فاسلك لـه نهجـاً سـوياً أجـردا
أرسِل معين الحلـم في حـزمٍ لكـي　　يُروِي ظماءَ المسلمين عـن الصـدا

.. إلخ

فقرأ الإمامُ الخطاب و لم يعرف أنه من ولده بل ظن أنه من أحد المتوددين إليه، فأجاب:

يا مانحاً محضَ النصيحة مرشداً إنَّ الهدَى عندي لمن يبغي الهُدَى
والحلم فيه سعادةٌ يَروَى بها ضامي الحَشا ويصير حقاً سيدا

.. إلخ

ووافق الإمام على عقد الصلح وتمت المكاتبة به سراً وأرسل الإمامُ الفقيه جمالَ الدين عامر بن محمد الذماريّ إلى صنعاء لعقد الصلح، كانت شروطه كالتالي:

- أن يُترك للإمام ما كان تحت يده في الصلح الأول وهي بلاد الحيمة وحضور وجبل مسور وبلاد صعدة.
- وأن الأسرى في صنعاء مثل الحسن بن الإمام يبقون في صنعاء ولا ينقلون منها إلى مكان آخر.

لأن الإمام خاف أن جعفر باشا يأخذ معه الحسن إلى الأستانة، ثم أرسل الإمامُ من أخرج الأميرَ صفَراً من صعدة، وجُعلت ولايةَ صعدة للأمير صلاح بن أحمد بن الحسين المؤيدي ومدةُ الصلح سنةٌ واحدة، تبدأ من أول رجب (سنة ١٠٢٥هـ) إلى (سنة ١٠٢٦هـ) وتم الصلح على هذا.

إنَّ الإمام بذلك أحرز نجاحاً باهراً في توسيع حدود ممتلكاته، إذ سقطت أغلبُ المناطق الشمالية في يده، و لم يبق للعثمانيين بها إلا بعض المراكز الرئيسية، مثل صعدة التي ما لبثت هي الأخرى أن سقطت في يد القبائل الموالية للإمام و لم يبق للعثمانيين غيرُ خمر وكوكبان فقط في المناطق الشمالية. لكن هذه الانتصارات التي أحرزها الإمامُ لم تكن تُخفي حقيقةً هامةً، وهي أنَّ العثمانيين ما زالوا أكثر عدداً وأحسنَ تسليحاً بالنسبة لقوات الإمام بالإضافة إلى أن الأرض التي أخذها الإمامُ كانت أرضاً فقيرةً جبليةً يُكلّف الاحتفاظُ بها الشيءَ الكثيرَ، لذا كان على الإمام أن يسعَى في استمرار الصلح بينه وبين الوالي الجديد محمد باشا.

قبل أن نبدأ في المفاوضات بين الإمام ومحمد باشا لا بد أن نتعرض لهذا الوالي الجديد

وسياستِه في اليمن إذ يُعتبَر ضمنَ الولاة الذين حاولوا تثبيتَ أقدامِهم داخل ولايتهم بطريقةَ سلمية، كما فعل جعفر باشا من قبلُ فقد أدخل محمد باشا بعض الإصلاحات التي حاول بها أن يُهَدِّئَ من الأحوال في اليمن؛ لأنه دخل اليمنَ وأحوالُه مضطربةٌ بسبب كثرة الحروب بين الدولة والإمام، وقد صوَّر لنا عيسى بن لطف الله حالةَ اليمن قُبيل وصول محمد باشا، فقال: ((كان وصولُه واليمن قد عمته الخطوبُ والفِتَن، وشَمِلَه النَّصبُ والحزَن. وتفرقت قبائلُه)).

لذا كان عليه أن يسير وفقَ خطة معينة ليستطيع أن يجذب إليه قلوب اليمنيين، وإلاَّ فسوف تزداد الحروبُ وتشتعل نيرانُها، وقد تميز محمد باشا بصفات أهلته؛ لأن يقوم بتلك الإصلاحات. ووصفه كثير من معاصريه، مثل المحبي بقوله: ((كان رجلاً حليماً حازماً في جمع الأموال صبوراً على الشدائد))، كما وصفه الكبسي، كذلك بقوله: ((كان هذا الباشا من أعقل العقلاء الوافر الذهن الحاضر التدبير النافع)).

كما أنه استطاع أن يجذب قلوب اليمنيين إليه وخاصةً الزيديين منهم فقد أحسن إلى الأسرى في سجن صنعاء ومنهم الحسنُ بن الإمام، فقد فك عنه القيود ورخَّص للعلماء بالدخول إليه وأعطاه سريَّة وهي أم ولده أحمد، وكان يأذن له بالخروج، لكن بصحبة الحرسَ مما كان له أعظمُ الأثَر في نفس الإمام ونفس الحسن فحصلت بينهما المودةُ وتبادلا الهدايا، وأنشأ الحسن قصيدة يمتدح بها محمد باشا نظير إحسانه إليه.

وعندما وصل إلى تعز أطلق جميعَ الأسرى من قلعة القاهرة، ففرحوا بخروجهم أشدَّ الفرح، مما كان له أثر عظيم في نفوس أهل اليمن ورضاهم عن ولايته لهم مما جعل أحدَ المؤرخين يصفه بقوله: ((إنه أَلْيَنُ من وطئَ اليمنَ قدمُه)) إلاَّ أن محمد باشا قد أُخذ عليه أنه بخيل حريص على جمع المال حتى قيل: إنه جمع كثيراً من الأموال عند دخوله تعز؛ لأنه خرج من الروم وهو فقير.

وصل محمد باشا إلى اليمن في شعبان (سنة ١٠٢٥هـ سنة ١٦١٦م)، قادماً من مصر، ولا غرابة في ذلك، فإن السلطنةَ كانت في أغلب الأحيان تختار وُلاةَ اليمن من بين من تولوا نيابة غَزَّةَ أو مصر أو ممن تقلدوا وظائفَ هامةً بها؛ وذلك حتى يكونَ على دراية بأحوال اليمن، وعلى علم بأخباره.

فقد كان محمد باشا كاتبَ الديوان بمصر للوزير حسَن باشا قبل توليته اليمن، لذا نجده يقول: ((إنَّه أدرى الناس بأحوال أهل اليمن)).

كما أن محمد باشا قد نَهَج نَهْجَ جعفر باشا في تقريب العلماء والفقهاء إليه ومناقشتهم، ومنهم السيد عبد الرحمن بن الصديق الطباطبي، والسيد عيسى بن لطف الله، والفقيه حسن أفندي. كما كان كثير القراءَة في جميع الفنون، ولديه مكتبةٌ غاصة بالكتُب، واهتم محمد باشا بإقامة العدل في اليمن، وأقام الديوانَ في صنعاء عقبَ وصوله للنظر في مظالم الأهالي (فأنصف المظلومَ من الظالم وساوَى بطريق الحق بين المالك والمملوك والغني والصعلوك، فطمع الضعيفُ في إنصافه وخاف القويُّ من انحرافه، فحصل له في القلوب هيبة ومحبة) كما صرف بعض جهوده للقيام ببعض المنشآت العمرانية، فاهتم بتجديد سور صنعاء وبتعمير مسجد طلحة الصحابي بها، وإقامة منارته العظيمة، وشيد مسجداً كبيراً في يريم، وعمر المدينة نفسَها بعد تهدُّمها أثناء الحرب مع الإمام القاسم وأقام حولها سوراً يحفظها. وفي نفس الوقت اهتم ببناء القلاع والحصون، وخاصةً قلاعَ حجة، ورمم ما تهدَّم منها وحفَر بئراً في صنعاء، وهي المعروفة ببئر الباشا، وأكملها من بعده فضلي باشا وأمر بعمارة البركة التي بجوار ضريح الشيخ أحمد بن علوان بيفرس، وزاد في المصلَّى وفرش جامعَ صنعاءَ وتنبَّه إلى شيْءٍ هام عند زيارته لجبل الكبريت بذمار، حيث وجد الكبريتَ فيه بكثرة، وهذه المادة تُستعمل في صناعة البارود، فأمر بتحصينه، وجعل الجندَ حوله، والسبب أنه علم أن أصحاب الإمام أصبحوا يجيدون استعمالَ البنادق، لكثرة ما اغتنموه من عسكر العثمانيين خلال حروبهم، وبما أن البنادق تحتاج إلى البارود الذي يُصنع من هذا الكبريت، فلا بد من استغلاله وحراسته؛ فارتفعت أسعارُه حتى بلغ رطل البارود بثلاثة أحرف وقرش.

كما اهتم محمد باشا بالبحث عن السجلات والدفاتر ورواتب الجند ومحصول البلاد، وكانت وظيفته في مصر قد أكسبته الاهتمامَ بمثل هذه الأمور، وكذلك اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية، وذلك منذ قيام دولتهم لذا نجده عند وصوله يحاسب الباشا جعفراً على ما في خزانته من أموال وطالبَه بمال إبراهيم باشا وعبدالله شلَبي، واهتم كذلك بتجهيز قافلة المحمل اليمني كعملٍ دعائي هام، وذلك ليكسبَ جانبَ اليمنيين إليه بالإضافة إلى رضا السلاطين العثمانيين في الأستانة خاصةً

وأنه وصل اليمن وهو في حالةٍ سيِّئةٍ من الحروب والفتن.

وقد وصف الموزعيُّ هذا الاهتمام بقوله: (ومن المآثر العديدة الزيادة العظيمة التي زادها في المحمل الشريف اليماني في زيادة الجمال والرواحل، لركوب الضعفاء والفقراء والأرامل، وزيادة البقسماط والبر والأرز والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المحتاج من المسافرين والحجاج حتى الكعبة، وجعل جميع ذلك كافياً زائداً بحيث يحصل فيه المدد للحاجّ ذاهباً وآيباً، وقد يرجع اهتمامه بالمحمل اليمني محاكاة لاهتمام مصر بالمحمل المصري.

لما استقر بصنعاء اتصل الإمامُ به وطلب منه إطالة مدة الصلح[1] الذي عقده مع جعفر باشا قبيل رحيله (سنة ١٠٢٥هـ سنة ١٦١٦م) إلى عشر سنوات بدلاً من سنة واحدة؛ وذلك بحجة عدم أهمية المناطق الشمالية الجبلية وفقر سُكّانها، وقلة خَراجها، ولكنه رفض هذا الاقتراحَ؛ لأنه لم يتعرف على أوضاع اليمن بعدُ لقرب وصوله إليه؛ ولذلك فلا ينبغي المبادرةُ إلى الهدنة إلا بعد معرفة أحوال البلاد، أما صلح جعفر، فهو كما هو لا ينقضه ناقض.

وكان رفضه هذا بداية النهضة الرابعة الأخيرة للإمام القاسم، فقد انتهت مدة الصلح في جمادى الأولى (سنة ١٠٢٦هـ سنة ١٦١٧م)، واستمرت الحروب بين الإمام والباشا، وكان أولها في بلاد حضور، فوجه محمدُ باشا الأميرَ تكريماً بجنده إلى هناك، وكان قائدُ الإمام الشيخَ عبدَ الله بنَ سعيد الطيرَ قائدَ أهلِ الحيمة، وقتل جماعةٌ من الفريقين، ثم حروبٌ كثيرةٌ في مسْور وبني مُطر ومنطقة القذَف، انجلت تلك المعارك عن قتل الشيخ عبد الله الطير واستطاع الباشا أن يأخذ تلك الجهاتِ من الإمام.

وفي (١٣ شعبان سنة ١٠٢٦هـ) وقعت حروب في بني حبش وقُدَم وجنب استطاع أصحابُ الإمام الانتصارَ على العثمانيين، ثم استطاعوا دخول حجة، ثم فتحوا بلاد قراضة، ولاعة، ومسور في (٢٨ ذي القعدة سنة ١٠٢٦هـ).

---

(١) في خلاصة المتون أن الإمام كتب إلى الباشا محمد حال وصوله إلى تعز قبل صنعاء على يد الأمير محمد بن إدريس الحبشي يهنئه بقدومه اليمن وإطالة الصلح.. إلخ.

وفي جمادى الثانية (سنة ١٠٢٧هـ)، وقعت موقعة بني علي انتصر أصحابُ الإمام فيها بعد أن قتل منهم ستةُ رجال، ووقعت غيرها من الحروب التي أنهكت الفريقين، فما كان من الباشا محمد، إلا أنه استدعَى الأميرَ صفراً من الأستانة لمعاونته في تلك الحروب، فوصل في ذي الحجة (سنة ١٠٢٧هـ سنة ١٦١٧م).

والحقيقة أن الحروب كانت سجالاً، وكان أمل الباشا أن يحرز انتصاراً حاسماً ليرفع من شأنه لدن السلطان، وخاصةً أنه كان يقول: ((إنه أدرى الناس بأحوال اليمن))؛ لأنه كان على اطلاع مستمر بأحواله من تقارير ورسائل ولاته السابقين، وقد اغتر بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن، وأصرَّ على شن الحرب على الإمام، إلاَّ أنَّ واقعَ اليمنِ خيَّبَ آمالَه. فقد خاض غُمارَ الحرب ثلاث سنوات متواصلة لم يستطع أن يحرز انتصاراً يُذكَر، بل على العكس تمكن الإمام خلالها أن يوسِّع ممتلكاته في المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين، لذا عاد ووافقَ على الصلح الذي طلبه الإمام قبلُ. أرسل الأميرُ مصطفى عاملُ محمد باشا على خمر إليه يبلغه بأن الإمام يطلب الصلح؛ لأن الفتنة، قد طالت. فجمع محمد باشا الأمراءَ والأعيانَ وطلب منهم المشورة، وشرَح لهم وضع البلاد وحال العسكر وتمردَهم رغم كثرتهم وزيادة العطاء لهم، فردوا عليه بقولهم: ((الحركةُ ضد الإمام هذا الوقت ليس فيها صلاح ولا استمرار غير بذل الأموال وذهاب الأرواح وترك كل شيء هو الرأي الصائب؛ لأن الإمام ليس كما كان في السابق، وكذلك القبائل قد عظمت شوكتهم - وظهرت قوتُهم- وكثر معهم السلاح مع إقبال القبائل على الإمام؛ لأن الإمام لا يأخذ منهم مالاً ولا يُعرِض عن سؤال، ولا يقبض منهم إلا الذي يطابق هواهم والعسكر الموجودون ليس فيهم من عساكر الأروام الذين عُرفوا بالإقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة)) ووافقوا جميعاً على عقد الصلح، فظهرت الأمور واضحةً أمام الباشا. فأجاب الأميرَ مصطفى إلى ذلك، كما وصل إلى الباشا الأمير علي بن الشويع يطلب الأمانَ للسيد عبد الله بن شمس الدين جحاف[1] للوصول لعقد الصلح، فأعطاه الأمان وقابله بالإكرام، وتم إبرام الصلح في جمادى الأولى (سنة ١٠٢٨هـ سنة ١٦١٩م) لمدة عشر سنين، على أن يكون للإمام جميع ما تحت يده من البلاد، وإخراج

(١) هو خال المتوكل إسماعيل.

الأسرى من الجانبين، ما عدا الحسنَ بنَ الإمام. فقد اعتذر الباشا عن إطلاقه؛ لأن جعفر باشا رفع أمره إلى السلطان، فلا يمكن إطلاقُه إلاَّ بإذن منه، لكن محمد باشا أبدى استعداده لإطلاقه إذا ترك الإمامُ البلادَ التي كانت تحت يده أيام صلح جعفر ويقصد بها بلاد القذف من بني شهاب غرب صنعاء؛ نظراً لقربها من صنعاء وكثرة خيراتها بالنسبة للباشا، فلم يرض الإمام بذلك لما في ذلك من المصلحة لأهل البلاد، وفضَّل بقاءَ ولده أسيراً على تسليم تلك البلاد للعثمانيين، فلم[1] يكن من الباشا إلاَّ أن فك قيود الحسن وأخلَى له الطبقة العليا من الدار الحمراء ولم يمنع من أراد الدخول إليه لاسترضاء الإمام. أما البلاد التي وقع عليها الصلح فهي بلاد غُربان، وغشم، وبني مالك وادعة، وبني غشيمة وادعة أيضاً وبني قيس، وبني صريم، ومرهبة، وبني جُبر، وبلاد بني زُهَير، إلى حدود بني جرموز وإلى حدود بلاد همم وما والاها إلى جهة الشمال وجهات شظب، والموسم وبلاد عفار، وجبل نِيسا، والظفير، والشرفين، وجزء من بلاد الحيمة، وحراز وبلاد الظاهر، وذيبان، وعيال عبد الله، وعيال أسد ظُليمة، والأهنوم وعِذر، والعصيمات، وبني سفيان وخيوان، وعِيان، وجهات صعدة، وجبل رازح، فهي كلها للإمام. أما بلاد الكلبيين وخمر فهي للعثمانيين.

وبعد تمام الصلح شرع كلا الفريقين في تنفيذ شروطه، فانتقل الإمام من وادعة إلى شهارة، ووصل الأسرى من صنعاء وكوكبان من أصحاب الإمام إلى شهارة، وهم أكثر من مائتين وأربعين رجلاً، كما أطلق الإمامُ مَن عنده من الأسرى بعد أن كساهم كلَّهم وزودهم بالمال والزاد، وكانوا أكثر من الأربعمائة، فيهم أمراء مثل (قرى جمعة) الذي كان قائداً بصعدة وأُسر من غارب أثلة، ثم انسحب جميع جنود العثمانيين من بلاد الإمام إلى صنعاء، وبذلك تم الصلحُ على أحسن حال، ووقف القتال بين الفريقين، وهدأت الأحوال.

والحقيقة أن عقد الصلح كان في مصلحة الطرفين ليستطيع كلٌّ منهما تنظيمَ شؤونه داخلَ أقاليمه، فالإمام كان في أمس الحاجة إلى هذا الصلح لتعرض بلاده للقحط

---

(١) وشرى الحسن داراً بحارة الخرّاز يخرج إليها لدن جاريته أم ابنه أحمد وتارة يبقيان لديه في الدار الحمراء وشرى أيضاً بيتاً وبستاناً في بئر العزب يخرج إليه مع أهله للتتره، انتهى من خلاصة المتون.

وانقطاع الأمطار مدة طويلة وتعرُّض البلاد إلى شدائد الجوع والغلاء، مما كان سبباً في اضطراب أهل البلاد وهجرتهم من بلادهم حتى أن البعض منهم هاجر إلى الحَبشة سعياً وراءَ الرزق، وكان البعض يموت جوعاً واشتد عليهم الضرر وعظُم ثم عقبه الموتُ العامُ فيهم حتى تعطلت القُرَى من سُكَّانها، وخلت المساكنُ عن قُطَّانها، فكان يموت أهل القرية جميعُهم، فلا يجدون من يتولى دفنَهم وهَرب أكثرُهم من الموت من بلد إلى بلد، فأدركهم الموتُ إلى حيث هم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر كانت أكثر البلاد التي عمها القحط مثل خولان العالية تنقض عهد الإمام؛ لأن العثمانيين كانوا يبذلون لهم الأموال الكثيرة مقابل تخليهم عن الإمام، وهم في ذلك الوقت في أشد الحاجة إلى تلك الأموال نظراً لظروف البلاد التي تعانيها من الجدب والقحط والغلاء، وكان أول من نقض عهد الإمام وطاعته بنو سحام، ثم بنو شدَّاد.

وحاول العثمانيون إشعالَ الفتنة بين القبائل بإثارة النعرة القبلية بينهم، فاضطربت البلاد على الإمام بالإضافة إلى أن العثمانيين لَمَّا اشتدت عليهم الحروبُ واضطربت الأحوال حاولوا قتل الإمام ليستريحوا من هذه الفتنة بأن وضعوا له البارود تحت وسادته، لكنه نجا من القتل، واكتشف هذه المؤامرة.

كما أن الإمام خاف على بلاده وأولادِه بعد موته، فإن ترك البلاد على هذه الحالة وهي مشتعلة بالحروب، وقد عمها القحط ووهَن أتباعُه وضعفوا لا يستطيعون مقاومةَ العثمانيين، ويُقضَى عليهم كما فُعِل بأولاد المطهر.

وقد نقل الجرموزي حديثاً عن الإمام مما يبين أسبابَ موافقته علَى الصلح، وطلبه قائلاً ((قلت للإمام: أراك تبذل الرغائبَ في الصلح وقد عالجوك فلم ترض والآن تطلبه فقال الإمام: الأولى أني رأيت أن أختم عمري بالجهاد وبتنغيص دنيا الظالمين - يقصد العثمانيين - ورأيت الأمرَ تفاقم وظننت قرب أجلي فخفتُ أن يحدث الموت بي وأمورُ الإسلام على ما ترى فلا يتمكن أهلُه من النصر ويحصل في الإسلام ما يحصل، فرأيت المسارعةَ حتى ينتزح الأتراك عنا ويفرِّج الله)).

أما من ناحية محمد باشا، فقد كان في حاجة أيضاً للصلح إذ أنَّ جنوده قد ضجروا

وطلبوا رفع مرتباهم، وحدث بينهم اضطراب، حتى أنهم هموا بقتله وأخذوا منه أموالاً كثيرة،فإن أكثرهم ليسوا من فِرَق الإنكشارية الذين عرفوا بالإقدام ومارسوا الحروب، بل كان أكثرهم من أهالي مصر الذين يجمعهم واليها من الفلاّحين وقطّاع الطرق عند ما تطلب منه النجدة بالإضافة إلى اضطراب الأحوال في المنطقة الجنوبية مثل ريمة ووصاب وعُتمة، فهي جبلية وعرة تقوم فيها كثيراً الاضطراباتُ التي تُقلق الدولةَ، وكذلك الحُجَرية، إذ تمرد حاكمها اليمني الأميرُ عليٌّ الشرجيُّ على طاعة الوالي العثماني - وكان أحد شيوخ هذه المنطقة - وكان جعفر باشا قد قرَّبه إليه ومنحه لقب آغا، ثم رقّاه بعد قليل إلى رتبةَ السنجق.

وقد اتسعت، هذه الاضطرابات في إقليم الحُجَرية إلى حد كبير خاصةً أن الشرجي قطع طريق عدن إلى تعز وطريق المخا من طريق مَوزع وعظُم أمرُه، وقد وجهوا إليه كثيراً من الأمراءِ لحربه فهزمهم وقتلهم، واستفحل أمره حتى قلت المؤنُ على العثمانيين، واضطربت أحوالُ عسكرهم، وقد فشل محمد باشا في حل النزاع بين الأمير علي الشرجي، وأحد جيرانه، واستمرت الحروب بإقليم الحجرية حوالي عامين لم يستطع محمد باشا إخمادها إلاّ بعد وصول الأمير صفر مدداً له في (سنة ١٠٢٨هـ سنة ١٦١٩م)، فذهب الأمير صفر إلى إقليم الحجرية على رأس قُوَّة من الجند قدرُها أربعمائة جندي. كما وجد محمد باشا أن الأقاليم التي تحت يد الإمام جبلية وفقيرة وخراجها قليل والاحتفاظ بها يكلف الكثير، فلا يتحصل منها نصف المنفق عليها، لكل هذه الأسباب من الجهتين حبَّذا الصلحَ ووافقا عليه وحرَصا على بقائه، لكن الصلح لم يكن يُخْفي حقيقة هامة هي ظهور ضعف الحكم العثماني في اليمن وخلخلة نُظُمه بالإضافة إلى أنه أخفى الفشلَ العسكريَّ الذي مُنيت به القواتُ العثمانية أمامَ المقاومة اليمنية. كما أنه يرمز إلى ظهور قوة الإمام رغم شدة ظروف البلاد في الأيام الأخيرة، ويظهر ذلك من قول أصحاب محمد باشا عند ما استشارهم في عقد الصلح (إن الإمام القاسم ليس كما كان في السابق، وكذلك أصحابه لم يكونوا، كما كانوا سابقاً بل صاروا أهل سلاح وعدة)، لذا نجدهم عند لقاء الإمام خاصةً في الأيام الأخيرة يحسبون له حساباً.

ومما يُظهر ضعف نُظُم الدولة وخلخلة أوضاعها في اليمن، قول محمد باشا عند رحيله من اليمن: (كنت أعتمد على دفاتري وحفظي عن أخبار اليمن وأقول ليس أحد أعرف

مني بأحوال اليمن وأعترف الآن أني دخلت اليمن وخرجت منه ولا حققت قدرَ أنملة).

وهكذا انتهت المراحل الأربع من نهضات الإمام القاسم والتي وضعت الأُسُسَ الأولَى للدولة القاسمية الزيدية في اليمن على يده، ثم أيدي أولاده الذين استطاعوا إخراج العثمانيين للمرة الأولى من اليمن في العشر الأوائل من جمادى الأولى (سنة ١٠٤٥هـ سنة ١٦٣٥م).

بعد عقد الصلح بسنة توفي الإمام القاسم (ليلة الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ سنة ١٦٢٠م) في حصن شهارة، ولم يُكتم أمر موته بل عرفه العامةُ والخاصةُ، وكان سبب وفاته الحُمَّى الحارة، وكان قبل وفاته يشتد به ألم في بطنه، فكان يقعده عن الخروج من بيته، حتى أنه ترك صلاة الجمعة أحياناً وطال به المرضُ (١٣ يوماً)، وقبل وفاته أرسل إلى الفقهاء من خارج شهارة ومن داخلها، بعد وفاته اجتمع الأعيانُ والفقهاءُ الزيديةُ وتشاوروا لمبايعة إمام جديد يجمعون عليه، فاتفقوا على مبايعة محمد ولد الإمام، وكان محمد ولده في ذلك الوقت مشغولاً بتجهيز والده، فطلبوه وأخاه الحسين، وأعلموهما بأمر اجتماعهم (فقال محمد: يختار الفقهاءُ والسادة من يصلح من آل الرسول، وأنا أول من يبايع، وأقومُ بمعاونته وأُسَلِّم ما لديَّ من بيوت الأموال إليه وأن يده مع أيديهم) ولكنهم أبوا إلا قيامه بأمر الإمامة من بعد والده، وأنه لا يجوز له رفضُها، فقبلها مظهراً أنه كاره لها، وقام السادة العلماء والفقهاء بمبايعته في تلك اللحظة ولُقِّب بالمؤيد بالله، وبايعه أكثر من في شهارة بيعةَ رضًى ورغبة، وكان الاتفاقُ، ثم الإجماع على مبايعة الإمام المؤيد من العوامل الهامَة التي أدت إلى استمرار وحدة القوى الزيدية وتماسكها أثناءَ حروبها فيما بعد مع العثمانيين، مما حقق لها في النهاية الانتصارَ عليهم، وذلك على عكس ما حدث بعد وفاة الإمام المطهر؛ إذ تنازع أبناؤه فيما بينهم على السلطة، وكان مصيرُهم الهزيمةَ والضعفَ ثم نفيَهم إلى الأستانة.

وفي أثناء مبايعة الإمام المؤيد أمر المؤيدُ القاضيَين يحيى بن محمد بن صلاح الأهنومي، ويحيى بن صلاح الثلائي وغيرهما بغسل والده وتجهيزه، ثم دَفَنه ولده المؤيد قبيل الفجر في مسجد شهارة، وأَمَّ المؤيدُ الناسَ للصلاة عليه، وقد أجمع الفقهاءُ الزيديةُ على إقامة قُبة فوق قبره، رغمَ أنَّ الإمامَ القاسمَ يكرهُ ذلك وأمر الناس ألاَّ يعمروا القِبابَ فوق موتاهم؛

لأنه يرى أن هذه العادة بدعةٌ. وكان يقول لأصحابه: لا بارك الله لمن عمَر عليه أو عين لنفسه مشهداً.

وقد نُحِرت العقائر وتُصُدق بها في جميع البلاد، وعلى أهل العلم وحفظة القرآن، وقُرِئَ القرآن على قبره عدةَ أشهر، وحزن عليه الجميع، وقيل في رثائه الكثير، ومن ذلك ما قاله القاضي علي بن الحسين المسوري، وستأتي كاملة (سنة ١٠٣٥هـ):

من الآن فلتُبك العُلَا والفضائلُ ويُهمَل إلاّ ذكرهن الفواضلُ
سلام على الدنيا سلامَ مُودِّع فقد أوحشَت فيها علينا المنازلُ
وأظلمت الآفاق طراً وأكدرت علينا لِداهي الخطبِ فيها المناهلُ

وبعد أن تمت البيعةُ للمؤيد أرسل بكتاب إلى محمد باشا في صنعاء أخبره بوفاة والده، وأنه القائم بأمر الإمامة من بعده، وأنه باق على الصلح الذي عقده مع والده لا ينقضه ناقض، وأهدَى إليه نسخةً من كتاب الكشَّاف لجار الله الزمخشري المتوفَى (سنة ٥٢٨هـ)، وكانت نسخةً عظيمة، وردَّ محمد باشا على المؤيد بالموافقة على استمرار الصلح بكتاب هذا نصُّه:

((بسم الله الرحمن الرحيم، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسَنةٌ وقدوة مستحسنة طريق سلكه سيدُ المرسلين وحبيب رب العالمين، لله الحمد على ما قضَى، وقدَّر وأمضَى، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..﴾ [العنكبوت/٥٧]، وكل إنسان وإن طال عمرُه إلى الفوت، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة/١٥٦]، وصائرون ومنقلبون، فنعزي ولدَنا المقامَ الأكمل الأعلم الأفضل منبع الفضائل عمدة الأفاضل، مالك أزمة المفاخر والمعارف الجسيمة، محمد بن القاسم بن محمد منحه الله صبراً، وكتب له أجراً بوالده الإمام العالم الأطول الأعلم الأفضل تغشَّاه الله برحمته ورضوانه، وأسكنه بحبوحَ جنته بإحسانه، وجعل نزلَه في عليين والحمد لله الذي جعلكم القائمين من بعده، والشادِّين شده، لما اختاره الله من الخير من عنده، وقيامكم بالأمر بعد استخارة الله سبحانه ومواطأة من العلماء الأخيار والقضاة الأطهار، فأنتم إن شاء الله لذلك أهل، ولما وقع من اختياركم موضع ومحل، تولي الله عونكم ورزقكم الصبر، وكتب لكم على فراقه الأجر، وأنتم

بمقامه أحق، وإليه أسبق، وذكرتم أن الذي بيننا وبين والدكم رحمه الله من العهود والمواثيق ثابت أساسُها، محكمة أمراسُها، زاد الله أساسها ومراسها قوة، كما هي الإرادة المرجوة، ونحن إن شاء الله على ذلك ما يبدو منا أمر يظهر منه اختلال، ولا يكون منا للموضوعات بقوا عدها وعقودها انحلال، بل إنَّا لكم كما أنتم لنا، وما هو الموجود عندكم هو كذلك عندنا والألفةُ الخالصة الوافية الصافية، كما هي ما يغير تلك القواعد مُغيِّر ولا يكدرها مُكدِّر، ونحن لكم في أمر الخير مساعدون، وطرق مرضاة الله معاضدون، والله يختار لنا ولكم الخير ويأخذ بنواصينا إليه، ويرشدنا ونحن دلائلنا عليه، وحسبي الله وكفى، تاريخ (١٧ شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ) بمحروس صنعاء.

ومن هذا الخطاب يتضحُ لنا مدى محاولة الباشا محمد استمالة الإمام المؤيد ،ومدَى تمسكه بالصلح معه؛ مما يوضح اضطراب الأحوال، وخلخلة الأوضاع بالنسبة للعثمانيين، ومدَى قوة الدولة الزيدية وتماسكها، وتميزت بداية عهد الإمام المؤيد بالهدوء والاستقرار لاتفاقه مع محمد باشا، وأدَّى هذا إلى استمرار الهدوء النسبي في اليمن حوالي ثمان سنوات؛ إذ لم تتجدد الحروب إلاَّ في محرم (سنة ١٠٣٦هـ سنة ١٦٢٦م)، حيث نُقض الصلح قبل استكمال مدته بسنتين، وكان السبب المباشر لنقضه وإعلان الحرب ضد العثمانيين هو أن حيدر باشا، كان قد قتل في رمضان (سنة ١٠٣٥هـ) أحد الفقهاء من كبار أتباع الإمام المؤيد أثناءَ زيارته لصنعاء لقضاء بعض حاجياته؛ وذلك لاتهامه بأنه كان يدعو الأهالي إلى مبايعة الإمام. وقد طالت المكاتبات بين الإمام المؤيد وحيدر باشا حول تسليم قاتل الفقيه إلى الإمام لمعاقبته أو دفع دية القتيل، لكن هذه المكاتبات لم تنته إلى شيء، وكان يُشجِّع الإمام المؤيدَ على إعلان الحرب على العثمانيين، أن كثيراً من رؤساء وشيوخ المناطق الشمالية وغيرها، كانوا يراسلون الإمام سراً لتأييده ولمطالبته بالهجوم على العثمانيين، بل وكانوا يرسلون أبناءَهم إليه رهينةً لديه لتأكيد الولاء له، وقد أدَّى هذا إلى إشعال نار الحرب، وخلال الفترة ما بين عقد الصلح ونقضه تحقق تغير واضح في ميزان القوى بين الزيديين والعثمانيين.

نعود إلى خلاصة المتون.

وفيات سنة ١٠٢٢هـ

أحمد بن عامر بن علي

في (سنة ١٠٢٢هـ) توفي بشهارة السيد العلامة أحمد بن عامر بن علي بن محمد، وكان عالماً فاضلاً، وكانت زوجته الشريفة الفاضلة تُقا بنت الإمام القاسم، وكان ملازماً للإمام المؤيد بالله محمد بن الإمام القاسم، وقبره عدني القبة، وله مقام مع أهل مكة يقضي بشرفه في العلم، وسيأتي ذكر ولده العلامة إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد.

وفي حوادث (سنة ١٠٢٣هـ) عن اللآلئ المضيئة أن القتلى في غارب أثلة من الأتراك ثمانمائة نفر، وأن استشهاد المولى علي بن الإمام القاسم بالشَّقَبات من بلاد صعدة يوم (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٢٣هـ) وعمره (٢٨ سنةً)، فإن مولده في رمضان (سنة ٩٩٤هـ)، وأن قبر جثته في علاف، وقريب من قبره قبر السيد علي بن صلاح العبالي المتوفَى (سنة ١٠١٩هـ) السابق ذكره، وأنه مرسوم على ضريح جثة علي بن الإمام رحمه الله هذه الأبيات:

هذا الضريح ضريح السيد البطل ... نجل الإمام الولي بن الإمام علي
العابد الزاهد الميمون طائره ... وقارِن العلم بالإخلاص والعمل
الباذل المال لا منٌّ يكدِّره ... والثابت الجأش يومَ الروع والوهَل
الطاهر القلب من عجبٍ ومن صلَفٍ ... ومن رياءٍ ومن غش ومن دغل
يا سيِّدي يا علي بن الإمام لقد ... أدركت منزلةً في الفضل لم تُنَل
ما زلت في طلب العلياء مجتهداً ... من يوم أدركت حتى منتهى الأجل
هبطتَ تبغي جهادَ الترك محتسباً ... لله من غير ما رعبٍ ولا فشل
وحين أبصرك الأعداءُ منفرداً ... مالوا إليك فلم تجزع ولم تمل
وحين وافوك راموا أن تطاوعهم ... على الإسار فقلتَ القتل أشرفُ لي
فاستشهدوك حميداً يا أبا حسَنٍ ... ومزَّقوك ببيض الهند والأسَل

لم يرقبوا فيك إلاً يا ابن فاطمة ... ولم يخافوا غداً من خاتم الرسل
ففاحت الأرضُ طيباً إذ ثويت بها ... وريع أهل التقى والفضل عن كمل
عليك أزكى صلاة الله دائمةً ... تغشى ضريحك في صبح وفي أُصُل

الإمام الحسن بن علي بن داود

تقدم ذكره في الجزء الذي قبل هذا، وفي (سنة ١٠٢٤هـ) وصل الخبر بوفاته في قلعة استانبول.

سعيد بن عطاف القداري

قال في الطبقات: وفي (محرم سنة ١٠٢٣هـ) توفي ببيت القداري الفقيه العلامة سعيد بن عطاف بن قحليل القداري الدولاني. كان علامة فاضلاً كاملاً، أخذ عن السيد قاسم بن محمد العلوي ويحيى حُميد وغيرهما، وأجاز للإمام القاسم وأولاده صحيح البخاري، وكان من أهل الزهد والورع ترجمه في مطالع البدور.

صلاح بن أحمد الوزير

في (سنة ١٠٢٤هـ)، توفي بصنعاء السيد العلامة المحقق الذي لا ينازعه في معارفة منازع، صلاح بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى الوزير عن (٧٩ سنةً)، فإن مولده كما في بغية المريد والطبقات ليلة الجمعة (٢٧ شعبان سنة ٩٤٥هـ). وأخذ عن والده وعن غيره، وأجل تلامذته الكثيرون الإمام القاسم بن محمد، فقد أخذ عنه كثيراً، وأجازه إجازة عامةً، وكذلك ولده الإمام المؤيد بالله، والسيد محمد بن عز الدين المفتي، وكان مقيماً بصنعاء عن أذن الإمام القاسم، وكان شاعراً مُجيداً وعلامة مُحدّثاً صادعاً بالحق، وقبره بجربة الروض، قال له يوماً الباشا جعفر في التوجيه بالمذاهب:

خدُك ذا الأشعري حنَفي ... وصار من أحمدِ المذاهب لي
حبك ما زال شافعي أبداً ... يا مالكي كيف صرت معتزلي؟

ثم قال الباشا جعفر للسيد صلاح مداعباً، أين ذكر المذهب الزيدي؟ فقال ارتجالاً:

زاد غرامي به فزيَّدني بعداً عن المكثرين في عذلي

وسأله الباشا جعفر: مَن أفضلُ الصحابة؟ فقال: أبو بكر، فقال الباشا: أتفضِّله علَى عليٍّ؟ فقال: أنت سألتني عن الصحابة، وعليٌّ في القرابة وأمرُهم آخرُ.

ومن شعر السيد صلاح:

لا يكن ظنك إلاّ حسناً إن سوءَ الظنِّ من طبع اللئام
وكفَى في ذمه لو عقلوا أنه نقص وإثم وحرام
كل من كان له معتمداً عَدِمِ النفعَ بأنواع الأنام
حسِّن الظن بمولاك تَفُزْ إن حسن الظن برءٌ وسلام

الهادي بن عبد الله أبو الرجال

وفي (١٤ ربيع الآخر سنة ١٠٢٥هـ) أو في (سنة ١٠٢٧هـ) استشهد ودفن بحوث القاضي العلامة الهادي بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن أبي الرجال، وكان إليه ولاية حاشد وبكيل من وادعة إلى لهم، فعزم لزيارة الإمام ومعه ثمانمائة من وادعة، فمر بعصافر، وكان قوم من العصيمات يفسدون في طريق الفقع وغيره، فأراد ضبط هؤلاء الأشرار على طريقه، فركز رايته في جبل أعلى من حوث، وأمر بالغارة على الصروم، فتفرق أصحابه بعدهم في الشعاب فقتلوا منهم وضبطوهم، فجاء منهم جماعة أخرى اسمهم ذو الفصل، حالوا بينه وبين أصحابه، وهو يضرب المدفع لعود أصحابه، فاستشهد وثمانية معه، فخرج سادة حوث احتملوه إلى حوث ودفنوه بها، وحزنه الإمام وعزَّاه ورثاه ابن عمه أحمد بن علي بن أحمد أبو الرجالِ بقصيدة طويلة منها:

أبكى مصابك والعلياء والرحما وأصبح الدين مثلوماً ومنهدماً
من للمساكين كهف يوم مسغبةٍ ومن لهم ذخرةٌ إن أملقوا عدما
وللمجالس تاجٌ راق منظره وللمدارس نورٌ زحزح الظلما
أما الجهاد فلا تحصى وقائعه فيه ومن يحصر الأمزان والديما
وما أُصِبنا خصوصاً في قضيته بل تلك بلوى أتتنا عمت الأمما

إن العصيمات أخلى الله أرضَهمُ ... عن كل حي ولا آتاهم النعما
دحوا مشيداً على الإسلام واعتمدوا ... قتل الهمام سليل القادة العلما
ما يظفرون وملجانا أبو حسن ... حامي حمى الدين بل من شاده وحمى
بقى لنا فهو نعم المستغاث به ... سيفاً لمن بعُراهُ لاذَ والتزما
متى النصيف أمير المؤمنين متى ... يكون ممن لهذا الدين قد ثلما
وتحت أمرك أملاك غطارفةٌ ... من هاشم يضربون الهام والقمما

.. إلخ وهي طويلة.

وفي (٤ صفر سنة ١٠٢٧هـ) توفي السيد العلامة الحسن بن محمد بن ناصر العلوي المأخذي، سكن عمران، وقرأ بشهارة وغيرها، وله حاشية عظيمة على شرح الأزهار في مجلدين.

وفي (سنة ١٠٢٧هـ) توفي القاضي العلامة صالح بن عبد الله حنش، وكان عالماً فاضلاً.

وفي شوال (سنة ١٠٢٨هـ) توفي بشهارة الفقيه العلامة يحيى بن محمد بن يحيى بن صالح بن محمد بن صالح بن محمد بن محمد بن يحيى بن أحمد بن حنش عن (٦٦ سنة)، فإن مولده (سنة٩٦٦هـ).

الحسن بن شرف الدين الكحلاني

قال في الطبقات: ((في (ذي القعدة سنة ١٠٢٨هـ) توفي بشهارة السيد العلامة المجاهد الحسن بن شرف الدين بن صلاح بن يحيى، ويلقب الهادي بن الحسين بن المهدي بن محمد بن إدريس بن علي بن محمد)). وهو الملقب تاج الدين بن أحمد بن يحيى بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن الإمام حمزة بن أبي هاشم النفس الزكية الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم.. إلخ. الكحلاني توفي عن عُمُرٍ نحو ثمانين سنةً. قرأ على خاله أحمد بن محمد بن المنتصر الظفيري وغيره، وعنه أخذ السيد حسين بن صلاح الشرفي، والقاضي سعد الدين بن حسين المسوري وولده أحمد، وكان المترجم له إمام الزاهدين وقدوةَ العابدين، وقبره

بجنب قبر الأمير ذي الشرفين بشهارة، وله مواقفه المشهورة في الجهاد، وأسره الأتراك من ثلا وحبسوه بكوكبان، وأطلق في صلح (سنة ١٠١٦هـ) مع ابني القاسم محمد وأحمد وغيرهم.

عبد الله بن المهلاً

وفي ذي الحجة (سنة ١٠٢٨هـ)، توفي بالشمعة من الشرف القاضي العلامة عبد الله بن المهلاً بن سعيد بن علي النيسائي الشرفي عن (٧٨ سنةً)، فإن مولده (سنة ٩٥٠هـ)، وكان عالماً كبيراً متبحّراً نحوياً لغوياً مُحدِّثاً مفسراً، رحل إليه الناس وانتفعوا به، وكان نظير سعد الدين في تحقيقه. وسكن بباب الأهجر وتشوق الباشا جعفر للقائه، فلم يتم له ذلك حتى أصابت القاضي نكبةٌ أوجبت وصوله إلى الباشا فعدها الباشا من السعادة وأجلَّه وأعظم محله وأغناه وأقناه وجالسه. وامتحن الباشا جعفرٌ العلماءَ بحديث اختلقه ونمق ألفاظه وأملاه عليهم فابتدر الحاضرون لكتابته، ولم يتحرك المترجمُ له لشيء من ذلك، فسأله الباشا لم لا يكتب؟ فقال: يا مولانا: قد أفدتم والجماعة كتبوا ونحن حفظنا، فقال الباشا: هذا والله العالم، ثم أخبرهم أنه هو الذي وضع الحديث لامتحانهم، وأخذ المترجم له عن والده وغيره، وعنه أخذ الإمام القاسم بن محمد وغيره، وليس هو شارح البَوسية فذاك هو الحسين بن ناصر المهلا الشهيد في (سنة ١١١١هـ) وأبوه المهلا بن سعيد ترجمته في الطبقات.

وفي ذي الحجة (سنة ١٠٢٨هـ) توفي بمعمرة الأهنوم الفقيه الفاضل الزاهد محمد بن علي اليعقوبي.

كارثة زلازل

قال في اللآلئ المضيئة: وفي يوم الأربعاء ١٩ شعبان (سنة ١٠٢٨هـ) وقعت زلزلةٌ شديدة اهتزت لها الأرض وخربت منها بيوت كثيرة سيما في بلاد صعدة وهلك منها جماعة في بلاد عذر وغيرها، وانشقت دار مطهر بصعدة وانصدع عقد من عقود مسجد الهادي وغارت بعض الأنهار، وكانت ثلاث زلازل: إحداها نصف اليوم المذكور، والثانية ليلته، والثالثة ليلة اليوم الثالث.

وفي (سنة ١٠٢٨هـ) وصل رسول يعرف بالطواشي من سلطان الهند بهدية عظيمة

للباشا محمد وفيل عظيم، ولبث الطواشي بصنعاء أياماً وبنَى في أيام إقامته بصنعاء مسجده المعروف بمسجد الطواشي نسبة إليه، وكان بجنبه مسجد عياش الصغير القديم، وبنَى الطواشي حمَّاماً بجانب المسجد وهو حمَّام الطواشي، ووقفه على المسجد.

وفي (سنة ١٠٢٨هـ) جهَّز الباشا محمدٌ الأميرَ (قَرَى جُمْعَة) في مائة نفر إلى بلاد ريمة ووصاب لاختلالهما، فلما وصل إلى بيت الشيخ ناصر بن داود اجتمعت القبائل وحاصروا قرى جمعة، فأراد عبد الله آغا تخليصه، فلم يتمكن ووقع قتال شديد وخالف أهل وصاب، فأرسل الباشا إلى الأمير علي بن شمس الدين صاحب كوكبان، وإلى النقيب محمد سعدان بأن يتجهزا بعساكر، فتقدموا، فلما وصلوا طلب القبائل الأمان، ووصل كتاب إلى الباشا من الأمير محمد بن سنان يذكر أن بلاد ريمة ووصاب وعتمة اتفقوا على الخلاف، وأن الأمراء فيها صاروا في حصار شديد، فأمر الباشا إلى الأمير محمد الزوم وكتَّاب اليمن الأسفل فتقدموا ووقع حرب عظيم في بني سعد، ثم أن عبد الله آغا قبض على الشيخ ناصر بن داود في سوق من أطراف البلاد، فبلغ مشائخ شمل أن شيخهم في الأسر، فوصلوا إلى عند عبد الله آغا لفك شيخهم من الأسر وعليهم خلاص قرَى جُمعة.

وما زالت الحروب في بلاد ريمة وغيرها سجالاً.

وفيها ضرب الباشا محمد سكة جديدة بصنعاء كل ستة وخمسين كبيراً أوقية، وكانت الأوقية من السكة الأولى ستين وخمسة وستين والقرش الفضة المسمى أبو مشط سبعون كبيراً من السكة الأولى، فجعل الباشا صرف القرش من السكة الجديدة ستة وخمسين كبيراً، وأمر بإبطال السكة الأولى، لكن الناس تعاملوا فيما بينهم بها حتى كان يشترط أهل البوادي السكة القديمة فيما باعوه؛ لأنها أكثر في العدد، فيكون عليهم الخسران بالجديدة.

الإمام القاسم

في ليلة الثلاثاء (١٤ ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ) كانت وفاة الإمام الأعظم القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن احمد بن الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن يوسف الداعي بن المنصور يحيى بن الناصر أحمد

بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عن اثنتين وستين سنة إلا شهراً وأياماً. فإن مولده (١٠ رمضان سنة ٩٦٧هـ) ودفن بمشهده المعروف بشهارة، عرض له مرض في باطنه وحُمَّى حارة في جسده وخرج في أول مرضه لصلاة الجمعة، ومرَّ من السوق فرأى الجزارين يُشرِّقون اللحم بين الشمس فنهاهم وقال: إن اللحم إذا بقي في الشمس وأُكل أحدث الجذام.

وخرج في بعض الأيام للوضوء في برك الجامع وسلك طريقاً لا يسلكها بعض الفقهاء المتحرزين لمظنة نجاستها فعجبوا من ذلك، فقال لهم: الأصل طهارتها، وكان في غاية من الزهد في مأكله وملبسه وسائر أحواله.

كان يلبس القميص الشقة السوداء واللباس الأسود، وأما قيامه في أمر الجهاد، وتجهيز الأجناد والحرص على تخليص البلاد والعباد من الظلم والفساد، فلا يخفى على ذي لب صحيح ولا يفتقر إلى تصريح؛ لأنه كالشمس أو أشهر، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً، وقد تقدم الكثير من أحواله ودراسته ومشائخه وتلاميذه.

وله من المصنفات في أصول الدين: الأساس لعقائد الأكياس، وإرشاد العباد إلى محجة الرشاد، وفي أصول الفقه: مرقاة الوصول إلى علم الأصول، وله في الحديث: الاعتصام بلغ فيه إلى كتاب الصيام، ثم أكمله على النمط الذي شرع فيه الإمام، السيد العلامةُ الحافظ أحمد بن يوسف بن الحسين بن أحمد زبارة المتوفى (سنة ١٢٥٢هـ) وسماها أنوار التمام، وللإمام القاسم كتاب التحذير من الفتنة، وله عدة رسائل ومسائل وأجوبة وقصائد تضمنتها الكتب الخاصة بسيرته وغيرها، قال الشوكاني: ومن مصنفات الإمام القاسم الجليلة في الحديث، كتاب الاعتصام، جمع فيه كتب أئمة الآل والأمهات وغيرها من كتب الحديث، ورجح في كل مسألة ما يقتضيه اجتهاده، ولكنها اخترمته المنية قبل تمامه.

قال في اللآلئ المضيئة: وكان الإمام تام الخلق طويل القامة عريض الصدر شديد الأُدمة عريض اللحية طويلها غشيه الشيب من وقت الشباب، ومن آثاره الحسنة الجامع المقدس بشهارة والجامع المبارك بمعمور الهجَر والبركة التي حوله والسقاية والسمسرة التي

في سوق الهجر والطريق المدّرج على الساحل من بلاد بني حمزة إلى شهارة والطريق التي فوق المعمر غربي المدان من جبل الأهنوم وغير ذلك من الآثار الحسنة.

وقال الشوكاني في البدر الطالع: أن له كرامات قد اشتملت عليها الكتب المطولات، وجهادات لا تتسع لها إلا مجلدات، وإقدامات يحجم عنها الأبطال، وفتكات تتقاصر عن نيلها همم الرجال، وفي أولاده من أئمة العلم المصنفين، وأئمة الجهاد المتاغرين والشعراء المجيدين والخلفاء الراشدين والفرسان المعتبرين والشجعان الفائقين، وكان سريع الاستحضار للأدلة كثير الحلم بليغ النثر والنظم له اليد الطولى في إنكار المنكر.

وللسيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي ذيل للبسَّامة، في ذكر الإمام القاسم منه، قوله:

ثُمَّ ابتدا الدعوةَ الغراء من قمر ... إمامُنا القاسم المنصور في صفر
من قام لله لا يَلوي على أحد ... وباع مهجته من ربه فبري
والأرض ترفضُّ بالفجار قد مُلِئتْ ... بالظلم والجور والعدوان والنكُر
وكان أول نشر الحق رايته ... من قارةٍ وبدا نوراً لذي بصر
فسل سيفاً على الأتراك قاطبةً ... وصبَّ عزماً على الفجار كالقدر
وكان منه عليهم كل ملحمةٍ ... يشيب من هولها الأطفال في الصغر
منها نغاشٌ وأسناف وريشتهم ... أضحوا بها فوق ظهر الأرض كالجزر
وكان منه بنجد السلف ملحمةٌ ... أفنت صناديد أهل البغي والأشر
ومن يحدثك عما كان في مدع ... وفي ثلا قلت ماذا الفعل من بشر
أما مواطن سافون وفي هِزَم ... فكالجبال صدام البعض في الأُخَر
وفي المرازم مِنْ خولان ملحمةٌ ... لكنها بين آل الطهر كالغرر
وحاز عم الإمام الفضل واشتهرت ... له المناقب مثل الشمس والقمر
وحجة النصب والفجار كان بها ... وقائع ومصاب السادة الطهر
وكان في الفايشي ما كان من خبر ... وبعده يوم غربان على الأثر

وسودة ابن المعافى كم بها عبر أفنت خلائق وانهدت على الأثر
ونكس الله رايات الضلال معاً وجاء بالنصر من عرو ومنتصر
وقبل عرْوٍ تلاقى القومُ في حمد ففاز فيه جنود الحق بالظفر
وفي الحضائر في واديه كان به حصد الأعاجم مثل اليانع الثمر
ويومُ أثلةَ يومٌ هال مشهدُه والموت يحدوهم من عرصة الهجر
وكم أعدُّ وأُحصي من وقائعه بالظالمين أولي الفحشاءِ والنكُر
نيفاً وعشرين عاماً لم يزل نِقَماً يشبُّها لهمُ ماضيه كالشرر
وفي مواطن للتمحيص قد شهدت لأهلها بعظيم الشأن والخطر
نال الشهادةَ فيها من له كُتبت وآل عنها إلى الأتراب والسرر
كيوم رحبان والشقبات لا سُقيا ونوعة وسنيع مقتضى العبر
وكان فيها وفيما بعدها عجب للناظرين ذوي الألباب والفكر
كم من خوارق للعادات ظاهرة أتت لتكريم مولانا على قدر
كالجمع ولّى بلا حرب تفرقهم والأسد مذعورة ولت من البقر
هذا ولم يولد الدهر الخؤون صفاً ولا رثّى للورى من بعد فاعتبر

وقال السيد العلامة الأديب عبد الله بن علي الوزير، وأشار إلى دعوة السيد ناصر محمد صَبَح، ثم اعتقاله، كما سيأتي.

وشيَّعتْ دعوةَ المنصور قائلة هذا بذاك فثق بالله واعتبر
وأوطأت لبني المختار بيت عُلاً على الثريا وحفتهم على السرُر
بظاهرٍ أمرُهُ بالله معتصم بالله مستظهر بالله مقتدرِ
علاّمةٍ علَمٍ في صدره حِكَمٌ من العلوم برأيٍ منه مبتكرِ
سقَى شهارةَ أعنى تربةً خلطت بمسك دارين في تابوته العطر
وبشرت عامراً بالفوز يوم غد إذ فرقت منه بين الجلد والبشر
وصبَّحت صَبَحاً ذا الباس معتقلاً في ربقة الأسر مصروفاً عن السُرر

ومن شعر الإمام القاسم قصيدته التي وسمها (باستفتاح الفرج) قالها أيام اختفائه وتخوّفه من الأتراك:

يا ملجأً للخائف المختار[1] … يا من يغيث مشرَّدا قد طارا
يا حي يا قيوم يا غوث الذي … يشكو إليك من الذي قد جارا
يا من يجير بفضله مستضعَفاً … مستصرخاً متضرعاً لك جارا
يا من يجير ولا يجار عليه في … سلطانه يا قاصماً جبارا
يا من هو الله الشديد محالُه … يا قادراً يا عالماً قهارا
يا من تنزه أن نراه بناظر … يا من يحيط ويدرك الأبصارا
يا أولاً يا آخراً يا ظاهراً … يا باطناً يا عالماً أسرارا
يا واحداً يا دائماً يا باقيا … يا من أبان عجائباً وأثارا
يا بارئ الصنع العجيب بحكمة … حيّاً يُحَسُّ وجامداً وبحارا
يا نافخ الأرواح في أشباحها … ومقدِّراً لبقائها مقدارا
يا مُحييَ الأموات بعد فنائهم … لجزائهم نعم الجنان ونارا
يامن بنَى السبعَ الشِداد ومن دحَى الأرض المهادَ ونوَّر الأنوارا
يا من أدار بأمره في ملكه … فلَكاً مطيعاً مظلماً ونهارا
يا مرسياً شَم الجبال بأرضه … ومُسَيِّراً في غورها الزخّارا
يا مرسلاً ذُلُلَ الرياح لواقحاً … فتثير من موج السحاب غزارا
يا منشئاً جوف السحاب عجائباً برقاً يلوح ووابلاً مِغزاراً
يا منزل الغيث الهنيء تفضُّلاً … لعباده يا مجرياً أنهاراً
يا مُنبِتَ الأصنافِ من شجرٍ ومن نجم ويا من أثمر الأثمارا
يا من حوائج خلقه من عنده … تُقضَى ويغني البائسَ المعسارا

(١) منصوب على الاختصاص.

يا مــن تعفــرت الجبــاهُ تواضــعاً لجلالــــه صــار العظــامُ حقــارا
يا مــن إذا وقــف الطريــدُ ببابــه يشــكو يفــرج كَربَــه الكُبَّــارا
يا مــن إذا المضــطرُّ أجهــده الــبلا فــدعاه يكشــف فادحــاً ضــرًارا
يا رب يــا حنــان يــا منــان يــا رحمــان يــا ديــان يــا جبــارا
يشكو عُبَيْدُك بعــد أن نزلــت بــه دهمــا تَسَــعَّر حرُّهــا إســعارا
يشكو إليــك مــن الــذين تجبَّــروا يبغــون فجعــة مــؤمن ودمــاراً
يشـــكو شـــكاية محـــرق مستضـــعف كثـــرتْ جنـــودُ عـــدوِّه فتجـــارَى
كـــبراؤهم مُتجَّـــبرون فأشـــبهوا فرعـــونَ أوهامانَـــه الكُفْـــارا
يشـــكو إليـــك جميعَهم أمـــراءَهم وجنـــودَهم والظـــالمَ الجـــوًارا
ومُحـــيطَهم أهـــلَ الغوايـــة إنهـــم قـــد زوَّروا مـــن إفكهـــم أخبـــارا
يغـــرونهم بقرابـــةٍ لمحمـــد حـــتى أخـــافوا صـــبيةً وكبـــارا
لا يرتجون لحـل مـا نزلـت بهـم أحـداً سـواك أتـوا إليـك فـرارا
وقفـوا ببابـك طـالبين لنفحـةٍ تُطفِـي حـرارة مُحـرَقٍ محـرارا
فبحـق ذاتـك يـا مُغيـثَ عُبَيـدِك المضـطر ممـن قـد أراد ضـرارا
وبحـق حقـك يـا رحـيم برحمـةٍ رادفتـها بتفضـلٍ مـدرارا
بجلالك الأعلَـى بمـا يختـص مـن كـرمٍ أضـاءَ بهاؤهـا وأنـارا
وبكلمـا سميـت نفسَـك طيبـاً بعظيمهـا أدعـو خفـاً وجهـارا
بكتابـك الهـادي بمـا أظهرتـه مـن نـورِه لهدايـةٍ إظهـارا
وبحرمـة السـبع المثـاني إنهـا نـورٌ أضـاءَ لنـا ولـن يَتـوارَى
وبحرمـة السُـوَر الـتي ضـمنتها أعلَـى الكـلام فحيَّـر الأفكـارا
وبكـل حرمـة آيـة أنزلتـها أدعـو بهـا الإعـلان والإسـرارا
بملائـك لا يفتـرون عبـادة عَـدُّوا زمـانَ طِـوالِ ذاك قصـارا
وبجبرئيـل أمـين وحيـك والـذي اخترتـه ليـدمِّر الكفـارا

وبحـق ميكائيـل صـاحب قسـمة الأرزاق والمسـتغفر اسـتغفارا

وبحق إسـرافيل ذي الصـور الـذي أقدرتـه مـن قـدرةٍ إقـدارا
ببـديع فطرتـك الـذي أكرمتـه بسـجود مـن لا يكسب الأوزارا
وبحـق إدريـس الـذي أوليتـه أسـنَى مكـانٍ رفعـةً وقـرارا
وبنـوحٍ النـاجي علـى ألواحـه لمـا رأى تُنُـورَهم قـد فـارا
وبهـودِ المختـار والنصـاح بالـ أحقـاف ينـذر قومـه إنـذارا
وبحـق صـالحِ الـذي أرسـلته لهُـدَى ثمـودَ فـأنكروا إنكـارا
بخليلـك البـاني لبيتـك والـذي كَسَـر الصـليبَ بفأسـه كِسَّـارا
وبلـوطِ السـاري بليلـة أمطـرت شرَّ القرى بعـد السُـرَى أحجـارا
وبحق إسماعيل صـادق وعـده الـ معطـي لـذبح نفيسِـه مختـارا
وبحق إسحاقٍ ويعقـوبَ ابنِـه الـ مُجـري بحـزنٍ دمعَـه المطَّـارا
بجماعـة الأسـباط يوسـف والأُلى تـابوا فحطـوا عنـهم الآصـارا
بشـعيبَ والأواب أيـوب الـذي فيمـا ابتليـت وجدتَـه صـبارا
بكليمك المختـار موسـى والـذي بمجيئـه أنشـأته أنـوارا
بأخيـه هـارون الزكـي بيوشـعٍ بعُزيـرَ أسـأل جهـرةً وسِـرارا
وبحـق داود الـذي آتيتـه فصـلَ الخطـاب وحكمـةً ووقـارا
بسـليله أعـني سـليمانَ الـذي ملَّكتـه الـثقلين والأقطـارا
وبإرميـا وبإشـعيا بكرامـة الـ ـخَضِر الـذي عمَّرتـه أعمـارا
وبحـق إليـاسٍ ويـونس بعـده واليسَـعَ حيـث جعلتـهم أخيـارا
وبحـق يحيـى بـالزكي أبيـه مـن وضـع الطغـاةُ برأسِـه المِنشـارا
وبروحـك الزاكـي المسيح بأمـه الآيـتين لمـن يشـاء نظـارا
وبحـق لقمـان الحكـيم وفتيـةٍ بالكهف نالوا مـن لـدنك جـوارا
وبخـاتم الرسـل الكـرام محمـد سـاد الهـداةَ الرسـلَ والأخيـارا

أكـــرم بخـــير المرســـلين محمـــد أكـــرم بـــه في المرســـلين خيـــارا
أكرم بـــه مـــن مرســـل أكـــرم بـــه مـــن طيـــب فرعـــاً لـــه ونجـــارا
أكرم بـــه مـــن طـــاهر أكـــرم بـــه مـــن صـــادق أكـــرم بـــه مختـــارا
جـــدي الـــذي أرســـلته والنـــاسُ في قفـــر الضـــلالة تـــائهون حيـــارى
فأتـــاهمُ بـــالمعجزات شـــواهداً أعطـــى المـــلا برهانـــك النـــوّارا
ودعا لـــدينك ناصـــحاً حـــتى أتـــى بالسيف يضرب مـــن بغَـــى الإدبـــارا
حتى أمـــات الشـــرك بعـــد حياتـــه وأنـــار مـــن سُـــبُل النجـــاة منـــارا
وأقـــام دينـــك قيِّمـــاً بعزيمـــة لـــو ســـلّها لأذابـــت الأحجـــارا
فأشـــاد أركـــان الشـــريعة بالـــذي اخترتـــه ليُـــدمِّرَ الكفـــارا
بأخيـــه حامـــل علمـــه ووصـــيِّه أعـــني الشـــجاعَ الصـــائل الكـــرّارا
جدي علياً خيرَ مـــن وطِـــئَ الثـــرَى بعـــد النبـــيين الفـــتى المِغْـــوارا
بالطـــاهر الحســـن الكـــريم وصـــنوه أعـــني الحســـينَ الســـبط والمـــبرارا
وبفـــاطم الزهـــراء بنـــت محمـــد خـــير النســـاء كرامـــةً وطهـــارا
وبحـــق حمـــزةِ الشـــهيد وجعفـــر أكـــرم بـــه في جنـــة طيـــارا
وبحـــق عبـــاس وحـــق ســـليله بحـــر العلـــوم الزاخـــر التيـــارا
بجماعـــة الآل الكـــرام جميـــعهم ســـفُن النجـــاة القـــادة الأطهـــارا[1]
قرنـــاء وحيـــك يـــا إلهـــي والألى صـــاروا لملـــة جـــدهم أنصـــارا
بصـــحابةٍ صـــحبوا الـــنبي ووفـــروا أجـــر الـــنبي محمـــد وِفْـــارا
وبكـــل عبـــد في البريـــة صـــالح خضـــعوا لجاهـــك خفيـــة وجهـــارا
بالكعبـــة البيـــت الحـــرام وركنـــه ومقـــام مـــن عمـــر العتيـــق وزارا
وبزمـــزم والمـــروتين ومشـــعر ومواقـــف أكـــرم بهـــن مـــزارا

(١) نصبت على الاختصاص.

أن تكشف السوءَ الذي قـد حـلَّ بي وبصـــبيتي والمـــؤمنين وثـــارا
أربي قريباً ما وعدت عُبَيـدَك الـــ ـــمضطر غوثـاً مسـرعاً نظـارا
نحن الذين إليـك يـا رب التجـوا ممن طغَـى أو مـن بغَـى الإضـرارا
اجعَـل دعـائي موصَـلاً بإجابـة وانظـر إلينـا واكفنـا الأشـرارا
فـرِّق جمـوع المبطلين وحـوِّلنْ إقبـالهم يـا سـيدي إدبـارا
أسـرع ولا تقطـع رجـائي إنـني لمـا أزل لـك راجيـاً نظـارا
وعلـى الملائـك كلـهم والأنبيـا أبـداً صـلاتك مكثـراً إكثـارا
واخصص محمداً الأمـينَ بخـير مـا آتيـت رسـلَك طيبـاً مِكْثـارا
وعلـى كـرام الآل آلِ فُرِّعـوا من خير من ركـب المطـيَّ وسـارا
واغفـر لنـا والمـؤمنين ذنوبنـا إنـا طلبنـا راحمـاً غفّـارا

ومن شعر الإمام القاسم هذه الأبيات كتبها على سيفه:

ألا ذا قاسـمُ الهامـات يـدعو بلسن الحـال يـا مـولاي قاسـم
إذا كـان السـيوف لهـا حقـوق فما حقي سوى ضـرب الجمـاجم
جمـاجم كـل جبـار عنيـد ومَيَّـالٍ إلى الطغيـان ظـالم

وأشعاره ورسائله ومصنفاته كثيرة.

بعد أن نقلت من الرسالة الجامعية لأميرة علي المداح من (سنة ١٠٠٩هـ) عدت إلى تأمل الرسالة من أولها، فاستحسنت النقل من أولها لإحاطتها بكتب التاريخ اليمنية، فقد تيسَّرت لها حتى الخطِّيَّة أجمع ولخَّصَتْها أحسن تلخيص بعد تعبها في قـراءَة الخطـوط السقيمة.

مما قالته:

كان والد الإمام القاسم يعمل في عسكر المطهر بن شرف الدين، خاض معه حروباً كثيرة ضد الباشا سنان وغيره، فرأى القاسم منذ صغره هذه الحـروبَ ورأى في أبيـه المجاهدَ الشجاعَ الذي وقف يقاتل للدفاع عن مذهبه الزيدي وأرضه اليمنية.

ولما بلغ القاسمُ سن العاشرة قرأ القرآن الكريم، وكانت فيه فطنة وفصاحة، وقد أخذ العلم عن كبار علماء المذهب، كما اتصل بالإمام الحسن بن علي بن داود وظل ملازماً له حتى نفي إلى الأستانة، ومن أشياخه أيضاً السيد أمير الدين بن عبد الله بن نهشل بن المطهر.

ومن علماء عصره عمُّه السيد عامر بن علي الذي أجاب دعوته وخاض معه معارك كثيرة وبذل ماله ورُوحه في سبيل نصرته. ومنهم السيد إبراهيم بن المهدي بن علي جحاف ووالده المهدي وهو أحد شيوخ الإمام المؤيد. والسيد محمد بن عبدالله عُشيش، والسيد الحسين بن علي بن إبراهيم الجحافي وغيرهم كثير.

أما نشأته فقد نشأ معروفاً بالطهارة وقوة القلب والبطش، ويقال عنه: ((إنه كان لا يروعه شيء مما يروع الصبيان)) وقد توسمت فيه عمته أم الغيث بنت علي: النبوغ والفطنة والتفهُّم، فخافت عليه وأرسلت في طلبه إلى الرُغَيل غربي مسور، وكانت متزوجةً بالسيد أحمد بن الحسن الخطيب، وكان من أهل الجاه واليسار، مع العلم الكثير، فأتم الإمامُ قراءَة القرآن وتعلم أصول الدين، وكان يقرأ معه عمه عامر بن علي، فنشأ في بيئة كلُّها تُقًى وصلاح مما انعكس على شخصيته. فقد ذكر الشرفيُّ في مخطوطته اللآلئ المضيئة عن نشأته قوله: ((نشأ نشأةَ السَّابقين من سلفه عليهم السلام في الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)).

وبالفعل عندما أصبح إماماً أبطل كثيراً من البدع السائدة كالتبرك بالأشجار وغيرها وأقام الحدودَ، ففي (سنة ١٠١٧هـ) كانت هناك شجرة بالقرب من شام مور يقصدها البدوُ من شمال اليمن للزيارة والتبرك وتقديم الذبائح، ويعتقدون فيها، فجمع الإمام العسكر، ثم قصدها فقطعها بعد الإقامة عندها ثلاثة أيام وجمع حطباً وأحرقها.

وسنرى في الخطابات الموجهة لأولاده الكثير من الوصايا التي تدل على تمسكه بأهداب الدين، فقد أورد الجرموزي مؤلف سيرته الكثير منها، ففي رسالة وجهها لولده محمد وهو في شهارة قوله: ((إني أوصيك ألاَّ تترك الدرس للقرآن يوماً واحداً ولو في كل يوم جزأين أو جزءاً واحداً لا تترك ذلك أبداً، وعليك بصلاة الجماعة فإنها من الواجبات ولا يغرك قول من يقول: إنها سنة، وعليك بملازمة العلم وطلبه؛ فإنه من أكبر الفرائض،

واستعن على ذلك بتقوى الله سبحانه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩] والفرقان هو الفهم والفطنة..)) إلى آخر هذه الوصية التي يظهر فيها أثر النشأة الصالحة وانعكاسها على المجتمع وتربية الجيل في المستقبل، وهناك الكثير من الأمثلة التي تعكس شخصية الإمام وأثر التربية الإسلامية فيه، وَرَدَتْ في الخاتمة عند التعرض لشخصية الإمام.

أما صفاته فكان وسيط القامة معتدلها، إلى السمن أقرب، واسع الجبهة، عظيم العينين، أسمر اللون، واسع الفم، أشم الأنف، طويل اللحية عظيمها، ضخم الذراعين أشعرهما، فصيح العبارة، سريع استحضار الأدلة، كثير الحلم، يصبر على المكاره ويتحمل العظيم، كثير الورع.

أما علمه فمما لا يفتقر إلى بيان، والدَّليل على ذلك كثرة مؤلفاته؛ إذ يعتبره بعض المؤرخين أنه مجددٌ في المذهب الزيدي، وصاحب المذهب المختار، وسنتعرض لهذه المؤلفات لنعرف مناسباتها ونظرياته في المذهب الزيدي.

أشرنا إلى أنه بعد أسر الإمام الحسن بن علي بن داود ونفيه إلى الأستانة، أصبحَ مَكانُ الإمامةِ خالياً، ولم تكن هناك شخصية تناهض العثمانيين، فأخذ أصحابُ الرأي من الزيدية في التفكير فيمن يتولى هذا الأمرَ الشاقّ" نظراً لوجود والٍ عثماني قوي، هو الباشا حسَن وكتخداه سنان. وتعاليم المذهب الزيدي هي التي ساعدت هؤلاء على التفكير في اختيار شخصية قوية للخروج على العثمانيين، فإن المذهب يبيح الخروج على السلطة القائمة إذا كان هناك ما يبرر ذلك كالفساد أو الاضطراب، وأن يخرج أحد هؤلاء الأشراف جاهراً بإمامته حاملاً سيفه مدافعاً عن هذه الإمامة، ومن ثمّة وقع اختيارهم على الإمام القاسم لتقديره للمسئولية التي ألقوها على عاتقه، وقد أظهر تردده في قبولها.

وينقل لنا معاصرُه الجرموزي قول القاسم: ((كانت الإمامة لا تعرض في فكري لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض)).

وكان ممن أشار عليه بالقيام السيد علي بن إبراهيم صاحب الشاهل، والسيد صالح بن عبد الله بن داود الغُرباني القاسمي، وأنشأ قصيدة حث فيها الإمام على القيام مطلعها:

ضاع الوفاءُ وضاعت بعده الهمم		والدين ضاعَ وضاع المجد والكرم
أحكامهم في أمور الدين منبعها		آراؤهم وكتاب الله بينهم

وبعد هذا الإلحاح منهم قبل الإمام هذا الأمرَ، فأخذ يتنقل من مكان إلى آخر، من بلاد الشرف، ثم دخل صنعاء متخفياً يقرأ ويدعو الأعوان في مسجد داود، وكان العثمانيون قد شعروا بخطورته قبل ظهور إمامته، فأخذوا يجتهدون في التجسس عليه ومطاردته، وبذل المال الكثير في سبيل ذلك، وقد استعملوا التنجيم للدلالة على معرفة مكانه.

وقد ظل الإمام سنوات متخفياً يطوف الأقاليم حاثاً الأهالي على الانضمام إليه، عاكفاً على العلم والتدريس والتأليف. وكان تارة يختفي عند ما يشتد به الخوف مع جماعة من خالصي أصحابه الذي يأخذون عنه العلم إلى فلاة من الأرض بحيث ينقطع خبرهم عن الناس ولا يدرون أين هم، فتمضي أيام على ذلك ولا يشعر العثمانيون إلاّ وقد استولَى على مواضع، وما زال هكذا مع الإقدام والصبر الذي لا يقدر عليه أحد، حتى إنه في بعض الأوقات لا يجد هو وأصحابه ما يأكلون عند اختفائهم، فيأكلون من نبات الأرض، وقد يكابد الشدائد حتى يُظَن أنه لا يعود لمناجزة العثمانيين وإذا هو قد وثب على بعض المواضع.

وكان أول ظهور دعوته من جبل حديد قارة، وسانده أحد مشائخ المنطقة وهو أبو زيد بن سراح شيخ بني سنحان، وكان أشار عليه بعض أصحابه في الدعوة من هنالك لأهمية الموقع ونصرة القبائل، ولحصانته وبعده عن مركز العثمانيين، فاستصوبه، فوصل إليه ومعه ستة من الرجال في ضيافة أبي زيد، ولكنَّ أبا زيد رجح للإمام الطلوع إلى جبل قارة، وأول من بايعه رجل من مشائخها يسمى الشيخ عبد الله بن مسعود، وكان باسم الوجه وافر اللحية، فتيمن الإمام به وتبعه بقية الناس الذين حضروا الجمعَ وكانوا حوالي أربعين رجلاً، وقد أمد الشيخ أبو زيد الإمامَ ببندقتين وبارود ورصاص، ولم تكن البنادق متوفرة إلا مع أرباب الدولة وقرَّب إليه فرساً ليركبه، فسأل عن اسمه، فقيل له: الفتح، فانشرح فؤاده بهذا الاسم.

وقد اعتمد الإمام في بث دعوته على الخطابات والرسائل المطوَّلة والكُتُب المثيرة التي

كان يرسلها إلى الأفراد والجماعات، وكانت تحمل المبادئ التي يدعو إليها والتي كانت تتلخص في عدم الخضوع للعثمانيين؛ نظراً لفساد حكمهم وخروجهم على مبادئ الدين، فقد جاء في إحداها:

((أما بعد، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، وإنا ندعوكم إلى جهاد أعداء الله الذين ظلموا العباد وأظهروا فيها الفساد وشربوا الخمور، ونكحوا الذكور، واستباحوا دماء المسلمين المحترمين من المؤمنين وقتلوا الأطفال والنساءَ ومن لا يحمل سلاحاً من الضعفاء والمساكين وأنتم تعلمون ذلك ولا تجهلون)).

ومن خطاب آخر: ((ولا ترخصوا لأنفسكم في مداراقم فإنا نعلم أنه لو لا مداراتكم بالمال لما استقامت لهم راية أبداً، فذلك منكم معاونة على إثمهم)).

وقد وجدت دعوة الإمام القاسم استجابةً كبيرة لدى الكثيرين من أهل اليمن، رأوا فيها تعبيراً عن تذمرهم من سياسة العثمانيين وتصرفاقم، وذلك رغم تقاعس أغلب هؤلاء الأهالي عن الوقوف إلى جانبه خوفاً من بطش العثمانيين بهم، فمما لا شك فيه أن دعوة الإمام القاسم قد لاقت نجاحاً عظيماً وأنصاراً انضموا إليها، وذلك يرجع إلى سوء تصرف بعض الولاة والجند العثمانيين، مما كان يثير في نفوس اليمنيين الضيق والتذمر بعض التصرفات التي تسيء إلى سمعتهم الدينية رغم أنهم أتوا لحماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين، وقد حقق بعضهم استقراراً كحسن باشا بالقوة والشدة.

كما أنهم لم يقوموا بإصلاحات شاملة تجذب اليمنيين إلى حكمهم، وكان الأجدر بهم أن يعملوا على كسب اليمنيين بأن يفهموا ما تميزوا به من ظروف طبيعية وبشرية خاصة، وكذلك الظروف الاقتصادية التي نتجت عن حصار البرتغاليين، ولو تفهَّم العثمانيون تلك الظروف وعاملوهم على ضوئها لتغير تاريخ اليمن، لكنهم بالعكس أرهقوهم بدفع أموال أدت إلى تذمر اليمنيين منهم؛ إذ أنهم تحملوا الخراج الذي كان يرسل إلى إستانبول سنوياً، وكان الوالي العثماني يستعمل القسوة في جمع الأموال المقررة على الأهالي.

وقد أشار الجرموزي إلى ذلك بقوله: ((أما المال فلهم في أخذه سطوة، فقد يعذبون أهله العذاب العظيم، مثل ضرب السياط قليلاً أو كثيراً، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت

مع المساهرة والكي بالنار وغير ذلك)).

وهكذا يتضح أن هذه الأسباب كلها أدت إلى تذمُّر اليمنيين من العثمانيين واستجابوا لأي دعوة معارضة لحكمهم، وقد عبر عيسى بن لطف الله عن أسباب استجابة الأهالي للإمام القاسم بوضوح، رغم انحيازه للعثمانيين حينذاك، ومعارضته للإمام القاسم؛ لأنه من آل شرف الدين، فقد قال: ((وقد كان قبل الفتنة أطبق على العباد الجور، وضعفت البريةُ، واستهلك العمالُ أموال الرعية، وقاست القبائل من الظلم أشد التعب والهول والنصب، فمن أجل ذلك أشعلت القبائل نارها وحملت على جنوبها أكفالها وأصدقت مع الإمام الحروب))، وقد ساعد على نجاح دعوة الإمام طبيعة اليمنيين أنفسهم وطبيعة مذهبهم الزيدي بالإضافة إلى قوة شخصية الإمام القاسم بوجه خاص وإصْراره على مواصلة الجهاد وصبره على تحمل المشاق.

وكان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر حاكم حجة وأقاليمها هو أول من حارب الإمام القاسم إذ قام بمهاجمته هو وجماعته عند ما علم بتجمعهم لأول مرة في جبل القارة، وكان عبد الرحيم أول من أبلغ حسن باشا بقيام الإمام، وذلك عندما فشل هجومُه على الإمام للقبض عليه، وهذه البداية من عبد الرحيم هي التي أشعلت الحرب ضد الإمام، فقد اتخذ حسن باشا الاستعدادات اللازمة للقضاء على دعوة الإمام في بدايتها، فأرسل الجيوش والمعدات الوفيرة إلى المناطق الشمالية قبل أن تسقط في يد الإمام، غير أن استجابة القبائل للإمام، كانت أسرع، فقد هاجمت قادة العثمانيين، ومن معهم من اليمنيين، مثل مطهر بن الشويع وعبد الله المعافَى الذي حاصره أصحاب الإمام في السودة سبعة أشهر حتى اضطر إلى تسليم نفسه للإمام. ونستغني من رسالة (أميرة المداح) بهذا والبقية قد سبق مضمونها في خلاصة المتون، فلا نكرر، ولو تأملْتُ الرسالة من قبل لاستغنيتُ بها لما فيها من تحليل وأسلوب حسن مقبول في العصر فعلى الراغب أن يقرأ رسالتها من أولها إلى آخرها.

وأما سيرة الإمام القاسم بشعرها ونثرها وعجائبها فهي في مجلدات كاللآلئ المضيئة، وسيرة الجرموزي، وأنباء الزمن و... و... ومما قصَّر الأولون في نشرها، إلاّ ما نَشَر منها والدي العلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة رحمه الله بجهوده طول عمره، ومنها هذا

(خلاصة المتون)، وكان يقول لهم: اطبعوا كتبي وإلاَّ فسيكتب لكم مَن بعدنا تاريخاً أسود، فاستجاب سيف الإسلام محمد بن الإمام يحيى، وأعان على طبع بعض الكتب في فترة قصيرة، انتهت باستشهاده غريقاً في بحر الحديدة، ثم أعان الإمام أحمد والدي على طبع جزئين من نشر العرف وبعض أئمة اليمن، ولو تمكن والدي من نشر هذا (خلاصة المتون) لسدَّ فراغاً كبيراً؛ لأنه كان سيُهذّبه ويحققه ويشرف على طبعه) والآن نعود إلى خلاصة المتون.

لما مات الإمام القاسم عليه السلام قام بأمر الإمامة والرئاسة العامة الإمام المؤيد بالله حليف العبادة وقرين الزهادة قاموس العلم وطود الحلم محمد بن أمير المؤمنين عليهما السلام، وبث دعوته في الجهات الإمامية، وقال بإمامته أهل الديانة المرضية، وسارع برفع خبر وفاة والده إلى الباشا محمد وعرَّفه بما تحمَّله من أمر القيام بالدعوة، وأنه باقٍ على الصلح الموضوع والحكم المشروع، وأهدى إليه نسخة كتاب الكشاف، وكانت نسخةً عظيمةً بالخط الرائق والصحة الكاملة؛ وطلب منه إطلاق رجل من الرهائن، فأجاب عليه الباشا محمد بجواب عظيم شامل للمقاصد وأطلق الرجلَ المطلوبَ إطلاقُه[1].

وفي هذه السنة وصل الأمير حسين الكتخداه إلى بعض جزائر بحر اليمن مغاضباً لباشة مصر، فاغتصب ثلاثة مراكبَ شحنها بالمدافع وغيرها، فأمر الباشا محمد بحفظ البنادر منه، ولما وصل باب المندب مال عليه أصحابُه فقتلوه.

وفيها وصل إلى الإمام المؤيد بالله وهو في الهجر جماعة من أصحاب أبيه، كان الأرْوامُ أسروهم وسجنوهم في بعض الجزائر وصاروا يستعملونهم في أعمال المراكب، فاجتمعوا وهم قدرُ مائة نفر، وقتلوا أمير المركب، وحملوا ما قدروا عليه من السلاح وغيره، وخرجوا من جهة أُحور وكبيرهم رجل من سحار.

وفي هذه السنة وقع اضطراب في سحار فقصدهم أمير الشام أحمد بن الإمام القاسم، فصلحوا واستقاموا، وكان الإمام القاسم، قد ولَّى ابنَه أحمدَ بلاد الشام (سنة ١٠٢٧هـ)، فكانت طريقه إلى حيدان، ثم إلى ساقين، ثم دخل صعدة، ونظَّم أمورها

---

(١) سبقت المكاتبة بين المؤيد والباشا قبل نحو كرَّاس نقلاً من رسالة أميرة المداح.

وتولاها واستمر بها إلى أن خرج صنوه الحسن من الحبس من الدار الحمراء بقصر صنعاء، فولاه الإمام المؤيدُ بلاد الشام خلفاً لأخيه أحمد كما سيأتي.

وفيات سنة ١٠٣٠هـ

صالح بن عبد الله حنش

في (محرم سنة ١٠٣٠هـ) توفي بشهارة الفقيه العالم الفاضل صالح بن عبد الله حنش. وكان يسكن ذيبين، وهو بقية العلماء الأعلام بها، ثم وصل لزيارة الإمام المؤيد إلى شهارة وبها توفي.

جابر بن محمد الغشمي

وفيها توفي بشهارة الفقيه العالم جابر بن محمد الغشمي. وكان مهاجراً بأهله في شهارة عالماً فاضلاً.

وفيات سنة ١٠٣١هـ

سعد الدين المسوري

وفي (٢١ هـ ذي القعدة سنة ١٠٣١هـ) توفي بالهجَر الأهنوم القاضي العلامة سعد الدين بن الحسين بن محمد المسوري، نسبة إلى مسور المنتاب ببلاد حجة.

وكان مشاركاً في علوم الأدب وغيرها، شاعراً فصيحاً من أعيان أصحاب الإمام القاسم، وكان والده الحسين بن محمد من أصحاب الإمام شرف الدين، قال في الطبقات وبغية المريد: ((إن القاضي سعد الدين رحل إلى صنعاء لطلب العلم، وكان رسولاً بين الإمام القاسم والباشا محمد في الصلح، وكان زاهداً ومن الْمُؤثِرين على أنفسهم في الشدة، ومن مشائخه السيد شرف الدين الحمزي، والقاضي المهلا بن سعيد، ومن تلامذته ابنه العلامة شيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسوري، والمولى محمد بن الحسن بن القاسم وغيرهما)).

عبد الرحمن الطباطبي

وفيها مات بصنعاء السيد العلامة عبد الرحمن الطباطبي الحنفي الحاكم بصنعاء من جهة السلطان، وكان فيصلاً في الحكومات، انتقل من زبيد (سنة ١٠١٢هـ)، والصحيح أن وفاته (سلخ ذي القعدة سنة ١٠٢٩هـ)، وهو السيد عبد الرحمن بن الصديق بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله بن أبي الغيث بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن إبراهيم بن أبي القاسم بن إسماعيل بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن الحسن بن أحمد بن الإمام محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد سكن ذريته بالروضة إلى الآن. وكان يُدرِّس لا سيما في الحديث.

أحمد بن محمد الخزرجي

وفيها توفي الفقيه أحمد بن محمد الخزرجي مُوقِّع الديوان وكاتب الإنشاء للباشا محمد.

حـــوادث

في (سنة ١٠٣١هـ) عُزل الباشا محمد بالباشا أحمد فضلي؛ فخرج من صنعاء في (ربيع الآخر سنة ١٠٣١هـ)، وتوجَّه إلى مكة، فمات فيها هو وأحد ولديه، والثاني قُتِل بينبع، فأخذ شريف مكة جميع أثقاله وانتُهب الباقي. وكان الباشا محمد يغلب عليه البخل والشح، ومنَع أرزاق كثير من الناس، وقصَر العطاء على من نفع مع التقتير ووقع القحط في زمانه، وقد ورد في الحديث لعائشة: (لا تُوكِئ فيوكَى عليكِ)، رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري، والبخل والجور سبب قلة الأمطار في الأغلب.

وكان الباشا محمد يميل إلى مذهب الإمامية. وله من المآثر - غير ما سبق- المشهد الذي على السيد عبد الله بن علي بالرهط وجامع يريم والقبة التي على الشيخ العلامة حسن الحافظ بيريم.

وكان بإقبال الباشا أحمد فضلي إقبال الخيرات العميمة، والنِعَم العظيمة كما قال الشاعر:

إنما الدنيا هباتٌ		وعَوَارٍ مستردَّة
شدة بعد رخاءٍ		ورخاءٌ بعد شدة

فمنَّ الله سبحانه بالمطر وأخضرت الأرض وصلحت الثمار.

وفيها تيسر خروج الحسن بن الإمام القاسم من الحبس بالدار الحمراء بقصر صنعاء، وكان قد أرسل بعض ما معه من الحوائج والكتب مع رسل وجمَّالين كانوا يأتون إليه بطعام وغيره، حتى لم يبق ما يعوَّل عليه، وكان مثل ذلك غير مستنكر منه؛ لأجل البيت الذي معه بصنعاء وببئر العَزَب؛ إذ كان أهله يختلفون إليه وأخذ حصاناً عظيماً أظهر أنه يريد أن يُقدِّمه للباشا أحمد فضلي الواصل، وأخذ في إعمال الحيلة، فنقب سقف المكان الذي هو فيه إلى تحت، ثم نزل إلى المنزل الذي تحته فنقبه، ثم كذلك الثالث، ولما بلغ أسفل الدار عالج قلع حجر في الجدار إلى خارج الدار، فما زال به حتى أخرجه، وتركه على حاله كل هذا في النهار، وقد أعدَّ مُغَلِّقاً للحطب له بباب الدار ليغالط صوت نقبه للثلاثة السقوف والجدار، ثم عاد بالحَبْل إلى مكانه وغطَّى على محل النقب إلى الليل، وكانت صنعاء خالية من الباشتين، ففضلي لا يزال بتعز، ومحمد قد سافر إلى تهامة، وأمر الحسن بفرسه أن يُسرَج ويلجم، وكان في بئر العزب، وكان بجنب داره حرس من الترك لا ينامون وعرف عدم نومهم بهر كان قريب النقب فكانوا يرجمونه بحصا. فلما كان آخر الليل هبت ريح شديدة وجاء حارس آخر نام بسرعة، وسكن ذلك الهر، فاستخرج الحسن ذلك الحجر في الجدار وخرج، وكان معه حبال لأجل نزوله بها من الدائر إلى خارج صنعاء ومعه الشيخ علي شمسان، فتفاءل الحسن بصوت سانٍ شرع في المسنا في آخر الليل يدلي حباله في البئر، ويصيح (دندل حبالك واستعين بالله)، ثم ارتقى إلى الدائر ونزل وركب حصانه الذي كان قد أمر خادمه أن يوصله إلى ذلك المحل، فما أصبح عليه الصباح، إلاَّ وهو وأهله في زيلة الخارد، وكان قد واعد أهله بالخروج إلى هنالك.

ولقي جماعةً من القبائل فأمرهم أن يصرخوا للقبائل الذين حولهم للقياه خشيةً من أن يلحقه أحد من صنعاء، فاجتمع إليه عيال عبد الله وغيرهم إلى موضع من بلادهم يسمَّى زندان، وكلما مرَّ بقبيلة ساروا معه، ثم سار مسرعاً، وأهدَى له القبائلُ غنماً كثيرة، ثم طلع بمن معه شهارة، فأمر الإمامُ المؤيدُ أخاه الحسين أن يلقاه، وكان وصوله أعزَّ

وصول، ونزوله أكرم نزول، واستبشر الناس بوصوله الميمون وقرت به العيون. ولما وصل الباشا أحمد فضلي إلى صنعاء طلب الأمراء إلى ديوان القصر وعاتبهم في خروج الحسن من بينهم وكيف خفي ذلك مع خروج أهله وجميع ما معه؟ فأجابوا بأنهم في المدينة ولا عهدة عليهم في القصر، ولا يدرون ما هنالك وأن العهدة على آغا القصر المسمى علي آغا فضرب عنقَه.

وأمر بالتحريج على اليهود في بيعهم الخمرَ من المسلمين، وتوعدهم بالنكال إن باعوا للمسلمين، وقتلَ محاسبجياً، والنقيبَ علي سعدان لما سكرا من شرب الخمر. وبعد دخوله صنعاء كتب إلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم يطلب أن يبقى الصلح الذي عقده محمد باشا على حاله، فأجابه بالإسعاد، وفي عيد الأضحى (سنة ١٠٣١هـ) وقعت فتنة بين عساكر الشام وعساكر سحار بصعدة، ومدَّت آلُ عمار يدها للانتهاب في الطرق، فأمر أحمد بن الإمام القاسم بقتل جماعة من مشائخهم بعد أن قبض عليهم، فحصل من أهل الشام انحراف، وخرج أحمد بن الإمام إلى بلاد آل عمار، وأخرب بعضَ ديارهم، فشكا أهلُ الشام ذلك إلى الإمام، وذكروا كثرةَ الاحتجاب والخراب الواقع في ديارهم، فكتب الإمام إلى صنوه أحمد بأنَّ لأهل الشام من السوابق ما لا يخفى فيرعَى حقَّهم ويُطيِّب نفوسهم.

وفي (سنة ١٠٣٢هـ)، اضطربت خولان صعدة، ومن إليهم، ومنعوا عن تسليم المطالب إلى أحمد بن الإمام، فجهز الإمام المؤيدُ أخاه الحسنَ بنحو ألف راجل وثلاثين فارساً، وكانت طريقه حيدان فأقبل إليه أهل تلك الجهات، ولم يصل أهلُ شعب حيٍّ بعد أن كاتبهم ووعظهم وخوَّفهم، فلم يقبلوا فسار إليهم السيد يحيى بن لطف الباري، والسيد علي بن حسن بن شرف الدين، فدخلوا بلادهم وانتهبوها.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم عثمان بن أحمد خان، وقام بالأمر بعده أخوه مراد بن أحمد خان.

عبد الله بن المطهر

وفيها أو في التي بعدها مات الأمير عبد الله بن المطهر بن شرف الدين، وكان أميراً كبيراً مع عساكر السلطنة. وفي هذه المدة رُخصت الأسعار وصلحت الثمار في جميع

البلاد حتى بلغ القدح إلى ثلاثة كبار بعد أن بلغ في أيام الباشا محمد القدح إلى خمسين بقشة - وكان القدح نصف قدح اليوم -.

قال الأميرُ (كاني شلبي): ((كان الباشا أحمد فضل الله رجلاً يغلب على ظاهر أحواله الحَدَبُ، وكان يخاف من الله ويلوذ بالصالحين، وكان كثير الصدقات إلى العلماء والأشراف، وأزال دنانَ الخمر، من بيوت الذميين، وقال: لم يتوقفوا على ما قرر عليهم، وشنق يهودياً باع الخمر بعد نهيه. وقيل: إنه بعد نهيه لهم خرج في الليل إلى شارع اليهود متغرراً، فطلب بيع الخمر ليعرف هل نفذ أمره أم لا؟ فقال صاحبُ البيت: الباشا قد منع ونخاف منه، فقال: هذا جوف ليل وهو لا يعرف، فباع منه، فلما أصبح الصباح شنقه تحت طاقة بيته، وطهر المدينة. فكان يدور في الليل بنفسه على بيوت الأشراف للصدقة. وكان كثير الصلاة والجمعة والجماعة، ومن تأخر عن ذلك عاقبه أشد العقاب، وبرزت أوامرُه إلى سائر الولاة بإقامة الجمعة والجماعة حتى عُمرت المساجد في زمنه، وكان يسير على قدميه إلى الجوامع للصلاة، من جملة الناس، وكان زمانُه زمانَ خصب ورخاءٍ ويمن وأمن في جميع الطرقات.

وفيها حصل تغيير من الفرنج في البحر، فقصدهم فركب في عسكره، وهو يحث السير، فوصل المخا وقد سدوا بابَه وأرادوا دخوله فاستأصلهم في البحر، ومنعهم عن دخول البر، واستولى على مراكبهم وعاد إلى صنعاء، وقد أسر كثيراً منهم، وأمر بعمارة قلعة في ساحل المخا من خارجه، وجعل فيها رتبةً من أعيانه)).

محمد بن علي عشيش

قال في الجامع الوجيز: وفي (١٤ صفر سنة ١٠٣٢هـ) توفي بهجرة حوث السيد العلامة محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن محمد بن الإمام يحيى بن حمزة الملقب عشيش، وكان عالماً فاضلاً زاهداً.

وفي (سنة ١٠٣٣هـ) بلغ أحمد فضلي باشا قدُوم حيدر باشا بولاية اليمن، وهو الذي كان الكيخيا في أيام الباشا جعفر، وكان على يده قبض الحسن بن الإمام في عرة الأشمور، كما سبق فتجهز أحمد فضلي للمسير، فلما وصل إلى أبي عريش مات به، وكان قد استخلف على صنعاءَ الأمير كاني شلبي، ولما ماتَ فضلي أرسل كاني شلبي

الأمير خضر في مائتي نفر لإرجاع خزانة فضلي إلى صنعاء، فمنع عليها عسكرُ فضـــلي، فأرسل الأمير محمدَ بنَ سنان لقبض الخزانة، فسار عن طريق حجة حتى بلـــغ الصـــلبة، وسار إلى أبي عريش فقبض خزانةَ فضلي وحملها إلى زبيد؛ وسبب المسارعة بعزل فضلي تجدد قيام السلطان مراد أحمد؛ إذ كان توليته من السلطان عثمان أحمد، ولما دخل حيدر باشا إلى أطراف اليمن، كتب إلى الإمام المؤيد في صفر (سنة ١٠٣٣هـــ) بتقرير الصلح، فرأى الإمامُ المصلحة في تقريره.

ولما وصل حيدر إلى المخا قتل الأمير محمد بن سنان؛ لأن العسكر كـــانوا يحبونـــه، فخاف منه ومنهم، وقبض خزانة الباشا، فضلي، ومن مآثر الأمير محمد بن سنان في تعز حال ولايته لها مدة الباشا جعفر إجراء الساقية من جبل صبر إلى تعز بحافـــة المربـــاع، وجعل هنالك سبيلاً لاستقاء الناس، ووقف على ذلك أوقافاً كثيرة لإصلاح ذلك المنهل وانتفع به أهل المدينة.

وكان محمد بن سنان مقداماً مهيباً، ولما قتل قال كثير من الكبار العـــارفين: ((الآنَ ذهَب ملك اليمن))، لما عرفوا من رئاسة محمد بن سنان وتخليط حيدر، ولما وصل حيدر إلى تعز قتل علي عابدين وغيره من أمراء الجند خشيةً من أخذهم بثأر محمد بن ســـنان؛ لأنهم كانوا من خواصه.

وفي (سنة ١٠٣٣هـــ) توجه للحج المولى العلامة الحسين بن الإمام القاسم وصحبه الشيخ العلامة لطف بن محمد الغياث، وجماعة من السادة والعلماء.

في (سنة ١٠٢٩هـــ) في المحرم منها ظهر السيد ناصر محمد صَبَح من أشراف غربان. كان في ابتداء أمره من أعوان الإمام القاسم، وقد أخذ قليلاً من العلم فسولت له نفسُـــه الدعوةَ إلى الإمامة، وخرج من شهارة إلى الحيمة، وأظهر الدعوة وزعم أنـــه المهـــدي المنتظر وغرَّ العوام بلمعة بيضاء كانت في رأسه أشبهت رقم الجلالة. فعظم على الإمـــام فعلُه خشيةً من اضطراب أهل الحيمة وغيرهم؛ فيكون سبباً لنقض الصلح بينه وبين الباشا محمد، فكتب إلى السيد المذكور: ((إنك من أولاد الحسن بن علي والمهدي المنتظر إنمـــا يكون من أولاد الحسين، وهو لا يظهر إلاَّ من مكةَ في آخر الزمان)).

ثم بعث رُسُلاً إلى الحيمة وأمرهم بالقبض عليه وإيداعه الحبس في حصن يناع ففعلوا،

فأخذ في التغرير على أهل الحصن، وذكر لهم أن مدة الإمام القاسم قد انقرضت وقربت وفاتُه، فأطلقوه فما برح يتنقل في الحيمة وصادف وفاة الإمام عقيب ذلك، فـآل إليـه جماعةٌ وصدقوا قولَه وفشا أمرُه في بني مَطر وبقلان فجهَّز الباشا محمد عسكراً إلى تلك الجهة، فاستولوا عليها وأسروا من أهلها ما يزيد على مائة نفر.

فأمر الباشا محمد بضرب أعناق مشائخهم وفرَّ السيد ناصر محمد صَـبَح إلى بـلاد العصيمات، ثم قُبض عليه وأُتيَ به إلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم، فأودعـه سـجن شهارة، ثم توفي بشهارة وسيأتي إن شاء الله أنه بقي للتدريس بشهارة مُطْلقاً محترماً.

وفيـــات

(أمير الدين بن عبد الله بن نهشل)

في (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٢٩هـ) توفي بحوث السيد الإمام شيخ آل محمـد الكرام أمير الدين بن عبد الله بن نهشل بن المطهر بن أحمد بن عبد الله بن عز الدين محمد بن إبراهيم بن الإمام المتوكل المُظَلَّل بالغمام المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهـر بـن القاسم بن المطهر بن محمد بن علي بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى. قـرأ علـى الإمام شرف الدين، وعنه أخذ الإمام القاسم وغيره، وكان الإمام القاسم قد ولاه بـلاد حجة. وتوفي بعده ولده أحمد بن أمير الدين في (٦ رجب سنة ١٠٢٩هـ).

وفي (رجب سنة ١٠٢٩هـ) توفي السيد العلامة علي بن صلاح القاسمي.

محمد بن عبد الله العياني

وفي (٢٥ شوال سنة ١٠٢٩هـ) توفي بشهارة السيد العالم المجاهد محمد بن عبد الله بن علي بن داود بن علي الحكيم بن عبد الله بن عسكر بن مُهنَّا بن داود بن مُهَنَّا بـن داود بن القاسم بن إبراهيم بن محمد بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم بن علي العياني بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم الرسي.

عبدالله بن قاسم العياني

وفي (ذي القعدة سنة ١٠٢٩هـ) توفي بسيران الأهنوم السيد العلامة عبد الله بـن

قاسم بن يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن علي بن نشوان بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن نشوان بن علي بن الأمير ذي الشرفين محمد بن جعفر بن الإمام القاسم العياني. ثم توفي بعده ولده محمد بن عبدالله.

محمد بن علي حمزة

وفي مطلع البدور أنه توفي باللحية في (ذي القعدة سنة ١٠٢٩هـ) السيد محمد بن علي بن عبد الله بن الهادي بن يحيى بن عبد الله بن علي بن عبدالله بن محمد بن الإمام يحيى بن حمزة. وكان عالماً كبيراً استأجره المؤيد لتأدية ما أوصى به أبوه الإمام القاسم من الحج، فلما وصل إلى اللحية توفي.

ومن الخاتمة، النتائج والتحاليل للكاتبة (أميرة علي المداح) قولها:

بفضل ما تميزت به شخصيةُ الإمام القاسم جعلت له القدرةَ على إقامة هذه الدولة الرسيَّة الزيدية. فقد كان شديد العزيمة قويَّ الإرادة صبوراً على المكاره قائماً بالعظائم، وليس أدلَّ على ذلك، مما تحمله من الأذى والمشاق في سبيل نشر دعوته؛ لأن ذلك لم يكن بالأمر السهل كما أوضحنا من قبل، وقد رأينا كم من العقبات والانتكاسات صادفته.

فكان يتنقل من مكان إلى آخر يلتمس الأعوان والأنصار، وكان العثمانيون يضيقون عليه الخناقَ ليستسلم دون جدوَى، كما أن سنان باشا عرض عليه بعضَ البلاد ليحكمَها مع كفايته هو وأولاده لكي يكف عن دعوته، فلم يرض الإمامُ بذلك؛ لأن هدفه كما قال هو لم يكن امتلاك الأراضي أو الحكم، كما أن القبائل كثيراً ما كانت ترفض إقامتَه لديها خوفاً من بطش العثمانيين، وكان الإمام يتقبَّل هذه الأمورَ بتجلُّد وصبر ويدعو الله محتسباً، ومثال ذلك حين دبَّ الرعبُ في قلوب القبائل بعد أسر ولده الحسن في بلاد عذر وظليمة والأهنوم وبلاد صعدة. وفي هذا يروي لنا السيد عبد الله الغرباني قوله: ((كنا مع الإمام في نواحي حور فاتخذ موضعاً خالياً وتوارَى في بعض الشعاب ثم كشف رأسه ودعا الله سبحانه بدعاءٍ وبكى كثيراً))، وهناك الأمثلة العديدة الدالة على تحمله المشاقَ، فقدْ فَقَد نعالَه أثناء خروجه من شهارة (سنة ١٠٠٩هـ) متخفياً من العثمانيين، فكان يربط بعضَ ثيابه على أقدامه ليتابع سيره في المناطق الجبلية الوعرة إلى برط.

هذا بالإضافة إلى إيمانه الشديد بالله الذي تميزت به شخصيته، وذلك يرجع إلى النشأة الدينية التي نشأها، ويظهر ذلك جلياً في خطاباته التي كان يرسلها إلى الناس كافة، أو إلى أولاده وولاته في البلاد، فكثيراً ما كان يبدأها بآيات قرآنية مطابقة للغرض من هذه الخطابات.

فمن كتبه إلى أهل وادعة حاثاً على الجهاد ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[الصف:١٠،١١].

ومن كتبه لأصحابه: ((إذا عزمتم فتوكلوا على الله واتقوه وحافظوا على الصلاة ولا ترضوا منكراً ينصركم الله وتواضعوا لله وتيقنوا أن ليس النصر إلا من عند الله)).

كما يظهر تمسكُه بالدين وإيمانه بالله في توجيه أبنائه، فقد أوصى ولده محمداً بقوله: ((إني أوصيك ألاَّ تترك القرآن يوماً واحداً، ولو في كل يوم جزئين أو جزءاً واحداً، ولا تترك ذلك أبداً، وعليك بصلاة الجماعة، فإنها من الواجبات ولا يغرك قول من يقول: إنها سنة، وعليك بملازمة العلم وطلبه، فإنه من أكبر الفرائض)).

وهناك العبارات الدالة على شدة إيمانه بالله، فعندما سُجِنَ ابنه الحسن قال: ((أنا قد أودعت ولدي الله سبحانه وتعالى، وهو لن تخيب لديه الودائع، وإني أتركه وديعة حتى يفرج الله عنه))؛ وذلك لأن العثمانيين منعوا إطلاقه من السجن ورضوا بإخراج سائر المسجونين في صلح (سنة ١٠٢٨هـ) كما سبق.

كذلك كان إذا هزم أو تعرض لأذى ينسب ذلك إلى تقصيره في حق الله، فقد قال لأصحابه أثناءَ حروبه مع جعفر باشا: ((أترون هذه الشدائد؟ إنما أتتنا من قبل تقصيرنا في حق الله، فهلموا نستغفر الله العظيم)).

وكان محارباً وسياسياً محنكاً، فكان يقاتل بالبندقية وهذا شيء عظيم بالنسبة لذلك الوقت؛ لأنه كان شيئاً حديثاً، وكان استعمالها مقصوراً على أرباب الدولة العثمانية. كما تظهر قدرتُه الحربية في مهاجمة قوات العثمانيين ومناوشتها دون التصادم معها، وهو ما يعرف الآن بحرب العصابات التي تعتمد على الكر والفر السريع، وعلى عدم الصدام

الجماعي بالجيوش النظامية، بل تعتمد على الجهود الفردية وتكبيد العدوّ أكبر قدر ممكن من الخسائر، وقد استغل هذه الطريقة لمعرفة أصحابه بطبيعة أقاليمهم، وعلى خفة حركتهم ومرونتهم التي تمكنهم من الاختفاء السريع بعد إلحاق الضرر بعدوهم.

وكان الإمام كثيراً ما يَلجأ إلى جبالٍ حصينة، مثل شهارة وبرط التي يصعب على العثمانيين نقل عُدَدهم الثقيلة إليها، كما يصعب على خيولهم صعودها، كما تظهر حنكته السياسية حين هرب إبراهيم بن المعافَى بمعاونة بعض رجال أهل شهارة، وكان الإمام قد احتجزه بعد إعادة فتحه لها (سنة ١٠١٥هـ) ليُخرِج به ولده محمداً من أسر كوكبان فتظاهر الإمام أنه هرب بنفسه من غير إعانة أحد، وتظاهر بالتفتيش عنه رغم معرفته بمكانه؛ وذلك لكي لا يثير القلاقل بشهارة بعد أن تسلمها، ولكي يتمكن على قبض المعاق وتحقيق غرضه.

ومن حسن سياسته تعظيمه لعبد الرحيم رغم معرفته بخداعه وشراسة أخلاقه أن يكسبه أمام السامعين إلى جانبه، لتخلص موالاتُهم وتحقق ما رمَى إليه؛ إذ تشجَّعت القبائل على الإعلان عن أنفسهم دون خوف من عبد الرحيم الشديد ومن العثمانيين، كذلك استُخدِم المالُ في تقريب بعض القبائل، كما كان يذكِّر القبائل بما ارتكبه العثمانيون من أخطاء ومظالم، وكانت كتبه إلى القبائل تمتلئ بذلك، فقد وجدها مادة غزيرة لتقوية مركزه، وكان كثيراً ما يلجأ إلى رفع الروح المعنوية لدى أتباعه بإشعال النيران في الجبال؛ لإعلان انتصاره وإرهاب العثمانيين؛ إذ كانت العادة أن القبيلة المنتصرة تشعل النار لإعلان فرحها وسرورها بالنصر، ففعل ذلك عندما تمكن من الخروج من شهارة إلى برط (سنة ١٠٠٩هـ).

كما تحلَّى القاسم بصفة الشفقة والرحمة، فكان يتفقد المساكين من حين لآخر، كما شملت رأفتُه الحيوانات، فقد قال لأحد أصحابه عندما دخل شهارة في (سنة ١٠١٥هـ): يا قوم هاهنا بقية هِرَر من سناجيب العجم قد بلغت من الجوع ولا تأكل العنب تأذنوا بتفريق هذا لها، يعني قطعاً من اللحم.

هذه أبرز سماته التي مكنته من وضع أُسُس الدولة القاسمية التي استمر نموها في عهد أبنائه من بعده إذ استطاعوا إخراج العثمانيين (سنة ١٠٤٥هـ سنة ١٦٣٥م) وكانت

أسس هذه الدولة مبنيةً على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف والسنة النبوية الشريفة، فقد أقام الإمامُ الحدودَ على السارق والزاني وشارب الخمر وغيرهم، وقضى على البدع والخرافات التي انتشرت، وطلب من الأهالي التمسك بأهداب الدين ومحاربة العادات المنتشرة بينهم، فقد أمر بقطع شجرة كان الأهالي يتقربون إليها بالذبائح، كما كان يمنع الناس من إقامة القباب على الأضرحة؛ لأن ذلك من البدع التي ابتدعها الأهالي لتعظيم الموتى، وكان إذا فتح بلدةً أراق ما بها من أدنان الخمر، ففي فتحه الثاني لشهارة (سنة ١٠١٥هـ) وجد بها الخمور باقية، فأمر بإراقتها، وقد نشر العدل وحرص على إقامة الجماعة.

وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور في الحرب والسلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصر المظلوم من الظالم، ويرعى الفقير والغني على السواء، ولا يأخذ من الرعية من الخراج إلاّ ما يوافق هواهم كلٌ على حسب قدرته.

بهذه الدعائم بنى دولته التي قويت في أيام ابنه المؤيد الذي تسلم الحكم عن طريق الاختيار، وليس بالنص؛ لأن التوريث ليس من مذهب الزيدية، وذلك يدل على خلو اليمن من إمام قوي ينافس المؤيد وإلا لانضم إليه البعض.

وتميز حكم المؤيد بالاستقرار، فأخذ يقوي قبضتَه داخل ممتلكاته، ثم بدأ خطوته التالية لإخراج العثمانيين من اليمن بمعاونة إخوته أحمد والحسن والحسين، واستولى على المناطق الشمالية بعد نقض الصلح، ولم يبق بيد العثمانيين إلا حصنا ثلا وعمران، كما لم يبق بأيدي حلفائهم آل شرف الدين غير حصني كوكبان والطويلة، حتى هذه الحصون لم تمكث طويلاً فتساقطت. وكان الأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين أمير كوكبان الباقي مع العثمانين قد اضطر أخيراً إلى التسليم للإمام المؤيد في (٢٥ رجب سنة ١٠٣٦هـ) فأبقاه الإمام على ولايته بكوكبان، وأصبح مع أسرته من أكبر أعوان الإمام المؤيد وحاربوا الأتراك إلى جانبه.

وبعد ذلك أخذت الأقاليم اليمنية تخلع طاعة العثمانيين وتطيع الإمام، ودان أشراف صبيا وجيزان والجوف للإمام مقابل إبقائهم في مراكزهم، وصاروا من أعوان الإمام لا سيما شريف الجوف، الذي استولى على تعز بمعاونة الحسن بن الإمام، كما لجأ أمير ذمار

التركي إلى الحسن لاختلافه مع حيدر باشا، فبقاه الحسن في ولايته، واستعان به في قيادة بعض قواته، ثم اتجه الحسن إلى تشديد الحصار على صنعاء (سنة ١٠٣٦هـ) مدة سنتين حتى اضطر حيدر باشا إلى الاستسلام في (رجب سنة ١٠٣٨هـ سنة ١٦٢٩م).

وبعد سقوط صنعاء اتجه الحسن والأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين لإخضاع المنطقة الجنوبية حتى عدن فبسط يده على تعز، ثم سارع أمير عدن إلى الدخول في طاعة الإمام المؤيد. ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد والأقاليم التهامية المحيطة بها مما أثار الرعب في قلوب العثمانيين، فأرسل والي مصر إلى والي الحبشة بالتوجه إلى اليمن لنجدة العثمانيين، فوصل عابدين باشا إلى ميناء المخا على رأس ألف جندي (سنة ١٠٣٧هـ سنة ١٦٢٧هـ)، ولكن عابدين باشا، فشل في إنقاذ موقف العثمانيين، فظل في المخا حتى تقدم الحسن إليه فحاصره، فما كان من ولاة مصر إلاَّ أن أرسلوا قانصوه باشا ففشل ولقيت جنوده هزيمة في آخر رمضان (سنة ١٠٣٩هـ سنة ١٦٣٠م)، وهرب قائد جيشه مذعوراً قبل بدء القتال، مما اضطر قانصوه إلى طلب الصلح لمدة سنة، وتم ذلك (سنة ١٠٤٠هـ سنة ١٦٣١م).

وقد رأى المؤيد وإخوته أن في عقد الصلح فرصةً لتنظيم شؤون البلاد للاستعداد للضربة الأخيرة للعثمانيين، فقد قام الحسن بتفقد البلاد وإصلاح الحصون والقلاع وتوفير ما يلزم من السلاح والعتاد لجميع الجيوش في الأقاليم المختلفة، ثم قضَى الحسنُ على الاضطرابات حول عدن حتى لا ينتهز العثمانيون الفرصة لاسترجاعها، هذا في الوقت الذي كانت قوات العثمانيين تتمزق من الاضطراب وقلة النفقات.

[أول خروج للعثمانيين من اليمن]

ثم تجدد الحرب ثانيةً (سنة ١٠٤٣هـ)، ولم يحرز قانصوه، أي انتصار مما اضطره إلى طلب الصلح سنة ثانية، فوافق المؤيد بالرغم من معارضة أخيه الحسن؛ فعقد الصلح في (٢٠ محرم سنة ١٠٤٥هـ سنة ١٦٣٥م)، إلا أنه بعد عقد الصلح بشهر تحايل قانصوه وهرب من زبيد إلى الحسن وسلم نفسه له لتمرد جنده وتعديهم عليه، فأكرم الحسن وفادته حتى غادر اليمن بحراً إلى مصر، فتم خروج العثمانيين من اليمن في العشر الأوائل من جمادى الأولى (سنة ١٠٤٥هـ سنة ١٦٣٥م).

وهكذا تم إجلاؤهم عن اليمن، وأصبح أول ولاية عربية تنفصل عن السيادة العثمانية التي امتدت إلى كافة الوطن العربي ما عدا المغرب، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وقد ظل حكم الأئمة الزيديين من أبناء القاسم ما يزيد على المائتي عام حتى عاد العثمانيون ثانية (سنة ١٨٧٢م).

وكان إخراج العثمانيين على يد أولاد القاسم يرجع إلى حسن تربيته لهم على تعاليم الدين الحنيف والتعاون ووحدة الصف وحسن تدريبهم عسكرياً، فقد كان يشركهم في المعارك منذ نعومة أظفارهم، إذ خرج الحسن للقتال وهو في الخامسة عشرة، وكذلك أخوه محمد تعرض لأشد الأزمات أثناء حصار شهارة (سنة ١٠٠٩هـ سنة ١٦٠٤م)، ولم يرض بخروجه رغم أن أصحاب والده جاءوا لإخراجه هو وإخوته حرصاً منه على أرواح أهل شهارة، حيث قال: ((لقد وهبتُ نفسي لله سبحانه ولمن في شهارة المحروسة بالله مع المسلمين والعلماء والمستضعفين، وأن الإمام لم يأمرني بالخروج، وفي بقائي سلامة لمن في شهارة))، هذه الكلمة تظهر أثر التربية الصحيحة وحرص الولد على تنفيذ أوامر والده الذي هو بمثابة قائده العسكري.

وقد أرسل الإمام لابنه أحمد خطاباً حين ولاه صعدة في (رجب سنة ١٠٢٧هـ سنة ١٦١٧م)، منه قوله: ((استخرتُ الله سبحانه وتعالى وجعلتُ للولد صفي الدين أحمد ولاية صعدة وبلادها وما والاها من البلاد يُقيم فيها الجمعات، ويَقبِضُ الحقوقَ والواجبات، ويُقيم الشريعة المحمديَّة، ويقسم في الناس بالسوية، ويُنصف المظلومَ من الظالم، ويُؤدب أهل الجرائم، ويأمر بالمعروف ويَنهى عن المنكر، ويُوفِّر الحقوق ويجعلها حيث نأمره به، والامتثال لما قلنا والاستفهام لنا فيما التبس عليه من الأمور وعلى إزالة البدع والمنكرات، وعليه العمل بتقوى الله والتواضع وتقريب أهل الفضل والحث على طلب العلم، وافتقاد المساجد والمصالح والطرقات وإقامة الشريعة وتنفيذها وتعهدها، وإبطال الأحكام الخارجة عن الشريعة)).

هذه كلها وصايا ثمينة، فلم يترك جانباً إلاَّ وأوصاه به حتى طلب العلم.

ومن وصاياه لأولاده: ((اتقوا الله يكرمكم الله وصلوا أرحامكم يُطِل الله أعمارَكم ويبارك في أموالكم، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، إياكم ودماءَ المسلمين، فإن

تبعاتها في الدارين عظيمة، وأصلحوا المالَ، وأكرموا الضيف بما تجدون، ولا يكن لكم عن طلب العلم مانعٌ يستغرق أوقاتكم، ولكن قسموا أوقاتكم واجعلوا خيرها وأكثرها في طلب العلم إلا ما كان لا بد منه في إصلاح حالكم)).

فعلمهم الحنكة السياسية، مثلما فعل محمد مع الباشا محمد بعد وفاة والده لاستمرار الصلح لاستقرار حكمه في بدئه، وأهدى للباشا كتاب الكشاف كما تعلموا من والدهم طريقة التخفي في الخروج من بلد لآخر، وفي إرسال الخطابات بأسماء تعطي المعنى دون التعرف عليهم لحماية أنفسهم وهي طريقة الشفرة المعروفة حديثاً، فقد أرسل الإمام ليطمئن على ولده الحسن عندما أسر في الدار الحمراء أحدَ رسله متخفياً في زي قهوجي، حيث وضع في إناء القهوة ورقةً لمعرفة أحوال الحسن فقرأ الحسن الورقةَ ورد عليها بتوقيع موسى بن علي قائلاً: إن لكل فرعون موسى فأنا موسى الترك وابن علي يريد جده علياً رضي الله عنه.

[موحِّد الدولة اليمنية "إسماعيل بن القاسم"]

وقد اتسعت دولتهم خاصةً في عهد المتوكل على الله إسماعيل، إذ امتدت حتى عُمان، وفي (سنة ١٦٤٤م) امتدت حتى شملت لحج وعدن وحضرموت والشحر، وكان عهده أزهَى عهد الإمامة الزيدية، فقد كثرت الخيرات وازداد عدد العلماء والمتعلمين، فحكم الإمام المتوكل إسماعيل ٣٣ سنةً لم يحدث خلالها أي اضطرابات، وكانت تصرفاتُه يغلب عليها العدل والسخاء والحكمة والدهاء والبراعة في الإدارة وحسن اختيار الولاة، وقوَّاد الجيوش وحماة الأطراف وسن الأنظمة، ومع هذا فقد كان أستاذاً في فنون العلم كرَّس أوقاته اليومية وقصَرها على أمور ثلاثة إدارة شؤون البلاد، وتدريس العلم لتلاميذه الذين يغدون إليه من الآفاق حتى أصبح معظم علماء عصره من خريجي مدرسته، بالإضافة إلى العبادة والذكر، كما اتَّصف الحسنُ بالشجاعة والإقدام، وقيل عنه: إنه نظير المطهر بن شرف الدين أو أرفع منه في الشجاعة والرئاسة.

وقد أقامت الدولة علاقات ودية مع الدول المجاورة لها، مثلاً بلاد الحبشة، فقد أرسل الإمبراطور فاسيلاداس Fasladas إمبراطور الحبشة، بعد قطع علاقته مع أوربا وبعد أن أخذ يتلمس طريقاً للاتصال بالمسلمين ليقيم معهم علاقات سياسية وتجارية، فأرسل

للإمام المؤيد (سنة ١٠٥١هـ ، ١٦٤١م) وفداً محملاً بالهدايا الثمينة ليعقد معه معاهدةً ودية تسمح للحبشة باستعمال موانئ اليمن بعيداً عن الموانئ التي تقع تحت سيطرة الدولة العثمانية، وقد أعاد الإمبراطور الكرة مرةً ثانيةً في عهد الإمام المتوكل على الله إسماعيل (سنة ١٠٥٧هـ سنة ١٦٤٧م)، ولكن لم تذكر المصادر هل تمت هذه المعاهدة أم لا؟

هذا وقد ظهرت نهضة علمية في عهد الدولة القاسمية بدأت في عهد الإمام القاسم وحمل لواءها بعده أولاده الذين أكثروا التأليف، إذ كان القاسمُ كثيرَ التأليف حتى في أثناء خوض المعارك، ففي أثناء اختفائه في برط ألّف كتابه (الأساس) في أصول الدين في مجلد ضخم، وقد قال فيه هذين البيتين:

هذا الأساس كرامة فتلقّه يا صاحبي بكرامة الإنصاف
واحرز نفيساً من نفائس دُره جُمعت بغوصي في خضمٍّ صافي

وقد شرحه جماعة واعترضه الكردي المكي (بالنبراس) فأجابه إسحاق العبدي (بالاحتراس) فكأنه أوجد حركةً فكرية، وكان الأساسُ مرجعُ الزيدية، كما ألّف في النحو (التحفة) وله (الإرشاد في معرفة أعمال العباد) وبعدما استقر بشهارة ألّف (الاعتصام) في فقه السنة، جمع فيه بين كُتُب أئمة آل البيت وكتب المحدِّثين كالأمهات الست وغيرها، ورجح في كل مسألة بما يقتضيه اجتهادُه، ولكنه توفي قبل إكماله، فوصل إلى آخر كتاب الصيام، فأكمله من كتاب الحج إلى آخره السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن أحمد زبارة، المتوفى (سنة ١٢٥٢هـ)، وسلك في تتمته مسلك الإمام القاسم، فجاء كتاباً نفيساً سماه (أنوار التمام المشرقة بضوءِ الاعتصام) في مجلد ضخم، وقد بلغ من أهمية الاعتصام والأساس أنهما أصبحا من أهم مصادر الفقه والأصول حديثاً، وله (التحذير من المعاونة على الفتنة) الذي رد فيه على علماء أصدروا فتوى بجواز مداراة الظلمة، وله (الجواب المختار على مسائل عبد الجبَّار).

وقد برع الإمام القاسم في إنشاء القصائد الشعرية، فله قصيدته المشهورة في الإنكار على الصوفية، وأعمالهم القبيحة سماها (الكامل المتدارك في بيان مذهب المتصوف الهالك) منها:

قد أفسدَ الأقوامُ ثَمَّةَ أحدثوا بِدَعاً تخالف آل أحمد عن يد

ويَرى المســاجدَ لا يقــوم بركعــة　　إلا لشــخصٍ قاعــد متنهِّــد
يــا رب ألحقــني غــداً لمســيرتي　　إن كان إغــراق الزنــادق في غــد

.. إلخ.

ولما ظهرت قصيدته شَكَا الصوفية إلى سنان باشا، فأمر الشريف محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين أن يجيب عليها، فأجاب القاسم على الجواب بقصيدة سماها (حتف أنف الآفك) منها:

الحــق أبلــج واضــحٌ للمهتــدي　　يهــدي إلى ســنن الســبيل الأقصــد
والدين قد وضــحت معالمُــه وضــو　　ح الشمس لا تخفى علــى المسترشــد

.. إلخ.

ومن قصيدته والرد عليها ثم رده على الرد نستنتج بأن هناك انتعاشاً في حركة التأليف في عهده، وله أشعار في مناسبات أخرى منها:

بتضييع حــق الآل في النــاس أجمعــا　　تضعضــع ديــنُ الله حــتى تضــيَّعا
وأضحَى كتــابُ الله فــيهم مُهجَّــراً　　وبدّلــه الغــاوُون شــعراً مُصــرَّعا
وسنة خير الرســل في النــاس أُهملــت　　وأضحت صنوفُ اللهو نهجــاً مشــيَّعا

..إلخ.

ومما قاله في إحدى مرات اختفائه:

ألا يا إلهــي إنــني لــك خاضــع　　وإني في الإحســان منــك لطــامع
وإنــك رحمــن رحــيم وواهــب　　لخلقــك آلاءً ففضــلك جــامع

.. الخ.

وفي أثناء تخوُّفه ببرط قال قصيدته (استفتاح الفرج) منها:

يا حيّ يا قيــوم يــا غــوث الــذي　　يشكو إليك من الــذي قــد جــارا
يا مــن يجــير بفضــله مستضــعفاً　　مستصرخاً متضرعاً لــك جــارا[1]

---

(١) سبقت كاملة.

وله نظم في المواعظ والزجر والعلوم، منه:

يا ذا المريد لنفسه تثبيتا ... ولدينه عند الإله ثبوتا
اسلك طريقةَ آل أحمد واسألن ... سفن النجا أن يسألوا ياقوتا
لا تعدلنَّ بآل أحمد غيرهم ... وهل التراب يشاكل الياقوتا

وله إلى السيد عبد الله بن علي المؤيدي لما عارضه منها:

إن كنت تبغي هدم دين محمد ... فأنا المريد أقيمه بدعائم
أو كنت تخبط في غيابة باطل ... فأنا المزيل ظلامها بعزائم
لولا اشتغالي بالحروب وأهلها ... لوجدت نفسك لقمة للأقم

وقد رثى عمه عامراً وغيرَه بقصيدة ورثى ابنه علياً لما قُتل في موقعة الشَّقَبات.

وبذلك نرى الإمام القاسم قد حمل لواءَ النهضة العلمية في عصره، وأكملها أولاده، فقد أخذوا العلم عنه وعن كبار العلماء كالشيخ لطف الله بن محمد الغياث وغيره، وفي أثناء أسر ولديه محمد وأحمد وغيرهما بكوكبان أحرزوا ينابيع العلوم؛ لأنهم حبسوا مع أعيان العلماء ست سنوات، فاشتغلوا بالدرس، وقد نبغ أولاده في العربية والفقه. والحديث والتفسير ولهم مؤلفات.

ألَّف الحسين (الغاية) في أصول الفقه. وصفه الشوكاني قائلاً: ((هذا الكتاب أصبحَ مَدْرَسَ الطلبة وعليه المعوَّل، وهو كتاب نفيس يدل على طول باع مؤلِّفه، فقد ساق فيه الأدلة سَوقاً حسناً)).

وقد ألَّفه أثناءَ خوضه المعارك ضد العثمانيين مع إخوته، وألَّف إسماعيل بن القاسم (الدين النصيحة في العقيدة الصحيحة) وشرَحها و (المسائل المرتضاة إلى جميع القضاة) ووضع حاشية على (المنهاج) للإمام المهدي في أصول الفقه، وجمع أربعين حديثاً تتعلق بمذهب الزيدية وشرحها، وله رسالة في التحسين والتقبيح.

ولا ننكر أن للعثمانيين باليمن أثراً في انتعاش الفكر والتأليف لسهولة اتصال اليمنيين بالخارج، ولقيام النزاع بين علماء السنة والشيعة؛ إذ كان كلٌّ من المتنازعين ينحاز إلى جانبٍ، وكان العثمانيون يمنحون المنحازين إليهم الهبات، أو يولونهم المناصب لإغرائهم

على الوقوف لجانبهم فمهد الوعي وأدّى لأن تُظهر الإمامةُ الزيدية قوتَها على العثمانيين حتى الصلح ثم إخراجهم من اليمن (سنة ١٠٤٥هـ، ١٦٣٥م).

هذه الحضارة ظهرت في مثل مخطوطات الجرموزي النبذة المشيرة، والشرفي اللآلـئ المضيئة، ولو نظرنا إلى نظم الدولة القاسمية لوجدنا أنها وصلت إلى مستوًى جيد بالنسبة لمستوى عصرها، وقد وجد اليمنيون أنَّ آلات الحرب التي في حوزتهم غير كافية لملاقاة جيوش العثمانيين الجرَّارة بأحدث أسلحتها، بالرغم أن المماليك عند دخولهم اليمن كانوا يحملون من هذه الأسلحة إلاَّ أنها كانت قليلة لقصر مدة حكمهم الذي لم يتعد في أغلب الأحيان منطقة زبيد، ولكن اليمنيين حصلوا على كثير من أسلحة العثمانيين النارية، فكانوا ينقلونها إلى حصونهم وخاصة المدافع الكبيرة فتشجعوا على الوقوف في وجه العثمانيين بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم في بداية الأمر.

واستخدموا في تلك المدافع الجنود العثمانيين المتمردين والفارين إلى الأئمة، خاصة في عهد المؤيد. وقد أجاد اليمنيون التحصُّن في الجبال وتحت الصخور والحجارة، كما استخدموا الزبارط وهي آلة حربية ضخمة تستخدم في رمي النفط وغيره من القذائف، وبعد أن تعلموا استعمال البنادق أخذوا يصنعون البارود والرصاص، ففي (سنة ١٠١١هـ) أثناء وجود الإمام في برط، استخرج الرصاص من خمسة معادن فكثرت خزائنه بالبارود، كما أن محمد باشا في (سنة ١٠٢٥هـ) وضع حراسةً مشددةً على جبل الكبريت؛ لأن أصحاب الإمام كانوا يصنعون البارود منه، مما جعله غالي الثمن.

ومن طرقهم في الحرب طرق التسلل والتخفي، ففي أثناء خروج الإمام من شهارة (سنة ١٠٠٩هـ) خرجوا دفعات مُتخفين، فخرج الإمام والفقيه علي الشهاري، ثم أتباعه على دفعات، ثم أبناه الحسَنان.

أما تموينهم فأكثره العنب أو من النذور، فكانت القبائل تقدمها إلى الإمام وأصحابه مع اللحوم. أو يأكلون الأرز حيث كان الإمام يقيم مخازن لها.

أما أسرى الحرب، فكان الإمام يوزعهم على القبائل لينتفعوا بهم في أعمال الزراعة، وعند المصالحة يفتدي بهم أسرى اليمنيين بعد أن يكسوهم ويزودهم بالطعام والزاد، كما فعل في صلح (سنة ١٠٢٨هـ).

أما الإدارة فقد كان يولي أصحابه، فقد ولَّى بالأهنوم السيد عبد الله بن محمد بن علي المحرابي، وبلاد شظب وظليمة السيد إبراهيم بن جحاف، وبلاد الظاهر السيد صالح بن عبد الله الغرباني، وبلاد ثلا وما يليها كبني قطيل وبني حيش، وبلاد عفار وكحلان، وبلاد مدع والبون عين السيد شرف الدين الحسن بن شرف الدين الحمزي الكحلاني، وولى بلاد الحيمة وما والاها وجبل تيس عمه السيد عامر بن علي، وعلى بلاد مسور وقراضة ولاعة وما يليها السيد أحمد بن محمد المحرابي، وولى حجة وما يليها السيد أمير الدين بن عبد الله بن نهشل، وبلاد الشرف وجهات الحُقار السيد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، وولى بعض جهات خولان صعدة السيد محمد بن صلاح القطابري، وبلاد خولان صنعاء وما يليها الحاج أحمد عواض الأسدي، ولما شب أولاده كان يعين منهم كذلك، فقد عين ولده أحمد على صعدة (سنة ١٠٢٨هـ).

بعد عقد صلح (سنة ١٠١٦هـ) أخذ الإمام في تعمير الأراضي الزراعية، فبنى وادي صومل - وهو واد معروف في جانب عذر الغربي - حيث استقر فيه مدة، وأمر بزراعته وغرس البن والعنب فيه، وكذلك الأرز والذرة، وكذلك في وادي وعر، وأعمال بطَنة حجور فكثر إنتاجه وظهر انتعاش الزراعة في تلك الفترة، حتى أصبح دخل الدولة القاسمية منه أكثر من دخل بيت المال من المواد الأخرى، كما أن الوافدين للدراسة في المدرسة المنصورية كانوا يأكلون من ثمار هذه المزروعات مثل الآرز.

أما بالنسبة للنظم العمرانية فإن أول ما عمر الإمام قرية الهجْرة في برط (سنة ١٠١٠هـ) وحفر بئراً وبنى مسجداً، كما أسَّس جامع شهارة في (٤ محرم سنة ١٠١٥هـ)، وانتهى من إنشائه في العشر الأواخر من محرم (سنة ١٠١٨هـ)، وكان الإنفاق على بنائه من النذور التي تقدم للإمام، وقد ساق حجارته من خارج شهارة، وبه منهل ومنازل للقرّاء.

وبعد استقرار الإمام في شهارة كان يُدرِّس فيه طلبة العلم، فأصبح مركزاً علمياً شهيراً، كما أسس السمسرة في مدينة الهَجَر وهي عظيمة البناء، فإن أهل النظر في الحائر يقولون: إن هذه السمسرة وأساطين جامع شهارة الكبير وعقودهما من عجائب اليمن، وقد وقف الإمام دخل هذه السمسرة على مسجد شهارة ومسجد الهجر الذي أسسه

بعد ذلك، وقد عمر الإمام طريق المدرج إلى شهارة الفيش للجمال والخيل إلى قمة الجبال وأقام الحوانيت والبيوت والسوق وأنشأ السمسرة التي في سوق الثلوث والمسارحة، فإنه أبدع في بنائها، وتمت عمارتها على أحسن حال مع سعة فيها وإحكام، وقد أسس المسجد المعروف بمسجد علي بن الإمام في مدينة صعدة.

لم تقف الأعمال العمرانية على عصر الإمام القاسم، فقد شارك أولاده في هذه النهضة العمرانية في حياة والدهم وبعده، فقد عمر الحسنُ بن القاسم بعض الحصون التي خربها سنان باشا، وعمر الحسين السمسرة في شهارة الفيش والأسواق حولها، وقد اختط الحسن مدينة ضوران، فبنى بها حصوناً وأقام الأحواض حولها، وأصلح الأراضي وغرس الفواكه، فأصبحت مدينةً عظيمة بأسواقها وحماماتها ومساجدها، وأمر كل أمير من أمرائه أن يبني بها بيتاً، وعمروا ما حولها من القرى، وقد دفن الحسن بمدينة ضوران إلى جانب مسجده (سنة ١٠٤٨هـ)، كما عمر أحمد بن الإمام جامع الروضة المشهور. وقد اختط الحسين مدينة الحصين التي عمرها تحت حصن الدامغ (سنة ١٠٤١هـ)، وأقام بها عمارة عظيمة وأجرى الماء وغرس الأشجار.

أما الإمام المؤيد فقد عمر المسجد الجامع في مدينة أقمر جامعاً كبيراً وأجرى السقاية تحته وأنشأ البركة، وبنى السوق في مدينة أقمر وحفر بئراً كان عليها مدار الناس كلهم حيث كان ماؤها غزيراً، وكان هذا الموضع قليل الماء، كما مهَّد الطريق بين أقمر وشهارة وسهلها للجمال والخيل.

أما بالنسبة للجانب العلمي فقد كانت المساجد والجوامع هي المدارس لقراءة القرآن والحديث والتفسير والفقه، وكان القاسم وأولاده يقومون بالتدريس إلى جانب مهام الحكم، وخاصة المتوكل إسماعيل حتى وصلت الدولة في عهده إلى ذروة العظمة والتنظيم، فلم يكن له هم إلا الاشتغال بالعلم والتفكير في أمور الرعايا، فأمنت السبل في أيامه ورخصت الأسعار ولم يتمكن أحد من ظلم آخر في ولايته، ولم يجسر أحد من عماله على الظلم، وتردد التجار لسائر الأقطار، فانشرح الناس لحكمه خاصة وأنهم كانوا قريبي عهد بالاضطرابات والحروب في عهد العثمانيين.

من هذا العرض نصل إلى أن حكومتهم كانت شيئاً إيجابياً على جانب من التنظيم

الذي أساسُه طاعة الأفراد وصلاح الإمام، وهذا ما يجعلنا ننفي الفكرة الشائعة بأن الإمامة عبارة عن سلب ونهب أو كما صوَّرها بعض الكتَّاب على أنها مجرد صراعات.

انتهى النقل باختصار من رسالة (أميرة على المداح).

(سنة ١٠٣٤هـ) فيها ظهرت جراد كثيرة في جهات اليمن، وروي أنها أكلت طفلاً ورجلاً مريضاً في بلاد أملح لم يستطيعا أن يذبَّا عن نفسيهما، ودخل الدبا مدينة صعدة وملأ طرقاتها ودخل الحوانيت والبيوت.

وبعد سفر الباشا أحمد فضلي وصل إلى صنعاء الباشا حيدر فأقبل على اللهو والشراب، وفتح للناس هذا الباب حتى لقد بيع الخمر جهاراً في الأسواق، وكان لليهود سوق بالروضة يبيعون فيه الخمر، وكان حيدر باشا وجنوده قد انهمكوا في اللذات، وكان يخرج إلى وادي ظهر فيشرب الخمر هناك جهراً ويعود على العربة تجرها البقر، وهو سكران ومعه عيال الخزانة، وتارة يخرج إلى حدة بني شهاب ويقعد في المفرج الذي بناه فوق ماجل حدة، ويأمر عيال الخزانة يلعبون في سنبوق فوق ظهر الماء وهم عراة وهو يتفرج عليهم، واقتدى به كثير من الأمراء والناس، وكان سبب زوال دولته.

واتفق أن دخل مرة من حدة فرمَى بدبوسة على ناس في المحوكة في باب اليمن.

وفيها خالف أهل حفاش وملحان على عاملهم الأمير محمد الملقب (مقلّع الأسنان)، فقتلوه وسببُ ذلك أنه كان يشرب الخمر، فدخل المشائخ للسلام عليه يوم الجمعة، فقال: ما موجب وصولكم؟ فقالوا: للسلام، فقال: نطيبكم فحل (تكّة) سرواله وبال عليهم، فأجمعوا عليه وقتلوه.

وفي (سنة ١٠٣٥هـ) غزا الحسن بن القاسم إلى جهات فيفا، فاستفتحها وتلك الجهات من بلاد المرقبان.

وفاة علي بن الحسين المسوري

في (سنة ١٠٣٥هـ في ١٠ ذي القعدة)، توفي بصبيا القاضي العلامة الأديب علي بن الحسين بن محمد المسوري متوجهاً إلى الحج - حكاه في مطالع البدور - وكان قد أخذ العلم بصنعاء وغيرها وسكن الشرف، ومن شعره ما كتبه على كرسي مصحفه

على لسان الكرسي:

صبرتُ على شقي بنشرٍ وإن لي ... بيحيى نبي الله أسوة عارف
فجوزيَ جنات النعيم بصبره ... وجوزيت عن شقي بحمل المصاحف
وصرتُ خليل الأتقياءِ و لم أزل ... على حالة يرضى بها كل عارف

ورثى الإمام القاسم بقصيدة أكثر من سبعين بيتاً منها:

ولكن رزء القاسم بن محمد ... هو الرزء لا ما تدعيه الثواكلُ
إمام بني الزهراء درة تاجهم ... وحاميهمُ إن حُوربوا والمناضل
خضمّ العلوم الزاخرات وشمسها ... إذا أشكلت يوماً علينا المسائل
هو العلَم الهادي إلى الحق والذي ... به يهتدي مَن حيرته المجاهل
هو الغيث غيث المرملين ومن له ... أناملُ غرٌ سحبُهن هواطل
أقام قناة الدين بعد اعوجاجها ... وشيد من بنيانه وهو مائل
وأطفأ نار الظلم بعد التهابها ... وأهلك أسدَ الكفر وهي صوائل
وقاد لحرب المبطلين كتائباً ... تغطي شعاع الشمس منها القساطل
وأعمل في حرب البغاة نوافذاً ... من الرأي لا تُبلي بلاها الجحافل
وقام بأمر الله جل جلاله ... ولم يثنه عن نصرة الدين عاذل
ولا راعه مُلكُ العدو وقهرُه ... ولا صدَّه عنه خؤونٌ وعاذل
أباً كان للأيتام يحنو عليهمُ ... فمالهمُ إلاّه كافٍ وكافلُ
يُفيض عليهم سحبَ فيضِ نواله ... إذا أخلفتهم عن نداها المخايل
وإن نزل العافون سُدَّة بابه ... تلقتهم قبل النُزول الفضائل
وإن أبصروا يوماً بياضَ جبينه ... تجلت غمومٌ عنهمُ وبلابل
فمن علمه تُملَى عليهم مسائلٌ ... ومن جوده تجري عليهم جداول
فيَشفي سقيمَ الجهل ترياقُ علمه ... وتُحيي قتيلَ الفقر منه النوافل
ويحتقر الدنيا احتقار مُجربٍ ... يرى أن ما فيها - وحاشاه - باطل

فـلا لشـهي الـزاد تطلـب نفسُـه ... ولا الملـبس البـاهي تـراه يحـاولُ
إذا قـدَّموا يومـاً إليـه طعامـه ... يقول أمـا غـيري لـه اليـومَ آكـلُ
وإن قيـل هـذا سـائل فكأنمـا ... سروراً بـه أدَّتْ لـه الخَـرْجَ بابـلُ
تـرى الوفـدَ أفواجـاً إليـه كأنمـا ... يُهيـب بهـم داعٍ إلى الحـق حافـلُ
فمِـن آيـبٍ يـثني عليـه بفعلـه ... ومـن قـادمٍ قـد أنصـبته المجاهـلُ
فـذا باسمـه يُزْجـي المطـيَّ مُـؤمِّلاً ... وذا باسمـه يحـدو بهـا وهـو قافـلُ
صفاتٌ لـه لـو أن معشـارَ عُشـرها ... تحلَّى بهـا ذا الخلـقُ لم يُلـقَ خامـلُ
فدع عنـك تعـداداً لـذكر صـفاته ... (فعنـد التنـاهي يقصـرُ المتطـاولُ)
فيا يومَه مـاذا هـدمتَ مـن العُـلا ... بك انزاح عنا منـه تلـك الشـمائلُ
ويا غاسـليه كيـف قمـتم بغسـله؟ ... أيقـوى بتقليـب الشـوامخ غاسـلُ
ويا حامليـه كيـف سـرتم بنعشِـه؟ ... أيـا عجبـاً يمشـي بـثهلان حامـلُ
ويا قبرَه كيـف اتسـعت لشخصـه؟ ... وقد كان بحراً مالـه الـدهر سـاحلُ
أبـا حسـنٍ مـن للعلـوم ونشـرِها ... ومن ذا بنـور الحـق عنـها يجـادلُ
أبا حسـنٍ مـن للشـريعة إذ وهـت ... عراها وخـان الـدينَ لـصٌ مخاتـلُ
أبا حسنٍ مـن للمعـالي قـد هـوت ... كواكبـها والهـدَّ منـها المعاقـلُ
أبا حسنٍ مـن ذا عـن الـدين يتقـي ... وبالمشـرفيات الرقـاق يقاتـلُ
أأنسـاك -لا والله- يـا ابـن محمـد ... إلى أن يهيـل التـربَ فـوقي هايـلُ
أُصـبِّر نفسـي أن تَفـيض دُموعُهـا ... وبيني وبـين الصـبر عنـك مراحـلُ
أما كان لي من غير عَطفـك حـافظ ... ولي من نـدَى كفيـك طَـلٌّ ووابـلُ
ففـارقتني والقلـبُ مـني ذائـب ... عليك ودمعـي مـن عيـوني سـائلُ
وصـبراً بـني المنصـور صـبراً فإنمـا ... بكـم يقتـدي في النائبـات الأماثـلُ
لـئن رُفعـت شمـس إلى الله مـنكم ... لقد أشرقت مـنكم شمـوسٌ كوامـلُ
وقـام بـأمر الله مـنكم مُؤيَّـدٌ ... ضـليع بحـق الله في الخلـق عـادلُ

إمام يهاب الناسُ سطوةَ بأسه وترجوه أيتام الورى والأراملُ
أعزُّ الورَى قدراً وأرفعُهم علاً وأسمحُهم إن ضن بالمال باخلُ
فلا البحر يحكيه إذا جاء سائل ولا الطود يحكيه إذا خفَّ جاهلُ
وعن علمه فاسأل إذا كنتَ جاهلاً تخبرْك عنه كتبُه والرسائلُ
ومِن رأيه -والله يكلأُ ذاتَه- سيوفٌ على أعدائه وذوابلُ
إذا امتنعتْ يوماً علينا مطالبٌ بعثنا إليها عزمَه فتَساهلُ
أهاب إلى نصر الهدى فأجابه أكابرُ أبناءِ الرسول الأفاضلُ
وأشياعُهم أربابُ كل فضيلة ولبته لَمّا دعاها القبائلُ
فذا واردٌ منهم إليه مبايعٌ وذا صادر يثني الدعا ويواصل
فيا رب بلّغه الذي هو آملٌ وحطه فلا تسطو عليه الغوائلُ
وألبِسْه تاجَ المكرمات فإنه حقيقٌ بما قد قال ــ من قبل ــ قائلُ:
(وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ)
حمايةِ دين الله جل جلالُه أدافع عنه جاهداً وأنازلُ
ونشر علوم الآل صلى عليهمُ إلهُهم ما حنَّ عودٌ مَطافِلُ
وإني لعبد خاضع لجلاله على عنقي قيدَ المذلة جاعلُ
ودم يا أبا يحيى مَدا الدهر سالماً لعزتك القعساء يعنو المطاوِلُ
ودامَ لنا من إخوةٍ لك سادةٌ غطارفةٌ غرٌّ حماةٌ مقاولُ
إذا ما انتدوا يوم المفاخر أخرسوا بذكر المعالي عنهمُ من يناضِلُ
وإن ركبوا يوماً فمن ذا يصاول وإن بذلوا يوماً فمن ذا يساجلُ
همُ السابقون الخلق في كل غاية ولاغروَ إن حلّوا وأعيت فساكل
ودمت لهم كنزاً وداموا لنا غنًى يذاد بهم بؤس ويخصُب ماحل

وله مناصحاً(١):

على رغم أهل البغي أيدك الله ... وألبسك الفضل الذي أنت مولاهُ
وأولاك ما أولاك من أمر دينه ... وحسب امرئٍ ما كان مولاه أولاهُ
عليك أمير المؤمنين بكل ذي ... عناد غذاه الجهلُ والظلم رباه
فشرد بهم من خلفهم وأذقهمُ ... نكالاً وكلاً ولِّ ما قد تولاهُ
تصفح أمير المؤمنين أمورهم ... ولا ترض منهم غير ما الله يرضاهُ
وجربهمُ واسبُر بعقلك حالهم ... فكل الذي أخفَوه يظهر إن فاهو
كذا قال مولانا الوصي ومن به اقـ ... ـتدى فاز في الأخرى وأصلح دنياهُ
فإن الذي أخفى العداوةَ قلبُه ... أضرُّ العدى كيداً ومكراً وأخفاهُ
فليس كمون النار في الزند مؤمناً ... مضرتهم والنار والحقد أشباه
وهاك أمير المؤمنين نصيحة ... وإن لم أكن أدري الصوابَ ولا ماهو
وإني في هذا كهدِ أداوةً ... إلى البحر كي يزدادَ للبحر أمواه
ودم وابق واسلم وانصر الحق واخذل الـ ... ـضلالَ مُزاحاً عنك ما كنت تخشاه

وهي طويلة وأشعاره بليغة كثيرة.

داود بن الهادي المؤيدي:

وفي (٢٦ ربيع الأول) توفي بشهارة السيد العلامة الكبير الأديب داود بن الهادي بن أحمد بن المهدي بن عز الدين بن الحسن المؤيدي عن (٥٥ سنة)، فإن مولده كما في البدر الطالع (سنة ٩٨٠هـ) وقبرُه في (أقَمر) من أعمال شهارة عليه قبة، وهو بقية أكابر العلماء الفضلاء الأخيار. له مؤلفات منها (شرح على الأساس) وهو أحسن شروح الأساس، وعليه حاشية للسيد محمد بن عز الدين المفتي، ومن مؤلفاته (شرح الفصول اللؤلؤية) وغيره، وكان شاعراً، وكان قد وصل لزيارة الإمام المؤيد بالله، فكان

(١) أي للمؤيد.

حِمامه عند إمامه، ومن شعره:

إلى الله أشكو عالم السر والنجوَى ... تخيل همٌّ لا يطيق له رضوى
وجور زمان دأبُه خفضُ كامل ... ورفع الذي لا خير فيه ولا جدوى
عتبتُ على دهري فقلت إلى متى ... تعاملني بالضد من كل ما أهوى
فقال مجيباً لي بعنف وغلظة ... وأي كريم قد أجبت له شكوى

لطف الله بن محمد الغياث

وفي (رجب سنة ١٠٣٥هـ) توفي بظفير حجة العلامة شيخ الشيوخ المحقق الأصولي النحوي لطف الله بن محمد الغياث ابن الشجاع بن الكمال بن داود الظفيري. كان من مفاخر اليمن، جمع العلوم الإسلامية والحِكمية وحققها وعارض أهلها، فاستدرك على الأوائل وصنَّف الجوامع الحوافل ورحل إليه الناس من كل أوب.

فمن مصنفاته: (المناهل الصافية يغني عن الرضى والجار بردي من شروح الشافية)، وله (شرح على الكافية) لم يتم، ومنها (الإيجاز في علم المعَاني وشرحه)، وله حاشية على الشرح الصغير وشرح على الفصول اللؤلؤية، ولم يتم، وشرحٌ لخطبة الأساس وشرح في حاشية على الأزهار، وله أنظار وحواشٍ مفيدة، وله في علم الطب ملكة قوية، وكان يعرف علم الجفر والزَّيْرَجة. وقبره خارج قبة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، وكتب إليه الشريف جعفر صاحب مكة يلتمس منه أن يصنف كتاباً في الفقه والفرائض:

أيا شيخ لطف الله إني لقائلٌ ... بلا شك من سمَّاك فهو مُصيب
فإني رأيتُ اللطف منك سجيةً ... ولله في كل الأمور حبيب
سألتك سفراً نستعين به على ... عبادة ربي لا برحتَ تجيب
وأنت لنا في الدين عونٌ وقدوةٌ ... بقيتَ على مر الزمان تصيب

فنظم له أرجوزة في الفقه، وأجاب:

أمولاي يا من فاق مجداً وسؤدداً ... وما إن له في الخافقين ضريب
أتاني عقد يخجل الدرَّ نظمُه ... ويعجز عنه أحمد وحبيب

معانٍ وألفاظٌ زكت وتنافست فكلٌّ لكلٍّ في البيان نسيب
وما كان قدري يقتضي أن أُجيبه فمثلي لذاك السمط ليس يجيب
وقلتم بأن اسمي يشير بأن لي نصيباً وكلاً ليس فيه نصيب
أتحسب مَا أُعطيتَ من لطف شيمة تقصَّر عنها شمأل وجَنوب
ولكن حويت اللطفَ أنت جميعَه فقلت على ذا الناس أنت عجيبُ
وأمركمُ ماضٍ وحظي قبولُه وإني على قدر القصور مجيب

حوادث سنة ١٠٣٦ هـ

في (المحرم سنة ١٠٣٦هـ)، انتقض الصلح بين الإمام المؤيد والباشا حيدر؛ بسبب أن فقيهاً من أهل عُلمان القريب من وادي ظهر يُسمَّى الفقيه حسن بن علي العُلماني، كان مهاجراً في شهارة، فاستأذن الإمام في زيارة أهله بعُلمان، فأذن له، فلما وصل علمان دعته حاجة لدخوله صنعاء، فأمسكه جماعة من أصحاب حيدر، ثم قتلوه ظلماً وعدواناً، فكتب الإمام من أجله إلى حيدر، فأجاب بالمغالطة والإنكار، وكان له أعوان سوء لم يشيروا عليه بالصواب، فما زال الإمام يكرر عليه في المراسلة وهو مصمم على المغالطة في جواباته.

قال بعضهم: إن السبب في قتله أن مملوكين لحيدر هربا من صنعاء، فاتهم حيدر أنهما دخلا بلاد الإمام، فلما دخل الفقيه إلى صنعاء وشَى به جماعة حاسدون لغناه ولكسبه أموالاً إلى نقيب باب حيدر وأوهموه أنه هو السبب في إباق العبدين حسداً منهم للفقيه، فأمر بقتله (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)، فشاور الإمامُ أصحابَه، فاتفقت الآراءُ على محاربة الأروام، وكان كثير من المشائخ وأعيان القبائل، قد كتبوا إلى الإمام أنهم أعوان له على محاربتهم واستئصال شأفتهم، ووصل إليه بعض مشائخ الحدا برهائنهم، فلما بلغ حيدر باشا خرج على أهل الحدا، فكان ذلك من جملة الأسباب الموجبة لمحاربته، فبعث الإمامُ أخاه الحسين إلى بلاد الحيمة؛ فخرج من بلاد الشرف بعد صلاة الجمعة لتسع بقين من شهر محرم (سنة ١٠٣٦هـ) وكانت طريقه ما بين حفاش وجبل تيس إلى أن وصل حراز، فأقبل إليه عامةُ تلك الجهات، ثم تقدم إلى عر الحيمة، وكان الإمام قد أمره

ألاَّ يفتح الحرب حتى يعود جواب حيدر، وكان الإمام قد طلب محاكمة القاتل إما بالقصاص أو الدية فعاد جوابه الأخير بغير الصواب، فكتب الإمام إلى أخيه الحسين بفتح الحرب، وبعث أخاه أحمدَ إلى بلاد خمر، فأجابوه طوعاً، وتقدم إلى المضلعة المصنعة من جبل عيال يزيد وحاصر عمرانَ الحصار الشديد، وواجه إلى الإمام أهلُ السودة، وخرج منها أولاد الفقيه أحمد المعافَى إلى شظب.

وأما أولاد الأمير عبد الله المعافى فانحصروا في الحصن إلى أن دخلت عموم البلاد في طاعة الإمام، فخرجوا إليه فقرر أمورهم وقرر لهم ما يحتاجون إليه، وكان أمرَ ألاَّ يحاربهم أحد، ثم انضم ابن علا بقومه إلى أحمد بن الإمام لمحاصرة عمران، ثم إن السيد الهادي بن الحسن صاحب كحلان تاج الدين أطاع الإمام فولاَّه إلى عفَّار، ثم تقدم أصحاب الإمام إلى حجة، تقدم بهم السيد علي بن عبد الله العُبالي والفقيه يحيى بن صلاح الثلائي والفقيه عبد الرحمن بن المنتصر العشبي، فدخلوا بلاد حجة ولاعة ومسور. وأمر الإمام بمحاصرة الآغا الذي في مبين ومن عنده من عسكر الجبَر، حتى خرجوا إلى الإمام بعد حروب، واجتمع عسكر كوكبان في عُولي فحاصرهم أصحاب الإمام حتى طلبوا الأمان فأمنهم الإمام وأذن لهم بالعود إلى ولي أمرهم وهو الأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين، وكان يومئذ في أنوَد أطرف محل من جبل الضلع وجعل ولاية للحسين بن علي جحاف على بلاد حجة.

وفي هذه المدة قصَد القاضي أحمد بن علي بن أبي الرجال والقاضي أحمد بن عامر بمن اجتمع معهما من القبائل إلى جبل اللوز، ودخلا سوق الحضارم فقرأوا على الناس رسائل الإمام فأجابهم أهل تلك الجهة، وخرج القاضيان المذكوران إلى مسور خولان؛ فظفر بالعامل هنالك ثم غزيا إلى الأعماس، وواجه إلى الإمام بنو بهلول وأسناف وجميع البلاد الشرقية.

وأما الحسين بن الإمام فإنه بعث السيد حفظ الدين بن علي سحلة، والشيخ ابن عبد الله الطير لاستفتاح حضور وبني مطر، فسارا إليها وفتحا تلك الجهات طوعاً. وكذلك السيد مطهر بن ناصر الدين، والقاضي محمد بن ناصر السلفي إلى بلاد ريمة وآنس وبُرَع، فواجهت تلك الأقطار جميعها وأرسل القاضي يحيى المخلافي لمحاصرة حصن الطويلة.

وأمر الإمامُ إلى أخيه الحسَن بالتقدُّم من صعدة، فخرج منها بعساكر وافرة وأناب عليها وعلى بلادها ولدَه السيد المقام محمد بن الحسن بن الإمام، وكانت طريقه الجوف إلى بلاد نهم، ووصل إليه عاملها السيد الهادي بن مطهر الشويع مواجهاً، ثم تقدم إلى جبل اللوز، ثم الحصن الأبيض شرقي الذراع لقصد قطع طريق اليمن إلى صنعاء، وحاصر من عند الأمير سنبل بقَلْعَة الذراع وقطع عليهم المواد. وكان الحسين بن الإمام قد سار إلى الأهجر، فسار إلى أخيه الحسن لقصد المفاوضة في ترتيب الحروب، وكانت طريقه حدة بني شهاب وبلاد سنحان، واتفقا على بقاء الحسن في محله ورجوع الحسين إلى الأهجر لمحاصرة كوكبان، وتعقب فرار الأمير سنبل من قلعة الذراع إلى ذمار، وارتفاع عسكر الأروام من القبتين إلى ريمة ابن حُميد، فغزاهم الحسن وأوقع بهم وقعة مهيلة، ثم انتقل إلى بلاد حضور، فاستقر في مَسْيَب، ووصل إليه أخوه الحسين. فأجمع رأيهما على قصد الأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين، ومن عنده من عسكر الأروام إلى أنْود، ثم رجع الحسين إلى الأهجر والحسن إلى قريب حدة، ولبثا قدر أسبوع، ثم أرسل الحسن جماعة إلى أخيه الحسين، فوصلوا الأهجر عقيب صلاة الجمعة، ثم وصل الحسن عقيبهم عند غروب الشمس، ثم نهضا من فورهما بعساكرهما قاصدين إلى أنود، وكانت طريقهما شمات، فوافيا أنود عند شروق شمس يوم (السبت ١٧ رجب سنة ١٠٣٦هـ) فافتشل عبد الرب ومُزاحم، ومن معهما من العسكر، وكانوا قدر خمسمائة أو يزيدون، فكان الاستيلاء عليهم، فقتل من قُتِل وأُسر من أُسر وتردَّى البعض من الشواهق وحصل الفراغ من تلك المحطة في ساعة من أول نهار السبت وقتل من أعيان الأمير عبد الرب السيد محمد بن المهدي بن حفظ الله بن عز الدين بن الإمام شرف الدين والسيد عبد الله بن أحمد الحمزي، والسيد الحسين بن صلاح بن الهادي بن الحسين بن شمس الدين، والنقيب ريحان حُشيبري، وبشير مبارك وغيرهم، وأما الأمير عبد الرب فإنه انهزم إلى حصن بُكر الغرانيق بطائفة من أصحابه، وتقدم الحسن إلى بريكة الخُلُب وحاصر بيت عِز، وبات الحسن تلك الليلةَ في بيت غزوان، ووصلت كتب الأمير عبد الرب يبذل الطاعة للإمام واستقر الكلام على خروجه من بكر إلى كوكبان، ثم دخل هو والحسن والحسين والجميع كوكبان في عصر يوم الاثنين (٢٠ رجب سنة ١٠٣٦هـ)، وصلحت الأمور بفضل الله الملك المنان.

وفي خلال ذلك وقع حرب بين السيد أحمد المُحَنَّكي وبين الأمير صفَر عامل الأروام بعمران، فانهزم صفَر إلى ثلا، فتوجه إليه الحسين بن الإمام من كوكبان وأخوه أحمد بن الإمام من المضلعة، فطلب منهما الأمان، وخرج إليهما؛ فأرسلا به وبسلاح أصحابه إلى الإمام، وجعلا في ثلا من يحفظه من أعيان العكسر، وتوجه الحسين إلى (المُنقِّب) ومنه إلى (لولوه)، فأقبل إليه الأمير إبراهيم الداعي بأعيان همدان، فأحسن إليهم، وانتقل إلى طيبة، فلبث فيها إلى أن وافاه أخوه الحسن وتبعهما الأمير عبد الرب بأعيان أهل كوكبان يوم (السبت ٩ شعبان سنة ١٠٣٦هـ) ونهض الجميع لمحاصرة صنعاء، فوصل أوائل عسكرهم إلى بئر العزَب، واستقر أولاد الإمام والأعيان في حدة بني شهاب، وجعلوا في الروضة الفقيه هادي بن عبد الله الحبيشي وأصحابه بني الحارث. وما زالت الغارات على صنعاء من جميع الجهات، واستولى أصحاب الإمام على حصن نقم وأمروا من يحفظه بالترقب لعسكر حيدر باشا، فإن رأوهم قصدوا الروضة رموا بالزبارط ثلاث دفعات، وإن قصدوا حدة رموا دفعتين وامتدت أيدي أصحاب الإمام إلى سنحان وما إليها.

قال في ذيل روح الروح: (وفي شعبان سنة ١٠٣٦هـ) قتل السيد صلاح بن عبد الله بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى الكوكباني، وكان قد عزم من لدن الحسن بن الإمام من حدة يريد الدخول إلى صنعاء فالتقاه محمد الكوكباني من أصحاب حيدر باشا إلى ماجل الحفا فطعنه وحزَّ رأسه وأوصله إلى حيدر وفي شعبان تقدمت العساكر التركية من تعز إلى الأمير الشريف الحسين بن محمد بن ناصر الجوفي إلى مدينة جبلة على حين غفلة، فلم يشعر الشريف الحسين إلا والسيوفُ فيهم عاملة، فخرج من جبلة هارباً وأسر الأتراك من سادات كوكبان السيد إلياس بن إسماعيل بن لطف الله بن المطهر، والسيد محمد بن شمس الدين بن لطف الله بن المطهر الشمسي، والسيد الهادي الوزير الجوفي وقادوهم إلى تعز في الزنجير وأودعوهم السجن بالقاهرة بتعز وقطعوا عنهم الشراب والطعام حتى ماتوا شهداء.

وفي (سنة ١٠٣٦هـ) توفي السيد صلاح بن محمد بن لطف الله بن رضي الدين الكوكباني من جراحة أصابته في حرب الطويلة وقبر بكوكبان.

ووصل كتاب الأمير سنبل من ذمار بطلب الأمان من الحسن بن الإمام فأمَّنه وجعل

له ولاية ذمار، واشتدت الطرق على صنعاء وضاق من فيها ذرعاً، فقال حيدر لمن عنده: ((إذا وفت المدة لم تنفع العدة))، ثم كتب إلى الإمام يطلب الصلح على أن ينتقل من صنعاء بجميع من عنده وما عنده إلى اليمن الأسفل، فلما وقف الحسنُ على كتابه استحسن عدم إبلاغه إلى الإمام، وقال: ((لا سبيل إلى خروجه على هذا الوجه))، فلما عرف حيدر جواب الحسن جمع من عنده من العساكر وحرضهم على الثبات وإصداق العزيمة وعرَّفهم بما لديه من الأموال العظيمة، وإن غارة السلطان إليهم واصلة، وكتائبه مقبلة، فشجعهم وأثار حفائظهم، ثم فرق فيهم الأموال وعمهم بالنوال وأمرهم بالخروج إلى ظاهر المدينة متظاهرين بالزينة، فكان شاهد حاله:

وتجلدي للشامتين أريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع

ولما عرف أصحابُ الإمام خروجَهم أقبلوا إليهم من حدة كالسيل المنحدر حتى بلغ أولهم ساقية غيل آلاف، من غير تعبئة ولا ائتلاف، فحمل عليهم أصحاب الخيل من الأروام، ووقع الصدام، فانهزم أصحاب الإمام إلى الحفا وظفرت الخيلُ بجماعة من أصحاب الإمام تأخروا عن أصحابهم، فقتلوهم وعادوا إلى صنعاء.

قد اشتدَّ أمرهم بذلك الحرب، وزال بعض ما نالهم من الكرب ولبثوا في صنعاء أياماً، ثم خرج بعض الخيالة من صنعاء إلى قريب حدة لفتح الحرب، وخرج أصحابُ الإمام من حدة، فعرَّجوا عن القاع خوفاً من الخيل وسلكوا سفوحَ الجبال إلى أن وصلوا الحفا، وبعضهم تقدم إلى سفح نقم فخرج إليهم عسكر صنعاء بعد أن جعلوا طائفةً في شعوب تمنع عنهم من في الروضة من أصحاب الإمام، وثبت حيدر باشا في (باب ستران)، فاستمر القتال إلى أوان الزوال، وثبت أصحاب الإمام ثباتاً يقصر عنه يلملم وشمام، حتى تكاثرت عليهم عسكر الأروام، فانضم إلى أصحاب الإمام من معهم بالحفا وحَميَ الوطيس، واصطدم الخميس بالخميس، ثم انكشفت المعركة عن قتل الشيخ علي بن عبد الله الطير رحمه الله وجماعة من أصحابه، واجتمع الأروام إلى ماجل الدمَّة، فقصدهم الحسنان ولدا الإمام ببقية من معهما من العسكر، فوقعت بينهم حرب عظيمة لا يكاد يصفها الواصف، وأحاطت خيل الأروام بولدي الإمام، ثم أنهما خَلصا بعد جهد جهيد، (وبعد اللتيا والتي) وبعد قتل عدة من الطرفين ورجعَا إلى حدة.

ثم التفت حيدر باشا على من في الروضة وشنوا عليهم الغارات ورموهم بالزبارط والمدافع واستمرت المعارك، فثبت السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي ومن معه من بني الحارث وسائر العكسر، فلم يغمضوا تلك الأيام نوماً، واستمر القتال حول صنعاء ليلاً ونهاراً، وغلت الأسعار وفنيت الذخائر وبلغت القلوب الحناجر، وكثر من حيدر على أهل صنعاء الطلب، ورسموا عليهم في كل يوم شيئاً من الحب، وأخذ ما بأيديهم من الفضة والذهب، وبلغ قدح الحنطة بستة ذهب وقدح الملح إلى عشرين حرفاً، وكان يدخل كثير من القبائل بشيء من المصالح، ثم أن أهل صنعاء شكوا إلى الباشا نفاد كل شيء وما بقي إلا الموت، فأذن لهم بالخروج ليتفرقوا في الأرض للمعاش، واستراحوا من ذلك الامتحان بأهلهم وأولادهم.

وأما أحمد بن الإمام فلم يزل محاصراً لمن في عمران حتى خرج إليه الكيخيا عُمَر والشيخ ناصر المحبشي ومن عندهما بأمان، وقبض ابن الإمام الخزانة وأرسلها إلى أخيه المؤيد، ثم جعل في عمران عصابةً نافعة، ونهض إلى الروضة محاصراً لصنعاء، وبعث الحسين بن الإمام السيد أحمد بن علي الشامي إلى طيبة، فاستولى على ما فيها.

وأرسل الإمامُ المؤيدُ الشريف هاشم بن حازم المكي والسيد التقي بن إبراهيم إلى تهامة، فواجه إليهما أكثر أهل تهامة، ووصلا إلى قرب زبيد، وأرادوا دخولها بالسلام، فخرج إليهم الأروام ووقع حرب.

عاد الشريفان إلى بيت الفقيه بن عجيل، ودخل أشراف صبيا وأبي عريش وجازان في طاعة الإمام.

وواجه الأمير الحسين بن ناصر الجوفي إلى الحسن بن الإمام، فأمره بالمسير بأهل الحدا وقيفة إلى اليمن الأسفل، وضم إليه السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي، فاستفتحوا تلك الجهات جميعاً، ولما مال الأمير الحسين بن ناصر إلى أولاد الإمام أمر حيدرٌ بإخراب داره بصنعاء، وبعث الحُسينُ بن الإمام السيدَ عليَّ بنَ إبراهيم بن علي جحاف عاملاً على ريمة، ووجه السيدَ محمدَ بن علي القراع إلى حفاش وملحان فاستفتحهما وقبَض العاملَ عليهما وهو الآغا عسلان وأرسل به إلى الحسين. وأوقع الباشا بوزيره المحرقي وعذّبه بأنواع العذاب وأخذ جميع ما في يده وتركه فقيراً، فكان

يطلب الصدقة من المارين تحت طاقة مكانه المسجون به، فأمر الباشا بسمر كفيه في تلك الطاقة وجعل ذنبه عدم إبلاغه استفتاح أولاد الإمام للبلاد، وسجن الأميرَ كاني شلبي في الدار الحمراء ثم قتله بسبب أن حيدراً كان يريد الخروج إلى الرحبة قبل وصول الحسن بن الإمام إلى لهم فأشار عليه بعدم الخروج ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام:١٢٩].

وفي هذه السنة وصل الخبر أن الشاة عباس استفتح كثيراً من بلاد السلطان العثماني كبغداد ونواحيها، فجهز السلطان الباشا حافظ أحمد بستة لكوك، فوقع بينه وبين الشاة حروب وخطوب، ثم خرج الشاة بنفسه من أصفهان، فهزم جند السلطان واتصلت عساكر الشاة إلى ديار بكر والموصل حتى آمُد، واشتغل السلطان عن التجهيز إلى اليمن لما يريده الله سبحانه من ارتفاع يده عن اليمن.

وفي (سنة ١٠٣٧هـ) استفتح الحسن بن الإمام ذي مرمر، وفيها خرج من تعز الأروام لمحاربة الأمير حسين بن ناصر الجوفي، ولما بلغ الحسن بن الإمام نهض بمن عنده من الكماة إلى تلك الجهات، وثبت أخوه أحمد بالروضة والحسين في أرتل من سنحان والسيد صلاح بن أحمد المؤيدي بالجراف.

واستفتح الحسنُ اليمن الأسفل إلى أن قرب من تعز، وجرت بينه وبين الأروام بحبيش حروب قتل فيها منهم بمحل يعرف بالرأس أكثر من ألف نفر وحاصر تعز، ولما استقر كتب إلى الأمير عبد القادر صاحب عدن، فأجاب أنه داخل في طاعة الإمام، فأقره على ولايته.

وفيها بلغ الخبر أن صاحب مصر من قبل السلطان جهز إلى اليمن الباشا أحمد في ألف وخمسمائة فغرقوا في البحر لم يبق إلا باشتُهم في أربعين نفراً، فمات بجدة.

وفيها طلب الباشا حيدر من الإمام المؤيد هُدنة فتمت لخمسة أشهر وأطلق الرهائن الذين كانوا بصنعاء.

وفيها خرج الباشا عابدين في ألف نفر من بندر سواكن إلى بندر المخا، فاستقر فيه وبنَى دائره، وقصده عامل حيدر بزبيد فلم يظفر به.

وفيـــات

الحسن بن حميد الدين

قال في ذيل روح الروح: في أربعة وعشرين صفر (سنة ١٠٣٦هـ) قتـل في رأس القرنين من بلاد كوكبان السيد الحسن بن حميد الدين بن المطهر بن الإمام شرف الدين. رماه بعض عسكر الحسين بن القاسم وهو فوق جواده، فتفرق أصحابه بعد قتله خوفـاً من أصحاب الإمام، وكان السيد الحسن حميد الدين عالماً نجيباً عارفاً نبـيلاً متفنناً في النحو والمعاني والبيان وغيرها، ومولده (سنة ١٠٠٦هـ).

الحسين بن محمد زُغَيب

في جمادى الآخرة (سنة ١٠٣٧هـ) توفي بحدة بني شهاب أيام حصار صنعاء السيد العلامة الحسين بن محمد بن يحيى بن أحمد بن عجلان بن سليمان بن الحسن بن القاسـم بن أحمد بن الحسن الملقب زُغَيب الأصغر بن علي بن عبد الله الملقب زغيب الأكبر بـن أحمد بن يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي.

قال في الطبقات: هو من تلامذة السيد العلامة الحسن بن شرف الدين ومن مشائخ القاضي العلامة أحمد بن سعد الدين المسوري، وكان عالماً فاضلاً عارفاً.

علي بن شمس الدين

وفي ٢ جمادى الآخرة (سنة ١٠٣٧هـ) توفي الأمير الشهير الخطير علي بن شمـس الدين بن الإمام شرف الدين بكوكبان. وكان ماجداً كريماً سعيداً، ورثاه السيد عيسى بن لطف الله:

يا كوكبانَ العُلا قد صرتَ كالطلَل ... وربعك المشرق الأنوار كيـف بلـي

أين الصباحةُ والزمرُ الـذي رقصت ... له القنا كارتقاص الشـارب الثمـل

فقـال لي كـل ذاك الحـال فـارقني ... حين استوى في الثرى خيرُ الملوك علي

وكانت وفاته وولدُه الأمير الكبير عبد الرب قائد الجيش مع الحسن بـن الإمـام في حصار تعز.

التناول وعنده المخالف مصيب. انتهى.

وفي الجامع الوجيز أنه من المصالح المرسلة وشرطها ألاّ تصادم نصاً، وقد انفتحت من بعد الخمسمائة انفتاحاً كلياً. انتهى.

عابدين بن المطهر الشويع

وفيها توفي بتعز الأمير الشهير عابدين بن مطهر بن الشويع الحمزي من أكابر أصحاب الحسن بن القاسم.

قال في ذيل روح الروح: في (ليلة ١٣ محرم سنة ١٠٣٨هـ) أمر الباشا حيدر بقتل كاني شَلَبي بالخنق، فخنقه الخادم محفوظ. وقبله كان الباشا فضلي (سنة ١٠٣٣هـ) حَبَس كاتبه محاسبجي في الدار الحمراء لامور صدرت عليه وأموال كانت لديه، وبطش به الباشا وهو على جناح السفر.

وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٣٨هـ)، مات تحت عذاب الباشا حيدر بسجن صنعاء كاتبُه الفقيه عبد الله المحرقي وقبر إلى جنب قبر كاني شلبي في مقبرة المدرسة الكبيرة، وكان لبثه في السجن إلى أن قتل أحد عشر شهراً ولم يشيع جنازته أحد. وكان الفقيه عبد الله كاتباً بليغاً خطه كخط ابن مقلة المشهور، وكان الباشا قد أخذ منه أموالاً جزيلة، وسمَّر يديه بالمسامير الحديد، وفُكَّت في بعض الأوقات، فكتب من السجن إلى بعض أصدقائه أن يرسل إليه بوديعة كانت لديه، فأجاب أنه لم يكن عنده شيء، فلما أيس الباشا من ذلك أمر مُحرَّم آغا من أتباعه، فدخل على المحرقي إلى السجن وضربه بدَبُّوس حديد حتى مات، وكان في المحرقي كبرياء وعظمة وتهاون بأعيان الناس، فآل أمره إلى السجن والفقر والموت، تحت العذاب سامحه الله.

وفي (١٤ رجب) كان خروج حيدر من صنعاء نحو زبيد، وفي ٢٧ رجب دخل صنعاء سيدي أحمد بن القاسم، وكان دخول أخيه الحسين واستقر بالبستان. انتهى

حوادث سنة ١٠٣٨هـ

فيها بعث الباشا عابدين الواصلُ إلى المخا أميراً من أصحابه بخيل ورجال لقصد تعز، فتلقاهم الحسَنُ بجنده فمنحه الله النصر، فقتل منهم نحو الثمانين وأسر مثلهم، واستولى على خزائنهم وهزم من بقي منهم، وبعد أيامٍ قصد الحسنُ إلى المخا فتشاغل أصحابُه بالنهب لأطراف البندر ورجع الحسن إلى تعز.

وفيها جهز صاحبُ مصر الأغا رجباً في نفر قليل لاشتغال المقاتلة في العراق بحرب الشاة عباس، فلبث في البحر مدةً، ثم كتب إلى الإمام المؤيد يستأذنه في الوصول إليه؛ فأذن له، فوافَى الإمامَ في أُقُر من ناحية شهارة، فأكرمه وجعل له ولايةً على المخادر من اليمن.

وفيها دخل السيدُ أحمد بن لقمان عامل الإمام على أبي عريش وجازان إلى القنفذة مُمداً للشريف محسن بن حسن صاحب مكة على الشريف أحمد بن عبد المطلب لما أنه قصد الشريف مغامس عامل الشريف محسن على بيشة، فهَزم مغامساً وقتل من أصحابه، فخرج ولده حُسَين بن مغامس إلى الإمام المؤيد يستنصره على أحمد بن عبد المطلب وبعد هذا وصل الشريف محسن بن حسن بنفسه إلى الإمام، فقابله بالإكرام والإنعام وخيره في البقاء بحضرته أو صنعاء، فاختار البقاءَ بصنعاء، وحين وصل إلى بعض الطريق ابتدأه المرض فمات في بلاد الظاهر وحملت جنازته إلى صنعاء فدفن في القبة التي بناها الأمير إسكندر وهي الآن تعرف بقبة محسن بباب السبحة.

وفي هذه المدة اختلت بلاد عانز والحِجْرة، فسار إليها الحسين بن الإمام، فأصلح خللها وقرر أمورها، ورجع إلى صنعاء ووقع بينه وبين القاضي يحيى المخلافي وحشة آلت إلى أن المخلافي أظهر الخلاف وجمع أصحابه للمصاف، فاستقر الحسين بن الإمام بريمة بني السياغي، فانهزم المخلافي إلى بلاد خولان، فقرر الحسين أمور تلك الجهة وتقدم إلى بيت ردم.

وفي خلال ذلك انقضت الهدنة فيما بين الإمام وحيدر، فتجهز حيدر للمسير من صنعاء إلى زبيد وجعل طريقه باب الأهجر وجبل تيس، فوقع من أهل البلاد نهب

أطراف محطته، وكان الإمام قد أرسل صحبته ولده علياً، وكذلك الحسين أرسل جماعة من أصحابه لمنع القبائل من نهبه وأمره بالمسارعة بالعزم، ورجع علي بن المؤيد إلى صنعاء عاملاً عليها، واستمر في عمالتها نحو أربعين سنة، وأحبه أهلها، وكانوا يدعونه في كل الحفلات، فكثرت وتعارضت فرأوا أنهم يرسلون له من كل حفلة مقلَى فسمَّوه علي مقلَى.

وكان حيدر قد أودع خزانته جميعها في القصر بنظر حسن أفندي، وبعد أيام وصل رسوله إلى الإمام من أجلها، فأعطاه الإمامُ ثمنها ستة عشر ألفاً.

وفي (شوال من سنة ١٠٣٨هـ) استفتح الحسن بن الإمام مدينة تعز وأسر الآغا علياً وخمسة من الآغاوات، وأرسل بهم إلى حضرة الإمام، ولما استقر حيدر بزبيد وصلته كتب من الإمام، فاتهمه أصحابه فقبضوا عليه وسجنوه في جزيرة كمران، إلى أن وصل قانصوه فأطلقه.

وفيها جاءت كتب من الأمير رضوان إلى الإمام يطلب منه إطلاق الآغوات المساجين، فأطلقهم وتوجهوا إلى الشام.

وفيها اتفقت في تعز قضية منافية للتقوى وهي أن جماعة بذلوا لصاحب مطبخ الحسن بن الإمام مالاً على أن يجعل له سماً، فأخبر الحسنَ، فقال له: افعل ما أعطوك من السم لهم، ففعل فهلكوا، وكانوا كالباحث على حتفه بظلفه.

وفي (سنة ١٠٣٩هـ) وصل الخبر بوصول الباشا قانصوه لاستفتاح اليمن بألف فارس وثمانية آلاف راجل، وكان حيدر قد كتب إلى السلطان يستمد منه الغارة، فلم يصل قانصوه إلا بعد خروج حيدر من صنعاء إلى زبيد، ولما بلغ خبر وصول قانصوه إلى الإمام المؤيد بعث ولده يحيى إلى أبي عريش من طريق جبل رازح، وكتب إلى قبائل صعدة بالمسير معه، فساروا إلى أطراف جبلٍ مما يلي تهامة، فاستقروا فيه خوفاً من خيل الأروام أن تأخذهم في تهامة.

ولما نهض قانصوه من أبي عريش إلى زبيد هبط أصحابُ الإمام إلى أبي عريش وجاءهم الخبر أن جماعةً من الأروام وصلوا إلى ساحل جازان في سفينتين وغُرَابين فقدَّم السيدُ يحيى بنُ الإمام السيدَ الهاديَ بن صلاح بطائفة من الجند، وعقبَّه بالسيد صلاح بن

أحمد بن المهدي المؤيدي، فانهزم الأروام وولوا مدبرين.

ولما وصل قانصوه إلى بيت الفقيه بن عجيل قتل الفقيهَ أحمدَ بن جعفر الصوفي ظلماً بسبب أنه طلب منه تحصيلَ خمسمائة حمل طعام، فقال له: هذا المطلب لا يمكن تحصيلُه؛ لأن الناس متفرقون في الجبال.

ثم تقدم قانصوه إلى زبيد فبعث طائفةً من عسكره لقبض الباشا عابدين من المخا، فوصلوا به تحت الحفظ، فقتله، وقدَّم طائفةً من خيله ورجله إلى حيس، وكان الحسن بن الإمام في إب، فانتقل إلى تعز وكتب إلى أخيه الحسين بصنعاء أن يتوجه إلى وصاب، ففعل، وبلغ الحسين أن الأروام متوجهون إلى تعز، فتوجه من وصاب إلى إب، ومنها إلى تعز، واجتمع بأخيه وتحرك قانصوه إلى حيس، فاستقر به، وقدم الكيخيا يوسف إلى نجد المُجيرب من بلاد شرعب، لما كان الحسن قد سدَّ عليهم الطرق إلى تعز كوادي حاجز وغيره، فخرج الحسنان لمحاربة الكيخيا يوسف فوجداه قد ملأ الجبال والوهاد بالخيول والأجناد، فباشروه بالحرب، وأصدقوا في أصحابه الطعن والضرب ومنحهما الله النصر، فاستوليا على محطة الكيخيا وقتلا منهم قتلاً كثيراً، وانهزم الكيخيا في خمسمائة فارس، فتبعه الحسن وقتل جماعة ممن تثاقل عن السير، ثم رجع إلى تعز، وأمَّا الحسين فعاد صنعاء، وبعد هذه الوقعة انعقد الصلح بين الحسن وقانصوه مدة سنة.

وفيها أظهر الشيخ إبراهيم مَوْرِي الميل إلى الإمام المؤيد واستدعَى أميراً من أصحابه فبعث الإمام الشريف محمد بن ناصر الحمزي والشيخ أحمد بن فتح الله المحبشي وجماعة من العسكر، فلما وصلوا قريب مَوْر خرج إليهم الشيخ إبراهيم وأظهر الغدر واستصرخ عليهم جماعة من فرسان الأروام وخلفهم أهل الواعظات من ورائهم فقتل الشيخ المحبشي وجماعة من أصحابه وأُسِر آخرون.

وفيها خرَّ نجم من السماء ثم انفلق أثلاثاً، فوقع ثلثه في عُولي وثلث في مغربة لماس، وثلث في سوق الثلوث، وسمع أهل تلك الناحية عند سقوطه هدَّة عظيمة، ووجدوا حجارة لا تشبه حجارة الدنيا، فسبحان الله.

وفيـــات

أحمد بن محمد لقمان

في (٩ رجب سنة ١٠٣٩هـ) توفي بقلعة غمار(١) من بلاد رازح السيد الإمام المجتهد المجاهد أحمد بن محمد بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى.

كان علماً من أعلام الزيدية، وعيناً في العترة النبوية. وصفه المولى الحسين بن القاسم بالاجتهاد التام، وكان إمام جامع شهارة مدرساً به ليله ونهاره.

وله من المصنفات النافعة (شرح الأساس) و(شرح الكافل) وشرح على تهذيب السعد في المنطق والرياض الزاهية شرح الكافية، وشرح على مرقاة الإمام القاسم، وحواشي على المفصل وعلى الفصول اللؤلؤية، وعلى أوائل المنهاج ونظم الشافية، وشرَح البحر بجزء كأنه تتمة لبعض شروحه، كما في بغية المريد، ولعل شرح البحر لجده لقمان، قيل: وله (البحار المغرقة في الرد على الصواعق المحرقة).

وكان زاهداً ورعاً عابداً لا يُكفِّر باللازم، ومن مشائخه الشيخ لطف الله بن محمد الغياث، وكان أحد قواد الجيوش الكبار في حرب الأتراك، وله في الجهاد مقامات مشهورة، كان مسكنه كحلان تاج الدين، ثم هاجر إلى شهارة في أيام الإمام القاسم ولازم التدريس بجامعها في كل الفنون، وتوفي بعد عوده من الحج بعد مرضه بتهامة، وطال مرضه، فحمل إلى بلاد رازح، حيث توفي رحمه الله وقبره مشهور مزور.

يحيى بن أحمد المنتصر

وفي (محرم سنة ١٠٣٩هـ) توفي بالظفير السيد العالم الفاضل يحيى بن أحمد بن محمد بن المنتصر القاسمي، كان حاكماً بالظفير.

---

(١) قلعة غَمَر.

سعيد بن صلاح الهبل

وفي (٢٤ شوال سنة ١٠٣٩هـ) توفي بشهارة القاضي العلامة المحقق سعيد بن صلاح الهبل الخولاني. وكان عالماً كبيراً محققاً للفروع، عاصر الإمام الحسن بن علي بن داود والإمام القاسم وولده المؤيد، وله أنظار وحواشٍ معتمدة في الفروع، قال في الطبقات: قرأ على أحمد بن معوضة الجربي وعلي بن قاسم السنحاني وغيرهما.

ومن تلامذته: المتوكل إسماعيل وأولاد المترجم له الأعلام أحمد وعلي وعبد القادر ومحمد ومهدي ويحيى وعبد الله، وكان يجعل أهل النُسَخ من تلامذته حلقةً واسعة ويقعد في الوسط فيملي عليهم كأنما يغرف من بحر لا يحتاج إلى فتح كتاب، وكان في غاية من الزهد الصحيح والورع الشحيح، ويتنقَّل في البلاد للعلم والجهاد، وسكن صعدة وكان له بها أتباع.

ثم عاد إلى شهارة حيث توفي ــ رحمه الله ــ وقبره بالسرار من شهارة معروف، وكان رفيقاً بالطلبة مُسلياً لهم. من ذلك أن الترك غزوا بلدة شوكان خولان وقتلوا جماعة منهم إخوته وأولادهم وقبضوا ابنَه أحمدَ بن سعيد وابنَ أُختِه القاضي أحمد بن عامر، فعزَّى الطلبةَ ولم يقطع التدريس وهو إذ ذاك في الحيمة، ولما رأى بكاءهم سلاهم ممازحاً، ثم قال: ((اخترتم ولاءَ أهل البيت ولا يصيبكم ما أصابهم))، ثم أخذ يسليهم بما لقيه أهل البيت عليهم السلام.

حوادث سنة ١٠٤٠هـ

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) وقع اختلاف بين الأمير عبد القادر صاحب عدن وأحمد بن شعفل صاحب يافع، فأفسد ابن شعفل طريق عدن وكاتب إلى الباشا قانصوه، ومال إلى رأيه أهل يافع، فكتب الحسنُ بن الإمام إلى الأمير عبد القادر يحرِّضه على الاحتفاظ بعدن، ووجَّه إلى يافع السيد الهادي بن علي الشامي، فواجه إليه بعضهم وانهزم ابن شعفل من محله.

وأما جعفر بن شعفل فوصل إلى الحسن بن الإمام فأكرمه غايةَ الإكرام وأقامه مقام أخيه أحمد بن شعفل، وتقدَّم الحسن معه بنفسه إلى جهته، فقرر أموره، وضم إليه السيد الهادي بن علي الشامي، ثم رجع الحسن إلى إب. ولم يزل أحمد بن شعفل يكرّر الغارات

على أخيه جعفر، فأمده الحسنُ بعسكر كثير، ولم تزل الحرب بينهما سجالاً حتى انتهى بدخول أحمد بن شعفل تحت الطاعة، وأمَّن السبيل.

وفيها وقع اختلاف عظيم بين الأروام بزبيد، وكان قانصوه بالمخا فرجع إلى زبيدَ وقتَل الأمير سليماً.

وفيها وصل كتاب من باشا الحِسَا إلى الإمام المؤيد يشتمل على الترغيب والترهيب في موادعة سلطان الروم وترك محاربة عماله في اليمن، فأجاب الإمام بجواب مجمل مضمونه أن الباعث له على محاربتهم ظهور ما ظهر منهم من الجور والفساد ومخالفة رب العباد.

وفيها نهض الحسن بن الإمام من تعز لزيارة أخيه الإمام وسار بمسيره أخوهما أحمد، فاجتمعوا في أقر من أعمال شهارة، وبعد أن لبث الحسن في حضرة الإمام أياماً يسيرة سافر إلى حبور، ومنه إلى الغراس، ثم اجتمع بأخيه الحسين وتوجها إلى كوكبان، فتزوج الحسنُ ابن الإمام بالشريفة الكاملة زكيَّة بنت عبد الرب بن علي بن شمس الدين بعد وفاة أبيها بتعز؛ وكانت قبل ذلك تحت السيد الحسن بن حميد الدين بن المطهر، وقد قام الناصر بن عبد الرب مقام والده في إمارة بلاده، ولما انقضت أيام الوليمة نهض الحسين إلى بيت ردم فعمره، وتوجه الحسن إلى جبل تيس، وخرج منه إلى الحيمة، ومنها إلى ضوران، فوجده جبلاً واسعاً ومعقلاً مرتفعاً، وفيه آثار قديمة، فترجح له عمارتُه واتخاذُه دار وطن لتوسطه في قطر اليمن، وكتب إلى أخيه الحسين يطلب منه الوصول إليه للمفاوضة فيما عزم عليه، فاستحسن الحسينُ ذلك وحث أخاه على عمارته، ثم رجع الحسين صنعاء، وقام الحسن على العمل وتردد في الجهات الآنسية وغرس فيها البُن في الأودية بأشجار كثيرة.

وفيها ظهرت نار في أحد جبال أوسة شرقي الحبشة واتصلت بجبل آخر هنالك، واصطدم الجبلان، فسمع أهل تلك الناحية أصواتاً عاليةً، وانهدم بعض أوسة وهلك من أهلها قدر خمسة آلاف نفس ومواشي كثيرة واستمرت تلك النار أياماً فسبحان عظيم السطوات.

وفيـــــات

إبراهيم بن الهادي النعمي

في (عاشر صفر سنة ١٠٤٠هـ) توفي بشهارة السيد العالم الكامل إبراهيم بن الهادي النعمي التهامي الصَّبياني، وكان وصل من صبيا إلى حضرة الإمام المؤيد وهـو المتـولي للقضاء بصبيا.

الحسين بن عبد الرب بن علي

وفي (ربيع الأول سنة ١٠٤٠هـ) توفي بجهات تعز الأمير الكبير الحسين بـن عبـد الرب بن علي بن شمس الدين الكوكباني مجاهداً، وحُمل إلى الجند وقبر جنـب والـده وعمه محمد وذويهم.

وفيها توفي بتعز السيد يحيى بن المفضل بن إبراهيم بن علي بن الإمام شرف الـدين، وقبر عند قبر الإمام إبراهيم بن تاج الدين بمقبرة تعز.

ومات بكوكبان السيد زكريا بن لطف الله بن رضي الدين بن شرف الدين، والسيد الناصر بن محمد بن الهادي بن المطهر والسيد عبد القادر بن رضي الدين.

أحمد بن علي بن أبي الرجال

وفي (ربيع الآخر سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة أحمد بن علي بـن أحمد بن أبي الرجال. وكان فقيهاً أديباً أصولياً متكلماً، قرأ بصعدة تسع سنين، ثم انتقل شهارة، وله ديوانُ شعر وخطٌ عظيم، ثم أصابته علة، فانتقل إلى صنعاء، وتوفي بها، وقبره جنب قبر الفقيه حسن النحوي صاحب التذكرة.

أحمد بن محمد المؤيدي

وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصعدة السيد العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن عز الدين بن علي المؤيدي. وكان عالماً فاضلاً مجاهداً.

زيد بن علي المسوري

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٠هـ) توفي بإب القاضي العلامة زيد بن علـي بـن

الحسين بن محمد المسوري بمقام الحسن بن الإمام القاسم. وكان يعتمده في الكتب والرسائل والخطب، وله المعرفة الكاملة، وله تهنئة بخروج الحسن بن الإمام من الحبس تزيد على أربعين بيتاً أولها:

إيه بحمد عظيم المن موليه فذاك أفضل ما يتلوه تاليه
وهات عما تراه الآن من عجب لكي تُصدِّقَ فيما أنت حاكيه

يحيى بن أحمد حابس

وفي (شوال سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصعدة حاكمها القاضي العلامة الحافظ يحيى بن أحمد بن حابس الدواري. وكان عالماً فاضلاً ورعاً يحفظ نصف التذكرة غيباً والنصف الآخر في حكم الغيب.

صالح بن عبد الله الحاضري

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصنعاء السيد العلامة صالح بن عبد الله الحاضري السراجي. وكان عالماً فاضلاً مخالطاً للأتراك بصنعاء وقبره بجهة الصعدي.

صلاح الفلكي

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) توفي بذمار الفقيه العلامة صلاح بن محمد بن ناصر الفلكي. وكان إماماً في الفروع وحفْظ المذهب زاهداً إلى الغاية، قال في الطبقات: كان لا يزاحم في الفضائل، وعنه أخذ ولدُه محمد وعدةٌ، (والفلكي نسبة إلى فلكة من قرى ذمار).

علي بن محمد مطير الحكمي

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) توفي بتعز العلامة الحافظ علي بن محمد بن إبراهيم بن مطير الحكمي الشافعي. انتفع به جماعة في الحديث، وله مؤلفات واسعة.

حوادث سنة ١٠٤٢هـ

وفي (سنة ١٠٤٢هـ) سار الحسنان إلى بلاد خبان وجهاتها، وأرادا دخول يافع، فنهاهم الإمام فانتهيا، ورجع الحسين إلى ضوران واستقر فيه، وأضرب عن سكون شهارة وأقبل على القراءة والتأليف، وفي نفسه ما فيها من قبض الإمام بلاد الحيمة بعد أن كانت إليه، وبعد أيام وصل الحسن إلى صنعاء.

وفيها جهز نائب السلطان بمصر ثلاثة آلاف نفر من عسكر مصر مع الأمير قاسم للقبض على الإصباحية الذين عاثوا في مكة، وهم نحو ألف عسكري عزموا من بنادر تهامة ينهبون حتى وصلوا مكة، فدخلوها قهراً في (سنة ١٠٤١هـ)، فانضم العسكر المصري إلى أمير مكة الشريف زيد بن محسن، فقتلوا الإصباحية المتمردين جميعاً، وقويت شوكة الأمير زيد وجددت له ولاية مكة.

قال في ذيل روح الروح: في يوم (الثلاثاء ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٤٢هـ)، انقض قبل الظهر بساعتين كوكب، ثم تعقبه رجفة سمعها كل إنسان في داخل البيوت وخارجها كأنها الرعد. انتهى

وفيات

إبراهيم بن حثيث

وفي (صفر سنة ١٠٤١هـ) توفي القاضي الإمام الشهير إبراهيم بن حثيث الذماري، وهو من قرية العليب جهران. وكان إماماً في الفروع مرجوعاً إليه، أخذ عن الأخوين علي ومحمد ابني راوع وغيرهما، وهو من كبار المقررين للمذهب، ومن أجلّ تلامذته المتوكل إسماعيل بن القاسم ومحمد بن صلاح بن محمد بن ناصر الفلكي ومحمد بن صلاح بن سعيد بن قاسم السلامي ويحيى بن محمد بن صلاح السحولي، ذكره في الطراز المذهب في مشائخه فقال:

ومنهمُ خاتمة النظار — ابن حثيث الجهبذ الذماري
أكرم بإبراهيم من مفيد — وعالم وعامل مجيد

وهو الواسطة بين الأمير سنبل القائد التركي الكبير وبين المؤيد بن القاسم وأخيه الحسن، فمال إلى الإمام وترك الأتراك، وكان من أكبر قواد بيت القاسم، وولوه بلاد ذمار ووصاب، وجاهد الأتراك مع الحسن وغيره حتى أخرجوهم من اليمن، وله محاسن منها مسجده بذمار، وتوفي بوصاب (سنة ١٠٤٦هـ)، ثم سار القاضي إبراهيم حثيث إلى المؤيد بشهارة فأجله، وقرأ عليه مع أهل مقامه وتعمَّر طويلاً.

محمد بن سليمان الأهنومي

وفي (رجب سنة ١٠٤١هـ) توفي بالهجَر الأهنوم القاضي العلامة محمد بن سليمان الأهنومي من هجرة الروس عن نحو سبعين سنةً. وكان عالماً محققاً.

طه بن عبدالله الشافعي

وفي (شوال سنة ١٠٤١هـ) توفي القاضي العلامة الحافظ طه بن عبد الله الشافعي، وكان ثقة أميناً حافظاً متقناً محدثاً، تولى القضاء بجبلة، وسادت فتاواه مسير الشمس.

أحمد بن الهادي الديلمي

وفي (ربيع سنة ١٠٤٢هـ) توفي بهجرة ساقين السيد العلامة أحمد بن الهادي بن علي بن محمد بن الهادي بن محمد بن الحسن بن أبي الفتح بن مدافِع بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الإمام الناصر أبي الفتح الديلمي، وهو المعروف بالمدافعي وبالباقر.

قال في الطبقات: اشتهر على ألسنة الفقهاء تسميته بالباقر لتبقُّره في العلم، وأخذ عن القاضي عامر بن محمد الذماري، وكان له خصال حميدة، وخرج للجهاد بالديار الصنعانية، ثم عاد إلى البلاد الشامية، وسكن ساقين، وبه توفي.

وفي (سنة ١٠٤٢هـ) توفي بالسودة الأمير لطف الله بن الهادي بن عز الدين بن الإمام شرف الدين عن ٥٩ سنة.

حوادث سنة ١٠٤٣هـ

فيها تعاظم الجور من الأروام بتهامة، ففزع أهلها إلى الإمام واستغاثوا به من الشدائد الجسام، فجمع العساكر وبذل الذخائر، وجعل قائد الجيوش الجرارة والعساكر المختارة

أخاه السيف المُنتضَى، والأسد الذي ما رام فريسةً إلا نال منها غرضاً، شرف الإسلام الحسن بن الإمام.

وكان خروجه من صنعاء إلى ضوران في رجب، ومسيره منه إلى تهامة في شعبان، فأول ما استفتح بيت الفقيه الزيدية، ثم حُبِس على يد الشيخ علي بن شمسان والأمير رجب بعد أن خرج عليهما الأمير حسين الكاشف بعصابة من الأروام، فوقع حرب شديد انكشف بقتل حسين الكاشف في عدة من أصحابه واحتُزت رؤوسهم.

وكان استقرار الحسن في الحِمَى خارج زبيد وعَمَره حتى صار كالمدينة تجلب إليه البضائع الواسعة ويقصده التجارُ من البلاد الشاسعة، وتتابعت إلى الحسن الأجناد من جميع البلاد، فمن الواصلين إليه بأمر الإمام الشريف هاشم بن حازم والشريف التقي بن إبراهيم بعساكر حجة وغيرها، حتى بلغت جيوشُه إلى أربعين ألفاً.

وجهز الأميرُ الناصرُ بن عبد الرب من كوكبان الأميرَ شمس الدين بن يحيى بن علي بن شمس الدين بعساكر كوكبان، وكان شجاعاً مقداماً، غير أنه لا معرفة له بتدبير الحرب، ولما وصل المظفريّة من بلاد الحجرية خيَّم هنالك في مكان منخفض، فأشار عليه بعضُ أصحابه بالانتقال إلى موضع عالٍ يَعرِف منه الذاهب والآيب، فلم يُسعِد.

وكان الأروام قد جعلوا طائفةً وافرة إلى موزع نحو مائة وخمسين فارساً وألف راجل قائدهم الأمير مصطفى، فما زال يترقّب الفرصَة ليهجم على محطة شمس الدين، وكانوا قدر ألفَي نفر، فلما كان يوم عيد الإفطار قصدهم بخيله ورجله، فوافاهم على حين غفلة، وقد اشتغلوا بإصلاح الغداء، فلم يشعروا إلا وقد خالطتهم العساكر، وشهرت نحوهم البواتر، فاستأسرَ بعضهم وفر آخرون، وقتل البقية، وقتل قائدهم شمس الدين، وكانت وقعةً عظيمة وفادحة جسيمة.

وقد بلغ الحسين بن الإمام خروج الأروام إلى موزع، فخشي على تعز، فنهض من ضوران مبادراً حتى استقر في يفرس، فعرض له مرض فدخل تعز، ثم شفي فنهض إلى الحِمَى، واجتمع بأخيه الحسن ولم تزل الحروب بينهم وبين من في زبيد قائمةً على ساق وسحابتها منهلة الإرعاد والإبراق.

وفي ذيل روح الروح: أنه في يوم عيد الإفطار (سنة ١٠٤٣هـ) قصد الأتراكُ محطةَ

أمير البلاد التعزية السيد شمس الدين بن يحيى بن علي بن شمس الدين إلى المظفريّة من بلاد الحجرية، فانهزم الأمير الهادي ابن الشويع وجماعة من العسكر، وانخذل جُل عسكر كوكبان، فثبت الأمير شمس الدين ومن معه من العسكر في موطن النزال وقاتل أشد القتال حتى قتل وأخذته سيوف الأتراك، وقتل معه في ذلك اليوم السيد أحمد بن محمد الحمزي الكوكباني، والسيد حفظ الدين بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن الإمام شرف الدين والسيد الحسين بن عبد الله بن مطيع الله بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى، وأحمد بن محمد بن جميل العقباني، والحسين بن حفيظ بن الهادي العقباني وعدة من أعيان العسكر، وكان الأمير شمس الدين بن يحيى نجيباً شجاعاً مهيباً براً شفيقاً بأهله، وحكم البلاد التعزية من (سنة ١٠٤٠هـ) إلى (سنة ١٠٤٣هـ) أحسن حكم وسار فيهم أحسن سيرة وفر بعد قتله من فر من عسكره، وأسر الأتراك من عسكر كوكبان جماعةً وأوصلوهم إلى الباشا قانصوه، وهو ببندر المخا، فأمر بضرب أعناقهم.

وفي يوم (١٤ شوال سنة ١٠٤٣هـ) كان خروج الأمير عبد الرحيم بن يحيى بن عبد المؤمن بن عبد الشكور بن شمس الدين بن الإمام من محروس كوكبان متوجهاً إلى تعز والياً عليها خلفاً للأمير شمس الدين.

وفي ذي الحجة سنة ١٠٤٣هـ خرج الأمير مصطفى ومن معه من الأتراك إلى القُرِيَّة(١) التي بها الأمير سنبل، ومن لديه من أصحاب الإمام في جهات زبيد، فتلازم الحرب بين الفريقين من الفجر ودخل الأتراك محطة الأمير سنبل، ثم كان الحريق في المحطة، فمنع الأتراك عن التقدم، وثبت الأمير سنبل ثباتاً عظيماً، فقتل من الأروام مائة نفر، وتعذر نفوذ الغارة التي أرسلها الحسن بن الإمام من محطة الحِمَى إلى الأمير سنبل صحبة الأمير الخضر بن الهادي بن الحسن، ولم يستحسن الحسن بن الإمام نهوضه للتفريج عن الأمير سنبل خشية أن يقصد قانصوه محطة الحِمَى وتحصَّن الأمير سنبل بالنُّوَب حتى حجز بينه وبين الأتراك الليل.

ورجع الأتراك بعد ذلك وقد ذهبت عدة من القتلى من الفريقين ولم تزل الحرب على

---

(١) تصغير قرية.

ساقٍ بين الحسن والأتراك بقية ذي الحجة. انتهى.

ومن ذيل روح الروح أيضاً، وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٤هـ) توفي بمطرح الحِمَى خارج زبيد السيد صلاح بن عبد الله بن المطهر، وتوفي هنالك أيضاً السيد صلاح بن جعفر بن الهادي بن المطهر وصنوه ناصر بن جعفر.

وفي شعبان توفي بحيس السيد عبد الرحيم بن يحيى بن عبد المؤمن بن عبد الشكور بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين أمير تعز، وكان ذكياً أديباً ألمعياً، وتوفي بالحِمَى السيد علي بن الهادي بن غوث الدين بن المطهر، وكان أديباً أريباً، وتوفي بالحِمَى أيضاً السيد ناصر بن لطف الباري بن محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين.

وتوفي به أيضاً الفقيه الأديب عبد الله الزبيدي، وكان أديباً أريباً حافظاً لأخبار الدولة التركية.

وفي هذه السنة ظهر داعٍ في بلاد المشرق تسمَّى بالإمام جبارة، فأُتي به إلى الحسن بن القاسم إلى الحِمَى، فأمر بضرب عنقه.

وفيها كان الحريق بمحطة الحسن بالحِمَى فهلكت نفوس وخزائن، وكان قد وقع الصلح بين الحسن والأروام في (رجب سنة ١٠٤٤هـ). انتهى

ووصل أحمد بن القاسم من جهات صنعاء إلى جهات ذمار لضبط البلاد وتأمين السبُل من الدعار وأهل الفساد، وكان صحبته الأمير الشيخ ناصر المحبشي عن أمر الإمام.

وفي (سنة ١٠٤٤هـ) خرجت طائفة من عسكر الأروام من زبيد، فمنعهم جنود الحسَنين وقتلوا منهم وأخذوا بعض خيلهم.

وفيها كانت وقعة النخل وهي أن الأمير مصطفى لما عظُم أمره بعد وقعة المظفريَّة لم يزل يختلف من زبيد إلى المخا لمشاورة قانصوه، فبلغ الحسنَ وصوله من المخا إلى زبيد، فقصده بنفسه، وترك في المحطة أخاه الحسين. فالتقوا في النخل ليلاً، فثبت مصطفى وأصحابه ثباتاً عظيماً حتى كاد أن ينهزم أصحابُ الحسن، فضربت النوبةُ في محطة الحسن، فاتهم الأروامُ أنها زيادة جيش قد أقبلت للحسن، فانهزموا وقُتل منهم [illegible] واستولى الحسن على ما معهم من الحمولة وهي قدرُ ثلاثمائة جَمَل من الحب، فحصل

الارتفاقُ بها، ومن جملة الغنائم الزبارط والوِطاق الذي أخذه مصطفى على شمس الدين في المظفرية.

وبعد هذا طلب الأرْوامُ الصلحَ من الإمام، فأسعدهم إلى مقدار ثلاثة أشهر، فكان هذا الصلح من الألطاف الربانية؛ فإنه أصاب أصحابَ الإمام الحُمَّى، بعد ذلك مرض عام فلم تنقض أيام الصلح إلاَّ وقد شُفي الأكثر، ومات من وافاه أجلُه كيوسف بن الإمام القاسم وهو في أوان البلوغ ودُفن بالحِمَى -رحمه الله-.

وفي هذه المدة خرج الشريف هاشم بن حازم مفارقاً للحسَنين على جهة الخفية لم يكن معه إلا خادمه، وكتب إلى الإمام أن جميع ما معه في المحطَّة من خيل وسلاح وغيرها لبيت المال يتصرف فيها الإمام كيف يريد، فحصل مع أصحابه وهُم قدر ألف نفر أسَفٌ عليه إذ هو قائدُهم وكان من أهل الكمال والديانة والمعرفة والفطنة. قرأ على الشيخ لطف الله بن محمد الغياث بمكة المكرمة، وهو من بيت الرئاسة، وخرج من مكة إلى اليمن لطلب العلم، ولما وصل صبيا ندم على فعله، فرجع إلى حضرة الإمام وهو بأقر، فاعتذر إليه، فعذره وقابله بالإكرام، ورجع إلى الحسن بالحِمَى ببلاد زبيد فتلقاه الحسن بالإكرام في موكب عظيم.

وفيها قدم (قانصوه) من المخا إلى زبيد، وشرع في فعل حيلة وهي حفر خندق خارج سور زبيد، وجعل فيه رجالاً من الشجعان معهم الزبارط المشحونة بالحديد والرصاص، ثم قصدوا محطة الأمير سُنبل، وهو في القُرَيَّة، فأثاروا الحرب، فحمل عليهم الحسن بن الإمام بأصحابه، فانهزموا فتبعهم الحسنُ حتى قرب من الخندق، فرمَى من فيه فقتل من أصحاب الحسن نحو السبعين، وقتل من الأروام كثيراً. وتعقبه حرب آخر قُتل فيه من أعيان أصحاب الحسن السيد الهادي بن علي الشامي.

وفيات

علي بن محمد الجملولي

قال في الطبقات: وفي (٣ رجب سنة ١٠٤٣هـ) توفي بكوكبان الفقيه العلامة علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الجملولي الأهنومي. وكان علامةً كبيراً عاقلاً رصيناً، يُرجَع

إليه، وعنه أخذ جماعةٌ، وكان الإمام المؤيد قد عينه للقضاء بكوكبان والتدريس والإرشاد، وكان يجري مع الناس على طبقاتهم بما يجبر به قلوبهم، ولم تجر عليه وصمة. وفي كلامه ما يجري مجرى الأمثال. وولده الفقيه زيد بن علي الجملولي هو الذي أعدمه صاحب المواهب بذمار (سنة ١٠٩٨هـ) وحفيده هو العلامة علي بن محمد بن علي بن محمد الجملولي، توفي (سنة ١١٢٥هـ) وجده مفتي الحنفية بصنعاء مع الأتراك إبراهيم بن محمد الجملولي، توفي بصنعاء (١٠٠٢هـ)، سبق.

محمد بن عبد الله أبو علامة

وفي (٨ ذي الحجة سنة ١٠٤٤هـ) توفي بصعدة السيد العلامة النسابة صاحب المشجَّر المشهور، محمد بن عبد الله بن علي الملقب أبو علامة. وكان علامةً نحريراً، لكنه خالف على الإمام ووالى الأتراك ثم تاب واعتزى إلى الإمام، وهاجر إلى صعدة في أيام الإمام المؤيد، وكان والده قد دعا، ولعل وفاته (سنة ١٠١٧هـ) وسبقت إشارة إليه.

محمد علي الغشم

وفي (أول رجب سنة ١٠٤٣هـ) توفي بجهات مسور لاعة القاضي العلامة الفاضل الزاهد محمد بن علي، وقيل: ابن عبد الله الغشم الآنسي. وكان عالماً عابداً، طاف في كثير من جهات اليمن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد إلى معالم الدين. وله تفسير للقرآن في مجلد، وله قصيدة بليغة نحو مائتي بيت تتضمن العقائد والمذاهب، وقبره بمسور لاعة مشهور مزور، وسيأتي ذكر له عند وفاة أخيه أحمد بن عبد الله (سنة ١٠٥٠هـ).

وفي شهر (رجب سنة ١٠٤٤هـ) توفي بحصن ضوران المولى الحسن بن علي بن الإمام القاسم وعمره نحو عشرين سنةً كما في اللآلئ المضيئة.

وفي (شعبان سنة ١٠٤٤هـ) توفي بمطرح الحسن بن الإمام أخُوه المولى يوسف بن الإمام القاسم، وعليه قبة بالحِمَى.

وفي (رجب سنة ١٠٤٤هـ) توفي المولى يحيى بن الإمام القاسم وعمره نحو عشرين سنة وقبره بمسجد حجر بصنعاء، وقد وصل من الحِمَى إلى صنعاء مريضاً من وباء تهامة،

وقال المولى الحسين بن القاسم يرثيهم:

سادة عُولجوا بكأس المنايا   عجباً ما أمر كأس المنية
من فقيدين سيدين بصنعا   وبضوران قبر نفس زكية
ثم من بالحِمَى أجل فقيد   يوسف ذو المحاسن اليوسفية
يا لها أوجهاً غدت في لحود   كالنجوم التي تضيء بهيّة
مَا رعَى الموتُ في علاهم ذماماً   للمعالي وللخلال السنيَّة
أودع القلبَ منهمُ حر نارٍ   عظّم الله أجرها من رزيّة

صلاح بن أحمد المؤيد

وفي (ذي الحجة سنة ١٠٤٤هـ) توفي بقلعة غمار من جبل رازح السيد الإمام العلامة صلاح بن أحمد بن محمد بن علي بن الحسن بن الإمام عز الدين بن الحسن المؤيدي عن ٣٣ سنة، فإن مولده (سنة ١٠١٠هـ)، وأخذ عن القاضي أحمد بن يحيى حابس والسيد داود بن الهادي المؤيدي ومحمد بن عز الدين المفتي بصنعاء، واستجاز من علماء مكة.

ومن تلامذته السيد إبراهيم بن محمد بن أحمد بن عز الدين والسيد صلاح بن أحمد بن علي بن عبد الله المؤيدي وغيرهما.

وكان إماماً مجتهداً في كل فن، فارساً شجاعاً كريماً فصيحاً شاعراً له الخط الحسن بالقلم العربي وغيره، وولاه الإمام المؤيد بن القاسم ولايةً عامة، وله قصيدة تجرم فيها من ميل الناس عن علوم آل محمد.

قال السيد المفتي: ((وهي أفضل ما قال))، نأمل أن ننقل منها شيئاً، وصنف عدة مصنفات وجاهد الأتراك وفتح مدينة أبي عريش، وحاصر صنعاء مع الحسنين، وكان مطرحه بالجراف، وكان منصوراً أينما توجه ولا يسافر إلاّ بكتبه، وأول ما تضرب خيمة كتبه فيدخلها للقراءة والخدم يضربون بقية الخيام ولا يزال ليلة ونهاره يحرر ويقرر العلوم والآداب مع ذوق لا نظير له، ووفاته بعد والده بخمسة أيام وقال في اللآلئ المضيئة: وفي نصف (ذي الحجة سنة ١٠٤٤هـ) توفي بغمار رازح السيد العلامة أحمد بن المهدي بن

محمد بن علي بن الحسين بن عز الدين بن الحسن، وأقام الإمام المؤيد مقامه ولده يحيى بن أحمد بن المهدي.

وفي (٢٠ ذي الحجة) توفي بقلعة غمار من رازح السيد صلاح بن أحمد المهدي، وقبره بجنب والده. وفي البدر الطالع والجامع الوجيز أن وفاة السيد صلاح بن أحمد بن المهدي في (سنة ١٠٤٨هـ)، قال في مطلع البُدُور: ((رأيته خارجاً إلى بعض المتنزهات بصعدة مع أصحابه نحو خمسة وثلاثين فارساً يتراجعون بالمسائل والأدبيات، وكان هذا دأبه، وله مصنفات وأشعار بليغة)) وترجمته طويلة في مطلع البدور، وهو من نوادر الدهر علماً وفضلاً وذكاءً ورئاسة وشهامة.

حوادث سنة ١٠٤٥هـ

في شهر صفر طلب الأروام من الإمام الصلح لأنه قد نفد ما معهم بزبيد من النقد وغيره، واحتاجوا حاجةً شديدة، فأسعدهم الإمام سنة، وكان رأي الحسن عدم الإسعاد، فلم يسعه إلا الإسعاد وامتثال رأي الإمام، ولم تطل المدة، فقد خرج (قانصوه باشا) في قدر ثمانية خيالة إلى محطة الحسن ولم يشعر بهم إلاَّ بعد أن وصلوا المحطة في يوم (الجمعة ٢٧ صفر سنة ١٠٤٥هـ)، وبقي عند الحسن بن الإمام إلى شهر (جمادى الآخرة سنة ١٠٤٥هـ).

وكان قد بدأ بالاجتماع بالحسين بن الإمام خوفاً من الحسن، ومما قاله للحسن: ((إنكم قد قبضتم اليمن وتسلمتموه، والسلطانُ ما مراده من اليمن إلا لحفظ الحرمين الشريفين، فإذا تركتموهما ولم تتعرضوا لهما فلا يخرج أحد بعدي إلى اليمن، وإن فاتحتم على الحرمين الشريفين، فإن السلطان لا يترك اليمن لأجلهما)).

وطلب قانصوه العزم إلى الروم فودعه الحسَنان توديعاً كريماً، وأحسنا إليه وزلَّجه الحسن بزلاج عظيم، وأعطاه من الخيام شيئاً كثيراً، يقال: ثلاثمائة خيمة بوطاق، وكذلك الجمال والمال، وتوجه معه السيد التقي ابن عبود وسار بما معه من العُدَد، شاكراً للحسن بن الإمام علي ما بذله من المدد، ويقال: إنه أعطاه ثلاثة لكوك، ويقال: إنه أراد أن يعرف انضباط الجيوش، فقال للحسن: ((إني لا آسف على شيء إلا على سيف فُقِد مني، فأسفت عليه))، فأمر الحسنُ أن يحضر كلُ حامل سيف يضع سيفه أمامهما،

فوضعوا سيوفهم عشرات الألوف، ثم قال: لم ير سيفه فيها، فأمرهم الحسن أن يأخذ كلٌ واحد سيفه فأخذوها بانضباط، فبعد ذلك قال قانصوه للحسن: ليس معي سيف، وإنما أردت أن أعرف الانضباط والطاعة اللذَين بهما داوم مُلككم.

ثم إن مصطفى باشا لَمّا قل عليه الطعام والمدد بزبيد أرسل إلى الحسن في خروجه إلى المخا وتسليم زبيد والمخا إلى من شاء الحسنُ وشرط حمل ما معه من الأثقال والأثاث وأن من معه من شاء أن يعزم معه فلا حرج عليه، فأجابه الحسنُ إلى ذلك، فخرج إلى المخا ووصل من عند الحسن السيد محمد بن عامر لقبض البندر (المخا)، ثم ركب الأمير مصطفى بمن معه البحر من المخا، ومعه ألف وخمسمائة من العسكر.

ثم إن الحسين بن الإمام طلع ضوران من طريق رِمَع والحسن بن الإمام دخل زبيد وصام شهر رمضان بزبيد، وقرر لولاية بندر المخا الأمير سعيد بن ريحان الآغا وهي أكبر ولاية ورفع ما كان يؤخذ من المظالم. وفيها أو في التي قبلها ظهر جراد كثير باليمن.

وفي (سنة ١٠٤٦هـ) حصل قَرٌّ شديد وقت الظافر فضُرب كثيرٌ من الأعناب، ووقع غلاءٌ في الأسعار وقلت الأمطار، وهلك في المغارب كثيرٌ، وفي تهامة إلى بلاد عذر وعاهم وظاعن ونهم والمشارق، واستغاث الناس إلى بلاد شظب وعفَّار واليمن الأسفل، ولم يعدم الطعام إلا أنه بلغ القدح الصنعاني إلى حرفين، لكنها هوَّنت الأسعار آخرَ السنة، وزالت الشدةُ ولم تطل المدة، بل كانت قدر نصف سنة، مات كثير من القراش وخلت قرى في اللحب ومشارق تهامة.

أحمد عواض الأسدي

وفيها توفي الحاج المجاهد الكبير أحمد بن عواض الأسدي الذي كان من أكبر أعوان الإمام القاسم من أول دعوته، وقبر بالروضة - رحمه الله - وكانت وفاته يوم الاثنين (٢١ ربيع الثاني سنة ١٠٤٦هـ) وكان مرضه خمسةَ أيام. وله في نصرة الإمام المغازي الكثيرة العديدة البعيدة، والفتكات العظيمة بالأتراك، وكان أكثر استقراره بخولان العالية، وكان جنوده الذين حمَى بهم خولان وغيرها من الأتراك وغزا بهم غزاوته الشهيرة التي تضمنتها سيرة الإمام القاسم، وقد كان مات ولده الأكبر قبله قريباً، وكان هذا ولده مجاهداً مرابطاً مع الحسن في تهامة وغيرها.

صلاح بن عبد الله السراجي

ومن ذيل روح الروح: في (٥ جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ) توفي السيد العلامة صلاح بن عبد الله السراجي الحاضري. وكان متفنناً في كل العلوم بليغاً ناظماً ناثراً، وقبره جنب قبر السيد صلاح بن أحمد الوزير المتوفى (سنة ١٠٤٠هـ) وفي طبق الحَلْوَى: أنه كان لطيف المحاضرة حسن الجواب، وقد كانت له المنزلة الرفيعة عند الباشا جعفر والباشا فضلي، فإنه تمكن من قلب الرجلين، ولما كتب إليه الباشا جعفر يسأله بقوله:

ماذا يقول إمامُ العصر في رجل ... أضحى قتيل الهوى بالأعين النجل

هل يستباح له أحياءُ مهجته ... برشف محبوبه والضم والقُبَل

أم لا يجوز له يوماً يعانقُه ... ويشفيَ(١) النفس من قول بلا عمل

فأجابه بقوله:

إن صح دعواه في إتلاف مهجته ... وأن رشفَ اللمَى يشفي من العلل

فليرشفنَّ رضابَ الثغر مُلتثماً ... من ريق محبوبه أحلى من العسل

فالرشفُ في شرعة الإسلام أهونُ من ... قتل امرئٍ مُؤمنٍ بالله والرسل

وقال الوزير في طبق الحلوى أيضاً: إن ظاهر هذا موافق لمذهب الظاهرية أن التقبيل والنظر لشهوة(٢)، وسائر المقدمات جائز، وبسبب هذا قد تعدى الحال في أيام حيدر المغرور، وما هو في سيرته وسيرة حاشيته مشهور، فكان إذا قصد إحدى المنتزهات انهمك في أنواع المفاسد واللذات وبيع الخمر في سوقه واستوى زرع المنكر على سوقه، وقد قُطع هذا العرقُ الظالم بدولة الفواطم، بعد حصد تلك الرقاب العواصي بالعواصم، والحمد لله.

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ) توفي الفقيه الكامل الداهية ناصر بن علي بن

(١) وفي قوله: ويشفيَ النفس نصبٌ بدون ناصب، وقد وقع له شواهد في أشعار القدماء وشعر المولدين كالمتنبي وغيره ووجهه بتقدير أن.

(٢) حمله المصنف الوزير على الجد مع أنه هزل، كما لا يخفى في نظائره من المداعبات والعجيب كيف يخفى هذا على الأديب الوزير. انتهى من خط المولى الحسين بن علي العمري -رحمه الله-.

زيد بن نهشل المحبشي الشرفي.

وفي (صفر سنة ١٠٤٥هـ) توفي بتعز السيد الزين بن عز الدين بن محمد بن عز الدين بن الإمام شرف الدين.

وفي (شعبان سنة ١٠٤٥هـ)، توفي بذمار السيد يحيى بن لطف الباري بن محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين.

أحمد بن موسى الصعدي

قال في اللآلئ المضيئة للشرفي: وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٤٥هـ)، كانت وفاة الفقيه الفاضل المحدث سلمان أهل البيت النبوي في عصره وأبي ذر الغفاري أحمد بن موسى بن مقبل بن علي سهيل العدناني التراري الصعدي، وقد طعن في السن وحج في (سنة ٩٨٠هـ).

وكان له في محبة أهل البيت والسعاية في قضاء حوائجهم والمحبة لهم بقلبه ولسانه والمناصرة بيده وإحسانه ما لم يكن لغيره قط، ولقد كان يسير بنفسه إلى قراهم البعيدة ليتفقد حُرَم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وربما تختصم المرأتان منهم، فيخرج إليهما ليصلح بينهما، وكان قد اتخذ مترله مألفاً لبني هاشم يأوون إليه كما يأوي الطير إلى وكره، وكان ممن بايع الإمام الحسن بن علي بن داود وشايعه وناصره، واستعان له من أهل صعدة أموالاً جزيلة، ولما دعا الإمام القاسم جعل له ولايةً عامةً، فكان يفعل كما يفعل الإمام من التصرفات، وكان باقياً في صعدة أيام الظالمين بأمر الإمام، وكان له هيبة في صدور الظالمين، وجرى له مع ولاة صعدة كالأمير محمد الكردي، والأمير صَفَر قصص وسلمه الله منهم، بل حُبس ساعةً من نهار ثم أُخرِج.

وقد كان هموا بقتله وأحضروا ما أرسله إلى الإمام حجة عليه، فهابوه وأبلسوا لما رأوا المدينة تموج بأهلها خوفاً عليه، فخلوا عنه، وقد أجاب على الأمير محمد بجواب حسن قبله، قال له: هذا الإمام هو من بلدنا وبيننا وبينه مثلما بينكم وبين من هو من بلدكم كتب إلينا نشتري له بعضَ كسوة وصابون وأمور ليس عليكم منها ضرر، وكان يتكلم وهو مطرق لا ينظر إلى أحد من الأتراك.

أخبر السيد علي بن المهدي، قال: خرجنا مع سيدنا أحمد بن موسى لزيارة السيد فارس خارج صعدة، فإذا هذا الطاغي قد خرج بخيله ملأ البقاع، فانفرد عن فرسانه، وأقبل على فرسه حتى وقف وقد عرف سيدنا أحمد، فقال: أين تريد يا فقيه؟ فقال: نخرج إلى السيد فارس، فولى عنا ولحق بفرسانه، فسألني سيدنا أحمد هل الأمير شيبة أم لا؟ فقلت: (يا سبحان الله)، أنت في بلده كذا كذا مدة ولا تعرفه، فقال: ما أعرف وجهه ولا أريد أن أعرفه.

أحمد بن عامر بن محمد الذماري

وفي شهر (رجب سنة ١٠٤٥هـ) كانت وفاة القاضي العلامة المجاهد شمس الدين أحمد بن عامر بن محمد الذماري عقيب طلوعه من جهات زبيد، وكان مرابطاً للجهاد مع شرف الإسلام الحسن بن الإمام، فطلع إلى بيته في خولان في عاشر حيث مسكن والده، ومات ومشهده بعاشر، فمرض أياماً قليلة، ومات -رحمه الله- قبل والده، ووقع مع والده أمر عظيم لكبر سنه، ولم يبق من أولاده غيره، وكان مقداماً رئيساً عالماً.

الهادي بن صلاح النعمي

وفي يوم (الثلاثاء ٢٩ ذي الحجة سنة ١٠٤٥هـ) كانت وفاة السيد الأفضل الأكمل الهادي بن صلاح بن الهادي الوشلي النعمي الوالي ببندر جازان. وكان موته بعلة الجدري، وبعد وفاته ولّى الإمام المؤيد بجازان أخاه السيد محمد بن صلاح بن الهادي الوشلي النعمي.

أحمد بن علي الحيمي

في (سنة ١٠٤٥هـ) توفي بمكة الشيخ العلامة النادرة أحمد بن علي الحيمي المحيرسي - صنو عبد القادر-. كان من نوادر الزمان، فقيهاً ذكياً، أحاط بعلوم كثيرة بقوّة الذكاء وسرعة الحفظ والتمكن، بسرعة من تحقيق مذهبه الزيدي، ثم قرأ فقه الحنفية. وتولى القضاء للأروام بصنعاء، وكان يفتيهم بمذهبهم بلسانهم ويفتي أهل فارس بلغتهم والعرب بلغتهم مع تبحر في علم المعقول وشيخه في فقه مذهبه السيد محمد بن عز الدين

المفتي، ثم أنه اختلط آخر عمره، فادعَى تارة أنه المهدي المنتظر وتارة أنه دابة الأرض التي تكلّم الناس، وله أشعار فائقة، ثم دخل مكة واشتغل به العلماءُ هنالك، وبها توفي.

علي بن الحسين العابد

وفي ليلة (السبت ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٤٦هـ) كانت وفاة السيد الأفضل الأعلم علي بن الحسين بن علي العابد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن صلاح الشرفي بصنعاء. وقبر بجنب قبر السيد عبد الله بن محمد بن صلاح، وقبر الفقيه العلامة حسن النحوي مصنف التذكرة.

كان من الفضلاء الأخيار العلماء الأبرار، وله مآثر حسنة، وهو الذي نقل جده الزاهد العابد علي بن إبراهيم من عفار، وكان مقبوراً في المشهد الذي فيه السيد داود، فنقله إلى بلدِه المسمى القُويعة من الشاهل وبنَى عليه قبةً وبنى حولها مسجداً جامعاً.

علي بن قاسم العنسي

وفي (ذي الحجة سنة ١٠٤٦هـ) كانت وفاة القاضي العالم الزاهد العابد الأفضل علي بن قاسم بن يحيى العنسي في برط. وكان من العلماء الأبرار والفضلاء الأخيار، له معرفة في الفقه وأصول الدين، وكان زاهداً في الدنيا، وقد اهتدى على يديه الكثيرُ بجهات برط، وستأتي زيادة في ترجمة ابنه أحمد المتوفى بصنعاء (سنة ١٠٦٥هـ).

المهدي بن عبد الله الذيباني

وفي (رجب سنة ١٠٤٦هـ) توفي بصنعاء وقبر بباب اليمن الفقيه العلامة المقرِئ المهدي بن عبد الله الذيباني، ثم الصنعاني. قرأ على الشيخ سعد بن علي منحه وغيره، وقرأ عليه المولى الحسن بن الإمام القاسم أيام حبسه بقصر صنعاء، وكان فقيهاً محققاً فاضلاً.

وإلى هنا انتهى كتاب المستجاد من تاريخ العماد، وهو المولى يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم الموسوم (بأنباء الزمن في أخبار اليمن)، قال مؤلفه: كان جمعه (سنة ١٠٦٥هـ) وأرخه بعضهم:

أصلح الله ليحيى كل أعمال ونية
وجزاه الخير لما حاز أخبار البرية
بعبارات جلية ليس فيها قط مرية
ولذا تاريخه قل جاءنا في لفظ (غنية)

(١٠٦٥هـ)

وقد بقي الأتراك باليمن مائة سنة من (سنة ٩٤٥هـ) إلى (سنة ١٠٤٥هـ).

ومن هنا يبتدئ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى للسيد العلامة الحافظ الألمعي الشهير عبد الله بن علي الوزير المتوفى بصنعاء في (٢٥ رمضان سنة ١١٤٧هـ) عن٧٣ سنةً، وقد جعل كتابه طبق الحلوى كذيل لأنباء الزمن إلى (سنة ١٠٩٠هـ) ننقل في خلاصة المتون كثيراً منه، ومن خطبته:

الحمد لله الذي وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في بلاده، وجعلها دُوَلاً بين خليقته والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأشهد أن لا إله إلا الله الوارث لكل حيوان وجماد، وأصلي وأسلم على النور المنتقل في الأصلاب الطاهرة، المخترع لأجله الكون، وإليه رئاسة الدنيا والآخرة، وعلى آله حمال الكتب والسير، مركز دائرة العز الأطهر.

وبعد.. فيقول المفتقر إلى مولاه القدير عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الإله الوزير جمله الله بملبوس العافية والتقوَى، ونزع عن خاطره مخايل الأهوَاء: هذا كشكول لطيف على الأرواح خفيف، أخذت العفو في الترتيب والرفق، فلم أحفل بالشهر وتسيير أيامه، ولف الدهر وتفتيش أعوامه؛ لعلمي وكل من برع في التسيير، أن هذا تصدُّرٌ لأمر عسير، وتعرُّضٌ لما ليس من الصدق في قبيل ولا دبير، وقد عُزيَ إلى بعض مؤرخي اليمن أنه وضع باسم بعض الباشات مؤلفاً جعله على ترتيب أيام الشهور، ولما فُتِّشَتْ ورقاتُه وُجِد منه نسختان، إحداهما المقتصر عليها والمرجوع في التسيير إليها، وحين قُوبل بين محصوليهما وُجِد الاضطراب بين منقوليهما، فترى في إحداهما النكتة الفلانية في الشهر الفلاني، وتراهَا في الأخرى قد رتبت للثالث والثاني، ومن هذا الاضطراب الذي يقضي بأن القصد من هذا الكتاب الخدمة لذلك الجناب، فترى الكتاب لابساً لتلك الأساليب

والله أعلم ما تحت تلك الجلابيب، وقد اطلعت على تاريخ لبعض أبناء ملوك اليمن أوعب فيه ما وصل إلى علمه الشريف وفكره اللطيف، فاعتمدت في القصص عليه، وأحلت جُلَّ ما نقلته إليه، وما زدته مني فإن عزوته فقد خرجت عن عهدته، وإن أطلقته فهو إن شاء الله بريء من الكذب ووصمَته، ولم أتكلف لأكثره سجعاً مطبوعاً، ولا أحللته من مساكن التنطع ربوعاً؛ لأني قصدت أن يشترك في الميل إليه أهل البداية والنهاية، وقد رأيت كثيراً من المؤلفات منبوذاً مهجوراً بسبب ما تحمله من النكات.

توقّى البدور النقص وهي أهِلّةٌ   ويدركها النقصان وهي كوامل

وفي (صفر سنة ١٠٤٦هـ) اختط المولى أبو طالب أحمد بن القاسم الجامع الذي عمره بالروضة.

أحمد الحكيم بن لقمان

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٦هـ) توفي بكوكبان أمام محراب جامعها السيد أحمد الحكيم بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى الكوكباني.

وكان سيداً فاضلاً ورعاً ناسكاً، وفيها كانت العبرة التاريخية بملحمة الغَرب التي جرى لمصابها من كل عينٍ غَرْب؛ وذلك أن الملوك الحسَنية بتلك الديار تجاذبوا أهداب النزاع والشجار، وكادت بحبوحة ملكهم أن تنهار وأكثر مملكتهم هي فاس، أما غيرها فقد خرجت عن الانتماء إليهم، وخلاصة ما شجر بينهم أنه لما فارق الحياة أميرهم الشريف أبو عبد الله القائم بأمر الله الحسين طلع بتخت مملكته أخوه الأكبر وملك القضيب والمنبر، وضُربت السكةُ باسمه وعُقِد عليه اللواء الأزهر، ثم أن بعد ذلك جنح إلى اقتعاد مملكة العلوم، واستخدام عساكر منطوقها والمفهوم.

ولم يلبث أن خلعه هادمُ اللّذات، فطمع ولده في أن تكون مملكته من سائر الموروثات، فرام وضع السيف في من بقي من أعمامه، وقرطس من كنانةِ غدره نِصالَ سهامه، طمعاً في تفرده بتلك الجهات، ولَهِجاً في أن تصفوَ له بتفرُّدِه الكدورات.

ولّما علم بذلك عمُّه الشريفُ أحمدُ، أقبل على حربه بخاطر مؤلم وقلب مكمد،

فزحف عليه بجيش جرَّار، ورماه من رجال الروم بمارجٍ من نار، فمرج عليه بحرين، وجر عليه خميسين، وانكشفت الوقيعةُ عن اقتحامه البحر الزخَّار، وهكذا يكون دفع العار بالعار، فتقرر ملكه على قاعدة المغرب بأطراف الرماح، واستسلم خِلعةَ السلطنة بشفار الصفاح، وهكذا عاقبة من جنح إلى الملك العَضوض، غيرَ ملاحظ قاعدةَ مسنون ولا مفروض. وقد ألمَّ ببعض القِصة الشهابُ الأفندي في ريحانه الألبَّا، وهي من محاسن ما صُنف في العصور المتأخرة، ومن البلغاء من يرجح نَفَسَه على نَفَسِ قلائد العِقيان.

وأما شعراؤُها ففيهم المجيد والمتوسط، وفيهم من لا يدوِّن شعرُه إلا بتسامح، وهذا الكتابُ اليوم قد انتشرت نسخه في اليمن، ومؤلفُه علامةٌ نَفَسُه يقضي بأنه من أرباب الاجتهاد، وما صان لسانَه في رسائل أطلَقها على أعراض جماعةٍ من أكابر الروم، وقد كان يُسمَّى بالولي، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن مؤلفاته، شرح شفاء القاضي عياض، ومما قلته فيه وفيها[1]:

إذا تنبَّأ بينكم أحمدٌ ... يا أهل مصرٍ غير منكور

فقد تحداكم بريحانة ... أوراقُها جاءت بمنثور

وفيها خرجت الحَدَا عن مذهب الشافعية إلى مذهب الزيدية، ولتقارُبِ الديار أثرٌ في هذه القضية، ويُقال: إن أَصل هذا البطن من الحدادين بمصر القديمة، وإن نسبة بعضهم إلى يزيد بن معاوية، والله أعلم بالحقيقة.

وفيها كتب الإمام المؤيد محمد بن القاسم إلى صنوه إمام الاجتهاد الحسين رسالةً تُكتب من العيون بالسواد، وتُفدَى من المُهَج بسواد الأكباد، تليق بكل أمير وكل مُؤمَّر، ألاَّ يفارقها في سَفَر ولا حضَر، يَربطها في زنده، ويدرسها مع ورده، يحثُّ فيها على التواضع وترك المباهاة والتطاول وما يتعلق بالديانات الظاهرة والباطنة، وإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، والنهي عن القطيعة والعقوق، وتوظيف مراتب أهل الحقوق، على طبقاتهم بمراعاة العالم بتوفير حقه وتوقيره، والجاهل بمواساة فقيره المطيع وزجر عاصيه

(١) الكلام كله للوزير في طبق الحلوى.

وتحذيره، وافتقاد الأمراء والأجناد وعرضهم في أغلب الأحوال على دفاتر الإمداد، وكف الجند لا سيما الحاشية في كل وقت عن التخطي إلى طرق المظالم، وصيانة بيت المال، فعمارة المنصب بالمال، وعلى قدره يكون قدر الحياطة من الاضمحلال، وفي هذه الرسالة ما هو أكثر من هذا المرقوم، فلتطلب من محلها.

وفيها قُتل شريفٌ معتقد من بني العيدروس بحدود خثعم، قاصداً لبيت الله المعظَّم، فضرب الله أهل تلك البلدة التي قُتِل فيها بالجُذام عقيب ذلك المنكَر، وظهر عند الخاص والعام.

وفيها كانت وفاة السيد الأديب محمد بن مقاطع حَيي، وله شعر متوسط مدح به الشريف المسعود صاحب مكة، ومَلِك اليمن الحسن بن القاسم والأمير الحسين بن عبد الرب الكوكباني، وله مكاتبات مع إمام الفلك السيد عيسى بن لطف الله ومعارضات لشعر السيد العلامة محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين.

وفيها وفاة واحد عصره في التنجيم والخط القويم عبد الله بن صلاح عنقوب، وله كتاب مجموع الزيج، وتكميل في الشهور العربية واليزدجردية، ككتاب الشيخ باغَوث الحضرمي بلغ فيه إلى (سنة ١١٦٨هـ).

وفيها مات الفقيه الفلَكي عبد القيوم الرُّغَيلي، وكان من الإتقان بمحل، وهو الذي وضع المدْخل المختصر لزيج بن الشاطر المسمى بالدر النظيم، وقد وقفت عليه فرأيته جداول ساذجة خلاف ما عليه كتُب هذا الفن من تخلل رسالة المداخل، وهو لطول مصر.

وفي (سنة ١٠٤٧هـ) ارتحل الملكان الحسنُ والحسين من ضوران متوجهَين إلى صنعاء في أُبَّهة حيدرية ومملكة رومية، وخيول كالسَّعالي، وجنود تندك لها الشم العوالي، وتلقَّاهم من بصنعاء، فدخلوها في وقت مسعود، وكان يوماً مشهوداً انبهر له عسكر الأروام، الذين رغبوا في خدمة آل الإمام، ورأى الناس ما هالهم من الشارة الملوكية، والسناجق السلجوقية، والنَّوبة التي رجفت لأصواتها قلوبُ المرجفين، واستحكمت بها قُوَّةً أفئدةُ الذين كانوا مُستضعفين، ولما قرَّ قرارُ الملكين انفصل الحسنُ إلى روضة حاتم البهية بمن معه من القوَّاد والأتابكيَّة، ورجع أخوه الحسينُ إلى ضوران، وأحيَا معالِمَها

فكان إليَّ نيابة مصر، وحين رأيت كثرة أموالي طمعتُ في اليمن فتحملت مؤنةَ العساكر الرومية من مالي، وأمَّا السلطان فما كان له نهج إلى الخروج.

وفي هذه السنة كتب المؤيد إلى أخويه رسالةً أمر فيها بأخذ الزكاة من القليل والكثير أخذاً بظاهر عموم الحديث (فيما سقت السماء العشر) قال: لأن على الناس واجباتٍ ولو علم أنهم يتخلصون منها لما فعل ما فعل (ولقد غفل سامحه الله عن الحديث الصحيح المخصص (ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة) ولقد سنَّ سنةً سيئَةً رغم زهده وفضله وعلمه والعلة واضحة في عدم وجوب الزكاة فيما دون الخمسة الأوسق فصاحبها لا تكفيه في العام ولا يزال فقيراً فتكليفه بها مخالفٌ للنقل والعقل) (وتبعه في هذا بعض الأئمة كالإمام يحيى حميد الدين).

وفيها ظهرت نار على بلاد حجة بمكان مرتفع واستمرت أياماً فسبحانَ من عظمت قدرتُه وبهرت صنعتُه، وفيها رأى بعض السادة طفلةً لها ثديان ولحية مسترسلة فسبحان القادر على ما يشاء.

وفي شعبان هذا العام اقترن المشتري والمريخ ولتطلب مترلة الاقتران من مصنف ابن عنقوب، فقد قررها وحررها.

وفيها عاد الحسن بن الإمام إلى مستقر مملكته ضوران وأطال فيه البنيان، فإنه كان أكرمَ من الغيث الهامع، ومع استقراره بها أمِنت قبائل تلك الجهات، وكانت الحدا قد استولت على أكثر أموالهم نهباً وغصباً، واستقوت هذه القبيلة وصارت للمسلمين حرباً.

وفي ضوران الجبَلُ المُسمَّى بالدامغ وهو من المعاقل الجسيمة والأعلام المنيعة العظيمة حميري الأساس مليح الأنفاس، وقد ذكره الملك الرائش ذو مراثد في شعره وهو الذي أسس بناه وشيدَّه وانتماه. وهو من الأعلام المشمخرة تسترسل بين أكتافه ذوائب الغيوم، وتحمل المرأةُ مكتلها لما تتساقَط إليه من دراري النجوم، قد امتزج طينُه من عبير النسيم بطيب، وأخذ نسيمُه من الشفاعة إلى المزن بنصيب، حتى أطار القلوب إلى بيتي حبيب، في ذكرى مترل وحبيب.

ربىً شفعت ريح الصبا بنسيمها	إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأنَّ السحابَ الغُرَّ غيَّبن تحتها	حبيباً فما ترقى لهن مدامِع

وهو واسع المزارع، كثير المنابع، له عيون تسرح إلى تلك الغصون، وتزداد بـتزول ماء المعصرات الجُون. ولما صعد إليه السيد عيسى بن لطف الله المؤرخُ صحبة الحسن بن الإمام، ورأى رحابةَ أعلاه، وما فيه من الأراضي المثمرة، والعيون المتفجرة، قال: (هـذا أرض في سماء، وهو حاكم على تلك البقاع، مُتسنِّمٌ على صياصيها والقلاع).

وفيه قال بعض البلغاء من قصيدة طويلة:

كـأن الـدامغَ المحـروس ليـثٌ مقادمُـه إلى جهـة المشـارق

يقلِّـب رأسَـه يمنـاً وشـاماً ليَفتـرسَ المنـافقَ والمشـاقق

فسُـمِّي دامغـاً بعـد اختبـارٍ ليَـدمغَ للمعـادين المفـارق

وقد ازداد بهجةً وحسناً بأن كان فيه ضريح الإمامين السعيدين الإمام الجواد المتوكل على الله إسماعيل، والإمام القطب الزاهر المنقطع النظير في الأوائل والأواخر المؤيد بـالله قدَّس الله روحيهما.

وفي هذا العام اجتمع الحسن والحسين بضوران، وكان الحسين يتردد إلى وادي النائجة وإلى صافية ذي بُهلان ولم يكن خاطره يومئذٍ بمحلٍ من الإطمئنان لعوارض بينه وبـين الإمام المؤيد بالله.

وفيها وفد على الحسَن ولدُ أخيه الحسين بن المؤيد يشكو تقلُّصَ موادِّه، وقلة إمداده؛ فأمر المُدَفْترَ بإدخاله في زمرة الأكابر، وأجرَى عليه من سَنيِّ الأرزاق ما يفوت حصـر الحاصر، ولازم حضرة بابه، وأخذ في الخدمة بركابه، ولم يفارقه إلى أن فارق الحسـنُ الحياة، ثم عاد إلى حضرة والده.

وفي (سنة ١٠٤٨هـ) وصل إلى الحسن بن الإمام السيدُ الطاهرُ المغربيُّ المكيُّ وأهدى إليه مُختصرَةً من كتاب الجفر، فقابله الحسن بالفعل الحسن وخلع عليه الخِلَعَ الفـاخرة، وأجرَى عليه الأرزاق المتكاثرة، ومده برفد كثير، ونوال غزير.

وفي اللآلئ المضيئة للسيد أحمد الشرفي: أنه وفد هذا السيد الطاهر بن عبد الله من آل شكر من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالـب الذين سكونهم بمدينة فأس وناحيتها من المغرب الأقصَى في يوم (سلخ رمضـان سـنة

١٠٤٨هـ) إلى شهارة، وعُمُرُه نحو سبع وعشرين سنةً وأنه من أهل النجابة والعلم والمذاكرة والمراجعة، وأن مذهبه مذهب السابقين من الأئمة، وأنه أعطاه الحسن بن القاسم كتاب الفصول اللؤلؤية بحواشيه والأثمار وأعطاه الإمام المؤيد نسخةً من أحكام الهادي ونسخةً من أصول الأحكام، والأساس وشرحه وبعضاً من الرسائل لشدة حرصه في طلَب كتُب الأئمة.

وأنه حصل معه المشقة العظيمة والروعة المهيلة لما بلَغه بشهارة وفاةُ المولى الحسن بن القاسم بعد أن سافر من لديه من ضوران إلى شهارة وأنه أخبر الإمامَ المؤيدَ أن قبر الإمام إدريس بن عبد الله بموضع يقال له زرهون، وقبر ولده الإمام إدريس بن إدريس بمدينة فاس.

وفي هذا العام أو الذي قبله توفي الشيخ العارف الأصولي على رأي المعتزلة علي بن الحاج، وقد كان من عجائبه حسبما حُكي عنه أنه لا يقول بإمامة الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، وهو من مشائخ القاضي عبد الهادي الثلائي الحسوسة.

الحسن بن القاسم

وفي وقت غروب الشمس يوم (السبت ٢ شوال سنة ١٠٤٨هـ) توفي الحسن بن الإمام بالحُصَين من ضوران وحضر وفاته صنوُه الحسين، وكان عمره ٥١ سنةً. وكان عنده يومئذ ولده أحمد بن الحسن، وهو في أول بلوغه، وأما أخوه محمد بن الحسن، وهو الأكبر بعد أن قضَى زيارة والده بضوران عاد إلى ولايته بصعدة وما إليها. فوصل إلى حضرة عمه المؤيد بشهارة ثم سار إلى حبور وبلغه وفاة أبيه، فعاد من حبور مبادرةً إلى حضرة عمه الحسين بضوران، وكانا يظنان أن الإمام سيجعل إليهما ولاية بلاد أبيهما لميل أصحاب أبيهما وعسكره إليهما. فاقتضى نظر الإمام أن البلاد التي كانت بنظر أبيهما تعود إلى أخيه الحسين، وإليه تدبير أمداد حاشيتهما وأمرهما بالتوقُّف على رأي عمهما الحسين.

وكان الحسن مع شجاعته ونهاية كرمة وصفاء باطنه وسلامة جميع أحواله متمسكاً بحصة نافعة من العلم، وله حظ في البلاغة جيد، وله بأيدي الناس قصائدُ مشهورة، ومنها القصيدة التي يحث والدَه فيها على الصلح مع الأتراك وهو أسير لديهم بالدار الحمراء

بقصر صنعاء بإيعاز من الباشا جعفر و لم يوقع الحسنُ إمضاءه عليها.

مولاي إن الصلح أعـذبُ مـوردا فاسلك لـه نهجـاً سـوياً أجـردا
أرسلِ دلاءَ الحكم في صـافيه كـي يُروي ظماءَ المسلمين مـن الصـدا
واجعل رفيق القسـط فيـه مانحـاً والرفق تمـنح والسـماحة مرقـدا
إفْثأْ به حُمَّـى الحـروب وزفرهـا في ساحة الإسـلام كيمـا يـبردا
أُعمُر به سـهلَ الـبلاد وحزنَهـا سَكِّنْ بـه فتنـاً تـذيب الجلمـدا
شاور ذوي الأحلام واصـغ إلـيهمُ مـا تعـدَمَّن إذا تشـاور مُرشـدا
فالصـلحُ فيـه للأنـام صـلاحُه والحربُ أوهن ذا الأنـام وأفسـدا
كم من أسـير في الحديـد مُكَبَّـل ولكم قتيـل في الـتراب مُوسَّـدا
رفقاً عداك اللومُ يـا ابـن محمـد بالمسـلمين وعطفـةً وتـودُّدا
أُربُط عصَى الإسلام واجبر شـقَّها بجبائر الإصـلاح كيمـا تُحمَـدا
واعمل بقول النصـح فيمـا قلتُـه أعرِض عن العُـذَّال تغـدُ مسـعَّدا
واستكرم المولى الوزير فـإن للــ ــكُرماءِ في أسـواحه لَتَـردُّدا
ولـه جنـابٌ لا يـرام صـعودُه صعب القيـاد لمـن أتـاه تَجَلـدًا
وترَى له الصعبَ الشـرودَ مُـذلَّلاً وله عوالي الشهب خـرت سـجدا
اختـاره السـلطانُ مـن أقيالـه يُمناً لذي يَمَـنٍ يَمُـنُّ فيُجتَـدى
ورآه أهـلاً للـوزارة فـيهمُ فبـزينِ ملبسـها تـأزَّر وارتـدَى
فبنَـى لـه مجـداً رفيعـاً سمكُـه يعلو بـه زُلَفـاً يسـامي الفرقـدا
فهو الجـديرُ بـأن يراعَـى ذمـةً لكمُ يراهـا عـن وصـيَّة أحمـدا
وبمثلـه أغضَـى بحسـنِ عـنكمُ صـفحاً لحلـمٍ لا وَنَـى وتبلُّـداً
فاللينُ عـن عِـزٍّ يريـك تكرُّمـاً والصفح عن حلم يَـزِين السـؤددا
إني محضتك خـير شـورٍ ناصـحاً فاجعله سـبروتاً يريـك المُهتَـدى
وتلقَّـه عـني بوجـهٍ مُبْشِـرٍ لا ترددنـه لا يصـير مفنّـدا

فلكم طريــقٍ في الوســاع مُرَحَّــلٍ يغدو عن الوضَّــاح أعمَــى أبلــدا
واسلم ودم في رغد عــيشٍ دائــمٍ ما دام مــرُّ الــدهر نجــمٌ أو بــدا

وكان الباشا جعفر قد طلب الحسن إليه وقال له: إنه سيصل باشا متوليــاً للــيمن، فاكتب إلى أبيك بصلح بيننا وبينه، فإن يتم الصلح ويخرج الأمير صفَر المحاصَر بصــعدة أبقيناك في اليمن، وإلاَّ أخذناك إلى الروم.

فأجاب الحسن بأني في يدك نفراً واحداً، والإمامُ ليس في يدي، وحيث قــد رأيــتم فسأكتب، وعاد إلى محله كتب هذه القصيدة، فلما وصلت إلى أبيه الإمام بدون توقيــع ابنه لم يعرف أنها من ابنه وظن أنها من بعض أهل صنعاء المتوددين للأتراك فأجاب:

يا ما نحاً محــضَ النصــحية مرشــدا إن الهدى عندي لمــن يبغــي الهــدَى
والحِلــمُ نحــن بحــارُه نُــروي بهــا ظامي الحشا وبنــورِ عــدلي يُقتــدَى
نَحمِي حمَى الإسلام أن يُسْــطَى بــه ونذود كلَّ المســلمين عــن الــردَى
والســلم إن يــدعوننا نجــنح لهــا والقول ما قلنــا وإن رغــم العِــدَى
فبعــدلنا يــأوي الــورى في ظلــه وبَهــدْينا يــا ذا الرجاحــة يُهتــدى
والرفــق والإنصــاف فهــي سماتُنــا وخلال كــل الخــير فينــا والنــدَى
والــدين ننظمــه ونحكــم ســلكه ونــذُب عنــه مــن يريــد تبــدُّدا
لا نقبــل الــدنيا وإن هــي أقبلــت إن كان في الأخــرى مخــلاً مُفســدا
ولنا الوراثــةُ عــن أبينــا المصــطفى ومن الوصيِّ وفضــلُنا لــن يُجحــدا
وبكرهنا ما كان من ســفك الــدما إلا لمــن نــاوَى شــريعة أحمــدا
لا نبتغــي إلاَّ رضــى الــرحمن في أفعالنــــا في الانتــــها والابتــــدا
ومــن المهــيمن نســتمد إعانــةً ولطائفــاً تــأتي وإن طــال المــدَى
وأســيرُنا وقتيلُنــــا في راحــــةٍ ذا يرتجِــي فرجــاً وهــذا الخُــرَّدا
هــذا كتــابُ الله يحكــمُ بيننــا إن كنــت صــدَّقت الــنبيَّ محمــدا
أطنبتَ ويحَــك في مــديحك فاســقاً عِلجاً جعلت له الكواكــب سُــجَّدا

أرْضيْتَ مخلوقاً وتُغضِبُ خالقاً ... وتُمُِزُّ عرش الله بغياً عامدا
وزعمتَ قد أغضَى وراعَى ذمةً ... فينا لأحمدَ في بنيه وما اعتدَى
هيهات ما راعَى ذمامَ محمد ... كلاَّ ولا كفَّ اللسانَ ولا اليدا
لولا صوارمُنا وسُمْرُ رماحنا ... صرَمتْ جماجمَ للعدَى وسواعدا
لهلت من الأعدا نجيعاً قانياً ... وتَعلُّ من دم من يصير معاندا
أو ما علمتَ وقائعاً ومواطناً ... خرَّت لها الأذقانُ ليس تعبُّدا
هذا تراه في الرغام معفَّراً ... وأسيرَ أنكالٍ وذاك مُصَفَّدا
اسأل عن الزهرا ووقعة سامكٍ ... وبسفح أسنافٍ بقاع أجردا
وأتوا إلى عرْوٍ ليُقضَى نحبُهم ... كالواعدين فلم يخونوا الموعدا
وعقيبَه وادي الذواهب أصبحوا ... صرعَى تراهم مثل زرع أُحصدا
وبغاربٍ غربت نجومُ سعودهم ... والفايشيّ لقد فشا فيه الردا
إن يقبلوا صُلحاً فإني قابل ... أو يحجمون فما عدا مما بدا

ثم حصلت المكاتبة بهذا الصلح سرّاً، فما شعر الناس إلاَّ وسيدُنا العلامة عامر بن محمد الذماري بصنعاء لعقد الصلح وتحليف الباشا جعفر، فعُقِد لسنة من رجب (سنة ١٠٢٥هـ) إلى (رجب سنة ١٠٢٦هـ)، وأرسل الإمام من رافق الأميرَ صفر من صعدة إلى صنعاء.

ثم بلغ الإمام أن جعفر باشا نقض الصلح والعهد وعزم على أخذ مولانا الحسن إلى الروم، فقلق الإمام وشجن وطلب القاضي عامر والقاضي علي بن جابر الهبل، وقال لهما: ((يعزم أحدُكما في هذه الساعة إلى بلاد خولان على أنه زائر لأولاده بها ويجد بها من فيه كصفة القشعمي من أهل المشرق الأبطال فيدخل إلى قصر صنعاء، فإذا وجدهم على المسير بالولد الحسن فلعله يدخل إليه فيحتمله بقيده إلى مشرق خولان ويخفيه هنالك)). فقالا للإمام: ((استعذ بالله من وساوس الشيطان واستَخرِ الله، وما بدا لك من الرأي فمن الغد إن شاءَ الله))، فلما كان آخر الليل أرسل إلينا وإذا به قد سكن قلقُه وبوجهه البشر، فقال لنا: رأيت من يقرأ علي ﴿**لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ**

﴿وَأَهْلَكَ﴾[العنكبوت:٣٣].

وكان القاضي العلامة الهادي بن عبد الله أبو الرجال عاليَ الهمة، فأرسلوا إليه هذه القصيدة وجواب الإمام عليها، ولا يعلم أحد أنها للحسن، فكتبهما في مجموع له، وأرسله بعد الصلح لتجليده بصنعاء.

فوقف الحسن على جواب الإمام، فحصل معه التألُّم الشديد وظن أن الذي أجاب على لسان الإمام هو القاضي الهادي، فكتب هذه القصيدة الهمزية الآتي بعضها إلى أبيه وإخوته، وفيها ما يدل على عظيم ما وقع في نفسه:

قل هو الهجرُ ثابتٌ والجفاءُ ... قد تولّى الوصالُ ثم الخَفاءُ
كلّما جزتُ هضبةً من قطاع ... ابتدت لي من الأسَى هضباءُ
أصروفاً مع اغتراب وسجنٍ ... يا لِخطبٍ أعيت له الخطباءُ
يا لدهرٍ تحار فيه عقولٌ ... فاضَ كِيسَانُه وغاض الوفاءُ
ما أراني لذيذةً قط إلاّ ... وعليها من الهموم التواءُ
كم تراءَى لناظري شخصُ صدقٍ ... إنّ ذاك الخيالَ فيه هباءُ
فعلام الملامُ عاذلُ دعني ... أستطيب البكا فمما السلاءُ
يا خليليَّ علّلاني فإني ... طال ليلي وندَّ عني الغفاءُ
ليلُ بالله إصْدقَنِّي جواباً ... أين صبحُ الوفا وأين ذُكاءُ
فُكَّ قيدَ الصباح والشمس عنا ... أو تريد الفدا فمني الفداءُ
فيراني أبي وأهلي أراهم ... إذ ترائي الوجوه فيه الحياءُ
فأبث الوداد عن ذي وداد ... إن قول العتاب فيه البقاءُ
لم يكونوا من الأشابيه أصلاً ... بل سراةٌ وصفوة نجباءُ
رؤساءٌ أعزةٌ كرماءٌ ... حلماءٌ أجلةٌ علماءُ
أيَّ وُدٍّ ودادكم وخليلي ... منكم واصل[١] ووصلي راءُ

(١) واصل بن عطاء.

تتناسون إذ خُصِصتُ بحبسٍ فبحبسي يُخيَّر الأصفياءُ
فاذكروا وحدتي وضيق مكاني حيث تلهو البنون والآباءُ
لهمُ بالحنين ترجيع نحل تتدانى لسقمه الأرجاءُ
فإلى الله مفزعي وانتجاعي وإليه اللجا وفيه الرجاءُ
إن لله بعد ذا العسر يُسْرين بذا للإله وعد وفاء
يا إمامي ووالدي واستنادي من به لي على الأنام إزدهاءُ
منك أصلي وفيك ذخري وحصني واستضائي إذا دجا الظلماء
كيف يُستطاع في نظام ونثر وصفُ فخر مناطُه الأنبياءُ
كم لآل الرسول أنشرتَ علماً طمستها الرسومُ والأقواءُ
ما يليني من الأقارب سقمٌ ولسقمي في راحتيك الدواءُ
غير أني تولعت بي جيوش وخطوبٌ وهت لها الأعضاءُ
كأسي الضيمُ والكآبة ساق ونديمي السهاد والبرحاءُ
من لفقري ومن لكسري وقطعي أنت وصلي حَبارتي والعطاءُ
شرح حالي إلى ارتجاك مناد بمقال تقوله الشعراءُ
هذه علتي وأنت طبيبي ليس يخفى عليك في القلب داءُ

ولما وصلت هذه القصيدة أمرَ الإمامُ الفقيه علي بن محمد سلامة بالجواب فقال نحو مائة بيت منها:

أرقتني حمامةٌ ورقاءُ إذ تغنت وقد دجا الظلماءُ
وتباكت حمائمُ الغور شجواً لبكاها فهن فيه سواءُ
ناوحتنا على اغتراب وبعد فأجبنا وهكذا الأصفياءُ
ليت شعري تشوقي وغرامي هل له بعد طوله إنقضاءُ
هل لماذا؟ شكوت من ألم الهجر ومن ظلمة النوى إنجلاءُ؟
زاد شجوي نظمٌ له الحسن طبعاً وصفاتٌ له السنا والبهاءُ

قـط مـا مثلـه رأيـت نظامـاً وكلامـا عنـت لـه البلغـاءُ
مثل روض الربيع يفتـر في الصبـ ـح وقـد جـاده هنـاك الحيـاءُ
نظم مـن أكمـل المحامـد جمعـاً وتحلـت بفخـره العليـاءُ
شرف الدين والأنـام وذو الفضـ ـل ومـن أشـرقت بـه الـدنياءُ
من لـه في الأنـام فضـل جليـلٌ وفخـارٌ تغـار منـه ذُكـاءُ
حمد النـاسُ منـه كـل السـجايا فلـه المـدح فـيهمُ والثنـاءُ
يا سليلَ الإمـام حركـت شـجواً وشـجوناً ذابـت لـه الأعضـاءُ
وأفضـت العيـون دمعـاً غزيـراً مـا حكتـه الأمطـارُ والأنـواءُ
قد عنا كـل مهجـة منـه حـزنٌ وعنـاءٌ وكربـةٌ وضـناءُ
كل حـين لهـم عليـك إلتـهافٌ والتفـاتٌ وحسـرةٌ وجـواءُ
كيف ينسون ما هو الشـمس شـأناً وهـي الشـمس مـا عليهـا رداءُ
أي يـوم غـدوت فيـه أسـيراً مـا حكـى مثلـه لنـا كـربلاءُ
أنت يا جـامع المحامـد والفخـ ـر لهـم مفخـرٌ سمـا وارتقـاءُ
ليت يا دهـر لـو فعلـت جميـلاً ما غدى من لـه الحجَـى والـذُكاءُ
تحت سجنٍ في قصـرهم أي سـجن قـد حوتـه دار لهـم حمـراءُ
يا سليلَ الإمام ذي الفضـل صـبراً لـك في الله قبـل كـلٌ رجـاءُ
فعسـاه يحـل عقـداً وثيقـاً وتـزول البأسـاءُ والضـراءُ
فلكـم نظـرة لـه بعـد يـأس تحتهـا غـارة لـه شـعواءُ
يـا كـريم الفعـال يـا خـيرَ مرجـوٌ إليـك انتجاعُنـا واللجـاءُ
خلِّصَن ليثهـا المقيـد في السِّجـ ـن أميراً تعنـو لـه الأمـراءُ
كم كُفـوف تمـد نحـوك صـفراً فأعـدها وقـد أتاهـا العطـاءُ
جعلـوا نحـوك الوسـيلةَ حقـاً منـهم الأنبيـاء والأوصـياءُ
ثم آلٌ أكـارمٌ ونجـومٌ طالعـات والبَضـعة الزهـراء

..إلخ

ولما كان القاضي عامر بصنعاء للصلح بسط القول للباشا جعفر في إطلاق الحسن، ومما شرط به الباشا من شروطه في إطلاقه، أن يطلق الإمام ما تحت يده من بلاد حضور لقربها من صنعاء، وكانت بيد الإمام إلى قرب عصر وتموا على ذلك. فوصل القاضي عامر بذلك إلى الإمام، فطلب الإمام العلماء وأهل الفضل كلهم، فرجحوا ذلك، ثم قال الإمام لا يراني الله أخونه في عباده وبلاده، وكم في بلاد حضور من نفوس أبيعهم بنفس واحدة، فبكى القاضي عامر يستعطف الإمام في ابنه، فذكر الإمام الحديث ((لعن الله إماماً يتَّجر في رعيته))، وقال الإمام: ((أنا مُستودِعٌ الله ولدي وهو أقدر على خلاصه)).

وقد روى الحسنُ عن نفسه في أسره، قال: ((لما وصلوا بي إلى جعفر باشا، فرقوا بيني وبين أصحابي فجعلوني في مكان منفرد بالدار الحمراء وأغفلوني، فصليت على الحالة، وقد جعلوا في رجلَيَّ قيداً قدر أربعة وخمسين رطلاً فعجزت عن القيام به، وإنما حملني وإياه عتَّال من أهل القوة، وجعلوا عليَّ حارساً تركياً لا يعرف كلمة عربية، فخفت منه، فإذا هو قد نام فاطمأنيت.

فلما كان في اليوم الثالث استأذن الحاج أحمد الوادي من الباشا في وصوله إليّ وكان عندهم مقبولاً، فوصلني بعنب وفواكه وفراش، وقال: ألك حاجة؟ قلت: ثلاث:

الأولى: تغيير هذا القيد أهلكني ولا أستطيع معه الصلاة.

الثانية: أن يكون عندي من أصحابي آنس بهم.

الثالثة: أنه كان من أصحابي باسم عبيد لعبد الرحيم أو لابن المعاف وهم أحرار، فلا يستعبدون. فقام من حينه وقضى هذه الحوائج الثلاث وصلح الحال وأجرى علينا الكفاية من الطعام والماء. وكان سائس يخدم خيل الباشا يعرفنا، فيمر من تحت الطاقة، فإذا رآني سلم علي وقد يشير عن أحوال الحرب، فكنت أجد لإشارته لذةً، فلما كانت وقعات الشام من عَرْوٍ والحضائر وعلاف أشار بالبشارة، فما شعرنا إلا وقد أخرجوا من كان عندي كالسيد الحسين بن إبراهيم، والهادي جحاف، وعثمان بن سليمان، وعبد المغني بن عيسى الشرفي وضربوهم وعنفوا عليهم وزادوني قيداً وخفت أن يقتلني الباشا لما وقع من قتل جنده، وكان في أصحابه شهامة فكرَّهوا له قتل الأسير حتى بَرَد، ومضت أيام وإذا السائس يشير بأعظم من الأولى، وإذا هي وقعة غارب أثلة ففعلوا معي ومع

أصحابي كالمرة الأولى فصمم الباشا على قتلي، فراجعه أصحابه كعبد الرحمن شلبي وعثمان أفندي وإسماعيل آغا والخزرجي الكاتب، فلم يقبل منهم، فأرسلوا إلى الحاج أحمد الوادي أنْ أدْرِكْنا، فلما رآه الباشا بش به وشكا عليه من الإمام. وقال: قد عزمنا أن نقتل ولده ومن عندنا من أصحابه، وكان الحاج أحمد له صناعة في الحديث، فقال: يا سبحان الله إن كان فعل خطأً فتخطي مثله.

والبالغ أن الإمام أحالهم مع المطالبين بالقصاص منهم إلى الشريعة وما قتل إلاَّ من حكم عليه حكام الشريعة بالقصاص، وأنت إذا كان أحد سأل من هؤلاء دماً أمرتهم إلى الشريعة، وكنت قد لبست لباسين، لئلا تنكشف عورتي عند القتل وأعددت فلقتين من الحطب أقاتل بهما جهدي إذا قصدوني، فوصل ذلك الحارس العجمي بعد نصف الليل، وقد آيست، فقال: سلامة)). وقد سبق ذكر خروجه من الحبس في (سنة ١٠٣١هـ).

وقبر الحسن غربي جامعه الذي بناه بمدينة ضوران. وللقاضي العلامة أحمد بن سعد الدين المسوري أرجوزة كبيرة أمر برسمها على مشهده منها:

هذا ضريح الأسد الهصور ... الحسن بن القاسم المنصور
من كان بحراً لا يرام ساحلُه ... وغيث خصب عظمت سوائله
من كان للإسلام حصناً حاصناً ... وللمعالي كافلاً وحاضناً
من ذلك البيت الذي جبريلُ ... لأهله دون الورى نزيل
من لأبيه حجة الرحمن ... على البرايا أنسهم والجان
ولأخيه القائم المؤيد ... الأمجد ابن الأمجد ابن الأمجد
فزُره يا من يبتغي المفازا ... من ربه ويطلب الجوازا
كان معيناً كافياً ما نابا ... كم موقف عنه كفَى ونابا
على عداة الحق سيفاً صارماً ... وأسداً فضاً فضيضاً ضارماً

.. إلخ.

وقد رثي بمراثٍ كثيرة منها:

أدرى الذي ينعَى إلينا من نعَى؟ ... لو كان يدري ما أشاد وأسمعا

أتــراه يــدري أنــه ينعــى إلى كل الأنــام الــدين والــدنيا معــا
وحيــاتهم ومعاشــهم ورياشــهم ونعيمهم هــذي الخصــال الأربعــا

ومما يحكى أنه انتشر خبر موت الحسَن بن القاسم في عموم اليمن، فكــان الرجــل والمرأة والصغير والكبير يبكون لموته ولو لم يعرفوه.

وكان هو وأخوه الحسين شريفي الأبوين، فإن جدهما من قبل الأم السيد الناســك علي بن إبراهيم العابد، كان قوته عونة واحدة في اليوم. فرَّغ نفسه للعبادة في المســاجد الخالية ورفض الدنيا وبعد عن أهله، فكان يؤتى بقوته من طاقة المسجد. وقام بالحسبة؛ لما قال له أهل الشرف الأسفل: إن الشاوش مرجان وغوث الدين وأصحابهما دخلــوا على الشرائف وجعلوا وفعلوا فقام بالحسبة هو والسيد علي بن إبراهيم العالم صــاحب الجاهلي، وقام معهما قبائل الشرف الأسفل وقاتلوا مرجان الشاوش وعسكر غوث الدين في موضع الفايش فوق بني جل وتحت المحابشة، فانهزم القبائل ولم يصدُقوا وقُتل منــهم جماعة ولا هم لهم في نصر الدين؛ إنما همهم إزالة مطالب الدولة وظلمهم لمن استضعفوه منهم أكثر من ظلم الدولة، فلما عرف ذلك منهم رفضهم بالكلية واعتــزلهم اعتــزالاً كاملاً، ولم ينله من الدولة الذين حاربهم مكروه خوفاً لجانبه، وكان كما قيل:

يدع العظــيم فــلا يُراجَــع هيبــةً والحاضــرون نــواكس الأذقــان
أدب الوقار وعــز ســلطان التقــى فهــو المطــاع ولــيس ذا ســلطان

ومات وهو يتلو سورة يس.

وفي (سنة ١٠٤٦هـــ) كانت وفاة الأديب محمد بن مقاطع. مدح الشــريف بمكــة مسعود وملك اليمن الحسن بن القاسم والأمير حسين بن عبد الرب، وله مكاتبات مــع عيسى بن لطف الله ومعارضات لشعر محمد بن عبد الله شرف الدين.

وفيها توفي عبد الله بن صلاح عنقوب، له كتاب الزيج إلى (سنة ١١٦٨هـــ).

وفيها توفي الفلكي عبد القيوم الرغيلي. وكان مُتقِناً ألَّف المدخل المختصر من زيــج ابن الشاطر وهو لطول مصر.

صالح بن عبد الله العياني

وفي (تاسع رجب سنة ١٠٤٨هـ) توفي بشهارة السيد العلامة النبيل صالح بن عبد الله بن علي بن داود[١] بن القاسم بن إبراهيم بن القاسم بن إبراهيم بن الأمير محمد ذي الشرفين بن جعفر بن الإمام القاسم بن علي العياني الغرباني الملقب مُغَل.

كان إماماً محققاً مجتهداً له جهاد مع الإمام الحسن بن علي بن داود، ومع الإمام القاسم. وكان يقرأ عليه الإمام المؤيد، وكان لا يفارقه حتى عجز وقبر بمشهد جده الأمير ذي الشرفين. ومولده بحبور في (رجب سنة ٩٦٠هـ) فعمره ٨٨ سنةً، وله فصاحة ورجاحة وتعبُّد وتأله، ومن شعره القصيدة المشهورة إلى ٤٤ بيتاً منها:

ضاع الوفاءُ وضاعت بعده الهمم　　والدين ضاع وضاع المجد والكرم
والجور في الناس لا تخفى معالمه　　والعدل من دونه الأستار والظُلَم
وكل من تابع السلطان محترمٌ　　وكل من عبد الرحمن مهتضم

وفيها مواعظ وحكم.

ويروى أن الإمام القاسم أمره أن يضمّن ما كان مكتوباً على الخاتم الذي تصدق به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صلاته وهو (سبحان من فخري بأني له عبد)، فقال:

لوجه عليٍ تسجد الأرض هيبةً　　وآياته في الذكر ليس لها عَدُّ
كما أنه صنو النبي وابن عمه　　ومولىً له من بعده الحل والعقد
بخاتمه زكّى وفخر نظامه　　بسبحان من فخري بأني له عبدُ
عليه صلاة الله بعد محمدٍ　　وأسنى سلام لا يُحد له عدُّ

فأعطاه الإمام القاسم على كل بيت مائة حرف ذهباً، وأوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

لما عدمت وسيلة ألقى بها　　ربي تقي نفسي أليمَ عقابها

---

(١) وفي سيرة الجرموزي أن داود هذا ابن علي بن الحكيم بن عبد الله بن عسكر بن مُهَنّى بن داود بن القاسم بن إبراهيم بن القاسم بن محمد بن جعفر بن الإمام القاسم العياني فيحقق أيهما أصح.

صيّرتُ رحمته إليه وسيلةً وكفَى بها وكفى بها وكفَى بها

عيسى بن لطف الله

في يوم (الثلاثاء ٢ شهر ربيع الأول سنة ١٠٤٨هـ) توفي بصنعاء السيد الأديب البليغ الفلكي المؤرخ عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الإمام شرف الدين بعد وصوله إلى صنعاء، من لدن الملك العظيم محمد بن الحسن من ذمار.

وله التاريخ المشهور رَوْح الرُوح، وهي تسمية مناسبة، وهو من رأس المائة التاسعة إلى زمنه، ذكر فيه دولة بني طاهر وجده الإمام شرف الدين وما تعقب دولته وكيفية زوال تلك الدول، وفصَّل ما شجر بين جده المطهر وبين أمراءِ الأروام من تلك الملاحم التي طحنت الروس، وأفنت النفوس، وأنست حرب داحس والبسوس، وقضت أن المطهر بن الإمام فرع من تلك الشجرة العلوية وفخر للبلاد اليمنية.

وقد جعله خدمةً لمحمد باشا لمزيد اختصاصه به وإحسانه إليه وله فيه قصائد.

وله ديوان حميني مختصر وهو الذي جمع ديوان السيد الأديب محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين الحميني والموشح، وذكر أسباب القصائد وليته لم يذكرها، وذكر في ديباجة الديوان أن أول من تكلم في الحميني أحمد فليتة، ثم الفقيه عبد الله المزاح، ثم الفقيه إمام الطريقة عبد الرحمن بن إبراهيم العلوي.

وكان السيد محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين من محاسن السادات علماً وعملاً مع ورع شديد، ويكفيه حديث الجارية، فإنه اشتراها وعلق بها إلى نهاية، فذكرت له مرةً أنه اشتراها مسلم وأولَدها ولداً، ثم غاب عنها، فخرجت من بلدها. فانتُهبت وبيعت إليه، فتكدر بالُه وتشوش حالُه ومنع نفسه منها تحرجاً عن الوقوع في المحظور.

وكان الفقيه العلامة الشكايذي قد أفتاه بأن اليَدَ له والملك ملكه في الظاهر، ولكنه رجح التعمق في الديانة، وأمرها بالاحتجاب وسد عنها الأسباب مع طرف مسفوحٍ، وقلب مقروح، وهي أيضاً قد كان وقع منها الموقع العظيم من الولوع به، فاشتركا في تصعيد الزفرات، وإرسال الدموع، ثم تبين أنها فرت إلى بلادها، وأنها ارتدَّت وانتهبت بعد الردة، ثم بيعت إليه، ولكن هذا لم ينجع في إزالة الشبهة عن خاطره، بل استمر على

الفراق، وهذا من الورع الذي ألم به الغزالي في إحيائه والديلمي في تصفيته وغيرهما.

ووقع بينه وبين الإمام القاسم بن محمد مشاعرات تتعلق بمذهب التصوُّف وغير ذلك. وكانت وفاته (سنة ١٠١٠هـ) بالذّنوب من حجة، وسبق عن أنباء الزمن أنها (سنة ١٠٠٨هـ).

ومن شعر عيسى بن لطف الله:

لا تلمني في حب أهيف كالغصـ ـن يُغير الشموسَ في الإشراق
لدغتني في حُبه حيةُ الوجـ ـه فما غيره وصله من راق

وكان يهوى غلاماً جميلاً فقتله الأتراك في بعض الحروب فقال من قصيدة:

قد كنتُ أهوى بأن تأوي إلى نظري ... فالآن من لي بجعل القلب تابوتاً
عذبتني بالجفا وقت الحياة وفي ... مماتك اليوم قد أحرمتني القوتا
فقلت منك غداةَ الحالتين معاً ... حيا وميتاً فيا طول الجوى هيتا
يا زَهرةً قطفت من بعد ما بسمت ... وزُهرةً غربت مذ وافت الحوتا
لهفي على المقلة الكحلا التي قصرت ... عن سحر نفثتها أسحار هاروتا

ومولد عيسى بن لطف الله في (٢٧ جمادى الآخرة سنة ٩٨٦هـ) بجهة حصن ذي مرمر، ورثاه السيد محمد بن إبراهيم بن المفضل بن إبراهيم بن علي بن الإمام شرف الدين بقصيدة منها:

ورقاء بانات اللوى والأجرع ... لفراق خير بني الهدى نوحي معي
نجمٌ هوى ما كنت أحسب قبله ... إن النجوم تغيب تحت اليرمع
يا قلب كيف تصيبُ عيشاً بعدما ... قد غاضت الآداب تحت البلقع
دفن العلاَ والمجد في قبر ثوى ... في لحده الفطنُ اللبيبُ الألمعي
رُوح الوجود وغرة الدهر الذي ... جُمعت له العليا وطيب المنبع
عيسى بن لطف الله زينة عصره ... وحفيد من أزرى بُبخت وتبع

إلخ..

وفي (ذي الحجة سنة ١٠٤٨هـ) توفي بمسور لاعة الفقيه الأفضل يحيى بن صلاح الثلائي، عامل الإمام المؤيد بالله على بعض جهات مسور.

عبد الهادي الثلائي الحسوسة

وفي ليلة الجمعة (١٢ ذي الحجة سنة ١٠٤٨هـ) توفي بثلا القاضي العلامة الشهير والحاكم الكبير الأصولي المحدث عبد الهادي بن أحمد بن صلاح بن محمد بن الحسن الثلائي المعروف بالحسوسة الحاكم بصنعاء. أخذ عنه أولاده الثلاثة المهدي وعلي والحسين والقاضي إبراهيم بن يحيى السحولي، وناب عنه في القضاء بصنعاء وفي الخطابة واستمر عليهما بعد وفاته.

وكان منقطع النظير حافظاً لعلم الكلام والأصول ومجموعات الإمامين الهادي والقاسم يمليهما من حفظه، وكان محققاً لمذهب المعتزلة البهشمية.

قال الإمام القاسم: ((إن القاضي عبد الهادي أسع علماً من أبي الهذيل)).

وكان إذا جلس في عامة العلماء، فهو لسانهم الناطقة وكلمتهم الفارقة، عاضد الإمامَ القاسم والإمام المؤيد، ولاه القضاء بصنعاء، من يوم فتحها، وكان له من السياسية في تناول القضايا والنظر الموصل إلى تحقيق فصل الخصومات، ما يُضرب به الأمثال. ولما مرض وانتقل إلى ثلا، فعند خروجه من صنعاء وقف أمامه عيونٌ من أهل صنعاء للنظر إليه والتبرك به، فالتفت إليهم وقال: أنتم مع الله يا أهل صنعاء، ما أعلم أن معي لأحدكم مظلمة لا قليلة ولا كثيرة، وكان زاهداً ورعاً يفترش إهاب شاةٍ على حصيرة وجرم من أوكس جنس، ولقد أراد عامل صنعاء المولى علي بن الإمام المؤيد بن القاسم لشيخه وملازمه القاضي عبد الهادي: أن يُوطِّئَ له فراشاً مما يليق وكسا ما ينبغي، فأرجعها وأبَى عن تغيير حاله، قال ولده القاضي العلامة علي بن عبد الهادي: وكنت الرسول، فلما أرجعتها إلى المولى علي بن المؤيد حوقل واسترجع وطلب مني أن أقبلها إلي، حيث لم يقبلها أبي فقلت له: إني بضعة منه أكرهُ ما يكره، فلما أخبرت أبي بذلك سُرَّ به وقَبَّل بين عيني.

عبد الله بن حسن البشاري

وفيها توفي القاضي العارف البليغ عبد الله بن حسن البشاري العذري. وله قصائد

كثيرة مدح بها شرف الإسلام الحسن بن الإمام وغيره، وله ديوان مجموع.

عبد الرحمن بن المنتصر العبسي

في (جمادى الأولى سنة ١٠٤٧هـ) توفي القاضي عبد الرحمن بن المنتصر العبسي في بني أسد من الشرف الأسفل. وكان عالماً فاضلاً، جاهد مع الإمام القاسم، أصابته رصاصة في عينه، ونجا من أسر الأتراك وولاه المؤيد بلاد الشرف، وقبره في بلدة الصومعة من الشرف الأعلى.

عامر بن محمد الذماري

في (عاشر رمضان سنة ١٠٤٧هـ) توفي بعاشر من خولان القاضي العلامة عامر بن محمد الذماري. تولى القضاء بشهارة، وكان الواسطة في الصلح، وهو من قرية صباح البيضاء رداع، هاجر إلى ذمار، فقرأ بها، ثم بصنعاء، ثم بصعدة على عبد العزيز بهران، ثم كان المرجع في تحقيق الفروع. وكان في هجرته للعلم لا يملك إلاَّ فرواً من جلد الغنم، فإذا تنجس باحتلام أو غيره غسله ولبسه وهو أخضر، ودرس أيضاً بالظهراوين حجة علَى إبراهيم بن مسعود الحوالي.

وكان فيه من الحلم والأناة ما لا يلحق فيه، فإذا وصل الجامع شخص إليه الناس وخضعوا، وكان لا يحتاج إلى عسكر أو أعوان في القضاء، فإذا لزم حبس أحد أخذه من حضر من الناس أو يذهب إلى الحبس بنفسه، وكان كثير العبادة وتلاوة القرآن، لازم القاسم وقبله الإمام الحسن بن علي، ثم المؤيد، وهذَّب إسماعيل بن القاسم، وأقل ورده ثلاثة أجزاء وصحيفة زين العابدين، وقبره بعاشر بجنب التهامي ورواع ثم ولده أحمد بن عامر.

وأرسل المؤيد ولده علي بن المؤيد للعزاء بعاشر، وقبيل وفاته طلب العلماء، وسلم لهم أمانةً كتابه التذكرة، فقد حققها وأقرأها أربعين مرة.

حوادث سنة ١٠٤٩

وفي سنة (١٠٤٩هـ) استقر بدر الإسلام محمد بن الحسن بن الإمام بذمار ومعه

أكثر أعيان والده، وكان في باب تدبير الملك خِرِّيتاً ماهراً لا يُدرك له غُور، ولا يوقف له على طور. انتعشت همتُه إلى تدوين أعوان والده، وأمر كل رئيس أن يضبط من تحته من الأتباع، وبادر إلى فتح الدواوين، ومد الأنطاع، وأشخص نفسه للإنصاف بين المتظالمين، وقرَّب من قربه والده من السادة والأعيان ورؤساء العبيد وسائر المعاونين، وكان والده قد نظم من أعيان الدولة جملة يفتتح بها الأماكن القاصية، ويقتنص بها الرقاب العاصية.

ولما فتح نفسه للوافدين وطعم الناسُ حلاوةَ عدله مع ما رُزق من كيمياء السعادة، وانجذاب خواطر العالم إليه بما يخرج عن طريق العادة، حصل له من مال البلاد ما يكفي الأجناد. وتزوج يومئذٍ ببنت الأمير سنبل وسكن بدار أبيها بذمار.

وأما صنوه صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن الإمام، فإنه عاد إلى ذي مرمر والغراس، وعنده جملة من الأبطال المعدودين ليوم النزال، وعليه لوائح الجلالة تلوح، وطيور الإقبال تغدو عن ميامنه وتروح.

ثم إن عز الإسلام محمد بن الحسن أجمع رأيَه عندما كثرت الأجناد بحضرته، وتضاعفت النفقات أن يتقدم إلى عمه الحسين بضوران، فوصل إليه بأُبهة ملوكيةٍ وشارةٍ حسنة، ولاطفه في أن يُفرده ببلاد تكون إعانة في نفقات الأجناد، فبادر عمُّه إلى إسعاده، ومدَّ يداً إلى إمداده، وضم إليه بلاد الشوافي وخبان وبني سرحه، ويريم والتعكر، ثم عاد إلى ذمار مجبوراً محبوراً، ثم وصل مولانا شرف الإسلام الحسين بن الإمام إلى ذمار، فوصلها بزي عظيم وجيش جرار، وأراد النزول بدار التكية في حوطة حسن البابا، فلم تطب نفس ابن أخيه، وقال: لا يصلح السكون إلا في داري والدار دارك والولد ولدك.

فساعده عمه ثم عاد الحسين ضوران وبقي محمد بذمار.

وأما صفي الإسلام أحمد بن الحسن، فإنه وصل من ذي مرمر إلى أخيه محمد بذمار، وكان عمه الحسين قد ولاَّه وصاباً، فتولاها واستصغرها.

وأما الإمام المؤيد فلم يأذن للجميع بقيد شبر وأجاب لما سُئل بتوليتهما بأن الولاية ليست ميراثاً، وكان مع أحمد بن الحسن من جنح إليه من فرسان الصدام وآساد الالتحام، ثم انتقل من وصاب إلى عتمة، فخرج عنها واليها الرئيس المطهر بن محمد

الجرموزي، فوصل الجرموزي إلى الحسين بضوران، فرفع إلى الإمام المؤيد بأن أحمد بن الحسن قد رفع الجرموزي، وأنه متبوع، ورأيه مسموع، وأن الناس قد انثالوا إليه رغبةً ورهبةً وانساقت الأمور إليه، وأن علي بن شمسان والي إب وبعدان قد مال إلى جانب أحمد بن الحسن، فتقدم عمه الحسين لاستدراك ذلك الهصور قبل انتشار شراره.

فإن النار بالزندين تُورَى وإن الحرب أولُها كلام

وكانت طريق عمه الحسين وادي النايحة، واستناب بضوران ولده محمد بن الحسين، فبات ببلد يقال له ذاهب أسفل وادي النايحة، فوق مدينة العبيد، وجمع عسكره ووجوه الناس إلى مسجد ذلك البلد، وأفهمهم سبب التجهيز وعرفهم ماهم ومن هو القادمون عليه - وكان الحسين أسداً من أُسْد الله وسيفاً من سيوف الله - فأجاب عليه أعيان العسكر بلسان واحدة: إنا تحت رايتك، ولو إلَى مطلع الشمس. ثم انتقل في اليوم الثاني إلى بلد ميَّاس، وأمر بحفظ مغربة عتمة وبابها، فلم يشعر أصحاب الحسين إلاَّ وقد طلع عليهم بيرق دار، من تلقاء ابن أخيه، ووراه الجيش الجرار عليهم النقيب المقدام عطية وأحمد بن الحسن استقر في (بلد الحوادث)، وأراد أن يكون مهبط الوقائع والحوادث.

وكاد أصحاب الحسين أن يولوا الأدبار، فالتجأوا بعد ذلك إلى الجَبَل، بعد أن أعيتهم الحِيَل، ثم أرسلوا ما في بطون البنادق، فانهلت على المعسكر الأسفل بصواعق، وانصرفت إلى عطية وهو مقدم القوم رصاصة، دعت إليه حَينَه وخلاصه، فانهزم عسكر أحمد بن الحسن. ونهض عمه الحسين إلى سوق الربوع في الليل، ثم في الصباح إلى القرية التي وقع فيها الحرب، ثم إن جماعة من أصحاب الجرموزي انضموا إلى أحمد بن الحسن، وسمعت تحضيرة الحرب من محل الحوادث مطرح أحمد بن الحسن، فقال السيد أحمد بن علي الشامي للمولى الحسين: أما بعد التحضيرة، فلا يصلح منكم التواني، فتغير وجه الحسين؛ لأنه كان يريد أن تنحسم فتنة ابن أخيه بدون هذا، شفقةً عليه ومحبة في حقن الدماء وتسكين الدهماء، ثم أمر بأخذ الأهبة والتعبئة للقتال، وتقدم بيرق أحمد الحاشي صاحب الشرف، ثم تراجع الفريقان بسبب البنادق، وحجزِها ما بين الفيالق.

وكان النقيب سرور شَلبي من أصحاب أحمد، ومن انضاف إليهم، قد ترتبوا في المغربة وطريق الحوادث، والنقيب حسن البَحِش قد أخذ رأس الأكمة وعمَّر المتارس،

فاتصل الحرب من صحوة النهار إلى الظهر، وبسبب إصلاح التعبئة من أصحاب أحمد استعلوا على أصحاب عمه، فأمر الحسينُ البيرق دار ـ وهو صلاح الحملاني ـ أن يتوجه بمن بقي من العسكر إلى القرية التي هي أيسر الأكمة، وقال له: إذا دخلتها، فاطلع على الذين في الأكمة من ورائهم ليكون ذلك نفساً على من تحتهم من أصحابنا، فعزم المذكور ومعه نحو العشرين، ودخل القرية بغير شجار، وتجاوز عنها للتنفيس على أولئك من الحصار، فلما رآه أهل الأكمة لم يلبثوا أن ولّوا الأعقاب، فكان نظر الحسين من أقوى الأسباب. فتبعهم العسكر في الأثر وطلع بدر النصر للحسين وأزهر، واتصلت بمسامع أحمد هذه الفعلة الجسيمة، واشتغل أصحابه بالنهب، وهو انحاز إلى القربة السفلَى، وقد فاز عمه بالقدح المعلّى، ثم إن الحسين أرسلَ السيد عبد الله بن أمير الدين إلى ابن أخيه أحمد بن الحسن ليصل إليه، فوصل فخلع عليه، ووجَّه أسباب الأنس إليه، وأمسَى الجميع بالحوادث.

ويروى أن أخاه محمد بن الحسن قد كان جهَّز إليه جماعةً من عسكر الصدام، فصادف ذلك أن الحرب قد وضعت أوزارها، وأُطفِئَت بيد الحسين شرارها، والحمد لله.

وأما علي بن شمسان، فإنه قد كان وجَّه مدداً لأحمد بن الحسن من إب وأراد الارتحال إليه، فبلغه انجلاءُ المعركة عن تسليم مخدومه أحمد فتشوش خاطره، وما زال يدبّر الحيلة للفرار، ففر إلى ابن عبد القادر بعَدَن، وقال الحسين: إنه لو وصل لما ناله إلا كل خير.

وكانت وقعة الحوادث هذه يوم الخميس في العشر الآخرة من (شعبان سنة ١٠٤٩هـ)، وفي آخر شعبان وصل المولى الحسين إلى إب ومعه ابن أخيه أحمد بن الحسن، ووصل بعد ذلك كتاب الإمام المؤيد باستدعاء أحمد بن الحسن، وعلي بن شمسان إلى حضرته بشهارة، فسارا إليه، ولما وصلا قابلهما بالإجلال والإعظام، فأما أحمد فاستقر عند الإمام ما شاء الله، وعاد عن أمره إلى صنعاء على أوضاع جعلها بيده، فيها كفايته وكفاية من إليه من أصحابه وأخدانه، وأما علي بن شمسان، فرجَّح الإمام بقاءَه لديه ذلك الأوان، وعمَر له داراً فاخرةً، وأجرَى عليه الإنعام.

ثم دعا المولى الحسين أخاه العلامة إسماعيل بن الإمام إلى ضوران لينوب عنه بها ما دام باليمن الأسفل، فسافر من ضوران العلامة محمد بن الحسين إلى والده بإب، وبقي شهر

رمضان، وفي شوال عاد إلى صنعاء، ثم وصل محمدُ بن الحسَنِ إلى عمه الحسين بـإب ثم نزل إلى تعز وهو يلاطف عمه في زيادة ولايته.

وفي هذه السنة شاع أن المولى أحمد بن القاسم أصاب في دار الكيخيا التي سكنها المولى أحمد كنزاً من الذهب الأحمر، ولعله كان من دفين عبد الله شلبي؛ لأنها كانت مستقرة لما حاصره حيدر باشا أيام جعفر باشا، ففعل منه المولى أحمد: جامع الروضة وأوقافه وغيره من المحاسن.

وفي هذه - (سنة ١٠٤٩هـ) - قذف البحرُ بجازان سمكةً عظيمةً مثل الأكمة طولها نحو خمسين ذراعاً ورأسها مثل الخيمة، وارتفاعها نحو تسعة أذرع، وقال أبو الرجال في مطالع البدور بترجمة السيد صلاح بن عبد الخالق بن يحيى بن المهدي جحاف المتولي (سنة ١٠٥٣هـ) أنه اجتمع في صفر (سنة ١٠٥٠هـ) بالسيد الرئيس أحمد بن صلاح بن الهادي والي جازان، فوصف له أن البحر قذف سمكةً عظيمةً جداً إلى موضع قريب من جازان، فطلب السيد صلاح بن عبد الخالق من السيد أحمد بن صلاح زيادة إيضاح، فأمر سيدنا العلامة الناصر بن عبد الحفيظ المهلاَّ بنظم هذه الأرجوزة:

الحمد لله على نعمائه ... حمداً على السابغ من آلائه
نسأله المزيد من إنعامِه ... وأفضل الصلاة مع سلامِه
على النبي المصطفى وآله ... سفن النجاة التابعي مقاله
ما سارت السفْنُ على البحار ... وكُوِّر الليل على النهارِ
وبعد وافانا كتاب موجَزُ ... من إبن من له الكتابُ المعجزُ
ورودُه لمثلنا صلاحُ ... وكيف لا يفيدنا صلاح
وبحرُه منه الأنامُ تغترف ... وفضله به الجميع يعترف
من ذا يحيط كابن عبد الخالق ... بما حواه البحر من دقائق
تضمن السؤالُ عن شيءٍ عجب ... ألقَى به الساحل في شهر رجب
من عام ألف بعد أربعينَ ... وبعد تسع قد مضت سنينَ
في دولة المولى الإمام الأعظم ... محمد نجل الإمام القاسم

فقلت صف فلي على الوصف حجج ... حدِّث عن البحر فما فيه حَرَج
نعم فقد أصبح في العثيمة ... ما رأسه في الشكل مثل الخيمة
وهذه الدابة ذات الشحم ... كأنها مثل الكثيب الضخم
وطولها خمسون بالذراع ... وخمسةٌ والعرضُ ذو اتساع
أما ارتفاعها فقدر تسعة ... وطول عظم كل لحي سبعة
كأنه في جرمه دعامة ... وقس على اللحي اتساع الهامة
وإنه لخمسة قد يثقلُ ... ودونهم للحيها لم ينقلوا
وعينها قد بلغت ذراعَين ... شاهدتُ ما أخبرت عنه بالعين
وقلتَ لي كيف فقار الظهر؟ ... فقلت قدرُ العظم مثلُ الصخر
لسانها يشبه طرف العضبِ ... وذاك عن جرمٍ كبير ينبي
وكل عضوٍ طولُه كاللحي ... وذا من الأوصاف بعضُ الشيءِ
قد اكتفيتُ فيه بالإشارة ... عن كله قد تقصر العبارة
وما رواه الحبرُ عن ذي البحر ... في السمك المنبوذ عند البحر
وليس بحر الشام قد عرفتمُ ... بأنه البحر الذي ذكرتمُ
وما أتى في مثله عن جابر ... من أكلِه وشبعه المسافر
فذاك مما قد عرفت أكبر ... ولحمُه من لحم هذا أكثر
لأنّ وَقْبَ عينه كبير ... ودهنُه متسعٌ غزير
وضلعه من تحته مرَّ جَمل ... وفوقَه فتىً طويلاً قد حمل
وقد روَى لنا الفقيهُ يوسفُ ... بأنه مثل الكثيب يوصَفُ
ذاك الكثيب الضخم في الرواية ... والشهر للأكل رواه الغاية
لا مثل ما أوردت نصف شهر ... ثم أتوا إلى النبي الطهر
وقد رواه حجة للشافعي ... فخذ بتوجيه مفيد نافع
فأكلهم إن كان للضرورة ... كما روى في القصة المشهورة

مـا أكـل المختـار مـن باقيـه كـلاً ولا أدخلـه في فيـه
وإن يكـن ذلـك لـيس طافيـاً فبينـوا لنـا بيانـاً شـافياً
ومـا الـذي عليـه في هـذا البنـا ومـن بـذا وجَّهَـه مـن صـحبنا
وإن عـرفتم طولَـه والعرضـا ذكـرتمُ مـن وصـف ذاك بعضـا
فـإن فيـه عـبرةً للسـامع بمـا يزيـد شـكرُه للصـانع

وفي (سنة ١٠٥٠ هـ)، تهيأ شرف الإسلام الحسين بن الإمام للطلوع من اليمن الأسفل إلى ضوران، ثم الزيارة لحضرة الإمام، فسار في شهر ربيع.

وفيها وصلت الأخبار من جهة الروم أن السلطان مراد بن أحمد خان بن عثمان قصد محاصرة بغداد، وهو في الأصل من قواعد مملكته، إنما وثب عليه الشاه عباس بجرأته، فأحاط السلطان به من جميع الجوانب، ورتَّب عليه البوش والآغوات والمراتب، وكل مُقَدَّم من أولئك الأعيان يضبط تحته عدة من الرجال والفرسان، ويقال: إنه كان جملة الخارجين مع السلطان في ذلك الصَّوْب أربعة عشر (لكّاً)، وكان جملة أيام الحُطاط أربعين يوماً وعظُم على السلطان الخطب بسبب قوة أصحاب الشاة عباس، وما كان قد أنشأه من الترتيب فقصد السلطانُ الشيخَ عبدَ القادر الكيلاني، واستمد منه الأنفاس، ثم أمر الحدادين أن يصنعوا له مدفعاً من الخوارق، ليطلق على سور بغداد من جوفه صواعق، فلما وجه الضربة على السور انتهت إليه ورجعت الحجرُ على أصحاب السلطان، فأهلكت منهم جملة، ثم رمَى به أخرى ففتح جانباً من السور، وكان بسببه الفتح المشهور؛ لأنه انهار جانب من ذلك الدائر، فتبادَرَت إلى الدخول منه العساكر، وقتلوا في بغداد عدداً لا يضبطه قلم، وكان الشاه في جانب من القصر ففر بنفسه بعد تدبير الحيلة، فصادف هربه اشتغال الناس بالقتل والسلب والنهب. ولما أدرك الشاه النجاة كتب إلى السلطان يطلب منه الصلح على ما عدا هذه البلاد، وأن يأمن كل من في سِربه، فأجابه إلى ما رام، ولم يكن في خَلَده غير فتح مدينة السلام، واستقرت يدُ الشاة على بلاده التي هو فيها من جبال فارس وما إليها، واقتصر بعد أن عاين الهولَ عليها، مع أنه لم يترك أثناءَ حصاره مجهوداً ، فقد دبَّر الحيلة الغريبة، حُكي أنه ربط بذنب هِر فتائل النار، ثم أرسله بعد الترتيب إلى جبخانة البارود، فولج ذلك الهر وأحرق الجبخانةَ، ولما فتحت بغداد أمر السلطان بعمارة قبر أبي حنيفة - رحمه الله - ببغداد،

وكان الشاة قد أمر بخرابه، واعتل بأن أبا حنيفة كان يعارض الإمام جعفر الصادق بالفتوى، وأمر السلطان أيضاً بعمارة قبر الإمام موسى الكاظم، فأصلح القبرين وعمر المشهدين وعظَّم الإمامين.

قيل: وكان مراد السلطان مراد التجهيز على اليمن بعد فتح بغداد، فبلغه أن أخاه إبراهيم بن أحمد خان، قد خالفه واستبد وخان. وتغلَّب على مملكة الروم، وتم له الدستُ فيما يروم، فداخله من الضيق ما صدَّه عن تلك الطريق، وأسرع به إلى طريق المنية، وعاون عليه سلطان الأعْراض النفسية؛ ففاضت روحُه، وخلا عنه سوحُه، ولما ثبت أخوه إبراهيم على كرسي السلطنة تحركت نفسُه لفتح مالطة وما وراها. ويأتي فيما بعدُ عامُ خبرِه، وكيفية نصره وظفره، ولم يفتح السلطان مراد بغداد إلاَّ بعد إفناء الأموال العديدة والذخائر العتيدة، والأبطال الكرارة والخيل المختارة، وأول جيش توجه على بغداد جَيش الباشا حافظ أحمد، ورجع بعد حروب طويلة بقلب مُكمَد، وتبعه إرسال الوزير الأعظم، والجناب المقدم، فطال حصاره للمدينة، وضرب خيامه بمشهد الحسين، ورجع عن فتح المدينة بخفَّي حُنين، لكنه فتح كثيراً مما حولها، وتعقَّبه هذا الفتح الشهير، ولما استقر الصلح كما سلف بين السلطان والشاه، قرره أخوه إبراهيم ومشَّاه، برسوم رُسِمتْ على الشاه منها: إتاوة يحملها إلى السلطان في كل عام منها الحرير وغيره، ولم يطب حال الشاه بعد إخراجه عن العراق، واستيلاء السلطنة على تلك الآفاق، فتوفي وتولَّى مملكته من بعده ابنُه صفي شاه، ثم إنَّ ابن أخيه عباس شاه ثار عليه، وأخذ المملكة من يديه، وجرَّعه كأس المنية وأعدمه تلك الأمنية، ولسلاطين العجم هؤلاء أحوال، حكموا فيها المُلكَ الذي عاقبته إلى زوال، مثل: فرش الأفْنية بخالص الحرير، واستعمال آنية الذهب والفضة المرصَّعة بالجواهر النفيسة، وإطلاق رسَنِ البطَّالين في مُدُنهم مع البغايا تعلُّلاً بشبهة المتعة، وتسليط بعض الأنعام على بعضها للإغراء بينها والتفكُّه بما يتفق منها، وقد يُسمُّون ما دك في النِّطاح بمن يغمصون جانبه من الصحابة، وإذا غَلب الذي إرادهم دَكَّه صالوا على من هو في ملكه.

وذكر بعض السادة عمن روى له أو شاهد أنهم يرقمون أسماء مشاهير الصحابة في نعالهم، ويرفعون أصواتهم بلعنهم، ويجعلون ذلك نوعاً من التقرب إلى الله، وهذا خاصة ليس بنكير في مذهبهم، ومن هو على طرزهم، إنما العجبُ انهماكهم في تلك الأحوال

التي تدل على ضعف العقل والحشمة، وعدم الإلمام بالشريعة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

المولى الحسين بن القاسم

وفي (شهر ربيع الآخر سنة ١٠٥٠هـ) طلع شرف الإسلام الحسين من اليمن الأسفل إلى ذمار، وحصل بين عسكره وبين أهل المدينة شجار؛ لأن عسكر الحيمة الذين كانوا صحبته أرادوا دخول البيوت، ولم يكن قد سبق مثل ذلك من العسكر، فاحتركت نفوس أهل ذمار، وأقبلوا عليهم بالحجار، وكان فيها يومئذ عز الإسلام محمد بن الحسَن، فكأنه مدَّ إليهم الرمز اللطيف، أن ذبوا عن أنفسكم ولو بالدفع العنيف، قبل أن تثبت عادة، ويعسر تغييرها عند الإرادة.

وأما المولى شرف الإسلام الحسين، فإنه عَلِقَ به الألم من ذلك الحين، ويقال: إنه ذات الجنب ففارق الحياة في يوم (الثلاثاء ١٥ ربيع الآخر). وكان قد قام بتولّي بلاد أخيه الحسن، فدبَّر الأمور وساس الجمهور، وكان ــ رحمه الله ــ بعد وفاة أخيه الحسن وتحمُّله لعهدته قد ظهر منه الخُلُق الواسع والعطاءُ النافع، وحضر دفنَه ولدُ أخيه محمد بن الحسن، وقُبِر حول حوطة الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي.

قد أشار إلى ذكر تاريخ وفاة المولى العلامة الحسين بعضُ البلغاء في آخر أبياته التي رثاه بها، وهي مرسومة فوق الباب الشرقي لقبته المشهورة المزورة بذمار، فقال:

أيا قُبةً حازت من المجد أسناه　　ومن شرف الفخر المؤثل أسماه
حويتِ سليل القاسم بن محمد　　أجل الورى قدراً وعلماً وأعلاه
حبيبٌ أتمّ الله في الحشر نورَه　　وبوّأه عَلْيا الجنان وأعلاه
أقام بهذي الدار من صدر فيلق　　إلى صدر تحت يفحم الخصم فحواه
وجاهدَ في مولاه حقَّ جهاده　　بكل وَغًى فيه الصناديد قد تاهوا
وراح وقد أبقى لدينا مآثراً　　يجازيه بالإحسان في فعلها الله
فيا زائراً قبراً تضمَّنه لقد　　بلغت به من موقف الحشر أرجاه
توسَّلْ به في دفع كل ملمة　　ونيل الذي ترجو فإنك تُعطاه

فهــذا لــه عنــد الإلــه مكانــةٌ بها رضـي الـرحمنُ عنـه وأرضـاه
فلـو سُـئل التـاريخ أيـن محلُّـه لقال مجيبـاً (دار الأكـارم مثـواه)
(١٠٥٠هـ)

وفي (ليلة الاثنين عاشر محرم سنة ١١١٧ هـ) ظهر بهذه القبة للمولى الحسين-رحمه الله- أربعةُ أنوار: بعضها أحمر كالجمر، وبعضها أبيض كذبالة المصباح، ونور من داخل هكذا في الجامع الوجيز للمولى أحمد الجنداري.

ومن شعر المولى الحسين:

مولاي جُد بوصـال صـبٌ مُـدنِفِ وتلافـه قبـل الـتلاف بموقـف
وارحم فُديتَ جريح سـيف مُرهَـف مـن مقلتيـك طعـين قـد أهيـفِ
وامنن بحقـك يـا حبيـب بـزورةٍ يحيى بها القلـب القـريح ويشـتفي
مـولاي إن الصـدَّ أتلـف مهجـتي والصـدُّ للعشـاق أعظـم مُتلـف
عجباً لعطفك حـين رنَّـح وانثَنـى متــأوداً وعلــيَّ لم يتعطَّـف
أنا عبدك الملـهوف فـارث لـزلتي وارفـق فـديتك بي لطـول تلـهفي
عـرَّفتني بهـواك ثم هجـرتني يـا ليـتني بهـواك لم أتعـرَّف
حملـتني مـالا أطيـق مـن الهـوى وأذقـتني سـم الفـراق المرعـف
يا مهجتي ذوبي ويا روحـي اذهـبي من صـده عـني ويـا عـيني اذرفي
هل من معينٍ لي علـى طـول البكـا أو راحـمٍ أو ناصـرٍ أو منصـف
وإليك عـاذل عـن ملامـة مغـرم لا يرعـوي عمـا يـروم ولا يفـي
حاشاي أن أشكو وأنسَى عهـدَ مـن أحببتـه إني أنـا الخـل الـوفي
قل مـا تشـاءُ فـإنني يـا عـاذلي لا أنتـهي لا أنـثني عـن متلفـي
أنا عبـده لا أكتفـي عـن مـالكي والعبـد عـن مُلاكـه لا يكتفـي
يا قلبـه القاسـي أمـا تَرثـي لمـن قاسَى نوًى وجوًى وطـول تأسُّـف
اعطف على صـبٌ أذبـتَ فـؤادَه واسـتبق مـني بـالنبي الأشـرف

وله:

رفقـــاً بقلـــب الهـــائم المشـــتاق	رفقـــاً فقلـــبي في أشـــد وثـــاق
شرِّف محبـك يـا حبيـب بـزورة	أولا فَمُـــنَّ عليـــه بــــالإطلاق
أرقْتني وأرقـت مـن عـيني دمـاً	بصـوارم مـن مقلتيـك رقـاق
كم ذا صدودك بل جفـاك وآه بـل	كم تقصـد الأحشـاءَ بـالإحراق
آهٍ مـن القلـب الجـريح وآه مـن	جفـني القـريح ودمعـه المهـراق

.. إلخ.

وأما علم المولى الحسين فهو الذي طبق الآفاق، وانعقد عليه الإتفاق، ويكفيه تحقيقاً وتدقيقاً وترصيفاً وتنميقاً مُؤلَّفه في أصول الفقه المسمَّى غاية السؤول وشرحها المسمى هداية العقول، وقد كتبت ما قلته في ديباجته (عبدالله بن علي الوزير).

لله مـــن غايـــةٍ أعوِّذهـــا	بالله من عـين كـل ذي حسـدِ
كم كللـت بالفصـول جـوهرةً	وكم لها مـن يـدٍ علـى العضـد

وقد اشتغل آخر مدته بالحديث، واسمع صحيح مسلم على الفقيه الحافظ عبد الرحمن بن محمد الحيمي.

وللمولى الحسين مؤلفٌ في عدم اشتراط الإمام الأعظم في صلاة الجمعة، وهو كقول الشافعي، وللسيد الحسن الجلال مؤلف في نهجه، وأصل هذا البحث للأمير الحسين بـن محمد، وقد زاد عليه السيد محمد بن إبراهيم الوزير في رسالة مشهورة.

وللمولى الحسين رسالة في النهي عن منع الشافعية من التأمين في الصلاة لَّما منعهم بعض ولاة الزيدية جهلاً منه، فنهاه الحسين عن التعرض في المسائل الخلافية، ولما وصلت رسالة الحسين إلى الشافعية، أثنوا عليه خيراً. وله مختصر في آداب العلماء والمتعلمين، وله حواش على شرح الأساس للسيد أحمد الشرفي والإمام القاسم.

وكان للحسين من شدة البأس ما يخرج عن طور البشر ومواطنُه مع شجعان الأتراك أيام الحطاط على حيدر باشا وغيرها معروفة.

ومما اتفق له من الشدائد العظيمة أنه سبح في غدير المرصدين من جهات البطنة مـن

بلاد عذر، فغمس في الماء كما يفعله الماهر في السباحة، فقذفه الماء عند ارتفاعه إلى جانب شديد الظلمة، منحسر عنه الماء؛ لأن الغدير بين جبلين، فبقي في ذلك الجانب متحيراً في أمره من نهار ذلك اليوم إلى صباح اليوم الثاني، فعند ذلك ظهر له شعاع الشمس عند شروقها، وأدرك ضوءها بين الماء، فغمس في الماء تبخيتاً وتخميناً لمصعد النجاة، فخلصه الله وبرز من ذلك الخضم بعد أن حصل الأياس منه.

وكان ـــ رحمه الله ـــ يرى أن الخلاف بين العلماء في أصول الدين لفظي، وأنه لا يجوز التكفير والتفسيق بالإلزام.

وما ذكره في شرح الغاية أن ترجيح الداعي يكون بالإرادة والاختيار، وهو قول السمرقندي وغيره.

ومن مآثره رحمه الله المسجد المعروف بباب السبحة بمسجد حجر، سمي باسم بيت حجر من أولاده الذين تولوا على المسجد ووقفه، وقبر ابنه العلامة محمد بن الحسين والعلامة أحمد بن علي الشامي وغيرهما من الأعلام بجانبه (وقد نقل مسجد حجر إلى الصافية جنوبي صنعاء ونقلت عظام الموتى إلى المقبرة العامة، وبني هنالك البنك اليمني للإنشاء والتعمير) وقد وقف المولى الحسين على المسجد ما يكفيه، ومنه البستان المعروف ببستان الخير، وكان بنظر بيت حجر، وقد زاد في المسجد، وحسنه ابنه المولى العلامة محمد بن الحسين.

ولم يلبث الحسين بعد أخيه الحسن غير سنة وتوفي، ولم يصل إلى الخمسين سنةً. وكان أخوه الإمام المؤيد قد جعل بنظره جميع البلاد التي كانت بنظر أخيه الحسن، وهي غالب البلاد الجنوبية. ولما مات الحسين توجه ما كان إليه من أعمال العساكر إلى ابن أخيه محمد بن الحسن، وقرره الإمام المؤيد على البلاد التي كان عينها له عمه الحسين، واقتصر عليها، خلا أنه أمده الإمام من بقية البلاد بأرزاق من انضاف إليه من الأجناد، ويدُه مطلقةٌ في تنفيذ الأوامر، والإنصاف للمظلوم من الظالم، وإصلاح ما يحدث من الفتن.

مقارنة بين الحسنين

قال المؤرخ المطهر الجرموزي المتوفى (سنة ١٠٧٦هـ) في الجزء الثاني من الجوهرة

المنيرة، في جُمَل من عيون السيرة، للثلاثة الأئمة ما نصه: ((أخبرني من كان يخالط الظلمة ويتودع ودائعهم ويظلم ضعفاء بلده ويؤذيهم فحبسه مولانا الحسن سنةً بضوران، وأدَّبه بثلاثة آلاف، ثم أُطلق بتوسطي له، وبعد وفاة الحسن حصل منه، مثل تلك الذنوب في أيام مولانا الحسين، فأدَّبه بثلاثمائة، فشكا وتوجَّع كثيراً، فطلبنا من مولانا الحسين سماحه بشيء، فما أبقى عليه إلا مائة، فأقسم أن (٣٠٠٠) من الحسن أخف عليه وأسهل من المائة من الحسين وترحَّم على الحسن وبكى، وذكر الحسين بما لا يجوز وهو حي.

ولما توفي الحسن ودفن جمع الحسين أصحاب الحسن وأمراءَه وأجنادَه وأحمد بن الحسن حاضر في (١٨ سنة)، فمالوا إليه ولا يلتفتون إلى الحسين إلا إذا التفت أحمد على عمه، وأن الحسين أمر أن يكتبوهم لعطائهم وصلاحهم، فبكوا، وهاموا على وجوههم قِبَل ذمار واليمن، ولم يرجعوا إلا بمشقة، وزادوا نفوراً إذا خاطبهم غير ابن سيدهم.

وعظم على الحسين وهَمَّ أن يتركهم فطيب نفسَه أحمدُ والحاضرون. ولا يقبلون أوامر الحسين إلا إذا عرضوها على أحمد، ووصلت أوامر الإمام بتعيين الحسين، فوصلت كتب الحسين بتولية الولاة، فكتموها، وعند وصول كتب محمد بن الحسن أظهروها، ولما رأى ذلك الحسين، عاد إلى بيته في ذي بهلان، وقال: ((دونكم أمركم وجندكم)).

وصار محمد بن الحسن إلى ذمار وصار إليه جميع جند أبيه، وعاد أحمد إلى ذي مرمر، وقد ألقى الله محبة الحسن إلى جميع أهل زمانه من يعرفه ومن لا يعرفه.

وبعد موت الحسنين سقط جناحا الإمام المؤيد.

* * *

(وفيات)

إبراهيم بن هادي النعمي

وفي (سلخ صفر سنة ١٠٥٠هـ) توفي بالشرف، السيد العالم المجاهد التقي إبراهيم بن هادي النعمي الشرفي. وكان من أعيان أصحاب الإمام، وله الصبر العظيم بمواقف

الجهاد والصدام.

إبراهيم بن أحمد عامر

وفي (رجب سنة ١٠٥٠هـ) توفي بشهارة، السيد العالم إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد بن علي. وكان ملازماً للإمام المؤيد، ودفن بالحجرة التي عند قبة الإمام، ومولده في (شوال سنة ١٠١٨هـ(، فعمره (٣٢ سنة).

وكان من أعيان علماء وقته علماً وحلماً وزهداً وكرماً، وكان الإمام المؤيد يخصه بمزيد التكريم والتعظيم، وأخذ على الشيوخ الذين وصلوا إلى حضرة الإمام وغيرهم، وله شعر كثير. وقد ترجمه في مطالع البدور ترجمةً استوفى فيها أحواله وأعماله المبرورة، وأرخ وفاته (سنة ١٠٥٦هـ) وهو الصحيح ولازم السفر للحج أميراً للحجاج.

وفي (ذي القعدة سنة ١٠٥٠هـ) توفي بالشرف الفقيه الأعلم الأفضل ناصر بن جابر الأسدي الشرفي.

محمد بن عز الدين المفتي

في (شعبان سنة ١٠٥٠هـ) توفي السيد المجتهد محمد بن عز الدين بن محمد بن عز الدين بن صلاح بن الحسن بن الإمام علي بن المؤيد بن جبريل المعروف بالمفتي في (١٢ شعبان) بذهبان شمالي صنعاء، ودفن بخزيمة، وقبر إلى جنب والده، وكان إمام العلوم، فارس منطوقها والمفهوم، بركة الأنام. وجَّه إليه الباشا جعفر منصب الإفتاء بصنعاء، فكان يفتي بكل المذاهب مع ورع شحيح، ودين قويم صحيح، ومن مشائخه السيد العلامة عبد الله بن أحمد المؤيدي والسيد العلامة صلاح بن عبد الله الوزير، ولم يتخرج في الفقه إلاّ في آخر أيامه، فإنه أنفق جمهور شبابه في العلوم العقيلة والنقلية، ثم أقبل على الفقه بالقلب والقالب، فجلّى في ميدانه وملك قبضة عنانه، وألَّفَ البدر الساري في أصول الدين وشرحه بواسطة الدراري، وقد سلك مسلك الحجة محمد بن إبراهيم الوزير في الإيثار والعواصم والروض الباسم، إلاَّ أنه لم يصرح بمذهبه، وقد أفصح عن بعض مطلبه، فإنه قوَّى ما يعتمد عليه، وترك مكان ما لا يريده من التنقيح والتقبيح، وهي صناعة تدل على غور حصيف وذهن شريف، وملاحظة لأحوال الزمان، ومداراة حسنة للإخوان.

وله شرح تكملة الأحكام للإمام المهدي أحمد بن يحيى، وله منهج الإنصاف في النهي عن سب الصحابة، وكان يفتي بما لا يلائم خاطر الباشا في بعض الأحوال، اتفق في مدة جعفر باشا أنه أفتى بيوم الفطر، فأفطر من أفطر بفتواه، فطلبه الباشا وعاتبه، وقال له: كان عليك أن تُشعِر الأفندي، فقال: قد أشعرته، فطلب الأفنديَّ إلى حضرة الباشا، وسأله، فقال: كلاماً معناه: أفتى السيد بشاهدين ما يكمل بهما الحكم على مذهب أبي حنيفة؛ لأنهم لا يعملون إلاَّ بأربعين شاهداً، حيث الأفق لا علة فيه من سحاب ولا غيره، فتغير خاطر الباشا، وقال للسيد: ليكن حبسُك في بيتك، فانفصل عن حضرته وبقي في بيته أياماً، ثم إن الباشا استدرك هذه الهفوة، فاستطاب خاطر السيد ونوَّع له الإحسان، وقد كان ينسب إلى الباشا جعفر الميل إلى جانب العلماء بسبب أنه كان له حصة وافرة من العلم سيما علم المعقول.

ومن شعر السيد محمد بن عز الدين يذم ذهبان.

ذهبانُ أخبثُ مكسب كسب الفتى ... لله در رياضها والوادي
بلدٌ به حل السقام مع الضنا ... فكأنما كانا على ميعاد
بلدٌ به نكد المعاش أما ترى ... سخط الإله لأهل ذاك النادي
فعليه مني كل يوم لعنةٌ ... ما غرَّد القمري وزمزم حادي

وألَّف حاشية السيد على متن ابن الحاجب الكافية، جعلها لبعض تلاميذه لا سيما أولاد الباشات، واعتمدها الناس ونسخوها، وكان يدرِّسها ويلحق فيها زيادات، فلهذا اختلفت نُسَخُها.

أحمد بن عبد الله البشري الغشم

وفي (سنة ١٠٥٠هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة أحمد بن عبد الله بن علي بن يوسف بن أحمد بن علي بن عيسى البشري، من بني بشر، أهل حرجة الشام المعروف بالغشم الآنسي. وكان عالماً فاضلاً كثير الحركة في البلاد لمنفعة الإمام المؤيد محمد بن القاسم بالرسائل ونحوها إلى بلاد همدان وجهات صنعاء وبلاد حراز. وقبره بجنب قبر شيخه القاضي محمد بن علي الشكايذي، وله أولاد صلحاءُ علماءُ فضلاء، وهما علي بن أحمد وعبد الله بن أحمد الغشم. وأما صنوه القاضي العلامة محمد بن عبد الله الغشم،

فوفاته (سنة ١٠٤٣هـ)، وكانت له مكانة عظيمة جداً عند الإمام المؤيد محمد بن القاسم.

حوادث سنة ١٠٥١هـ

وفي (سنة ١٠٥١هـ) جهز السلطان إبراهيم بن أحمد خان على جزيرة مالطة، فما زالت سراياه تناوش الإفرنج بحروب، تذهل عندها القلوب، واستفتح كثيراً مما بأيدي الإفرنج من البلدان، واستمر ولده بعد وفاته على ذلك الشأن.

وفي (ربيع الأول سنة ١٠٥١هـ) وصل من الإمام إلى أحمد بن الحسن كتاب يستكشفه فيه، عن خزانة والده الحسن، ويطلب أن يوضح التصرف فيها، ويقول له: إن كانت لبيت المال، فليس لك عليها يد بحال. وإن كانت لوالدك الحسن فأنت فيه أسوة ورثته، وكلكم في سَنَن، فما بال الاستبداد الذي خفي علينا فيه المراد.

وكان الصفي يرى في ذلك الأوان مع طيبة نفس الإمام عليه أن ما تصرف فيه من الخزانة فيدُه فيه أمانة، وعند ذلك جاشت نفس الصفي، وقدَّر أنَّ غير المباينة بكفاية هذا الجواب لا يفي، فتحرك من حصن ذي مرمر للخروج، ووَكَّل الجوابَ إلى بطون الأغماد، وظهور السروج، فتوجه إلى بلاد خولان في جماعة من الرجال وجريدة من الفرسان، وقد ضم إليه الذخائر النفيسة والنقد الكثير، وغمر أصحابه بأنواع الإحسان ونفحهم بكل خطير. فوصل إليه مشائخ خولان والأعيان وبذلوا له وجوه الرعاية وصنوف الإحسان، ثم ارتحل إلى بلاد عنس، ثم قيفه، وعند ذلك تبعت في أثره الرسائل الإمامية، وأخذ فيها بحفظه على عمال الأقطار، ووصلت إلى عمه إسماعيل إلى ضوران من الإمام تتضمن إيجاب الحركة عليه إلى ولد أخيه وإرصاد المكان له في كل وجه، والاستيثاق من أحواله حتى يؤتَى به إلى الحضرة المؤيدية، فحث إليه الركاب، وصحبه أخوه عبدُ الله بن الإمام القاسم.

وكان أحمد بن الحسن قد قصد قعطبة، فتبعوه إلى نقيل الشيم، فوقع الحرب وبعد أن تتابع القتل في الفريقين، رأى أن مَن إلى جانبه قد أدركهم الظلع، فاستخلص نفسه ومن

معه بلطف وارتفع، فانتهب العسكر جميع خزانته، فرجع العزم إلى الحسين بن عبد القادر صاحب عدن فبقي عنده زماناً، ولقي منه إحساناً. وبعد تقضي الواقعة استخلف إسماعيلُ بن الإمام على قعطبة السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي، وعزم إلى تعز لتقرير أحوالها، فوردت رسالة من الإمام إلى صاحب عدن يقول له: أرسل إلينا الولد أحمد فعرض عليه الرسالة، فلم يمتثل وأحسَّ بعد ذلك بانحراف من الأمير الحسين بن عبد القادر، ونوع ترفُّع دون احتماله عند الصفي ملاقاة الحسين، ففارقه عجلاً وأنشد متمثلاً:

ولا يقيم على ضيم يراد به	إلا الأذلَّان عِير الحي والوتد
هذا على الخَسف مربوط برمته	وذا يُشَج فلا يرثي له أحد

وقصد بلاد يافع، فرأى منهم غاية الإكرام، فاطمأن خاطره وطلب منهم المصاهرة، ففعلوا ثم طلب منهم الغارة على قعطبة، فأسعدوه وقصدوا أهلها على غفلة، فوقع حرب شديد، وكانوا قد أشرفوا على الاستيلاء؛ لأنهم أحاطوا بها، لكنها خفت صولتهم من آخر المعركة، فصال أهل البلد عليهم، فانهزموا إلى بلادهم، فاستدرج الإمام قلوب أهل يافع بالملاطفات وإرسال الصِلات والكسوات ومنعوا جانب الصفي، وأجابوا على الإمام أنه لا يمكن الخلوص إليه، ومتى بدا له رغبة فهو ولدكم وأنتم أولى به.

وفي هذه السنة أذن الإمام المؤيد لعلي شمسان بالحج، فعزم ومات في أثناء الطريق، وكان مقدَّم الحسن بن الإمام، وله رئاسة وإقدام، يصحبه عجلة في الانتقام، حتى نُسب إليه قتل جماعة من عسكر السلطنة بعد تأمينهم، واستُنكر منه ذلك.

وفي أثناء هذا العام خالف بعض الجهات النجدية على الشريف زيد بن المحسن، فقصدها بنفسه وأخرب بعض قراها وأجلى عنها أهلَها وهي على طريق السراة.

وفيـــات

عثمان بن علي بن الإمام شرف الدين

قال في ذيل روح الروح: في (٢٧ محرم سنة ١٠٥١هـ) توفي بمدينة ثلا السيد

العلامة بقية السلف الصالح، والمجد الذي قارن السماك الرامح، عثمان بن علي بن الإمام يحيى شرف الدين عن زيادة على ثمانين سنة. وكان سيداً عالماً عاملاً فاضلاً متفنناً في النحو، والمعاني، والبيان، والمنطق، والفقه، والعلوم العقلية والنقلية، وله معرفة بالتصوف وعلم الطريقة وكان لطيفاً في طبعه.

وفي (عاشر جمادى الأولى سنة ١٠٥١هـ) توفي السيد الرضى بن عز الدين بن الإمام شرف الدين، وقبر عند قبر صنوه علي بن عز الدين.

وفي (١٨ شعبان سنة ١٠٥١هـ)، توفي بكحلان تاج الدين السيد الهادي بن الحسن بن الإمام شرف الدين. وقبر في القبة التي عمرها لنفسه بإزاء مسجد المنصور عبد الله بن حمزة بكحلان.

وفي (٢٢ ذي القعدة سنة ١٠٥١هـ) توفي بقية السلف الصالح المهدي بن غوث الدين بن المطهر بن الإمام. وفي (٢٤ ذي الحجة سنة ١٠٥١هـ) توفي غريقاً في السَّد الذي بناه الأمير أحمد بن شمس الدين بكوكبان، السيد محمد بن عبد الله بن علي يحيى بن المطهر بن شرف الدين.

وفي (سنة ١٠٥١هـ) توفي بوصاب علي بن أحمد بن إبراهيم أبو الرجال، وله ترجمة مفيدة في الطبقات.

وفي (سنة ١٠٥٢هـ) في المحرم استولى الخسوف على القمر في برج الميزان.

وفيها نجم خلاف الشيخ علي بن ناصر بن راجح الآنسي بعد عوده من حضرة الإمام وانضاف إليه جماعات أهل جبل الشِّرق، (وهي الروية وما والاهم من تلك الآكام مثل بعض أطراف ريمة وكسمة)، وتعللوا بأن الأكوع عامل ضوران عاملهم بالحقارة والامتهان، واستولى على القطع والحقوق، ولم يبق لنفاق رئاستهم عنده سوق، وأضافوا إلى ذلك شيئاً من دعوى الجور، فسلطنوا علي ناصر ومنعوا على الدولة، واشتدت منهم الصولة فانتدب عامل آنس الأكوع لهم وعلم أنها لا تُدحَضُ هذه الفعلة إلا بالسنان لا بالأشنان، وأنه إن لم يسرع حسمها بغير الحربْ، امتدت عروقُ فسادها في الشرق والغرب.

فجمع الرجال المختارة، والخيل الكرارة، وإليهم عسكر ضوران، وهم أهل الضرب والطعان، فانكشفت المعركة عن قتل جماعة رُقم القتل عليها، وانتهاب بيوت كانت

ذخائرهم قد جمعت إليها، واستولى على تلك الحصون والآكام، وفيها حصن بني راجح المسمى حرفة، وهو معقله وضيعته وموئله، الذي فيه ذخيرته ومنفعته، وفر بعد ذلك وذهب شريداً حتى اتصل بمولانا محمد بن الحسن وطلب منه أن يجيره، وأن يأخذ له الذمام فرآها له عز الإسلام جميلة، وفيَّأه من الأمان في ظلٍّ خميلة، وأكرم نزله وسد خلله.

وكان جماعة ممن استعصاه وضرب بعصاه، قد أطالوا الحصار على يفعان، ودبُّوا إليه دبيب الأفعوان، فأنسلوا عقيب فتح البلاد وتفرَّقوا في كل وادٍ.

ولَّما انتصر الفتح وصل إلى تلك الجهة مأمور الإمام المؤيد السيد الكريم النجيب صارم الدين إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد ومعه جماعة من الجند، واستقر أياماً في البلاد لتأديبها وتمهيدها وتصحيحها عقيب ذلك الاستعصاء والاعتلال، ثم عاد إلى ضوران وأمر فيه بالمعروف، ونهى عن العصيان، وظهر فيه من مخائل النجابة والكرم، ومحاسن الأخلاق والشيَم، ما يقضي له بأنه من صميم السادة، وأبناء ذوي المجادة والسيادة، ولم يعد إلى حضرة الإمام إلا وقد علقت به الديون، وغلقت فيها ذمتُه غلاقَ الرهون، فشكر الإمام أفعاله، وروح بتحمُّل ديونه حاله، وهكذا الكريم تقال عِثاره، وتُحمَد آثاره. وقد سبق ذكره في حوادث (سنة ١٠٥٠هـ) والصحيح أن وفاته (سنة ١٠٥٦هـ).

ولما رأى الإمام أن ابن أخيه الصفي جانح إلى الغربة سكنُه، جامح في ميدان الإعراض رسَنُه، وكان في يد أصحابه حصن ذي مرمر، وهو قُفل بلاد خولان، وكالحاكم على ما تحته من البلدان، أزمع على حصاره وطمس آثاره، فأمر الشيخ حسن بن الحاج أحمد بن عواض الأسدي بمحاصرته، فاستمرت سنةً كاملة حتى خرج من فيه على رسمه، وهم الآغا فرحان ومن معه من المماليك وكثير من الأعيان، وجميع الحشم الذين كانوا به أيام بقاء أحمد بن الحسن بالغراس.

ثم أمر الإمام في جمادى الأولى من هذا العام، بخراب مساكن الحصن وتحويل أبوابه وأخشابه، وحملت أبوابه إلى شهارة، وكان هذا الفعل بطلب قبائل بني حشيش وما لاصقهم لكراهتهم تشييد الحصون الدولية بين أظهرهم.

وهذا المعقل حصن حصين، وعلَمٌ شامخ العرنين، نسيم أعاليه سجسج، ومصباح

علاليه من قناديل السماء مسرج، له لون يدعو الأفراح إلى الأرواح، ويكسوها نشوة الراح، كأنما عجنت طينته بماءِ الصهباء، أو علقت عليه طلاسم الكتر المُخبَّأ، وفي أثانيه غارات مخلوطة رائعة، وهي مما عملته الصُنَّاع للتبابعة، وللناس فيها مقال مضطرب، وأنها مما عملته الجن لأسعد ذي كرب:

وقد كان أرباب الصناعة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقد تداولته في الإسلام أيدي الأئمة الأعلام، وانتقل مرةً إلى نوبة الباطنية وما زال من أيام الإمام شرف الدين إلى هذه السنين في أيدي الأئمة الهادين وحال الرقوم، وهو من جملة الرسوم، فقد أغلق على مجموعة الباب الآخر، فسبحان الله الوارث القاهر.

وفي هذا العام أرسل الإمام إلى يافع القاضي شرف الدين الحسن بن أحمد الحيمي للسعاية، في استمالة ابن أخيه أحمد بن الحسن حتى يرجع إلى دياره، فأسعده أحمد، فعاد والعود أحمد.

ولما وصل حضرة الإمام ظهر منه الابتهاج، واستقام الاعوجاج وزوجه الإمام بإحدى بناته، وحمد مسعود حركاته، ثم استأذنه للعام المقبل في حج بيت الله الحرام، فأذن له مع جملة من الأعيان والأهل والأرحام، واشتهر أنه انفتح له باب الحجرة النبوية، فزار جده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأخلص نية.

وفيها اتَّفق أن بعض السادات الثقات، سار إلى بلاد شمات، نزل إلى بركة للشرب منها، فوجد هنالك جمجمة ملقاه على الأرض وفي فمها لجام من حديد، فخاطبها يستكشف بلسان الحال أمرَها، فلم يشعر إلا بصوت عظيم من تلك الجمجمة، داخله من الفزع ما خرَّ معه لوجهه، واستأنس بمارة الطريق فدفنوا تلك الجمجمة وقد صارت لسوادها كالحممة، فما تم الدفن حتى لفظتها الأرض، فتُركت كما هي وتفطنوا أن هذا من عذاب القبر، الذي يظهره الله أحياناً للزجر.

وفي هذا العام تجهز جماعة للتجارة، من الحسا والبحرين والبصرة، وعبروا البحر الفارسي، فلما عارضوا بندر مسكت وكان يومئذ بيد الفرنج انتهبوهم، فخاف بعد ذلك المارة وانقطع العبور إلى أن استولى العماني على بندر مسكت كما سيأتي، فسلك الناس في البحار وأمن التجار من أولئك الفجار.

وفي هذا العام وقع إفساد بحر القلزم وهو بحر اليمن من قبل الفرنج، فجهز عليهم أمير اللحية وهو النقيب سعيد المجزبي عصابة من أولى الفتك والممارسة للحروب، فقبضوا عليهم وأرسلهم المجزبي إلى الإمام وهو بوادي أقر فعرض عليهم الإسلام وهم زهاء سبعين نفراً، فأسعدوا إلى الإسلام والإيمان، وفعل بهم شعار الإسلام وهو الختان.

وفي هذا العام جاءت الأخبار أن بلاداً في بلاد العجم استولى على أهلها الخسف العظيم شقق الأرض وهدم العمران وعطّل السكان، ومن أمارات الساعة حديث في الترمذي، معناه ((لا تقوم الساعة حتى يلعنَ آخِرُ هذه الأمة أولها، فإذا فعلوا ذلك فليرتقبوا ريحاً حمراءَ ومسخاً وخسفاً)).

وفي (رمضان سنة ١٠٥٢هـ) توفي السيد أحمد بن حمد الله بن الإمام شرف الدين وصنوه محمد.

وفي (سنة ١٠٥٣هـ) أذن الإمام لابن أخيه أحمد بن الحسن بالانتقال إلى صنعاء والاستقرار بها، وقرر له ما يقوم به وبخاصته، وروي أنه اعتذر عما سبق منه من خروجه على الإمام، بعدم ممارسته لأحوال الأيام، مع تربيته في حجر أبيه ونشأته تحت ظل نعمة الأمان والحداثة والسلطان، وقد قيل:

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِيَ المرءُ بها صار نُهبةً للزمان
سكرة المال والحداثة والعشق وسكر المدام والسلطان

حتى رُوي عنه أنه قال لهذا: قبضنا أولادنا وقصرناهم على تطويل إحساننا وإمدادنا.

وفيها أمر ضياءُ الإسلام إسماعيل بن الإمام بقطع شجرة الشيخ أحمد بن علوان، وكان المُحرِّض على القطع الشريف محمد بن أحمد المحنكي، فحصلت به علة.

وفيها طلع المولى إسماعيل بن الإمام عن رأي أخيه المؤيد من اليمن الأسفل إلى ضوران، واستقر به لولاية البلاد والإصدار فيها والإيراد، فعمل بالعدل وحكم بالفصل، وصار مسعود الحركات في الأفعال، والأقوال والأحوال. فإنه وصل إلى دُورٍ شيدها غيره، ومملكةٍ زجر سعدَها طيرُه. مع بلادٍ مطمئنة إلى إمارته عليها، ضامية الأكباد إلى وروده إليها، فطلع فيها نجماً زاهراً، ونبع فيها غصناً ناضراً، وأحيَا فيها معالمَ العلوم، ونعش فيها من مآثر الأئمةِ قديم الرسوم، وجاد حتى تميزت ماهيةُ الجُود، كما يتميز

المعرَّف بالرسم والحدود.

وكذا الكريم إذا أقام ببلـــدةٍ سال النظارُ بها وقـــام المـــاءُ

و لم ينفصل عن تعز إلاَّ وقد أحرز المجد والعز بما اقتناه من ذخائر العلوم، واستفاده من خزائن المعلوم. سمع بتعز تيسير الديبع على الشيخ المحدث عبد العزيز الحبيش المفتي التعزي الشافعي، ونسخه بخطه، وسُنَن البيهقي الكبرَى، وأجازه شيخه بماله من إجازات.

محمد بن عبد العزيز المفتي التعزي

وفي الجامع الوجيز أنه: توفي في (جمادى الأولى سنة ١٠٥٣هــ) بتعز الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز المفتي التعزي. وحضر دفنه المتوكل إسماعيل، وكان وصـــيَّه علـــى أولاده، فقام بهم القيام التام، وبلغوا مبلغاً حسناً، وأنالهم منه جميلَ البر والإحسان، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠٥٨هــ).

وفي هذا العام وقع بمصر فناءٌ عظيم، وخرج عنها الباشا ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً**﴾[آل عمران: ١٤٥]، قيل: إن الذين هلكوا أربعة لكوك.

وفيه وصلت الأخبار إلى اليمن أن السلطان إبراهيم بن أحمد خان وجَّـــه إلى جـــدة والحجاز بعساكر في ستة غربان، ويكون هبوطهم إلى مصر، ثم إلى جدة، ثم إلى اليمن، فلما عبروا عن بحر الروم بتلك النية واتصلوا ببندر اسكندرية، مـــات منـــهم الكـــثير، واضمحل التسفير، وخرج الباقون إلى السويس، فركب منهم من ركب، وتفرقوا وجُهل ذهابهم. وفي رمضان على مضي ساعتين من ليلة الخميس خسف القمر ببرج الدلو.

وفيـــات

محمد عبدالله المحالبي

وفيه توفي الفقيه العارف محمد بن عبد الله الهتاري المحالبي، فقيه الشافعية بزبيد، وهو أحَد مشائخ المولى الحسين بن القاسم، واستجاز منه بمحروس الحِمَى خلال فتح زبيـــد، أخذ عنه شمائل الترمذي وغيرها.

محمد بن صلاح شرف الدين

وفي (٢٩ صفر سنة ١٠٥٣هـ) توفي بكوكبان السيد محمد بن صلاح بن الهادي بن الحسين بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين بعد أن عاد من الحج.

محمد بن هادي بن محمد أبو الرجال

وفي شهر (ربيع سنة ١٠٥٣هـ) توفي بصعدة القاضي العلامة محمد بن هادي بن محمد بن علي بن محمد بن سليمان أبو الرجال، وكان عالماً مُدرِّساً بجامع الهادي، وكان له في الزهد غاية لا تدرك.

وقال في الطبقات: إن مولده بمحلٍ بمرهبة (سنة ١٠١٦هـ)، وإنه وصل الإمام القاسم إلى البيت الذي ولد فيه، فأُدخل عليه فبرَّك فيه ودعا له، فنشأ النشأةَ الطيبةَ، وقرأ على السيد العلامة أحمد بن الهادي الديلمي وغيره، وكان تقياً فاضلاً رؤوفاً بالضعفاء، له أخلاق نبوية.

الحسين بن علي جحاف

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٥٣هـ) توفي بجبل عَمرو من بلاد حجة السيد العلامة الحسين بن علي بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد بن يحيى بن القاسم بن عليَّان جحاف. وكان عالماً فصيحاً متكلماً ورعاً.

وفي طبقات الزيدية: إن وفاته (سنة ١٠٥٨هـ) ببلده حبور، وعليه مشهد مزور، وأنه كان من فضلاء العترة عالماً كاملاً مرجوعاً إليه في علوم العربية والفقه، والأصولين، وكان بليغاً زاهداً يعمل في ماله بنفسه، وولاه الإمام المؤيد بن القاسم بلاد حجة، وكان يستدعيه للمراجعة في المهمات.

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٥٣هـ) توفي السيد صلاح بن عبد الخالق بن يحيى بن الهادي جحاف بحبور، وفي طبق الحلوى أُرِّخ وفاته (سنة ١٠٥٥هـ)، والأصح الأول.

حوادث سنة ١٠٥٤هـ

في (١٢ محرم سنة ١٠٥٤هـ)، كان تحويل سنة العالم، فكان زحل في برج الحمل بآخره والمشتري بأول الجوزاء، والمريخ بأول درجة من الأسد، والجوزة ببرج الأسد.

وفيها ساخ جبل بالأهجر وتد عثر من أعلاه بعض الحجارة والطين، وكبس بعض ما يليه من الجرب والبساتين.

وفي ذيل روح الروح: إنه في يوم (الخميس ٢٠ رجب سنة ١٠٥٤هـ) رجفت بقدرة الله جبال وصخرات في العشَّة من أعمال بلاد الأهجر، وسارت تدك ما تحتها من الأحجار، حتى وصلت إلى فوق الطريق، ووقفت، وكان ذلك والشمس مسفرة، ولا مطر، وكان هبوطها كالجبال التي تهبط من خشية الله أو التي تصيبها الصواعق، فتنزلها من الشواهق، وكانت تسير سيراً، وشاهدها حال سيرها جماعة من الثقات، وممن نظرها بعد وقوفها السيد العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضَّل والسيد الناصر بن عبد الرب، وصنوه السيد المطهر بن عبد الرب والقاضي العلامة الحسن بن أحمد الحيمي، فسبحان القادر المتصرف في مخلوقاته.

وفيها كتب الإمام المؤيد إلى الشريف المحسن بن الحسين أمير مكة يطلب منه الانتماءَ إليه، ويرغبه في الإقبال عليه، وأن يضرب برسمه السِّكَّة، ويخطب له بمنبر مكة، وضمن ذلك رسالةً مشحونةً بدلائل محبة البيت النبوي والجناب المصطفوي، وحسَّن الإنتماءَ إلى الأئمة، وما لهم من المزية على سلاطين الأمَّة. فأجاب الشريف بالامتثال، وأنه يبادر بالإرسال، فركب رسوله البحر في غير موسم الحج، حتى انتهى إلى جدة، وهناك بلغه أن مرسله بلغ من الحياة حده، وتأهب للمعاد ورحل بما معه من الزاد، فعاد من حيث وصل، واتَّصل به من الاكتئاب ما اتصل.

والذي عرف من أحوال الأشراف أن ذلك الجواب إنما هو تأدُّب لا اعتراف، واستخراج لدُر الفوائد من الأصداف، واجتناءٌ لثمر العوائد من أغصانها بلطف الاقتطاف، وإلاّ فإنه قد كان سبق من الإمام إلى أهل مكة رسالةٌ يحثهم فيها على تسليم الزكاة المفروضة إلى من يرسله إليهم، فما كان جوابهم عن ذلك القيل، بغير قول إبراهيم

الخليل: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧] ثم استمدوا من الإمام، صنوفَ التفضُّلِ والإنعام، وأنهم منتظرون لرفده، ناظرون في المعروف جهة قصده:

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيَّده الضرغامُ فيمن تصيدا

وكان الشريف المحسن قد وعد الإمام بذلك المرام، لكنه بسبب ما وقع بينه وبين الأشراف، آل الأمر إلى خروجه عن مكة بعد طول نزاع وخلاف، فارتحل الشريف محسن إلى اليمن، واستولى أحمد بن عبد المطلب عليها بالسيف.

حكى بعضُ من لازم الشريف سعد مدة من السنين: أن الشريف أحمد بن عبد المطلب ـــ المسمى بأبي حمارة ـــ كان ممن لا يؤبه له في الأشراف، ولا يُظن أن الدهر يميل إليه بانعطاف، خلا أنه كان مقداماً متلافاً، وكان العامة وأهل الجذب بمكة لا يزالون يعدونه بإمارتها، وطال هذا الكلام، حتى خرج مخرج الهزؤ الخارج عن الاحتشام.

فكان يقول له القائل: أيها الشريف، متى وليت المقام المنيف، فاجعل لي من العهدة كذا، وافعل لي من التأديب كذا، وكلٌّ يطلب على ما يبدو له في الحال، وهو يعدهم بإنجاح تلك الآمال.

ثم إنه اتفق منه غرة من الشريف محسن في بعض الحضرات، وانفلت إليه على حين غفلة من الحُجَّاب والآغوات، فشكا إليه ما صار يعانيه من شدائد الحاجة، وبسط ذيولَ القول وأطال في اللجاجة، فزجره الشريف، وأطال له التعنيف، وذكره بسيرته غير المرضية، وبتَّ له في الحرمان القضية. فخرج من حضرته لا يلوي على غير الخروج من البيت العتيق، واللحوق باليمن أو أي مكان سحيق، ملتهبَ الأنفاس، مخاطباً لنفسه بقول أبي فراس:

ومن كان غيرُ السيف كافلَ رزقه فللذل منه لا محالة جانب

ثم توجه إلى جدة بخاطر مكلوم، وقلب مسموم، وكان بها يومئذٍ قائد من الأتراك للشريف بعض القوَّاد العبيد، فحاول الولوج عليه، والوصول لديه، ثم رجع بصفقة

حين، وخُفّي حُنين.

واتفق أن الباشا الموجَّه إلى بعض بلاد السلطان وصل إلى جدة ولقي مصرعه، ونزل مضجعه، فاتصل الشريف أحمد بن عبد المطلب بأعيان الباشا كالآغا والبير قدار والخازن والدفتر دار وعرَّفهم نسبَه، ومجادته وحسبَه. وشكا من الشريف محسن ما أصدره إليـــه، واستنجدهم في النصرة عليه، وبذل لهم العهدَ الأكيد في عدم الاستبداد بالفائدة، وأن يده وأيديهم بعد الظفر واحدة، فأجابوا عليه بالتلبية والإسعاد، وأنشدوه قول بعض الشعراء الأمجاد:-

لا تحسبن ذهــاب نفســك موتَهــا ... مــا المــوت إلاّ أن تعــيش مــذَلّلا
فارق تَرُقْ كالسيف سُــلَّ فبــات في ... متنيه مــا أخفَــى القــرابُ وأخمــلاً

ثم أنهم واعدوه على وقت في الليل يدخل فيه على القائد، ويكون فيه علــى أُهبــةٍ المراصد، فدخل إليه ذلك الوقت وقد ألوت جماعة من أصحاب الباشا بــداره آخــذين أسلحتهم، فلما وصل إلى القائد، ووقعت عينه عليه، طلب منه خلوة ليذكر فيها بعــض حاجاته، فصرف القائد من لديه وأقبل في الخطاب عليه، فقام بنفسه إلى الباب وأغلقــه ورجع إلى القائد بوجه طلق، ولم يكن بينهما فرق، ثم قرب منه ليوهمه الخطاب، ويمت إليه من الشكوى بأسباب، ثم أخذ سيف القائد من وتده، وأطار به عنقه عن جســـده، وفتح إحدى طاقات المكان، ورمَى برأسه إلى الأعوان وأمرهم بالدخول علــى ســبيل البدار، والفتك بمن وجدوه في صحن الدار، فدخلوا إليه مبادرين، وفتكوا بمن وجدوه في الدار في الحين، وألقوا مقاليد الأمر إليه، ونادوه باسم الملك وبرَّكوا عليه، ثم بــادر إلى مخازن الدار، ففك أقفالَها، وأخرج أموالها، وفيها ذخــائر القائــد وخزنتــه، ونــادَى بالشمعدان، وأمرَ بإحضار التعبئة والفرسان، ومد الأنطاع، وصــير إلــيهم الجوامــك الفاخرة، وخلع عليهم الخِلَعَ الغامرة، كل ذلك من خزانة القائد، ورِزْقُ الساعي للقاعد، وأما أصحاب الباشا فهم خلاصته الأقدمون وأهل بيعته الأولون، ثم أنفذ في أثناء الليــل رُسُلاً خفافاً إلى أعيان الأشراف بمكة، وحرك نفوسهم على الشريف المحســن، وأودع الرسل إليهم جملةً مما خفَّ من المال الذي يميل بقلوب الرجال، ورغبهم في الدخول تحت

سنجقه الخافق، ورَهَّبهم إن لم يقطعوا عن المحسن العلائق، ثم أنه بعد ذلـــك توجـــه في أقرب حال إلى مكة المشرفة في زي عجيب، وجيش مهيب، فلما شارف دورها وقارب معمورها، خرج إلى حربه جماعة من الأشراف بنيةٍ فاسدة، وقلوب مائدة.

وخيل ما يخـر لهـا طعـين كأن قنـا فوارسـها ثمـامُ

وانجلى الأمر عن ارتحال الشريف المحسن وولده زيد إلى اليمن، واستقر أحمـد عبـد المطلب بمكة وقَطَن.

ولما وصلاَ إلى الإمام لم يترك ما يتوجب لهما من الإجـلال والإعظـام، وتقلبـت الأحوال من حال إلى حال، ومات الشريف محسن بصنعاء ودُفن بقبة الإسكندر المعروفة بباب السبحة بمسجد محسن (وقد صارت بعد الثورة دكاكين ونقلت العظام إلى المقبرة العامة).

وأما أحمد بن عبد المطلب، فإنه اقتعد كرسي المملكة الحجازية، ونبذ جلال السلطان خلف ظهره، كما تُوضَع الجلالية، وأقبل على تفقد أحوال مكة وأعطَـى كـلاً مـن السائلين مقترحَه على قدر أسئلتهم، حتى إن بعضهم اقترح عليه القتـل علـى هيئـة مخصوصة، فقتله كذلك، وبعضهم اقترح خدمةً مخصوصةً، فمكّنه منها تمكين المالك، وما زال نافذ الكلمة بمكة، وما إليها من البلدان، حِصّةً من الأعوام والأزمان، والسلطانُ ترد عليه أخبارُه، ولا تخفى عليه آثارُه، حتى حان الافتضاح، وهبطت أوامرُ القضاءِ المتـاح، بوفود سنجق السلطنة إلى مكة والفتك به، فنادى السلطان بالباشا قاسم، فلما مثل بين يديه ذكر له أحوال الشريف، وما تواتر عنه من الإلحاد في الحرم المنيف، ثم شدَّ عليه بنداً بيده، وقال له: عزمت عليك ألاَّ تحل هذا البند حتى توثق أحمد بـن عبـد المطلـب في الحديد، وتأتيني به بعد أن تُقرِّرَ ولاية الشريف زيد بن المحسن على ولاية بيت الله الحرام، وتوافيني بهذا الطاغية في أسوأ حال، فانطلق الباشا قاسم بهمة عالية، فاستوثق من أطراف الحَرَم، وضيق عليه حتى تركه في دائرة الميم، فانسلخ عنه كل صديق وحميم، ثم وضعه في السلسلة، واستملَى من أهل مكة أحاديث خلاعاته المتسلسلة، وصادف يومئذٍ دخـول الشريف زيد بن المحسن إلى مكة عقيب موت والده بصنعاء، فنصبه الباشا في دست أبيه

المكلوم، وخلع عليه الخلعةَ التي وصل بها من الروم.

ثم انفصل بالشريف أحمد تلقاءَ الأبواب السلطانية، فلما مرَّ به قارعة الطريق تبعه جماعة من أصحابه يريدون استنقاذه، فأشار بعض الحاضرين أنه لا ينقطع أياس أصحابه إلاَّ بعد أن يقطع رأسه، فضرب الباشا عنقه ورجع إلى الأبواب، وقد قضَى الآراب، وحلَّ البند المعقود، وانقلب في الطالع المسعود.

وفي أثناء هذه الأيام نقل بعضُهم عن الإمام أنه أراد رفعَ يد أخيه إسماعيل عن بلاد ضوران وريمة وما إليها، فتغير خاطرُ أخيه، إذ كان العزلُ بلا سبب يقتضيه، والله أعلم بحقيقة الحال.

وفاة الإمام المؤيد

وفي نهار (الخميس ٢٨ رجب سنة ١٠٥٤هـ) توفي الإمام المؤيد بالله محمد بن الإمام القاسم بمحروس حصن شهارة، وعمره (٦٣ سنة وشهران)؛ لأن مولده في (رمضان سنة ٩٩٠هـ) وخلافته (٢٤ سنةً وشهران وكسور)، وقال: من أرَّخ دعوته:

دعا إلى الله إمامُ الهدى ... محمدٌ خير إمام كريم
من شمل الناسَ بإحسانه ... وعمهم بالبر منه العميم
وسار في أمة خير الورى ... بالعدل جازاه الرؤوفُ الرحيم
دعوته قد جاء تاريخُها ... (بدا بتقدير العزيز العليم)

(١٠٢٩هـ)

وقال من أرخ وفاته:

إن المؤيد خير داع للهدى ... بخصائص قد نالها من ربه
خير الأئمة في الذين تقدموا ... أو ما ترى تاريخه (خُتِموا به)

١٠٥٤هـ.

وفي ذيل البسامة:

وقام من بعده[١] من خصه كرماً　　إلهه بعظيم الفضل في الأثر
مؤيد الدين حامي سوحِه بظُبى　　هندية وقنا الخطية السُمُر
كهف الأنام وغوث المسلمين معاً　　سبط الإمام الفتى الصمصامة الذكر
محمد البر من ضاهت محامدُه　　نَور الرياض ونُور الشمس والقمر
أزال بالعزم كل التُّرك عن يمنٍ　　على يدَي صنوه المشهور في السير
أبي محمدِ السامي العُلا حسَنٍ　　من باع في الله نومَ العين بالسَّهر
له الكرامات عند الله خالصة　　ولطف جانبه في السلم والسفر

وبعد وفاته اجتمع أعيان الناس من آل الإمام وغيرهم، فاقتضى رأي وصي الإمام المؤيد القاضي العلامة أحمد بن سعد الدين المسوري أن المهم أن لا يُوارَى الإمام إلا وقد نظروا فيمن يخلفه خشيةً مما يدعو إلى النزاع، وأجمع رأيه مع أكثر الناس أن يعقدوا البيعة لصنوه الإمام أحمد بن الإمام القاسم الموجود بشهارة، ففعلوا وتلقب بالمنصور بالله، ثم واروا الإمام المؤيد.

وكان ذا سيرة حسنة وطريقة مستحسنة، ملاحظاً لتوظيف الناس على قدر مراتبهم، قريب الجناب، شريف الخطاب، لا ينقص له معلوم، ولا ينسخ له مرسوم، كما كان عليه أخواه الحسنان، وكانت الأرزاقُ في وقته هامية، والبركات ببركته نامية، وكان على مذهب جده الهادي يحيى بن الحسين، إلا أنه كان لا يورث ذوي الأرحام، ويأخذ الزكاة من الكثير والقليل، ويجيز صرف زكاة الهاشمي للهاشمي الفقير، وغير ذلك من الاختيارات.

ومن مآثره إصلاح سمسرة القبتين بطريق اليمن بعد أن كان أخربها الحاج أحمد الأسدي في حصاره للترك، وعمر المدرج من وادي أقر إلى شهارة من الجهة الجنوبية وغير ذلك.

ولما ظهرت دعوة الإمام أحمد بن الإمام القاسم وصل إليه من أعيان المولى الحسين بن

(١) المفروض أن يكون مولده سنة ٩٧٤هـ.

الإمام القاسم الفقيه الرئيس يحيى بن أحمد البرطي، وأفهمه أن عمودَ الخلافة الملوكُ، وأنه لا ينتظم حال بغير المال، وعمارة قلوب الرجال، وأن الرأي إقطاع أولاد إخوته نفيس البلاد، وإطلاق أيديهم في الإصدار والإيراد، وأن بهذا تنتصب رايته وتستقر غايته وتستحكم يدُه، ويشتد عضدُه، ثم بعد أن يستحكم له الأمر ينظر في تحرير الولايات بالمد والقبض، فقال له: جوابي عليك جواب الإمام القاسم لمحمد باشا حين وقع الخوض في إطلاق الحسن على إرجاع بعض ما افتتحه الإمام من البلاد، وهو (أنه لا يسعني عند الله ذلك)، فعاد البرطي من حيث جاء وعلم أن قيام هذا الأمر الصعيب بغير هذا السيد النجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه النبذة التي اختصرتها من رسالة الكاتبة حياة محمد الحمد البسام السعودية (الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن).

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم قد اطلعت على رسالة الكاتبة القديرة حياة محمد البسام السعودية، فرجحت النقل منها لعظم فائدتها وهي: (الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن).

معلومات عن المؤلفة

مولدها بمكة المكرمة في (٢٤/٥/١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٤م).

درست الابتدائية والمتوسطة والثانوية في مدارس الزهراء الأهلية بمكة المكرمة، ثم التحقت بجامعة الملك عبد العزيز شطر مكة (سنة ١٣٩٤هـ) بكلية الشريعة قسم التاريخ الإسلامي، نالت درجة البكالوريوس في التاريخ الإسلامي (سنة ١٣٩٧هـ) بتقدير جيد. سافرَتْ إلى الولايات المتحدة لمدة عام، ثم عادت وعُينت مُعيدة في نفس القسم، والتحقت بالدراسات العليا التاريخية سنة (١٤٠٠هـ). نالت درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث (سنة ١٤٠٥هـ) بتقدير ممتاز على أطروحتها (الإمام المؤيد محمد بن القاسم في اليمن من (سنة ٩٩٠م) إلى (سنة ١٠٥٤هـ) من جامعة أم

القرى بمكة المكرمة.

تعمل حالياً محاضِرةً في نفس القسم وتشغل منصب/ وكيلة العميد لشئون الإسكان والتغذية.

سجَّلت لرسالة الدكتوراة في نفس المجال.

وأختصر الآن من رسالتها، قالت - أسعدها الله في الدارين-: كان اختياري لهذا الموضوع مصادفةً أشار عليَّ مشرفي سعادة الدكتور عبد الله الحبيد بأن يكون موضوع الأطروحة عن الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم. ففي البداية ترددت في أن أعمل في هذا الموضوع؛ لأني لا أعرف شيئاً عن هذه الشخصية، ولندرة المصادر وانحصارها في المخطوطات المتفرقة في المكاتب، لكني بعد أن قرأت عنه نبذة مختصرة لعبد الله الحِبْشي في كتابه: (حكام اليمن المؤلفون المجتهدون)، وعرفت ما لهذه الشخصية من أهمية تاريخية، وعرفت عن أستاذي الدكتور عبد الله الحبيد أن المؤلِّف الوحيد الذي أفرد له بحثاً هو المطهر الجرموزي في مؤلَّفه المخطوط (الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية).

أما المؤلفون المعاصرون فيجملونه في كلمات قليلة نحو الورقة، وأن مثل هذه الشخصية يجب إفراد دراسة خاصة لها. فهو الذي وحَّد اليمن تحت لوائه، فقد بدأ والده الإمام القاسم هذا العمل، ومات ولم يكمله، فأخذ الرسالة من بعده ابنه الإمام المؤيد، فوحد اليمن تحت حكومة واحدة مستقلة في (سنة ١٠٤٦هـ).

وعمل الكثير من أجل البناء والتعمير والجانب الحضاري، وقد حرصت أن يكون بحثي شاملاً لكل جانب من جوانب حكم الإمام بمعلومات موثَّقة، والتزمت أسلوب النقد العلمي وتحليل بعض المعلومات والاستنتاج المبني على النصوص المعتمدة. وتحتوي هذه الرسالة على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة (هذا الذي سبق هو خلاصة المقدمة).

والتمهيد هو في دراسة جغرافية اليمن، وتاريخه القديم، ثم قالت: وقد انتشر المذهب الزيدي في اليمن على يد الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم. ولد (سنة ٢٤٥هـ)، بالمدينة المنورة وتربَّى تربية علمية، وكان عالماً متحدثاً متفقهاً، عاش في مدينة الرس، وقد خُطِب له بالإمامة في مكة المكرمة، ودعاه أهل اليمن عند

معرفتهم بعلمه؛ فأجابهم وذهب إلى صعدة ونجران في (سنة ٢٨٠هـ) ثم دخل صنعاء بمساعدة عاملها أبي العتاهية، فتمردوا عليه بعد أن حرَّم عليهم بعض العادات التي كانت منتشرة من عادات الجاهلية، وعند ازدياد تمردهم عاد إلى الحجاز، فندموا على تمردهم، وتفرَّق شملهم، فدعوه، فعاد في (سنة ٢٨٤هـ)، فاختاروه إماماً عليهم لصفاته الحميدة، وخُطب له على المنابر، وأرسل الولاة إلى المخاليف، ونشر الأمن، وتوفي (سنة ٢٩٨هـ) ودفن بصعدة، واشترط للإمامة أربعة شروط:

١ ـ الحكم بكتاب الله وسنة نبيه.

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ أن يؤثر أتباعه على نفسه، وأن يقدمهم عند العطا قبله.

٤ ـ أن يتقدمهم عند لقاء عدوه وعدوهم.

وقبل دخولنا في الموضوع الأساسي لهذا البحث نتطرق لنبذة عن مؤسس الدولة القاسمية الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي. ولد (سنة ٩٦٧هـ) بالشاهل من بلاد الشرف، وكان شخصية فريدة، تلقى علومه على أعاظم علماء اليمن. وكان سريع الفهم، وتعلم فنون القتال على والده الذي كان في عسكر المطهر بن شرف الدين، دعوته في (سنة ١٠٠٦هـ) في جبل قارة، فتجمع حوله نحو أربعمائة فرد، فأعدَّ الحاكم التركي الباشا حسن العدة لمواجهته، فدارت معركة كان النصر فيها للإمام القاسم، فأرسل الباشا جيشاً بقيادة عبد الله بن المعافى وأردفه الباشا بفرقة أخرى بقيادة عامل وشحة، فوجد الإمام نفسه محاصراً بقوة تفوقه عدداً وعدة، فأمر أصحابه بالكف عن القتال وبالاجتماع في مكان محدد، فباغتتهم القوات العثمانية، فوقعت معركة قتل فيها كثير من أصحاب الإمام، ونجا بعدد من جنده.

وقبل أن تنتهي السنة الأولى من ثورته استطاع أن يفتتح العديد من البلاد كالحيمة، وشاطب، وحصن السودة، وغيرها.

لكن الباشا استنجد بالدولة العثمانية، فأرسلت المساعدات من جند وعتاد، فحاصر الإمام بحصن شهارة، ففر منه إلى جبل برط، وأُسِر ابنه محمد وغالبية أهله وسُجنوا بحصن

كوكبان.

ثم طاردت الحكومة العثمانية الإمام القاسم لعله يسلم لها، لكنّه صمّم على الحرب. فدارت معارك كثيرة منها في عرة الأشمور، انتهت بأسر الأمير الحسن بن الإمام القاسم الذي بقي في السجن تسع سنين هرب منه في أيام أخيه المؤيد محمد.

ثم عُقدت بين الإمام القاسم والأتراك معاهدات اعترف الأتراك بسلطة الإمام على ما تحت يده من مناطق آخرها التي عقدت في ولاية محمد باشا (سنة ١٠٢٨هـ) لعشر سنوات. فانتقل القاسم إلى جوار ربه (سنة ١٠٢٩هـ) وتولى بعده ابنه المؤيد محمد الذي أكمل توحيد اليمن.

من الفصل الأول

الإمام المؤيد نشأته وولايته

ولد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد، ينتهي نسبه إلى الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لليلتين خلتا من شعبان (سنة ٩٩٠هـ الموافق ١٥٨٢م) في جبل سيران.

نشأ في بيت علم وفقه تحت إشراف والده ونخبة من علماء اليمن.

وكان كثير الإطلاع والقراءة في أغلب العلوم، قليل اللعب، فبرع في عدة علوم، وتوسعت مداركه وتمكن من الإفتاء والتدريس شاباً، واشتغل بالقضاء في عهد والده، وكان يجيب على أصعب المسائل، وكان سريع البديهة، ذا فطنة ونباهة.

شرَح الأساس لوالده بطريقة أعجبت الكثير من معاصريه، وألّف الكثير من الكتب التي تعتبر ثروة علمية زادت على المئات، من أشهرها (المسائل والرسائل) و(تزكية الأخلاق)، وكتاب (جواب سؤالات) وغيرها كثير.

وقد اتصف الإمام بجانب العلم بصفات قل أن تجتمع في شخص واحد، منها: زهده وورعه، كان زاهداً في كل مباهج الدنيا، يعتبرها متاعاً زائلاً، كان يقضي وقته في القراءة والصلاة وإدارة أمور البلاد. وكان تصله الأموال من النذور والعطايا فلا يأخذ منها إلا

القليل لضروريات الحياة، ويدفع الكثير لبيت المال. كما كان زاهداً أيضاً في مأكله ومشربه، وملبسه، ولم يرتد الملابس الفاخرة التي يرتديها أبناء زمانه، بل كان لبسه قميصاً ضيق الكم وعمامة واحدة قطن، وكان العامة يلبسون أفخر منه.

وكان شجاعاً ثابت القلب لا يخاف لومة لائم ما دام على الحق، وهو متميز بقامته الفارعة ومناكبه العريضة، يخشاه في الحرب كل فارس، ولكنه في مجالس العلم والحديث يَفيض طيبةً ورقّةً.

وكان لا يفرق بين طائفة وأخرى، فإذا جالس الزيدية والشافعية أو الحنفية أو غيرهم يعتبرونه منهم.

ولم تقتصر هذه المعاملة على العلماء، بل تعدت إلى المؤلَّفة قلوبهم، فإنه يبدد وحشتهم أُنساً وعطاءً، ويكون لهم نعم الأخ والصديق، وأقرب مثال ما صنعه مع الأمير صفر التركي من حسن الضيافة والإكرام بعد أسره، ومن حسن خلقه تفقده أهل الحاجات، وتقديمه لهم العون من مأكل ومشرب وكسوة، فقد كان واسع الصدر لا يضيق بهم، يلاحظ الصغير والكبير والغني والفقير والأرملة حتى إن من يراه يحسبه واحداً منهم.

إن أي إنسان تجتمع فيه هذه الصفات، يحظى بحب وتقدير الجميع، لذلك نرى أنه حينما وافى الأجل المحتوم الإمام القاسم (سنة ١٠٢٩هـ، سنة ١٦١٩م)، اجتمع السادة والأعيان والعلماء على اختيار خليفة لتسيير أمور البلاد، وكانت جميع الشروط في ولده محمد، أجمع الحاضرون على اختياره إماماً وتلقيبه بالمؤيد، وكان قد أوكل إليهم اختيار خليفة آخَر، إماماً للبلاد، وأكد لهم أنه سيكون أول المبايعين لمن اختاروه وتسليم ما لديه من أموال بيت المال، ولكن الجميع بسطوا أيديهم له مبايعين له بالإمامة، وأكدوا له اجتماع رأيهم في اختيارهم له لهذا المنصب، وأفهموه أنه ليس من حقه عدم القبول، فبايعوه، ثم أقبل أفراد الشعب لمبايعته.

وكان أول عمل قام به كتابته للباشا محمد الوالي العثماني بصنعاء يخبره بوفاة والده، وأكد له أنه باق على الصلح الذي عقده والده (سنة ١٠٢٨هـ) وأهدى للباشا نسخة من الكشاف، فأجابه الباشا برسالة كلها تواضع، وأبدى سروره في دوام الصلح منه:-
((الحمد لله الذي جعلكم القائمين من بعده، والشادين بشده لما اختاره من الخير وقيامكم

بالأمر بعد استخارة الله سبحانه وموطأة من العلماء الأخيار والقضاة الأطهار، وإنكم لما وقع من الاختيار أهل ومحل، تولى الله عونكم ورزقكم الصبر، وكتب لكم على فراق والدكم الأجر.

وإنَّا لكم كما أنتم لنا، وما هو موجود عندكم هو كذلك عندنا، والألفةُ الصافية الخالصةُ الوافيةُ كما هي، ما يغير تلك القواعد مغير، ولا يكورها مُكوِّر، ونحن لكم في أمر الخير مساعدون، وطرق مرضاة الله معاضدون، الله يختار لنا ولكم الخير، ويأخذ بنواصينا ويرشدنا، حسبي الله وكفَى تاريخ (١٧ ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ) محروسة صنعاء)).

وبعد قبول الباشا بقاء الصلح أخذ الإمام المؤيد في توطيد حكمه ونشر الأمن في البلاد وأرسل إليها الولاة.

وفي (سنة ١٠٣١هـ) عُزِل الباشا محمد من اليمن وتعيَّن الباشا أحمد فضلي. وبعد وصوله إلى صنعاء أرسل إلى الإمام المؤيد خطاباً بموافقته على استمرار الصلح.

وكان الأمير الحسن بن القاسم قد فر من سجن الأتراك بعد أن أسروه من عرة الأشمور، حيث كان معه قليل من الجند، وحاصره الأمير حيدر بجنود كثيرة، وخاف الحسن على أهل العرَّة، فسلَّم نفسه وطلب الأمان له ولأتباعه، فسُجن بقصر صنعاء مكبلاً بالقيود إلى أن تولى الباشا محمد، وكان طيباً حليماً، فأزال القيود عن الحسن وعامله معاملة حسنة، وسمح بدخول الأصدقاء عليه وبدراسته على مشائخ من صنعاء، وأهدى له جارية، وملَّكه داراً في بئر العزب يسكن بها مع الجارية في أي وقت يشاء، وقد أنجبت له ابنه أحمد بن الحسن.

وحينما عُزِل الباشا محمد بالباشا أحمد فضلي خاف الحسن أن تتغير المعاملة له من فضلي الفظ الغليظ الشديد القاسي. ففكر الحسن في الخروج من السجن، فاشترى حصاناً قوياً وأظهر أنه سيقدمه هدية للباشا فضلي، وأخرج الكثير من كتبه وأثاثه، وقام بثقب الغرفة التي هو فيها إلى ثانية، ثم إلى ثالثة، وأمر أهله بمغادرة بئر العزب إلى مكان عيَّنه لهم، وأمر أصحابه أن يُعدوا له حصانه تحت سور القصر، ثم تسلل من الفتحات المثقوبة، وهو يسمع غطيط الحرس في نومهم، وأخذ معه حَبْلاً وتسلق به سور قصر

صنعاء من شرقيه ومعه أصحابه. فلم يطلع الصبح إلاَّ وهو في بني عاصم، ثم واصل سيره ومعه أهله وأصحابه إلى أرحب. وقابله قبائل حاشد وبكيل مقابلة حسنة، وفرحوا بخروجه من السجن، واجتمعت لديه أعداد كبيرة من الرجال والسلاح. ثم واصل بسيره إلى شهارة مقر الإمام، وفرح الناس به وقيلت القصائد الكثيرة فمن قصيدة للقاضي زيد بن علي المسوري.

ما العيد أن تُنحر المستسلخات ضحًى ... وإنما العيد يومٌ جاءَنا فيه

قد جاءنا في خميسٍ لو يروم به ... بغداد لبَّته إن نادى مناديه

لولا مواثيق عهد كان أسَّسَها ... أبوه ثم اقتفاه بعدُ قافيه

إمامنا خير أهل الأرض قاطبةً ... من ليس ينقض عهداً وهو موليه

وقد عمت الفرحة أرجاء الأراضي الإمامية على عكس ما حصل في صنعاء. وبعد وصول الباشا فضلي لامَ متولي الحراسة وهو الآغا علي، فضرب عنقه.

وفي هذه الأثناء أخذ الإمام يوطد أركان حكمه، ويقمع الفتن وأهمها كانت في صعدة في (سنة ١٠٣٢هـ)، وسببها اختلاف أهل الشام من خولان وأهل اليمن من الأهنوم، فإنه صادف دخول طعام العيد، فاختلف الفريقان عليه، فخاف الأهنوم من خولان لكثرتهم، فتحصنوا في القصر وتبادلا الرماية. فوقع قتلى من الطرفين، وكادت المدينة أن تكون فريسة للنهب والسلب؛ لولا تدخُّل بعض المشائخ مثل الحاج أحمد بن عواض الأسدي، والحاج أحمد بن علي بن دعيس، والسيد داود بن الهادي، والسيد أحمد بن المهدي، فأصلحوا بين الطرفين ومنعوا تفشي الفتنة، وعقدوا صلحاً بينهما. غير أن الحاج علي بن عبد الله الطير الذي كان قائماً بالأعمال مع الأمير أحمد بن القاسم، كان متهماً من بعض أهل الشام بمناصرته لأهل اليمن، فذهب بعضهم إلى شهارة يشكوهم إلى الإمام، فقابلهم بكل ترحيب، فاعتقدوا أنه عازل أخيه أحمد عن ولاية الشام، فعادوا متمردين على أوامره، فأرسل إلى أخيه الإمام يخبره بتمردهم، وطلب السماح له بالخروج عليهم، لكن الإمام كعادته لا يحب الابتداء بالقتال، فطلب من أخيه التريث، ولكنهم ازدادوا عصياناً وتمرداً، فازدادت الفتن حتى كادت الشام بأسرها أن تخرج من سيطرة الإمام، فأرسل جيشاً نحو الألفين بقيادة أخيه الأمير الحسن، فأتى إليه أهل الشام طائعين،

وكانت خدعة منهم، فأحسن إليهم الحسن وأكرمهم فطمعوا فيه وانقضوا على أطراف القوات الإمامية، فخرج الأمير أحمد من صعدة لنجدة أخيه بجنود، فوصل إلى ساقين.

فاتحدت جنود الإمام وهجمت هجمة واحدة، فتفرق شمل المتمردين تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم نهبة لعسكر الإمام الذين دخلوا البلاد (شعب حي) فهدموا بيوتها وأخذوا ما بها من أموال وأثاث، ولما وصلت إلى الإمام قال في حسرة: والله لقد حاولت معهم ما يقارب التسعة الأشهر، ولكن ذلك لم يزدهم إلا عصياناً، وكان من نتائج هذه المعركة أن أمنت الطرق في البلاد، ثم عاد الأميران أحمد والحسن إلى صعدة.

أما الباشا فضلي فسيّر الأمور على خير ما يرام ويعتبر من أحسن الباشوات الذين تولوا اليمن، فكان كثير العطايا والصدقات، ويكرم ويجل العلماء، وفي عهده عم الخير أرجاء البلاد وكثرت الأرزاق.

ثم عُزل فضلي وتعين الباشا حيدر مكانه الذي تمكن من أسر الحسن سابقاً. فسار فضلي ومات في أبي عريش.

وصل حيدر باشا وكتب إلى الإمام باستمرار الصلح، فوافق الإمام.

وكان حيدر أرعن أحمق متسرعاً، اشتهر بشرب المسكر، فكان مكروهاً من العثمانيين واليمنيين، تسرَّع بقتل الأمير سنان، والي تعز المشهور بأخلاقه العالية، وحبه للخير والإصلاح، أجرى سنان الساقية للماء من صبر إلى تعز بحافة المرباع سبيلاً للعموم، وكانت له عطايا وصدقات فأحبه الجُنْد، فخاف حيدر ميلهم إليه، فقتله وردد الناس قولهم خرج اليمن من تحت العثمانيين بعد قتله، ثم قام حيدر بمصادرة أموال الباشا فضلي.

وبعد أن قضى الإمام على الفتنة في الشام أرسل إلى أخيه الحسن رسالةً بتولي الشام حثه فيها على أعمال الخير، وما يجب أن تسير عليه سياسة البلاد برعاية الرعية، وتكريم العلماء والفقهاء، وأن يكون عوناً لهم، وأن يجالس العلماء والأدباء وأهل المذاهب والمساواة بينهم، وأن يرعى الجند وأن ينصر المظلوم. والرسالة تدل على ثقافة الإمام في العلوم الدينية والدنيوية.

مكث الحسن بصعدة يُسيِّر الأمور بحكمة ودراية يخصص وقتاً للقراءة ومدارسة

العُلماء والأدباء، ووقتاً لتنظيم أعمال الدولة والنظر في حوائج الرعية ومقابلة الوفـود، ووقتاً لأعمال الجنود وأرزاقهم والشدة على أهل الفساد.

وفي (سنة ١٠٣٤هـ) أمره الإمام بخروجه إلى بلاد (العمالسة) الـذين كـانوا لا يُحلون الحلال ولا يحرمون الحرام ولا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين لا صـلاة ولا صيام ولا زكاة، وإذا طلقت المرأة من زوجها فتتزوج من ليلتها بغيره بدون عدة. فغزاهم الحسن وأدبهم وأخذ عليهم عهداً بدخول العلماء ورجال الدين بلادهم؛ لنشـر تعـاليم الإسلام وأخذ عليهم رهائن في ذلك، ثم عاد صعدة مدة يسيرة.

ثم أعد عدته إلى بلاد فَيْفَا، وكانت غارقة في الجهالات، منها أنهم إذا أكرموا الضيف قدموا له إحدى نسائهم للفراش. فخرج عليهم بجيشه حتى وصل إلى بوصان من بـلاد جماعة، ثم إلى ينمم - جَبَل عال مشرف على بلاد فيفا- فأخضعهم وأعادهم إلى حضيرة الإسلام، وأخذ منهم الرهائن لضمان صلاحهم وعاملهم بإحسان. ثم أرسل إلى محـاط عدداً من أصحابه تحت لواء السيد شمسان والسيد عز الدين محمد بن أحمد، وجعل فرقة أخرى بالقرب منهم لنجدتهم، فتمكنوا من دخول المدينة وتأمينها وتأمين الطرق.

وفي أعلى جبال فيفا عَسْكَرَ جُنْدُ الإمام واستولوا على حصنها المسمى (العبيسية) ثم غدر أهل البلاد بمقدمة الجند وقتلوا منهم ثم فروا برهائنهم، ثم عاد الحسن إلى صعدة.

وفي (سنة ١٠٣٦هـ) تكاثرت الشكاوى من الرعية من سوء معاملة الباشا حيدر، وكان الإمام يرسل الفقيه العالم حسن العلماني إلى صنعاء لجمع الزكاة من أهلها، وكان محل التكريم والتقدير من الباشا فقتل بصنعاء. قيل: إن الباشا قتله، وهو في حالة سـكر، وقيل: قتله حرس الباشا، وقيل: قتله أعداء الباشا لإثارة العداء بينه وبين الإمام.

فأرسل الإمام إلى الباشا حيدر خطاباً يطلب فيه تنفيذ حكم الشرع في قاتل الفقيـه العلماني، فأهمل الباشا الطلب وماطل، فأعد الإمام جيوشه بقيادة إخوانه الحسَن والحسين وأحمد وإسماعيل لمحاربة الأتراك فاستولوا على ريمة، وعتمة، ووصاب، وحفاش، وملحان، وبلاد خولان، واتجهوا إلى كوكبان، وثلا، وإب.

واستولوا على منطقة صعدة بأكملها، ثم انتقلوا لمحاصرة مدينة صنعاء.

والآن ننقل من الفصل الثاني

في الثامن من شهر (صفر سنة ١٠٣٦هـ) تقدم الأمير الحسن من صعدة عن طريق الجوف إلى بلاد نهم بعد أن استخلف ابنه محمداً على صعدة. وكان الحسن على رأس جيش نحو (ثلاثة آلاف) من خولان الشام، وسحار، وبني جماعة، وآخرين، ومائة فارس من أشراف الجوف الحمزات منهم الشريف ياسين بن الحسن الذي كان والياً على نجران.

وعند وصول الحسن إلى نهم أتاه عاملها الأمير الهادي بن طاهر الشويع معلناً دخوله في طاعة الإمام. ثم سار الحسن إلى جبل اللوز وفتح قلعته وغيرها من البلاد، ثم حاصر الأمير سنبل وجنوده في قلعة الذراع وقطع المؤن والزاد عنهم حتى تسلم قلعة الذراع، وفر الأمير سنبل إلى ذمار.

وفي هذا الوقت أجمعت جميع قبائل خولان والحدا على الدخول في طاعة الإمام، فأرسل الباشا حيدر قوات تركية لتأديبهم، فسارع الحسن لنجدتهم ومناصرتهم، وساعده في هذه المهمة الأمير الهادي بن المطهر، فأعلنوا الولاء للإمام.

وبعد أن أمنت السبل سار الحسن إلى نهم بقرية الحديد وولى على نهم الأمير الهادي بن المطهر. فاتجهت إلى الحسن القبائل من خولان، ونهم، وبنو سحام، والوطا، وبنو حشيش، وجميع الجهات حول صنعاء، ودخلت في طاعته.

واستلم جبل هيلان بعد هروب الأمير الحسين بن ناصر منه، فعم الخير والأمن في تلك الجهات.

وقد كتب الله النصر للحسن، فهزم القوات التركية وغنم جيشه مغانم كثيرة من عدة وعتاد، ثم سارت القوات الزاحفة إلى باقي المناطق حتى وصلت إلى حضور، فاستقر الحسن في مَسَيّب فطلب أخاه الحُسين الذي كان في مصيبح فالتقيا في مسيب أربعة أيام اتفقا على خطة للقتال.

وكان الأمير أحمد بن القاسم قد توجه بجيشه وفتح جبهة ثالثة للقتال من بلاد خمر، فتقدم إلى بلاد الظاهر حيث أتاه أهلها طائعين، ومن هنا تقدم زاحفاً إلى جبل عيال يزيد فضرب الحصار حول عمران. وعندما سمع أهل السودة بقدومه قدموا إلى حضرته

طائعين، ثم توالت القبائل للدخول تحت طاعته، كما توالت انتصاراته في تلك المناطق.

ومن أصحاب النفوذ والقوة في هذه المنطقة: صاحب كحلان تاج الدين، الذي أتى إلى أحمد بن القاسم مُسَلِّماً للسلطة المركزية تحت قيادة الإمام فقابله الأمير أحمد بالإحسان وعيّنه والياً على كحلان وعفّار.

لم يقتصر الإمام المؤيد في محاربة العثمانيين على قيادة إخوانه، فقد عيّن قادة آخرين، فأرسل جيشاً بقيادة علي بن عبد الله العُبالي، والفقيه يحيى بن صالح الثلائي، والفقيه عبد الرحمن بن المنتصر الغشمي، للمحاربة في بلاد حجة، ولاعة، والسَّود.

ودارت بين الطرفين معارك كان النصر فيها حليفاً لقوات الإمام، فانهزمت القوات العثمانية من كوكبان وغيره، وتجمَّعت إلى منطقة عُولي، حيث حاصرتهم قوات الإمام عدة أيام، فاضطروا للتسليم، وطلب الأمان، فأعطوهم الأمان على أنفسهم، وسمح لهم بالرجوع إلى أميرهم السابق عبد الرب بن شمس الدين الذي كان موجوداً في مُعَسْكر أنْوَد.

ونتيجةً لاستيلاء القوات الإمامية على المناطق، فقد عين الإمام والياً على حجة السيد الحسين بن علي جحاف، وعيَّن على جبل اللّوز وخولان القاضي أحمد بن عامر، والقاضي أحمد بن علي بن أبي الرجال، فاتَّجها إلى هذه المنطقة وهاجما القوات العثمانية، فانتصر جيش الإمام، ودخل القائدان سوق الحضارم، حيث تَلَيَا على الناس رسائل الإمام. وعندما انتهَيا من هذه المهمَّة واصَلاَ سيرهُما إلى الأعماس، فكان النصر لقوات الإمام التي غنمت الكثير من قوات العثمانيين هناك.

واستمر الإمام في إرسال السرايا والكتائب لتزويد القادة المحاربين للعثمانيين، وفوَّض أخاه الحسن في بعث الجيوش تحت قيادة من يرتضيه. فأرسل جيشاً بقيادة الشيخ علي بن الطير إلى منطقة حضور وبني مطر، فدخلت هذه المناطق طوعاً واختياراً تحت حكم الإمام.

كذلك أرسل الحسن جيشاً آخر بقيادة السيِّد مطهر بن ناصر الدين والقاضي محمد بن أحمد السلفي لفتح بلاد آنس، وريْمَة، وبُرَع، وكتيبة أخرى بقيادة القاضي يحيى المخلافي لفتح بلاد الطويلة، فدخلت تلك الجهات في طاعة الإمام.

وأرسل الحسن القاضي أحمد بن علي لقطع الطرق إلى صنعاء وقام الحسن بنفسه

بعمل مماثل لقطع الطريق المؤدي إلى اليمن، فانقطع الاتصال بين قوات الأتراك المحاربة، وبين القيادة في صنعاء، مما جعل القوات التركية في عزلة تامَّة، وشعر الأمير سنبل العثماني بتَردي الوضع، فانسحب إلى ذمار. ثم طلب الحسن أخاه الحسين من كوكبان واجتمعا في ريشان، ثم اتَّجه الحسين في (جمادى الثانية سنة ١٠٣٦هـ) إلى ريمة حُميد، فاصطدم بالحامية التركية، فانتصرت قوات الإمام، واستولوا على ما في المعسكر من أثاث وعتاد وخيام وخيول وذخيرة.

ونتيجة لاجتماع الأخوين فقد قرَّرا فتح أنْوَد، فتظاهر عدد من جنود الحسن بالاختلاف معه والغضب منه، فيحاول الإيقاع بهم، فيفرّون إلى شقيقه الحسين، ثم يسير الحسن في إثرهم لإيهام القضاء عليهم، وهنا يلتقي الجيشان في منطقة معينة دون أن يشعر أحد بذلك، ويحاصرون حصن أنْوَد. ودارت على من فيه الدائرة، فقتل الكثير منهم وأُسِر الأكثر. وقد فر من هذه المعركة الأمير عبد الرب إلى حصن بُكُر ومعه عدد من أصحابه، واستولى الأميران الحسن والحسين على حصن أنْوَد.

فكتب الأمير عبد الرب إلى الإمام خطاباً يُعْلن فيه دخولَه تحت طاعة الإمام، ويطلب الأمانَ له ولمن معه، فأجابه الإمام بالموافقة ولبَّى طلبه في خروجه إلى حصن كوكبان.

ثم طلب العثمانيون الصلحَ فوافق عليه الأميران الحسن والحسين بشروط إعطاء الأمير عبد الرب الأمان وتسليم حصن كوكبان، فتم لهم ذلك.

وبعد انتصارات الإمام سارعت القبائل إلى الدخول تحت طاعة الإمام، فأمنت تلك المناطق بعد ضمها إلى حوزة الإمام.

وبالرغم من انتصارات الإمام وهزائم العثمانيين فقد هاجم الأمير صفر العثماني - حاكم عمران - جند الإمام على حدود ثلاَ، وكانت هذه المنطقة تحت قيادة السيد أحمد المحنكي، فانتصرت قوات الإمام وفرَّ الأمير صفر من المعركة، وتحصَّن في مدينة ثلا، فأسرع الحسين بن القاسم من كوكبان إلى ثلا. كما اتجه أحمد بن القاسم بقواته المتمركزة في الْمَطْلَعَة، وأطبقت القوتان على مدينة ثلا على القوات العثمانية الفارَّة منْ وجه السيد أحمدْ المحَنّكي، فطلب الأمير صفر الأمان والتسليم، فأُعطِي الأمان، ووجهه وأصحابه قائد الإمام إلى شهارة مركز حاضرة الإمام، واصطحبوا معهم سلاحهم

وذخيرتهم واستقر حاكم الإمام في ثلا.

تساقطت البلدان في أيدي قوات الإمام، ولكن بقي أكبر معقل مدينة صنعَاء، وكانت مُحَصَّنَة بقوات كبيرة وعدة وعتاد، فتوجه الأمير الحسين إلى لولوة، فأحسن إلى أهل همدان وأكرمهم، وكان على رأسِهِم الأمير إبراهيم الدَّاعي.

وبقي الحسين في طيبة في انتظار شقيقه الحسن، والأمير عبد الرب، وأهل كوكبان من أجل اتحاد الجيوش ورسم الخطة التي تسير عليها الجنود إلى صنعاء، فاتفقوا على مهاجمتها بعد أن فشلت محاولتهم مع الباشا حيدر بتسليم المدينة، فتمركز أولاد الإمام ومن معهم في حدة بني شهاب، وبقي الفقيه هادي بن عبدالله الحبشي ومن معه في الروضة.

وقد وصلت طلائع عساكر أولاد الإمام إلى بئر العزب، والباقي تمركزوا حول مدينة صنعاء من كل جهة، ثم بادروا بالاستيلاء على حصن نقم وجعلوا فيه فرقة من العسكر؛ لحمايته وزودوه بالسلاح والذخيرة، واتفقوا على رمز بينهم أن الفرقة بنقم إذا رأت جنود الأتراك قاصدين الروضة فترمي الفرقة بالزبارط ثلاث مرات، وإذا كانوا قاصدين حدة فترمى بالزبارط مرتين.

وكانت فرقة من جند الإمام فتحت بلاد سنحان.

وشدد الأميران الحسن والحسين في حصار صنعاء، فعزلوها عن المناطق الأخرى، فأصبح الَّذين بها في ضنك، فاضطر الباشا حيدر إلى طلب الصلح من الإمام بشرط أن يخرج من صنعاء إلى اليمن الأسفل، لكن الحسن علم بهذا الطلب، فمنع وصوله إلى الإمام، وزاد من تشديد حصاره على صنعاء.

وعندما علم حيدر باشا ما حدث وعرف أنَّها الحرب لا محالة أخذ يقوي روح العزيمة لدى جنده، ووزع عليهم الأموال والملابس الفاخرة لكسب رضاهم وزودهم بالسلاح والذخيرة، ثم أمرهم بالخروج إلى خارج المدينة ووعدهم بالإمدادات القادمة من مصر، وكان على رأس الخارجين، وقد تحلى بأبهى الحُلَل وتوشح هو وجنده بالسلاح. لكن جند الإمام بادروهم بالحرب وانهالوا عليهم كالسيل الجارف، فدارت معركة استخدموا فيها شتى فنون القتال، وفي النهاية كان النصر للعثمانيين، وانهزمت جنود

الإمام إلى الحفا، وأسر حيدر باشا عدداً وقتَل عدداً آخر، ثم عادت القوات العثمانية إلى صنعاء.

لم تفت هذه الهزيمة في عضد قوات الإمام، فاستمروا في حصارهم للمدينة. وقد قتل خلال الحصار من قادة الإمام الشيخ علي عبد الله الطير.

وقد أحاط أصحاب الإمام بصنعاء إحاطة السوار بالمعصم، فارتفعت بها الأسعار وضاقت المعيشة، واشتد تعسُّف حيدر باشا، فاستولى على أموال أهلها وعاملهم معاملة قاسية، مما اضطر أكثرهم للخروج منها، فخلت من الأهالي وبقي بها هو وجنده.

وكان الأمير أحمد يحاصر مدينة عمران، فاضطر الكيْخيَا إلى طلب الأمان، ثم التسليم، فأمنهم الأمير أحمد، واستولى على عمران وخزائنها، وأرسل الأسرى إلى الإمام بشهارة، وجعل على عمران حاكماً.

وتقدم بقواته لمساعدة أخويه في فتح صنعاء، ومعه أهل همدان، فاجتمع بأخويه وبقي بالروضة.

كما كانت حركة الجهاد والتوسع كبيرةً في المناطق النائية، فقد قاد كلٌّ من الشريف هاشم بن حازم المكي والسيد التقي بن إبراهيم جيشاً، وتوجها إلى تهامة، حيث دخل في طاعة الإمام الكثير من أهلها، فواصلا سيرهما إلى أن تمكّنا من التمركز قرب مدينة زبيد، وحاولوا تسلّقها بالسلالم، إلاّ أن الأتراك دافعوهم فرجحت كفة الأتراك القوية.

فعادت قوات الإمام للتحصن في بيت الفقيه بن عجيل.

والكثير من أهل تهامة قد والوا الإمام ودخلوا في طاعته، وكان على رأسهم أشراف صبيا وأبي عريش وجازان.

لقد بدأ موقف حيدر باشا صعباً للغاية وأكبر المآسي عليه هروب بعض قادة جيشه، وانضمامهم إلى الإمام، فبعد الأمير عبد الرب قرر الأمير سنبل وهو من أعظمهم الانضمام إلى الإمام، فأرسل إلى الحسن خطاباً يعلن فيه طاعته للإمام، ويطلب الأمان، فقابله الحسن بكل ترحاب، وأعطاه ما شرطه وعينه حاكماً لذمار، وكان ماهراً في فنون الحرب، وعلى علم بخطة القتال التي تسير عليه القوات العثمانية، وعلى علم بمواطن الضعف فيها. فانضمامه إلى الإمام مكسب هام.

وبعد دخول الأمير الحسن بن ناصر بن محمد الحمزي في طاعة الإمام أرسله الحسن بن القاسم على رأس جيش من أهل الحدا لفتح اليمن الأسفل، ومعه السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي بن داود، فتم له ذلك، ولم يبق إلاَّ تعز وصنعاء.

وقد عيَّن الحسن لريمة السيد علي بن إبراهيم جحاف، والسيد محمد بن علي القراع لحفاش وملحان بعد أن قبض على العامل العثماني الآغا عيلان.

وأخذ حيدر باشا يعامل الموجودين بصنعاء بعسف وقسوة خوفاً من خيانتهم، فحبس الأمير كاني شلبي في الدار الحمراء لتهمة إهماله، وعدم إخبار الباشا بتحركات أولاد الإمام في حروبهم. وأساء حيدر إلى وزيره المحرَّقي الذي اتُّهمه بالخيانة، فصادر جميع أمواله وحبسه في داره ومنع عنه الطعام إلى أن اضطر أن يستجدي المارِّين من أمام شبَّاكه، لكن حيدر عندما علم أمر بأن تسمَّر كفاه في الشباك حتى يكون عبرة لغيره.

وما زال الحصار مضروباً على صنعاء حتى طلب حيدر باشا عقد هدنة، فأجابه الإمام إليها وأرسل رسوله إلى مصر لطلب المساعدة.

وبادر المسئولون العثمانيون، فجهزوا جيشاً كبيراً بقيادة القائد (قانصوه باشا)، فكون جيشاً كبيراً من جند مصر والشام.

وفي مدة الهدنة حول صنعاء سار الأمير الحسن ومعه الأمير عبد الرب على رأس جيش كبير إلى اليمن الأسفل، فمر بزراجة وذمار، ثم تقدم لحصار تعز بعد أن فشل الأمير الحسين بن ناصر الجوفي في فتحها؛ لأن القوات العثمانية بها كانت كبيرة بقيادة حاكمها الآغا علي.

وقسم الأمير الحسن جيشه إلى مقدمة جعل عليها الأمير عبد الرب في نحو ألفي رجل، وقاد الحسن باقي الجيوش من جهة الحجرية وعبد الرب من جهة القاعدة وجبل صبر، ونشر المحطات حول تعز، وأتى أهل اليمن الأسفل إلى الحسن مبايعين معلنين الطَّاعة.

وكذلك أمراءُ تابعون للباشا العثماني، وكذلك صاحب أبين عبد القادر بن محمد الجرهمي الذي لم يكتف بإعلان الطاعة للإمام، بل سارع إلى الاستيلاء على لحج وعدن، وأرسل إلى الحسن استعداده بمده بالجنود والمؤن، وأخذ حاكم تعز الآغا علي يَقْسُو على

أهل تعز، فاستولى على أموالهم.

وكان (الباشا أيدين) أرسل من المخا بنقود، كما أرسل حيدر باشا مثلها من صنعاء للمقاتلين الأتراك بتعز، لكنَّ الآغا علي وزعها على عسكره بالمدينة، ولم يجعل لعسكر حصن القاهرة شيئاً، فحقدوا عليه ودبروا الخطة للانتقام منه، فراسلوا المحاصرين لتعز وعقدوا معهم اتفاقية على أن يفتحوا لهم أبواب المدينة ويسهلوا لهم الدخول إليها مقابل إعطائهم الأمان، فوعدهم الحسن بذلك، فتم لقوات الإمام فتح المدينة، ونهب العسكرُ سُوقها، وألقوا القبض على الآغا علي، وأرسلوه إلى شهارة ومعه عدد من الآغوات.

ثم وصل (قانصوه باشا) بجيشه الكبير إلى المخا، وقد انتهت الهدنة بصنعاء بين الإمام وحيدر الذي رأى أنه ليس بمقدوره مواصلة القتال، وزاد الأمر سوءاً تأخر وصول قانصوه وسقوط مدينة تعز، فقرر تسليم صنعاء بشرط الأمان له ولمن معه، وبشرط أن يرافقه عند خروجه أحد أبناء الإمام، وأحد العلماء ليأمن قتله، فوافقه الإمام، وأرسل ابنه علي بن المؤيد، والقاضي عامر الذماري، فأحسن علي بن الإمام المؤيد معاملة الباشا حيدر وأكرمه كعادة آل القاسم وأعدَّ له فرساً سرجها مكسو بالذهب وأعطاه سلاحاً ليدافع عن نفسه ليسير إلى حيث يريد، وعند خروجه ودَّعه عدد كبير من جنوده الذين اختاروا البقاء بصنعاء والانضمام إلى قوات الإمام، وسار معه علي بن الإمام إلى أن وصل المحويت، ثم واصل حيدر سيره إلى زبيد، غير أن حاكمها التركي اتهمه بميله إلى آل القاسم، وأنه يراسلهم، فقبض عليه وأرسله إلى السجن في جزيرة كمران.

ويعتبر تسليم صنعاء انتصاراً عظيماً للقوات الإمامية، وعندما نَمت أنْباء تسليم صنعاء إلى (قانصُوه باشا) زحف بجيشه وقد هال الناس جيشه العظيم الذي يفوق عدده وعدته الوصف، وكعادة الباشوات العثمانيين، فإن هذا القائد (قانصوه) بدلاً من أن يكسب محبة الناس وتعاونهم عمل العكس، فأخذ في تنفير أقرب الناس إليه، وهم جنده وقادته، فاستدعى حاكم المخا (الباشا إيدين)، وأمر بشنقه بدون ذنب، ولم يعرف عن إيدين إلاَّ رجاحة العقل والاتزان والحلم، ولعل صفاته هذه أثارت قانصُوه عليه حين رأى حب الناس له والتفافهم حوله.

ثم زاد الأمر سوءاً حين قتل الفقيه أحمد بن جعفر الصوفي، لما طلب قانصوه منه

الإمداد بالمال والزاد، فاعتذر بأن الناس متفرقون في الجبال بسبب الحروب.

هذا ما كان من معاملة العثمانيين يقابلها معاملة آل القاسم الذين أسـرُوا القلـوبَ لأعدائهم قبل أصدقائهم بحسن المعاملة والترغيب في انضمامهم إليهم وحبِّهم حتى الباشا حيدر الذي كان من ألد أعدائهم، فتحوَّل لما لقيه من حسن معاملتهم التي افتقدها مـن الطرف الآخر.

أما عن الحرب في هذا الوقت الذي كان الباشا قانصوه يعد قواته للهجوم على جنود الإمام، بادره الأمير الحسن بهجوم مباغت، فدخل المخا وقتل عدداً كـبيراً مـن جنـد العثمانيين، مما اضطرهم إلى عقد هدنة بين الطرفين من بنودها:

تسليم عشرة آلاف ريال وخمسة أحمال من الرماح الهندية لقوات الإمام، وإخـراج المساجين العرب الموجودين في البحر.

وقد لاقى الوفد كل إكرام من الأمير الحسن، وخلَع عليهم الخِلَع النفيسة، ثم أرسـل مندوبه السيد المهدي بن الهادي لاستلام المال المشروط في المعاهدة.

ثم أخذ قانصوه يعد العدة لاسترجاع ما ضاع على العثمانيين، فتقدم بجـيش كـبير يرافقه القائد مصطفى باشا و(الكيخيا يوسف) إلى مدينة حيس، فأصدر الإمـام أمـره بالتحرك لملاقاتهم، وكان الأمير الحسين يقود أهل الحدا وجزءاً من جنود أهل الـيمن، والأمير سنبل يقود أهل الشام، أما الأمير الحسن فكانت تحت قيادته بقيـة الجيـوش، فاجتمعت تلك الجيوش في منطقة تسمى الفحيم، ثم لحق بهم الأمير عبد الرب، ومعـه (الفرقة الرابعة)، وحينما علموا أن قانصوه يخطط لاسترجاع مدينة تعز، ضربوا حصاراً على قواته، فتمركز الحسن بتعز والحسين بوصاب، وباقي القوات في أماكن استراتيجية أخرى، فاستدعى قانصوه الكيخيا يوسف الذي كان تحت إمرته عدد كبير من الجنـود لفتح الحرب في نجد المحيرب، فسار إليه وبقي الطرفان متقابلين دون قتال ثلاثة أشهر حتى تسرب الملل للطرفين، فأمر قانصوه جنوده ببدء القتال.

واختار الحسن التمركز في جبل الزواقر ليشرف على حيس وبلاد شرعب.

أخذت قوات الإمام بمناوشة القوات التركية لكشف مواضع الضعف فيها، وأخـيراً اشتبك الطرفان في معركة كان النصر لقوات الإمام، فقُتل العديد من جنود الأتراك.

وحين علم قانصوه بالهزيمة تحرك من زبيد إلى الشيخ عيسى فسدت عليه قوات الإمام جميع الطرق، فتحول إلى منطقة نجد المحيرب بجنده الكبير، ومعه (الكيخيا يوسف) و(الباشا عابدين)، فحملت عليهم قوات الإمام وهزمتهم، وقتلت قائدهم عابدين، وغنمت مغانم كثيرة، وكان للحسن (صنجق) عابدين، وكان ذا نقوش جميلة محلاة بالذهب، وللأمير سنبل النوبة التي يضرب بها للباشا عابدين.

ثم خرج قانصوه على رأس جيش كبير، وسار به في التهائم المليئة بالرّطوبة والحرّ الشديد، وهنا رأى قانصوه أن الصواب عقد صلح مع الإمام لمدة عام حتى يتسنى له إعداد الجيش من جديد، وليتعرف على جغرافية اليمن، فقبل الإمام الصلح على الفور.

ودبَّ الْحَسَد بين القادة العثمانيين، فمال العسكر إلى قائدهم الكيخيا يوسف، فأخذوا يعظمونه ويقدمون له فروض الطاعة، فإذا ركب ساروا بين يديه حتى نفّذوا أوامره على أوامر قانصوه، فخاف أن ينقلب عليه الجند ويتبعوا الكيخيا يوسف، فعندما دخل عليه كعادته كل صباح أمر مماليكه أن يقطعوا رأسه، ويرموا به للجند دون ذنب ارتكبه، فثار الجند على قانصوه وحاصروه في قلعة المخا، وكادوا يقتلونه لولا أنه أخذ في مهادنتهم وزيادة رواتبهم مما هدَّأ من ثورهم.

ولما انتهت مدة الهدنة وكثرت شكاوي أهالي تهامة إلى الحسن من جور قانصوه وظلمه، فجمع الحسن جنده وسار إلى تهامة بمحاذاة بلاد آنس، وأسفل ريمة حتى وصل إلى بيت الفقيه، ففر الجند العثماني منه إلى زبيد والمخا، وتمكن الحسن من الاستيلاء على تهامة سلماً دون قتال.

ثم قام بتنظيم البلاد، وولى عليها الولاة، فولى على اللّحية النقيب سعيد المجزبي، وعلى الحديدة القاضي الهادي بن عبد الله الحارثي، ثم سار إلى منطقة الضحي وأقام بها، وأخذ في توزيع الغنائم والأموال على عسكره.

ثم سار إلى المنصورية استعداداً لحصار زبيد. فطوقها من كل جانب وأخذ في تعمير الحمَى وأنشأ سوقها وجلب إليها كلما تحتاجه لراحة جنده أثناء حصار زبيد، وأخذت الإمدادات تأتي إليه إلى الحِمَى من كل صوب. وكان على مقربة منه الأمير سنبل ومعه كتيبته التي نزلت في منطقة القرية وبالقرب منه الشيخ علي شمسان.

في يوم عيد الأضحى (سنة ١٠٤٣هـ) غزا الأمير مصطفى التركي بفرقته من موزع لمهاجمة الأمير شمس الدين بالمظفرية من بلاد الحجرية – وكان هذا الموقع منخفضاً – فأشار على شمس الدين رفاقُه بالارتفاع إلى مكان عال، فرفَض فقتل مع عدد كبير من جيش الإمام. ثم عاد مصطفى إلى موزع، وأخذ يتحرش بجنود الإمام، فأخذ الأمير الحسن يتتبع أخباره، فعلم أنه يخرج من زبيد إلى المخا للتشاور مع الباشا قانصوه، وبلغ الحسن أن قافلة كبيرة محملة بأحمال عظيمة من طعام وسلاح في طريقها من المخا إلى زبيد، فهاجمها الحسن ليلاً بعد أن ولّى شقيقه الحسين على المحطة، فاشتبك الطرفان في معركة بوادي النخيل. وكانت قوات العثمانيين محصنة بالسلاح والرجال تحميهم مدفعيتان، فكان المعركة سجالاً في أولها، فلجأ قادة الحسن وجنوده إلى خدعة، فضربوا النوبة الْحَسَنِيَّة، مما جعل الأتراك يتوهمون أن مساعدة قادمة للحسن ففر الأتراك، وهزم الحسن الأتراك ما بقي منهم وغنم مغانم كثيرة، وظفر بمدفعين، فاحتفظ بواحد في الحِمَى وأرسل الآخر إلى الأمير سنبل في القرية.

ثم طلب قانصوه من الإمام هدنة ثلاثة أشهر، فوافق عليها. وكان قد تفشّى المرض بجند الإمام، ومات منهم الكثير، وشب حريق كبير في الحِمَى، وكانت المنازل من القش، فجعلها الحريق كومة من رماد، فنجى الأهالي بنفوسهم بما خف حمله، واستمر الصلح جمادى الأولى والثانية ورجب (سنة ١٠٤٣هـ)، فرأى الطرفان تمديد الصلح إلى رمضان. وخلاله رحل قانصوه من المخا إلى زبيد، فحفر الأتراك حول سور زبيد خنادق، وجعلوا فيها جنوداً مدربين على الرماية وزودوهم بالسلاح، وبعد الصلح حصلت مناوشات صالحها لقوات الإمام.

حتى كانت (سنة ١٠٤٤هـ) فبعد تحصين الأتراك زبيد هاجموا الأمير سنبل الموجود في القرية، ففوجئ بغارهم عليه، فاشتبك الطرفان في معركة حامية، فاستنجد سنبل بالحسن، فهجم بجنوده، فهرب الأتراك وقتل الكثير منهم.

وقد ركز جند الإمام حصاره على زبيد (سنة ١٠٤٥هـ)، فطلب قانصوه هدنة لمدة عام، فوافقه الإمام بالرغم من معارضة إخوانه الذين وافقوا على كره منهم، فاستمر الصلح شهرين.

اشتدت الحالة سُوءاً في الأتراك، مما دعا الجند إلى الثورة على الباشا قانصوه، وأخذوا يطالبونه بالطعام، وأرادوا قتله، ففر هارباً إلى عند الحسن بالحِمَى، ومعه عدد من مماليكه، وطلب الأمان من الحسن، فلم يشعر الحسن، وهو في صلاة الجمعة بمسجد الحمَى نهاية شهر (صفر سنة ١٠٤٥هـ) إلاَّ وجنده قد تكاثفوا على شخص كان قاصداً المسجد يريدون قتله، وحين رأى الحسنُ القادمَ وجده قانصوه، فأعلمه أنه فر من جنده حين أرادوا قتله، وهنا تقدم الحسن وأبعد عنه الجند وأخذه إلى مكانه وأكرمه وأحسن وِفَادَته كعادة أبناء الإمام القاسم في مثل هذه الحالة، وبقي في ضيافته إلى نهاية جمادى الأولى (سنة ١٠٤٥هـ).

ثم جهزه بما يلزم من مال وخيام وخيول وزاد، وأوصله إلى جازان ليواصل مسيره إلى مصر. أما الأمير مصطفى فبقي بزبيد إلى أن اشتد عليه الحصار، فطلب الخروج منها وتسليمها للإمام، فوافق الحسن وزوده بالمال والطعام، ورحل إلى المخا. أما عسكره الموجودون بزبيد فخيرهم الحسن بين الرحيل مع الأمير مصطفى أو البقاء تحت حكم الإمام، فطلب الكثير منهم البقاء باليمن في طاعة الإمام، فأحسن إليهم الحسن وأكرمهم وزودهم بما يحتاجون وهم نحو أربعة آلاف مقاتل من أمراء وآغوات وقواد، أمَّا الذين رحلوا مع مصطفى فنحو ألف وخمسمائة مقاتل. ثم قرَّر الأمير مصطفى تسليم المخا للإمام حفاظاً على أرواح جنده، فأرسل الأمير الحسن السيد محمد بن عامر لاستلامها وركب مصطفى من المخا إلى مصر.

وبتسليم المخا تكون سائر بلاد اليمن قد دخلت وتوحدت تحت حكم الإمام المؤيد.

إن انفصال اليمن عن الدولة العثمانية لا يعني ضعفها، ولكن هناك عدة عوامل:

أولاً: بعدُ اليمن عن مركز الخلافة العثمانية لتعرض الإمداد للغرق في البحر.

ثانياً: كان يدب خلاف بين الولاة الأتراك باليمن.

ثالثاً: كان بعض الإمدادات تبقى بجدة وتفضل البقاء بالأراضي المقدسة.

رابعاً: انشغال السلطان بالحروب مع الصفَوِيِّين في العراق، بالإضافة إلى أسباب أُخرى منها أن غالبية الباشوات كانوا قساة وأهملوا مصالح البلاد، وعاملوا الناس بالقسْوة حتى فروا منهم إلى آل القاسم الذين أحسنوا إليهم وأكبر دليل انضمام الشوافع باليمن

إليهم رغم اتفاقهم في المذهب مع العثمانية، فقد كان الإمام وإخوانه يكرمون العدو والصديق ويساوون بينهم ولا يفرقون بين مذهب ومذهب، يُجلّون العلماء.

* * *

ثم نعود إلى الفصل الأول لترابط الكلام

يعتبر الأمير الحسن العضد الأيمن للإمام، نظم شئون البلاد، ولّى على زبيد الشريف هاشم بن حازم المكي، وولى على المخا مملوكه سعيد ريحان، وعلى موزع الأمير هادي الشويع الحمزي، وغيرها. وتعدت تنظيماته إلى جزيرتي كمران وفرَسَان التَّابعتين لدولة الإمام المؤيد، وأمر بإصلاح أمورها وتعميرها بعد خروج الأتراك منهما.

ثم عاد الحسن إلى ضوران بعد أن أمنت البلاد، واتحدت تحت لواء آل القاسم من عدن إلى صعدة، وبقي الحسن بضوران يصلح أمور البلاد وركّز اهتمامه على الناحية العمرانية، فشيَّد حصن الدامغ بضوران، فأصبح آية في فن العمارة، وأجرى عنده الأنهار الغزيرة، وزرع المنطقة التي حوله بالأشجار، وأصبحت مدينة ضوران من المدن الكبار. ثم مرض الأمير الحسن وتوفاه الله في شهر شوال (سنة ١٠٤٨هـ) وهو في الحادية والخمسين من عمره والدارس لحياته يجدها ملحمة من البطولات.

ولد في (سنة ٩٩٦هـ) فرباه والده الإمام القاسم من بيئته الصافية ومنهله العذب تربية دينيَّة حربيَّة، كان ملازماً لوالده في حروبه، حتى وقع أسيراً لدن العثمانيين (سنة ١٠٢٢هـ) إلى (سنة ١٠٣١هـ).

ثم كانت له بطولات ضد العثمانيين أيام أخيه الإمام المؤيد، واهتم بالأمور الدينية والمعارف، فأدرك حصة من العلوم ولازم الجلوس مع المشائخ والعلماء. وكان كريماً معطاءً.

وقد خلّف الحسن من الأبناء محمداً وأحمد والحسين، وحضر مراسم جنازته ودفنه بغرب جامعه شقيقه الحسين وابناه أحمد والحسين والعلماء والجنود.

ورثاه كثيرون بمراث خلدت أعماله الجليلة منها:

أدَرى؟ الَّذِي ينعي إلينا، من نعى؟ ... لو كان يدري ما أشاد وأسمعا

أتـــراه؟ يـــدري أنـــه ينعـــي إلى كل الأنـــام الـــدين والـــدنيا معـــا
وحيـــاهّم ومعاشـــهم ورياشـــهم ونعيمهم هـــذي الخصـــال الأربعـــا

وكان الأمير محمد بن الحسن قبل أن يمرض والده قد استأذنه في زيارة عمه الإمـــام إلى شهارة. ثم وصل خبر مرض والده، فأمره الإمام بالإسراع إلى ضوران، فما وصـــلها إلا بعد مراسيم الدفن، فاستقبله عمه الحسين وأخوه أحمد بن الحسن والعامة، وقدموا له التعازي.

وكان في اعتقاده أن الإمام سيجعله خليفة والده، فبسط نفسه لحكم الولاية، فعـــيَّن أعوان والده ونصب نفسه رئيساً للجيش. كما أمر أن تسير الأمور على ما كانت عليه أيام والده، ونصب نفسه للقضاء بين الناس، وأحبه العامة والخاصة؛ لأهم توسمـــوا فيـــه بعض صفات والده العظيم، فالْتَفُّوا حوله ولم يلتفوا حول عمه الأمير الحسين الذي أراد العودة إلى ذي بهلان، ولكن الأميران محمد وأحمد ابني الحسن رجواه في البقاء، وجعلاه يتولى الأمور وينْصاعان لأوامره، ولكن الناس لا يقبلون منه أمراً إلاَّ بعد عرضه عليهما.

ثم أتى أمر الإمام بتولية الأمير الحسين، إلا أن الجند والأعوان استمروا على ما كانوا عليه لا يأتمرون إلاَّ لأبناء الحسن، وحينما رأى الحسين ذلك قرر العودة إلى ذي بهـــلان، وقال: (دولتكم وأمركم وجندكم). وبعد رحيله سير محمد بن الحسن الأمور والتـــف حوله الجند والعامة، فعظم ذلك على الإمام؛ لأنه نَذير فُرْقة، فأكَّد الأمر بولاية الحسين وكف أيدي أولاد الحسن، فاعتبروه تجريداً لهم من حقهم، وقد انصاع محمد بن الحسن لأمر عمه، وأخذ جنوده وأتباعه وعاد بهم إلى ذمار، وحينما رأى كثرهم وأنه لا يستطيع الإنفاق عليهم طلب من عمه الحسين أن يقطعه بعض البلاد عوناً له في الإنفاق، فبـــادر الحسين وطيب خاطره بأن أقطعه بلاد الشوافي وخبان وبني سرحة ويريم والتعكر، وبقي في تلك المناطق مسالماً لا يخالف عمه في شيء.

أما شقيقه أحمد بن الحسن فبالعكس، فبعد أن وصله خطاب الإمام بتوليـــة عمـــه الحسين على ولاية والده، وكف يده عن التصرف جُنَّ جنونُه، فأرضاه عمـــه الحســـين بإقْطاعه لبلاد وصاب، فاستحقر ما أُعطي وتحرك بجنود وأتباع يزيدون على ستة آلاف إلى بلاد عنس، فقوبل من أهلها بالإكرام والتأييد. ثم انتقل إلى بلاد خولان، فانضـــمت

إليه أعداد كبيرة، وزودوه بالمال والذخيرة، ووجد في كل مدينة حُباً وترحيباً.

فعز على الإمام هذا التصرف، فأصدر أوامره إلى الأقاليم بالتَّحفظ من هذا التصرف، وحاول إرجاعه وثنيه عن غيِّه، لكنه لم ينصع لأوامر عمه الإمام، فأمر الإمام أخاه إسماعيل بإعداد جيش للقاء جيش ابن أخيه. وتقابل الجيشان في منطقة قعطبة، فوقعت حرب انتهت بالنصر لجيش الإمام، ففر الأمير أحمد إلى أبين، وصاحبها الحسين بن عبد القادر الذي قابله بالترحاب، وأقام عنده مكرماً معززاً.

فأرسل الإمام إلى حاكمها مطالباً بإرجاع أحمد أو طرده، فأخذ الحاكم يعامله ببعض الجفاء، فغادره إلى يافع، فاستأذن زعماؤها السيد أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم صاحب عينات في حضرموت في قبوله، فأذن لهم بقبوله للإقامة لديهم، فلقي منهم كل إكرام نحو ثلاث سنين، وجمع جموعاً وتقدم بهم على المناطق الإمامية على حين غفلة، فكانت موقعة قُتل فيها أعداد من جنود أحمد، ثم أرسل الإمام القاضي الحسن بن أحمد الحيمي على رأس وفد إلى بلاد يافع (سنة ١٠٥٢هـ)، فنجح القاضي الحيمي، واقنع الأمير بالعودة إلى حظيرة الإمام، فسمح له بالذهاب إلى صنعاء (سنة ١٠٥٣هـ)، وجعل له مكانة محمودة وأقطعه أرضاً، وكون له جماعات وأعواناً يتَّبعونه، وبقي تحت طاعة عمه الإمام إلى وفاته (سنة ١٠٥٤هـ).

وبقي الأمير الحسين بن القاسم في ولايته يسوِّي أمورها ويرعاها إلى وفاته في ربيع الآخر (سنة ١٠٥٠هـ) بذمار، ودفن بها. وخلف من الأبناء خمسة: محمداً ويحيى والحسن وأحمد وعبد الله، وكان -رحمه الله-: تقياً عالماً ذا ذكاء حاد، حتى أن مشائخه كانوا يتعجبون من سرعة فهمه وحسن إدراكه، وقرأ على يد جماعة من فقهاء اليمن الأصول والبيان والمنطق والنحو والحديث والتفسير والفقه.

ومن مؤلفاته المشهورة الغاية وشرحها في أصول الفقه.

وكان الساعد الأيمن لشقيقه الحسن في حروبهم، ضد العثمانيين، ولم تشغله الحروب عن العلوم، فكان يؤلف الكتب وهو يقود الجيوش في المعارك.

وبعد وفاة الأمير الحسين جعل الإمام جميع ما تحت يده لأبناء أخيه الحسن، فهدأت الأمور وانتشر الأمن في البلاد إلى وفاة الإمام (سنة ١٠٥٤هـ) بشهارة، ودفن بجوار

والده الإمام القاسم، فبكاه أهل اليمن وعلماؤها، فقد كان -رحمه الله- بالإضافة إلى حنكته السياسية جواداً كريماً عالماً فقيهاً، اجتمعت اليمن كلها بدون نزاع على حكمه، فهو موحِّدُ أقطارِها رحمه الله رحمة واسعةً.

وخلف الإمام المؤيد ستة أبناء: علياً وهو الأكبر ويكنَّى به، والحسين ويحيى وأحمد والقاسم والحسن.

وبعده أجمع العلماء والمشائخ على اختيار خليفة له شقيقه أحمد بن القاسم بشهارة، ولكن عندما وصل الخبر إلى إسماعيل بن القاسم بضوران سارع بترشيح نفسه للإمامة، فأخذ البيعة من العلماء والمشائخ هناك؛ لأنه أحق بالإمامة، لكونه أعلم بأمور الحكم والشرع، فتم تنصيبه خليفة للإمام الراحل.

من الفصل الثالث علاقة المؤيد بالخارج

تخللت ولاية الإمام المؤيد علاقات مع الدولة العثمانية وديَّة وحربية، فعُقدت هدن ومعاهدات بين الطرفين، وتُبودلت الرسائل الودية، فعندما وصل الباشا أحمد فضلي (سنة ١٠٣١هـ)، واستقر بصنعاء، أرسل إلى الإمام المؤيد خطاباً حوى كثيراً من عبارات الود وتواضعاً جماً وأدباً كبيراً، ثم عرض الصلح، وقال: إنه سرَّه هروب الحسن من سجن العثمانيين في اليمن، وأنه لا حرج على الإمام فيما أقدم عليه أخوه من عمل، وأردف كلامه بأنه لو بقي هذا الأمير مسجوناً إلى حين تولّيه الحكم في صنعاء لأطلقه بنفسه.

وفي (سنة ١٠٣٣هـ) حين وصول الباشا حيدر إلى صنعاء بدلاً من الباشا فضلي، أرسل رسالة إلى الإمام يطلب فيها دوام الصلح والعلاقة الحسنة، فأجابه الإمام بخطاب مماثل ضمنه موافقته على استمرار الصلح.

وتردد بعض الفقهاء والعلماء من دولة الإمام على صنعاء، إما لجمع الزكاة أو لنشر العلم بين الناس، وهذا يعني وجود علاقات ثقافية وتجارية بين الطرفين. ويؤيد ذلك الحادثة التي غيرت مجرى التأريخ في اليمن، وهي مقتل الفقيه العلماني الذي اغتيل في صنعاء (١٠٣٦هـ)، فكان سبباً في نشوب القتال بين الطرفين، ولم يتسرع الإمام في شن الحرب إلا بعد ما أعيته الحيلة في تطبيق الشرع على مرتكب هذه الجريمة، فتبادل

الطرفان الرسائل للتفاهم في تسليم القاتل وتحديد المسئولية، لكن الباشا حيدر ماطل مما حدى بالإمام إلى تحديد موقفه لقطع علاقته بالباشا وإعلان الحرب عليه، استمرت من (سنة ١٠٣٦هـ) إلى (سنة ١٠٤٥هـ)، انتهت بخروج العثمانيين من اليمن وإعلانه دولة مستقلة.

وفي (سنة ١٠٣٦هـ) اقترح السيد الحسن بن محمد الجوفي على الإمام المؤيد أن يرسل خطابات للسلطان عبد الله بن عُمَر الكثيري سلطان حضرموت وإلى زعماء العلويين يحثهم على تأييده في حربه ضد الأتراك، فلم تأت إجابات سريعة على ما دعا إليه الإمام، وإنما أجاب العلويون على خطاب الجوفي الملحق بخطاب الإمام بتعنيف الجوفي على استشهاد الجوفي بالآية القرآنية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]، وأنه تطاول في نصيحة أبناء الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - في أمور دينهم. غير أنهم أشعروه برضاهم وغبطتهم عن الذي قام به الإمام المؤيد من عمل جليل في شن الحرب على الدولة العثمانية، وأعلموه بأنَّ ما أقدم عليه الإمام هو أنه اتَّبع الطريقة الحربية التي فعلها الحسين بن علي بن أبي طالب.

وأما هم فقد فضَّلوا الطريقة السلمية الَّتي اتبعها أخوه الحسن بن علي والتي لا تؤيد إراقة الدماء للمسلمين.

كما أرسل الإمام رسالة إلى السيد الحسين بن أبي بكر بن سالم عميد السادة آل الشيخ أبي بكر بن سالم في عينات بحضرموت، فرفض الانضمام إلى دعوة الإمام، وقال قولته المشهورة: (حقيق لمن لم يَدْعُ إلى ما يُرجَى ثوابه أنْ ينقلب صاحبه بغير جواب)، فثارت ثائرة أتباع الإمام ووصفه مؤرخ الإمام الجرموزي بأوصاف لاذعة. وأرسل الإمام (سنة ١٠٣٦هـ) رسالة إلى السيد زين العابدين بن عبد الله العيدروس.

ومن جوابه على الإمام: ((إن اتباع ولاة السواد الأعظم والصراط الأقوم أهل السنة والجماعة الذين أوجب الله تعالى سلوك سبيلهم واتباعه، نعتقد صحة خلافة الخلفاء الأربعة، ونعتقد أن الصحابة قد وُفِّقوا للإصابة في جميع ما فعلوه باجتهادهم، وأجمعوا عليه بدلائلهم وإسنادهم، فهم أساطين الدين المحمدي)). إنَّ المتأمل لرد السيد زين العابدين، يدل على رجاحة عقله واطِّلاعه على العلوم، فرفض ما دعاه الإمام من

الانضمام تحت حكمه وبين سبب الرفض.

فعقب الإمام على رفض السيد بأنه يُعتَبر تعدياً بغير يقين على السَّلف الصالح الذين تلقت عنهم الأئمة الزيدية معلومات صحيحة البرهان، وقد اعتمد السيد على كتب تخالف رأي العترة النبوية، ووعد الإمام بالتأليف كرد على السيد.

وكان للإمام علاقة قوية بحاكم أبين وخنفر الأمير عبد القادر بن محمد الجرهمي، وقد اشتهر بالنزاهة والتديُّن والعدل.

وكانت له عوائد تأتيه من الدَّولة العثمانية، ولكن حين تولى حيدر باشا اليمن قطعها مما حدَا بالأمير أن يسافر إلى صنعاء لمقابلة الباشا، ولكن وهو في طريقه إليه، وصلت إليه أنباء ثورة الإمام على الدولة العثمانية، فعاد مسرعاً إلى بلاده، وكتب إلى الأمير الحسن بن القاسم من مدينة حرقة خطاباً يعلن فيه تأييده للإمام ومناصرته.

وفي (سنة ١٠٣٧هـ) بعد انتصارات القوات الإمامية في موقعة (نجد قُسَيْم)، أرسل الأمير الحسن بن القاسم خطابات إلى شيوخ اليمن الجنوبي يحثهم على الانضمام إلى صفوف الإمام، وبشَّرهم بالنصر العظيم، من جملتهم الشيخ رصاص الجرهمي، وقد كانت له عوائد من العثمانية من صنعاء.

وعندما دانت اليمن لدولة الإمام أرسل الأمير الحسن إلى الشيخ الرصاص بأن المعتاد سيأتيه من الجانب الزيدي، وكان عنده من علماء الصوفية جعلوا الرصاص يتحامل على الرسول ويضعه في السجن أياماً حتى تبين حقيقة الأمر، وعرف خطأ ما ارتكبه، فاعتذر وأعطاه ما أرضاه، وأخبره بأنه فعل ذلك ليتحقق من الأمر.

ولقد كانت علاقة اليمن بالحجاز متينة، وكان للإمام المؤيد تأثير على الأشراف هناك، وكانت تَصلُه التقارير فيما يدور بينهم من خلافات، وطلب المعونة منه، فقد طلب الشريف محسن بن حسين العون من الإمام المؤيد على منافسَيْه الشريف أحمد عبْد المطلب والشريف مسعود بن إدريس.

وقد فر الشريف مسعود إلى حاضرة الإمام، ورغب في الوصول إليه إلى اليمن؛ ليبلغه وجهة نظره في نزاعه مع الشريف محسن، ولكن مشاغله الكثيرة حالت دون مراده من الوصول، فعذره الإمام من المجيء في خطاب أرسله ردّاً على خطابه عبر عن سروره

العميق والسرور العظيم لإصلاح ذات البين لأشراف مكة الذين قال جدهم سيد البشر صلى الله عليه وآله وسلم: (إن إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والزكاة)، ومما لا شك فيه أن إصلاح ذات البين في حرم الله بين أهل بيت نبيه لهو من إعلاء شأن دينهم القويم، كما يغيض الله به أعداءهم من كل شيطان رجيم.

ثم بدأ الصراع بين الأشراف من جديد، وذلك عندما هاجم الشريف أحمد عبد المطلب مدينة بيشة في (سنة ١٠٣٨هـ)، وكان يحكمها من قبل شريف مكة الشريف محسن الشريف مغامس.

وأسفر الهجوم عن مقتل ابن حاكم بيشة وسقوطها في أيدي الشريف أحمد عبد المطلب، ولم تكن قوات الشريف محسن كافية لتأديب وطرد المهاجمين. فلجأ إلى الإمام وطلب منه المساعدة فلبَّى طلبه وجهز جيشاً من اليمن قوامه أشراف الجوف وعناصر أخرى، وقد تمكنت من دخول مدينة بيشة وهزيمة الشريف أحمد عبد المطلب، وتسلَّم جنود الإمام للمدينة، غير أن الشريف محسن بن حسين حاكم مكة لم يستمتع بهذا الانتصار؛ لأن خصمَيه الشريف أحمد عبدالمطلب والشريف مسعود بن إدريس تحالفا ضده، فأدرك أنه لا طاقة له بملاقاتهما، فلم يجد وسيلة يلجأ إليها غير الهرب إلى اليمن تاركاً الأمر لهما.

وعندما وصل إلى اليمن قابله الإمام بالترحاب وحسن الضيافة وتخلَّى عن المطالبة بحكم الحجاز، وفضل البقاء في اليمن. فخيره الإمام المؤيد في البقاء عنده في شهارة عاصمته أو في صنعاء، فاختار الشريف صنعاء، لكن المنية عاجلته، فمات أثناء سيره إلى صنعاء، إلا أن جثمانه حمل إليها، ثم دُفن (في قُبة محسن بباب السباح معروفة مئات السنين ثم في عصر الجمهورية نقل قبره إلى المقبرة العامة وجُعِلت القبة دكاكين).

وقد تدخل الإمام المؤيد في (سنة ١٠٣٩هـ) لحل النزاع بين حاكم أبين وعدن الأمير عبد القادر الجرهمي وحاكم يافع أحمد بن شعْفل عندما اعتدى الأخير على بعض مناطق حاكم عدن لحدوث خلاف بينهما. فقام أحمد بن شعفل ببعض الأعمال التخريبية مثل قطع الطرق إلى عدن ومراسلة الباشا (قانصوه) باستعداده للانضمام إليه ضد الزيدية، فاضطر الأمير عبد القادر إلى الالتجاء إلى الإمام المؤيد لفض هذا الخلاف،

وطلب منه العون والمساعدة. فأجابه الإمام إلى طلبه، وأمر أخاه الحسن بمساندة الأمير عبد القادر، فسار إلى ابن شعفل لتأديبه، ففر إلى جبل حجيل قريب من يافع.

وخرَّب الحسن بلاد الربيعتين المناصرين للخصم، ويبدو أن عمل أحمد بن شعفل لم يعجب بعض أقاربه، فقد وصل شقيقه المسمى جعفر إلى الأمير الحسن وقدَّم الولاء والطاعة له. وكانت تربط جعفر بالأمير عبد القادر صلة قرابة، فهو خال لجعفر، فقرب الأمير الحسنُ جعفراً وأحسن إليه وولاّه ما كان تحت يد أخيه من بلاد.

ثم سار جعفر إلى بلده يرافقه مندوب الأمير الحسن السيد الهادي بن علي الشامي، والشيخ محمد بن شمسان وغيرهما، لتثبيت حكمه، أما أحمد فقد فر إلى يافع الداخل، إلا أنه استمر في أعماله التخريبية وعندما نفد صبر الإمام أرسل جيشاً لمساندة جعفر بن شعفل لتأديب أخيه، فدارت معركة، تمكن بعدها الجانب الإمامي من أن يجبر أحمد على الخضوع والدخول تحت الطاعة. واستمر الإمام في تكليف جعفر حكم يافع بدلاً من أخيه أحمد.

بعد أن هدأت الأمور عادت قوات الإمام إلى إب بعد أن أدت المهمة.

في أوائل (شهر رمضان سنة ١٠٤٠هـ)، حاول بعض الحكام العثمانيين في غير اليمن التدخل لكف أذى الحرب بين الإمام والعثمانيين، فكتب حاكم الحسا والقطيف العثماني الباشا علي رسالة إلى الإمام المؤيد ينصحه أن يكف عن حرب الدولة العثمانية ويبيّن ما لها من فضل على العالم الإسلامي، وأن ملوكها يسيطرون على غالب البلاد الإسلامية، كما أنهم يُلَقَّبون بُخدَّام الحرمين الشريفين، وهذا أرفع الألقاب، وأن السلطان العثماني قد أقام الله به الدين، وانتظمت به مصالح المؤمنين، ويسعى في الجهاد ضد أعداء الإسلام ليقطع دابرهم.

فأجابه الإمام المؤيد برسالة مماثلة أوضح فيها الأسباب التي أدت إلى المحاربة وهي فساد باشوات آل عثمان في اليمن، وخروجهم عن أمور الدين وتعاليم الإسلام وإباحتهم المحرمات كشرب الخمر وبيعه في الأسواق مجاهرةً وقتلهم الأبرياء بغير حق وخاصة العلماء والفقهاء، كما حدث من الباشا حيدر، وأن من واجب الإمام كمسلم وولي أمر اليمن أن يحارب الباغي ويقف في وجه مرتكبي هذه الأفعال إلى أن يرتدعوا ويعودوا إلى رشدهم ولو بالحرب والخروج عن طاعتهم في سبيل إعلاء كلمة الحق

والدفاع عن الدين.

وكذلك حاكم البحرين العثماني كتب إلى الإمام (سنة ١٠٤١هـ)، أن السلاطين العثمانيين قد أعظموا الفرقة بين الأئمة والسلاطين، الذين مقاصدهم هو إصلاح العباد والبلاد وإخلاء العالم من الفساد، وأنهم لا يرضون بتصرفات الباشوات في اليمن، فالأولى بالإمام أن يُعرِّف السلاطين بما أقدم عليه هؤلاء الباشوات من أعمال خبيثة وسيرى أنهم سيستمعون إليه؛ لأن كلامه مقبول لديهم كما سيرى في إجابتهم ما يسره، لا سيما وأن السلاطين يعظمون أهل البيت النبوي والنسب العلوي الذي ينتمي إليه الإمام نفسه.

أما الباشوات باليمن فالأولى أن تكون طريقة الإمام معهم بالتي هي أحسن.

وقد ردَّ الإمام على رسالة الباشا العثماني في البحرين، فشكره على مدحه له ولأهل البيت النبوي وأكد موافقته على ما جاء في رسالته، والتي يفهم منها أنه على علم بتصرف الباشوات بالفساد والعبث بإهلاك الحرث والنسل في العباد والبلاد وعدم موالاة العترة النبوية.

كما أقر الإمام أن هدف السلاطين العثمانيين إصلاح العباد وسعيهم في عمارة البلاد، كما أنهم يعظمون أهل البيت النبوي؛ ولذا فيكون لزاماً على الباشوات باليمن أن تكون معاملتهم لأهله بالتي هي أحسن، وما أقدم عليه من محاربتهم كان اضطراراً، ولم يكن تمرداً على السلطة العثمانية، وإنما لإصلاح ما أفسده الباشوات، فهي أمانة في عنق الإمام لانتشار الأمن بين الشعب اليمني، وإقامة حدود الله وهي أمور يوافق عليها السلاطين العثمانيون.

في (سنة ١٠٤٣هـ) أرسل (قانصوه باشا) آخر حاكم عثماني باليمن من المخا الأسطول التركي بقيادة (إبراهيم بك) على عدن بعد تحالفه مع بعض أهل يافع أن يهجموا على عدن من البر وهو من البحر. فبلغ الأمير الحسن بن القاسم، فأخبر أمير أبين عبد القادر بن محمد، فترك مقر عمله واتجه إلى عدن ليقوى من دفاعها، واستخدم نفوذه لدى أهل يافع المقيمين بعدن المؤيِّدين للزيدية بها، وعلى رأسهم معوضة بن عفيف الذي أقنع اليافعيين المؤيدين للأتراك بعدم هجومهم عدن من البحر وبالتخلي عن الأتراك. وفعلاً استجابوا وتم ما يريده زعماء الزيدية من إفشال الهجوم واضطر قانصوه لاستدعاء

الأسطول التركي من جهة عدن بعد فشله، لكي يحمي ميناء المخا من الهجوم الزيدي.

كما أن قانصوه فشل في محاولته تأييد حاكم الشّحْر الكثيري بالهجوم على عدن.

وفي (٢٤ جمادى الثانية سنة ١٠٤٣هـ) أرسل السلطان عبد الله بن عمر الكثيري خطاباً إلى الإمام استعمل فيه كلمات وديَّة فقال: ((والذي ننهيه إلى مسامعكم الشريفة أطاب الله مسموعها وأعذب ينبوعها، أنا صرنا من المحبين لكم ونحن منكم وإليكم)). وفي مكان آخر، قال: ((في الحقيقة، نحن نحبكم طبيعياً ونحن على طريقتكم في الداخل والخارج))، وشرح للإمام أن الذي أخره عن الكتابة إليه للتعبير عن هذه الصداقة هو الخوف من قوة الأتراك في البر والبحر، كما كان أجداده يخشونهم، وقد أجاب الإمام المؤيد على السلطان عبد الله الكثيري بخطاب يحمل المودة والمحبة له والتفهُّم لما أبداه الحاكم الحضرمي في خطابه وأخبره أن السكُوت عن الدعوة إلى الله في حضرموت سيعاقب عليها أمام الله.

وفي سنة (١٠٤٤هـ) توجه السلطان عبد الله مكة للحج واستخلف على الحكم في حضرموت أخاه بدراً الذي حاول أن تكون علاقته مع الإمام ودية أيضاً، فراسله سراً، وعندما نقرأ إجابة الإمام عليه المدوَّنة في (٤ رمضان سنة ١٠٤٤هـ) نجد أن الانطباع فيه على أن بدراً قد أصبح حاكماً زيدياً، وأن الإمام قد سره ذلك.

وقد مات السلطان عبد الله في مكة (سنة ١٠٤٥هـ) فأصبح أخوه بدر الحاكم المطلق للدولة، بالرغم من أن ابن أخيه بدر بن عبد الله هو الخليفة لأبيه في عرف تقاليد أسرة آل كثير، ولذا فقد تآمر على عمه وقاومه، ويقال: إن أكثر العوامل لإسقاطه من الحكم هو اعتناقه للزيدية.

وقد تشجع اليمنيون بمجريات الحوادث في حضرموت والتي كانت لصالحهم ، فاتَّجه نفوذهم إلى الجهات الشرقية من اليمن الجنوبي حيث إقليم المهرة، وذلك عندما كتب الإمام المؤيد خطاباً لسلطان قبيلة المهرة مسعد بن عمرو يدعوه فيه للخضوع لأهل البيت وذكَّره أن أجداده الأولين كانوا يفعلون ذلك.

و لم تكن علاقة دولة الإمام المؤيد مقتصرة داخل الجزيرة العربية، بل ترامت إلى مسامع الحكام والأفراد البعيدين لما لها من مكانة مرموقة بالرغم من حداثة عهدها

بالاستقلال. ومن الذين سمعوا عنها وتأثروا بها السيد الطاهر بن عبد الله الإدريسي الذي حدث بينه وبين ابن عمه ملك المغرب خلاف اضطره إلى مغادرة بلاده والفرار إلى اليمن فوصلها (سنة ١٠٤٦هـ)، والتقى في مدينة زبيد بالسيد هاشم بن حازم بن أبي نمي حاكم الإمام بزبيد، فرأى على السيد المغربي سمات العلم والمعرفة، فتوسم فيه الخير، فقدَّمه إلى الأمير الحسن بن القاسم الذي أكرمه وأحسن مترلته، ثم أرسله إلى عاصمة البلاد (شهارة) وبرفقته عدد من الأتباع، لتقديمه إلى الإمام المؤيد الذي أكرمه وأحسن وفادته أيضاً.

ومما لا شك فيه أن السيد المغربي قد أفضى إلى الإمام بما دار من خلاف بينه وبين ابن عمه الملك، فتلقاه بصدرٍ رحب واستمع منه، وعند عودته إلى بلاده المغرب حمله رسالة إلى الملك المغربي: تضمنت إصلاح ذات البين، وقرابة الإمام المؤيد الذي يعود نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، كما أن ملك المغرب ينحدر من نفس الدوحة، كما تضمنت الدعوة، وهي كما قال: ((فكتبنا إليكم دعوتنا هذه داعية إلى مثل ما دعا إليه سلفنا وسلفكم وآباؤنا وآباؤكم من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وما حث الله عليه من تقوى الله المُبلِّغة إلى دار السلام وحفظ هذه البيضة التي شرّفها الله بالإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الإمام، والدخول مع جماعتكم وإخوانكم من أهل البيت، وأتباعهم من المؤمنين فيما دخلوا فيه من الإجابة.

وأمرنا السيد الجليل الطاهر بن عبد الله أن يبلغها إن شاء الله إليكم، ويأخذ عهد الله فيها عليكم، ويقول فيكم إن شاء الله أحكامها ويستعين بعد الله بكم على نشر أعلامها بما يطابق كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة أئمة الهدى من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)).

كما أن علاقة الإمام لم تقتصر على العالم العربي فقط، وإنما تعدَّته إلى مناطق غير عربية لما كان لها من عظمة وهيبة في قلوب الحكام من غير العرب.

وقد وصل إلى عاصمة اليمن (سنة ١٠٤٨هـ) مندوب من أحد ملوك الهند الذين كانوا يتقربون إلى الإمام، فحَمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة التي أنتجتها أيدي الصناع الهنود وهي تشتمل على سيوف من أجود ما تصنعه الهند مع فاخر البخور والتوابل.

وقد تلقّى الإمام المؤيد هذا المندوب بالترحاب والإكرام، ثم رد على هذه الهدية بأن حمَّل المندوب بالخيول الأصيلة الموجودة في اليمن في ذلك الوقت.

ومن الذين ترامت إلى علمهم أخبار دولة الإمام المؤيد محمد بن القاسم إمبراطور الحبشة (فاسلداس بن سينوس)، وقد أراد أن يقيم علاقة مع اليمن؛ لأن بلاد الحبشة في تلك الفترة كانت تعج بالفوضى، والاضطراب؛ لأن سكانها مزيج من المسلمين والمسيحيين وبعض القبائل المختلفة الأديان، فقامت بين هذه الفئات حروب دامية خاصة مع قبائل (الجالا) و(الفلافة) و(الأجاو) و(سيداما).

وفي (سنة ١٠٥٢هـ) بعد توتر الحالة في الحبشة، وقطع الإمبراطور علاقته بالدول الأوربية خاف الإمبراطور على البلاد، فأخذ يتقرب إلى الدولة المسلمة لصد غدر الدول الأوروبية، فأرسل رسالة إلى الإمام المؤيد يعرض فيها رغبته في إقامة علاقات ودّ ومحبة مع هذه الدولة الفتية وأبدى استعداده لإقامة علاقات ثقافية وتجارية وعسكرية، وأرسل هدايا رمزاً لبدء هذه العلاقات، وفي فقرة من رسالته ((يسعد دولتنا القاهرة صدور الحروف لأداء واجب السلام وتجديد العهد بأخلاقكم الكرام))، إلى أن قال: ((وبعد هذا اليوم لا تقطعوا عنا أوراقكم وأخباركم عن طريق الدلكلي، كما بندر البيلول قريب إلى المخا، وبعض الأشياء التي عندنا ما هي عندكم، فبعدما وقعت الصحبة بيننا نتبادل الحوائج من الطرفين بالذي يريد خاطركم وخاطرنا، فالالتماس من مروءَتكم وهمتكم الكريمة وجودكم وفضلكم العميم أنكم تجعلون لنا خيلين واحدة مصان طويل جسيم يحمل آلة السلاح كلها، والثاني قصير أنثى ونريد درعاً وسيعاً طويلاً لا تدخل الحربة فيه وواحدة خوذة وسيعة مليحة لا تقطع ويدكم طويلة قادرة على وجود ذلك، والواصل إليكم برسم البركة عشرون رأساً رقيقاً وواحدة بغلة سوداء من مراكبنا وتفضلوا بقبوله)).

ومن خلال الرسالة يتبين اعتراف دولة الحبشة بدولة الإمام المؤيد واستقلالها من الدولة العثمانية.

وقد أجابه الإمام المؤيد برسالة مماثلة أكد له أنه على أتم الاستعداد لتلبية طلباته وقبول هديته، وأرسل إليه وفداً إلى عاصمة الإمبراطور محملاً بالهدايا ورسالة جاء فيها شكر

الإمام للإمبراطور فاسلداس وتقديره له ودعمها بالآيات القرآنية التي فيها ذكر سيدنا عيسى ووالدته مريم – عليهما السلام – وأبدى الإمام استعداده للتعاون مع الإمبراطور ولبَّى طلبه فقال: ((وأما ما أشار إليه زاده الله من الإنعام والتمسه من رأسي الخيل والدرع والبيضة، فذلك في حقه يسير وبالنظر إليه حقير، وصدر ذلك مع سيف صارم، ولداء الأعداء إن شاء الله حاسم، جعل الله تواصلنا بحمده وشكره وعبادته وذكره والاجتماع على أمره ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

وعند مغادرة الوفد الحبشي للأراضي اليمنية أرسل الإمام معه عدداً كبيراً من الجنود لحمايته.

وهكذا نجد أن دولة الإمام المؤيد في فترة وجيزة تخللتها الحروب مع أعظم الدول، استطاعت أن تمد علاقاتها السياسية والتجارية والثقافية إلى أماكن بعيدة عن اليمن.

من الفصل الرابع

إصلاحات الإمام الداخلية

كانت الفوضى تدب في اليمن ويشيع فيه الاضطراب وذلك من الحروب المتواترة التي قامت بينها وبين الدولة العثمانية التي أرادت بسط سيطرتها على اليمن، غير أن أئمة الزيدية ومنهم الإمام المؤيد محمد بن القاسم ضيع عليهم هذه الفرصة، وسعى جاهداً لتوحيد البلاد تحت لوائه، وإخراج الغزاة من بلاده. وقد نجح في ذلك عندما أجلى آخر حاكم عثماني (قانصوه باشا) في (سنة ١٠٤٥هـ) وبذلك أصبحت البلاد تحت حكم الإمام وقامت أول دولة موحدة في اليمن منذ أن دخلها العثمانيون.

نلاحظ بعد دراسة جوانب حياة هذا الإمام في الفصول السابقة من الرسالة أنه لم يسع لمصلحته الخاصة، فمنذ توليه القيادة، وهو يقوم بالأعمال الإصلاحية التي عم خيرها جميع البلاد.

فإذا أخذنا بالاعتبار أن نتناول بالبحث ما قام به الإمام من إصلاحات داخلية فقط

وحصرناها بالإصلاحات العمرانية والعلمية، فهذا يعتبر نقصاً في فهمنا لمعنى هذه الناحية الهامة من حياة هذا المؤسس العظيم للدولة الزيدية في اليمن، فإن معنى الإصلاح شامل لكثير من الأعمال السياسية.

لكنَّ مؤرخي ذلك العصر قد أهملوا أهم جانب من جوانب هذا العصر وهو الجانب الحضاري، هذا وإن تعرضوا له فإنهم يذكرونه من باب الصدفة ويعتبرونه من النواحي السياسية، ومن هذا نجد أن آل القاسم لم يهملوا هذا الجانب المشرق في هذه الدولة، بل اهتموا به اهتمامهم بأيِّ جانب آخر من الجوانب المكونة للدولة مثل الجانب السياسي والحربي والعلاقات الخارجية فقد كانت سياستهم تقوم على تشجيع النواحي الحضارية في البلاد وتدعيم مرافقها، سواء أكانت علمية أم أمنية أم عمرانية أم إدارية، فلو تناولنا كتب التاريخ التي أُلفت في عصره لوجدناها صَبَّت كل اهتمامها على الناحية السياسية وأهمها الحربية وأهملت هذا الجانب الهام وهو الجانب الحضاري.

ولكن نستطيع أن نستخلص ما قام به الإمام من إصلاحات مما أجملته هذه المؤلفات من خلال حديثها عن النواحي أو الجوانب الأخرى.

لكن لو أخذنا في تفصيل إصلاحات الإمام في داخل البلاد لوَجدناه قد اهتم بجميع نواحي الحضارة، وخاصة الناحية العلمية، فإن الإمام المؤيد بالإضافة إلى حنكته السياسية فهو يعتبر موسوعة علمية حوت شتى العلوم، فإن المتتبع لحياته يجده تَربَّى في بيت علم ودين وتتلمذ على أيدي أساتذة أفاضل أجلاء نبغوا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، لذا فقد شَبَّ على حبِّ العلم وأُلف الكثير من الكتب التي تعتبر كنزاً علمياً أثرى المكتبة اليمنية.

لذا نجده منذ نعومة أظفاره مشغوفاً بالعلم والتعليم، فهو منذ صغره يختلف عن أقرانه صغار السن، فلم يكن محباً للعب معهم بل كان منغمساً أكثر وقته بالمكتب يدرس ويقرأ ويستزيد من العلوم، فقد شرح كتاب البحر الزخار شرحاً مستوفى حتى قيل: إنه يتكلم بكلام علمي غزير أحسن من شروحه الآخَرة، مما جعل مستمعيه يستغربون ذلك منه، و لم يقتصر على ذلك، بل أخذ ينمِّي في نفسه هذه الخصلة حتى أصبح من العلماء المؤلفين، فلم تشغله حروبه المستمرة ضد الدولة العثمانية عن هذا، فقد كان مُكبّاً على

التأليف والتصنيف في قلب الأزْمَة التي تفجرت في البلاد؛ لأنه وجد في هذا العمل الغذاء الروحي والفكري للنفس البشرية، فألَّف العديد من المجلدات أو الموسوعات نذكر بعضاً منها:

١ ـ جواب سؤالات ومنه نسخة مخطوطة ضمن مجموعة برقم (٧٤) بمكتبة الجامع.

٢ ـ أسانيد المؤيد منه نسخة مخطوطة ضمن مجموعة برقم (٢) الجامع الكتب المصادرة.

٣ ـ تصفية النفوس عن الرذائل، وهو ينقسم إلى قسمين: الأول: يختص بالرياضة وتهذيب الأخلاق. أما القسم الثاني فهو يختص في بيان الصفات المهلكة، وتوجد منه نسخة مخطوطة برقم (٢٨٩٧) بالمتحف البريطاني في (٥٣) ورقة.

٤ ـ الفتاوى الفقهية، وتوجد منه نسخة مخطوطة في (٢٧٤) ورقة بمكتبة الجامع برقم (٢٨) فقه.

٥ ـ المجموع المؤيدي، وهذا كتاب جمعت فيه أجوبة الإمام المؤيد مخطوط بمكتبة الجامع الغربية رقم (١١١) حديث.

وهناك الكثير من المؤلفات له ما زالت مخطوطة في المكتبات المتفرقة في أنحاء العالم. وبالطبع، فإن هذا العدد من الكتب له فائدة علمية كبيرة عادت – وتعود – على المطلع عليها بالفائدة الجمَّة، وتكون دلالة واضحة على أن مؤلفها شغوف بالعلوم والمعارف بالإضافة إلى هذا الجانب الحضاري الذي يتميز به الإمام المؤيد فقد اهتم بنشر العلم بين أبناء اليمن، ففتح المدارسَ وَدُورَ العِلم، وكان يصرف عليها المبالغ الطائلة ويشجع الطلاَّب على البحث والدراسة، وقد أجرى النقود للدارسين في هذه الدور، وخصص لها نوابغ المدرسين لإلقاء الدروس فيها.

ومقابل هذه الأعمال فقد انتشر في عصره العلم وسادت المعرفة جميع أنحاء البلاد وكثر العلماء والمتعلمون الذين أثروا المكتبة العربية بالكتب والمعارف، والتي لم تزل كتبهم حتى يومنا هذا نستمد منها مادتنا العلمية.

فقد أوردت بعض الكتب ولو بشكل موجز اهتمام الإمام المؤيد بهذا الجانب الحضاري الهام أو بالإصلاحات الداخلية، فقد ذكر المؤلف الجرموزي في كتابه السيرة

المباركة ما يلي:

(وفَد إلى الإمام الوفود من كل قطر وهو مُجدّ مجتهد في تقريب الشارد، وتسهيل مرافق الصادر والوارد، وتعمير المدارس الإمامية وتفقد أمور أهلها ويتولاها بنفسه).

فإن مثل هذه العبارة رغم صغرها تدل على اهتمام الإمام بالتعليم وفتح المدارس وتفقدها بنفسه. ولم يكن الإمام المؤيد الوحيد في أسرته الذي اهتم بالعلم ونشره بين الأهالي، فإن إخوته لم يكونوا أقل منه شغفاً وحباً للعلم، فإنّا نجد الأمير الحسن الذي قضَى معظم وقته في الجهاد لتوحيد البلاد، لم يهمل هذا الجانب الهام بل خصص له وقتاً للقراءة والمطالعة يستزيد من العلوم على أيدي كبار العلماء في ذلك الوقت.

أما الأمير الحسين بن القاسم فهو الآخَر مثل أخويه شَغُوفاً بحب العلم والانهماك فيه، فإن المطلع على نشأته يجده منذ نعومة أظفاره محباً للعلم، فقد درس على يد الشيخ لطف الله الغياث. وكان سريع الفهم شديد الملاحظة، قوي الذاكرة. ألف العديد من الكتب في جميع العلوم، ونبغ في الدقائق الأصولية والبيان والمنطق والنحو، وألَّف في الحديث والتفسير والفقه. ومن مؤلفاته الغاية وشرحها، وهو كتاب عظيم، كان يدرس في مدارس اليمن، وقد ألَّفه - رحمه الله - وهو في ساحة القتال، فلم تبعده الحروب عن ساحة العلم الذي يعتبر من أهم ساحات الإصلاح البشري، فهو الذي يحرر النفوس من الجهل وينقيها من الشوائب، فهو معِوَلٌ لهدمِ الجهل ومشيِّد دور النور في النفوس، وهو الذي يهذب النفس. كذلك فلاحظ أنه - رحمه الله - بعد أن انتهت الحرب في اليمن، وانتشر الأمن انكب على التأليف.

وبعد هذا الاستعراض الموجز لبعض إصلاحات الإمام العلمية في اليمن والتي أوردها بعض المؤرخين، ويجب أن نستعرض أهم إصلاحاته الإدارية.

فبالرغم من اهتمامه بالجانب العلمي لم يهمل الجانب الإداري، لذا نجدُ أنه قسم البلاد إلى ولايات، وضع على كل ولاية واحداً من إخوته، فقد عيَّن الحسن على ضوران، والحسين على ذي بهلان، وأحمد على صعدة، وكل أمير منهم حرص على نشر الأمن في منطقته ووفر للأهالي الراحة والطمأنينة. وكانت سياسة الإمام حسن إدارته في جميع الولايات مما جعل الناس يحبونه ويلتفّون حولَه، يُحسِنُ إلى العدو قبل الصديق، وقد

ولى الولاة السابقين المخلصين كالأمير عبد الرب والأمير سنبل.

وقد قسم الولاة أوقاتهم في مصلحة العامة والخاصة، فمثلاً الأمير الحسن قسَم يومه ثلاث فترات:

الأولى: للعلم والمطالعة والتأليف.

الثانية: للأعمال الإدارية وحوائج الرعية ومقابلة الوفود.

الثالثة: للنظر في أحوال الجنود ورواتبهم.

ولم يهمل الإمام المؤيد رعيته للولاة يتحكمون فيهم، بل كان يتصل بهم ويوصيهم بالرفق بالرعية والنظر في حوائجهم، ويدل على هذا ما أمر به القاضي أحمد عبد الله الغشم أن يكتب إلى ولاة مناطق همدان العالية وحراز بالرفق بالرعيَّة، وأن ينشروا العلم بينهم ويفهّموهم ما جهلوه.

كذلك معاملة الأمير الحسن لأهالي كوكبان حينما كان مقيماً لديهم كانت غاية في الطيبة والرقة والإحسان، أعاد إليهم خيرات بلادهم من محاصيل زراعية وغيرها.

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) طاف الأمير الحسن بعدد من المقاطعات وتفقد أحوالها وزار الأئمة في ظفار وذيبين، ثم عاد إلى ذي مرمر بعد أن أصدر أمره بأن تجرى لهذه المناطق التي زارها الصدقة المسماة (بالحسَنية).

وقد اهتم الإمام المؤيد وولاتُه بالناحية العمرانية وتطوير المدُن وشق القنوات إليها، وازدهرت فيها الزراعة، وعُبِّدت الطرق من أجل تسهيل مهمة الانتقال من مكان لآخر، فكانوا بعد فتح أي مدينة يحرصون بعد نشر الأمن على تعميرها بالبنيان وتشجيع الناس على التواجد فيها، ويشتغلون بالزراعة والصناعة والتجارة.

ويلاحظ الدارس لتاريخ اليمن خاصة في فترة تولي آل القاسم أنهم قد اهتموا بتشييد المدن والحصون وعبدوا الطرق لتميز اليمن بالجبال، فقد شيدوا المدن على رؤوس الجبال كمدينة ضوران التي اختارها الأمير الحسن معقلاً له بعد أن واصل سيره في غيرها، ثم استحسنها، وكتب إلى بعض الولاة في الأقاليم أمثال: الجرموزي أن يمدوه بأهل الصناعات والمهندسين والمقضضين والتجار، بعد ما اشترى من أهله أملاكهم بأثمان غالية، وطيب نفوسهم وألحقهم بأتباعه واشترى كثيراً من الأدوية المحيطة به، ووزعها

على أتباعه أمثال الأمير سنبل وغيره، ثم أخذت العمارة تزداد شيئاً فشيئاً بعد أن حرص الأمير على زراعتها، فكثرت خيراتها وعم نفعها وعمر فيها قصره وسماه الحصن وألحقت به دور لأتباعه، وعمَر المدرّج، وبنى الحبس، وبنى الجامع المقدس بمساحة كبيرة، واهتم في عمارته حتى أصبح يضاهي الجامع الكبير بشهارة، وزاد عليه ابنه محمد بن الحسن زيادات وتحسينات، كذلك فعل أخوه المتوكل إسماعيل من بعده بعمارة جامعه في رأس الحصن المقبور حوله.

وغرس الأمير الحسن أشجار الفاكهة وغيرها، مما جعلها تشتهر في اليمن حتى أصبحت هذه المدينة من أشهر المدن بعد شهارة، وعمر حصنه المسمى (بالدامغ)، وعمَّر الحسن مدينة ذيبين ومدينة الغراس وزرعها بالأشجار المثمرة.

أما الحُسين فلم يكن أقل من شقيقه الحسن حَماساً في حبه للتعمير، فإنّا نجده شيد حصن بيت ردم، وساعد أخاه الحسن في تشييد مدينة ضوران.

ثم عمَّر الحسن مدينة صنعاء بعد خرابها بالحروب، وأجرى إليها ينابيع الحياة التي كانت تسمَّى بالغيول، وكذلك ابنه محمد بن الحسنِ، وازدهرت الحياة فيها، ولم يقتصر اهتمام الإمام المؤيد وإخوانه بتعمير المدن الكبيرة فقط، بل أكبوا على تعمير الحصون والقلاع والمدن الصغيرة والأسواق التجارية.

كما أن الأمير أحمد بن القاسم توجه إلى جبل عيال يزيد وثلا وأخذ في تخطيطها وأشاد فيها العمران، وعمر الجامع الكبير بروضة حاتم، فأصبح غاية في فن العمارة، فلم يكن له مثيل في تلك المنطقة.

وبما أن اليمن جبلية فقد حرص الإمام المؤيد وإخوته على تعمير المدرجات التي اشتهرت بها اليمن، وأشرف الإمام بنفسه على عمارة المدرج الذي يمتد إلى باب الفتوح، ومدرج شهارة الذي انتشرت حوله الدور.

وقد امتدت تعميرات الإمام إلى الجزر التابعة لدولته كجزيرتَي كمران وفرسَان. وهكذا نجد أن الإمام ورجال دولته لم يهملوا أي جانب حضاري، ولم يتركوا ركناً من أركان الإصلاح إلاَّ وعملوه من أجل الأهالي.

الخاتمة

بعون الله سبحانه وتعالى انتهيت من هذا العمل العلمي الذي أرجو الله أن تكون فائدته شاملة وعامة لكل مطلع عليه، وهو البحث المكمل لدرجة الماجستير والخاص بالإمام المؤيد في اليمن من (سنة ٩٩٠هـ) إلى (سنة ١٠٥٤هـ)، والذي تناولت فيه بالدراسة حياة الإمام.

وأهم الأحداث وأهمها الثورة التي قادها بمساعدة إخوته، فاستطاع توحيد البلاد تحت سلطته، ووحد اليمن بأسره تحت لوائه.

ومن خلال دراستنا لهذا البحث استطعنا ولو بصورة مختصرة التعرف على إقليمية بلاد اليمن وطابعها الجبلي الذي كان له التأثير الكبير على التكوين الجسماني لأهل تلك المناطق.

واتضح لنا أن أهمية هذا القطر لم يكن حديثاً، بل كان منذ القدم أي قبل الميلاد كانت به ممالك عظيمة، وكان يتمتع بتقدم حضاري كبير منه سد مأرب الشهير، ومملكة سبأ العظيمة.

وعند دراستنا لحياة الإمام المؤيد تبين لنا أنه تربَّى تربية دينية وعلمية وحربية، وحرص والده أن يُعده للولاية من بعده إعداداً متكاملاً من جميع النواحي.

وقد نجح أبوه في هذه المهمة، فقد كان الإمام يتمتع بجميع صفات الحاكم المسلم.

وقد حرص على قمع الفتن المنتشرة بين القبائل وحرص على دوام الصلح الذي عقده والده مع باشوات الدولة العثمانية ليستطيع ترسية قواعد حكمه وليتمكن من فتح نيران الثورة على الدولة العثمانية من كل جانب التي تفوق قواته بالعدد والعدة. وقد استطاع بعون الله سبحانه، ثم بمساعدة إخوته على الانتصار عليهم حتى تم له جمع اليمن بأسره تحت لواء الأئمة الزيدية.

ويتضح أن قوات الإمام استطاعت الانتصار في المناطق الجبلية لمهارتهم فيها بخلاف الجند العثماني، فمهارتهم في القتال في السهول.

وقد استطاع الإمام المؤيد أن يكتسح بلاد اليمن ما عدا بعض المناطق، خلال السنة

الأولى من ثورته، وهذا يدل على تذمرُّ الأهالي من الحكم العثماني، فما إن سمعوا بثورة الإمام حتى سارعوا إلى الدخول تحت طاعته؛ ويعود هذا إلى معاملة الولاة العثمانيين للأهالي، فقد اتَّصفوا بالقسوة والتعسف وغلاظة القلوب، على خلاف الطرف الآخر الذي رأى نتائج هذه المعاملة السيئة، وما ترتب عليها فاستفاد من أخطاء الغير، فأحسن معاملة الأهالي وخاصة أهالي البلاد المفتوحة الذين سارعوا بدورهم في الدخول تحت طاعة الإمام بطوعهم غير مجبرين.

وكما تقدم لنا من دراسة أخلاق ومعاملة الإمام وأتباعه تبين لنا الطريقة الناجحة التي استطاع بها اجتذاب أتباع الطرف الآخر وانضمامهم إلى صفوف جيش الإمام.

ودأب قادة الإمام على تولية الولاة السابقين على البلاد المفتوحة لكسب رضاهم، ولأن الأهالي قد تعودوا عليهم ولمعرفتهم بأمور تلك البلاد، وقد كانوا أقدر من غيرهم لتسيير أمورها.

وحرص الإمام على ترابط الأسرة الحاكمة والإمساك بزمام الأمور، ويتضح ذلك في تصرفه مع أبناء أخيه الحسن بعد وفاته عندما شعر بميل الجنود للأميرين محمد وأحمد ابني الحسن، فأمر بتحويل جميع ولايات الأمير الحسن إلى أخيه الحسين وأدَّى ذلك إلى ثورة الأمير أحمد ضد عمه الإمام المؤيد، وكادت تعْصف بالأمن في البلاد، لكن الإمام بعقله وحكمته استطاع أن يقضي على هذه الفتنة بامتصاص غضب ابن أخيه وإرجاعه إلى طاعته.

واتضح لنا اهتمام الإمام المؤيد بعلاقات خارجية مع الدول القريبة والبعيدة مثل الهند والحبشة والمغرب.

وقد نجح في إقناع أشراف مكة المكرمة بالدعوة له على المنابر، وأن تُصَك العُملة باسمه، وهذا معناه الخضوع لدولة الإمام بطريقة غير مباشرة.

لم تَشغل الإمام المؤيد كثرة حروبه عن الناحية الحضارية، سواء أكانت علمية أم عمرانية أم إدارية، فقد اهتم ببناء المدن وزراعة الأرض، وإجراء المياه من النزع وحفر الآبار، وتعبيد الطرق وتأمين حدودها حتى غدت مدناً عظيمة عامرة بالسكان واهتم بالناحية التعليمية بفتحه المدارس وإشرافه المستمر عليها، وتعيين المدرسين الأكفاء، واهتم

هو شخصياً بهذه الناحية، ويتضح ذلك من انكبابه على التأليف في شتى العلوم، فألف العديد من الكتب.

لقد اتصف الإمام المؤيد بحسن معاملته لجميع أصحاب المذاهب الموجودة باليمن، فلم يفرق بين مذهب وآخر، مما جعل أهل هذه المذاهب يتفانون في محبته والانصهار تحت حكمه.

من خلال استعراضنا للبحث تبين لنا مدى اعتزاز الإمام بنسبه، الذي ينتهي إلى سيدنا علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- وأظهر ذلك في كثير من رسائله التي كان يبعث بها إلى الملوك والأمراء.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في تحقيق صورة واضحة لهذه الفترة من تاريخ هذا القطر العربي الإسلامي الشقيق الذي قد أغفله عدَدٌ من مؤرخي وقتنا الحاضر، وأرجو من الله التوفيق والسداد في كل عمل نقصد من ورائه المنفعة العلمية والحمد لله رب العالمين[١].

خلافة الإمام إسماعيل

وعند أن بلغ الخبر إلى صنوه إسماعيل وهو بضوران أجمع رأيه ورأي من لديه من العلماء والأعيان كالقاضي محمد السلامي، والقاضي إبراهيم بن حسن العيزري على أن إسماعيل هو الأنهض بهذا المقام، والأولى بسياسة الأنام. فبرز إلى مسجد الحصين. فبايعه الناس أفواجاً وسلكوا إليها فجاجاً في (٣ شعبان سنة ١٠٥٤هـ) مع ما قد كانوا عرفوا منه أيام السيادة من ملاحظة جانب الشرع، والكرم الذي تميل إليه الخواطر بالطبع، وكان قد أظهر دعوةً السيد العلامة إبراهيم بن محمد المؤيدي في جهات الشام، ودعوة أخرى لملك اليمن عز الإسلام محمد بن الحسن من إب، وتلقب بـ(الهادي لدين الله).

ثم إن المتوكل إسماعيل عاتب أخاه أحمدَ على العجلة بالدعوة، ورجح البعضُ أحمدَ

---

(١) انتهى ما تم اختصاره من رسالة الكاتبة القديرة حياة محمد حمد البسام (الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن) وانظر مصادر البحث للكاتبة في آخر الكتاب.

لتقدم دعوته، والبعضُ إسماعيلَ لرسوخ قدومه في العلوم لا سيما الفقه.

ثم إنه التأم الحال بين محمد بن الحسن وعمه الإمام إسماعيل، وكان ذلك مستهل السعادة المتوكلية، فإن دولة محمد بن الحسن، كانت موازيةً لدولة أبيه، فأقطعه الإمام إسماعيل جميع اليمن الأسفل، وفوَّضه فيما يصير لأخيه أحمد بن الحسن والتقيا بعد ذلك في رأس القفر، وانفصلا، وقد تقررت الأمور ومال بذلك أكثر اليمن إلى المتوكل من ضوران إلى عدن والمشرق وذمار وخولان والحدا.

وعند ذلك خرج من صنعاء أحمد بن الحسن قاصداً لأخيه محمد، وخرج أيضاً العلامة محمد بن الحسين قاصداً للمتوكل، فأنعم الإمام على الجميع بالبلاد، فاتصل أحمد بن الحسن بنصف اليمن الأسفل واتصل محمد بن الحسين ببلاد الشرف وحفاش وملحان وبلاد البستان، ثم أبدل عن الشرف بحراز، وكان بيده من قبل بلادُ البستان فقط (وقد سميت بلاد البستان باسمهم وهم بيت البستان الممتد من بستان المتوكل إلى قرب مسجد الرحمة، وكان للحسين بن القاسم ثم ذريته) وكان تقرير هذه الأمور بشعبان وأكثر رمضان، ثم أمر الإمام أحمد نائبه بصنعاء ابنه محمد بن أحمد، وبها أيضاً العامل المستمر أربعين سنةً علي بن المؤيد بالتقدم، فتقدم محمد بن أحمد، وكان أمير الجيش السيد عز الدين دريب و(شعبان آغا القارني)، فتقدما إلى خدار بجيش جرار، وطردوا عامل المتوكل إسماعيل من تلك الجهات.

فجهز المتوكل السيد المقدام محمد بن الحسين ومعه النقيب سرور شلبي، فتوجه إلى خدار بجيش مختار، وحملوا على القرية حملة رجل واحد، وثبت أصحاب الإمام أحمد في البيوت، فانهزم أصحاب المتوكل إلى رأس نقيل يسلح، ثم بنوا المتارس هناك وثبتوا، وبات البعض منهم بقرية النقيل وأهل خدار لم يميلوا إلى أيهما، وقالوا: الكل إخوان، ونرجو أن يلتئم الجانبان ويصطلح الفريقان.

ثم بادر محمد بن الحسن من ذمار، ومعه أخوه أحمد إلى جهات صنعاء، وجمع خولان والحدا وسنحان وغيرهم، وكتب إلى الأمير محمد بن الحسين، بأن يتقدموا جميعاً إلى صنعاء، وكان الشيخ حسن بن الحاج أحمد الأسدي قد ترتب بريمة حميد مع الإمام أحمد، فرأى من الصواب خروجه إلى يد الأمراء الثلاثة، وعند ذلك رجع الأمير الهادي

بن الشويع إلى صنعاء، واتفق رأي من فيها على تغليقها، وفيها الأميران محمد بن أحمد وعلي بن المؤيد.

واستقر أحمد بن الحسن ومحمد بن الحسين ببئر العزب، واستعجل أحمد بن الحسن بإخراب بيت الخطيب القاضي إبراهيم بن يحيى السحولي جنوبي صنعاء جوار مسجد السعدي؛ لأنه خطب للإمام أحمد بن القاسم، ثم عمره له أحمد بن الحسن. وتحرك الإمام أحمد من شهارة يريد صنعاء، فبلغه حصارها، فتوجه إلى ثلا، وقد انتقل عسكره من خدار إلى حضور، فطلع إليهم محمد بن الحسين، وهي بلاده، فواجههم ببيت ردم وأرعد وأبرق، فواجهته العساكر جميعها بسلام، ثم وصلت بيعة الأمير الناصر بن عبد الرب وبيعة الحسين بن المؤيد للمتوكل إسماعيل، وكانا قد أجابا الإمامَ أحمدَ، لكنهما رأيا حركات التمام في غير انتظام، فأخذا بقائم الأمر الواقع.

وفي يوم (الاثنين ١٧ رمضان سنة ١٠٥٤هـ) خرج الإمام أحمد بن القاسم من شهارة إلى خمر، ثم عمران، ثم ثلا، فسار محمد بن الحسين إلى ثلا، فالتقاه الأمير الناصر إلى قاع حوشان، وقصدا ثلا، فشرع الحرب ممن بها.

وكان أحمد بن الحسن قد بعث بياقوت شلبي وعسكراً إلى بني ميمون، فمنع الصادر والوارد، ولما انفتح الحرب بثلا جد واجتهد الإمام أحمد على الإبلاء، وحرَّض على الثبات، وفَعل فِعْلَ الكماة، وقتل من الجانبين زهاء سبعة أنفار، وخلص الأمر عن هزيمة جيش الإمام أحمد، (وربك يخلق ما يشاء ويختار)، فانحاز إلى قلعة ثلا ليلةً واحدة، ثم خاطب بالخروج والوصول إلى حضرة أخيه إسماعيل، وخرج من ثلا ليلة (السبت ٣ شوال)، ثم توجه الجميع إلى حضرة المتوكل بضوران، وصحبته قاضيه الأكبر وخطيبه وعوينه وحبيبه القاضي أحمد بن سعد الدين المسوري، والسيد صارم الدين إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد، وكفى الله المؤمنين القتال. ودخل أحمد بن الحسن صنعاء، وخطب القاضي إبراهيم السحولي للإمام المتوكل، وكان عوامُّ البلدان قد تأهبوا لنهب صنعاء، كما هو شأن الطغام، فلما حصل هذا الإلتئام وصلاح الشأن رجع كلٌّ إلى محله، وبعد أن بايع أحمد بن الإمام للمتوكل إسماعيل وجَّهه إلى صعدة وما إليها وأطلق يده في واجباتها، وجعله أميراً عليها، كما جعله أبوهما الإمام القاسم سابقاً.

وفيها خالفت المعازبة بتهامة، ثم صلحوا وانتظم أمرهم أحسن الانتظام.

واستقر واستمر صفي الإسلام أحمد بن الإمام بصعدة، وكان ولده عز الإسلام محمد بن أحمد الملقب الجثَّام قد برز في الرئاسة وظهر عنه محمود السياسة، فعينه الإمام المتوكل على جميع بلاد البون وبلاد القبلة إلى خمر، وسكن محل والده بالروضة ومحل إمارته عمران. وأما الحسين بن المؤيد، فوجه الإمام المتوكل إليه ولاية بلاد عفّار وشهارة والشرف الأسفل.

وفي (سنة ١٠٥٥هـ) تاقت نفس السيد عبد الله بن عامر الشهيد بن علي إلى الزعامة والتسمِّي بمنصب الإمامة، فتقدم من حوث إلى وادعة وأظهر الخلاف والمنازعة، فجهز الإمام ولد أخيه الجثام محمد بن أحمد، وكان بخمر فسار منها إلى الحصن فجمع وادعة وسوقها فاستدرك الأمر بعد قتال قتل فيه واحد من وادعة وثلاثة من العكسر، وعثرت أربع من الخيل وهرب السيد عبد الله إلى بلاد شاطب، وسلم من الوقوع في لهوات المعاطب.

وفيات

أبكر الحسيني

وفيه مات الشيخ السيد المعتقد أبكر الحسيني بمساقط بلاد حراز. وكان ذا براهين قاطعة وأنوار ساطعة، وفي خلاصة الأثر: إن السيد أبا بكر بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن أبي بكر بن القاسم بن أبي بكر بن القاسم بن عُمر بن علي الأهدل الحسيني، توفي في (جمادى الآخرة سنة ١٠٣٥هـ) في قرية المحطة بتهامة.

إبراهيم بن علي الحوثي

وفي (سنة ١٠٥٤هـ) توفي السيد العلامة شمس الدين إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي العالم بن المهدي بن صلاح بن علي بن أحمد بن محمد بن جعفر القاسمي الشرفي العالم الحوثي. كان من الصالحين، لم يتول شيئاً من الأعمال.

المؤرخ طاهر بن يحيى

وفيه توفي الشيخ المؤرخ طاهر بن يحيى ببلدة المنصورية بتهامة أسفل وادي سهام. وهم يذكرون أنهم سادة حسينيون ولهم هناك جاه واسع وأفضال، واستقامة باطن ونمو أحوال.

وكان قد عاون في فصل الشريعة ثم عذر نفسه، وخلفه في زاويته ابنه محمد بن طاهر.

ويذكر عنه أنه زجر (الباشا قانصوه) عن اليمن وأهله حال خروجه إليه، فلم يلتفت إلى كلامه، فلما وقع فيما وقع فيه مر عليه، وطلب منه العفو، واعترف وأهدى له نسخةً من القاموس ونسخةً من حياة الحيوان الكبرى. ولما مر عليه شرف الإسلام الحسن بن الإمام، أضافه إضافةً سنية، وقام بسائر خاصته وفرَّق عساكره في البلاد وفعَل فعلاتِ الأجواد.

وفيها ملك صاحب عمان الأباضي بندر مسكت الذي في سواحل بلاده، وكان في أيدي الفرنج، وما كان يُظَن استيلاؤه عليه، ولكنَّه دبَّ بالحيلة إليه بأن أنفذ جماعات في قالَب الدراويش، فلما علم أنهم قد صاروا نصاباً لرتبة القلعة أمرهم بالفتك بمن فيها بالسكاكين المعدة معهم، ففتكوا بمن في القلعة عن آخرهم، وبعد ذلك، أمن التجار الذين يخرجون من البحرين والعراق والعجم إلى اليمن. ويقال - والله أعلم -: إن الأباضية يكفِّرون بالمعصية، ولا يعملون بالشهادة، إذا لم يصدقها المدعى عليه، وإذا أنكرت الزوجةُ الزوجيَّة فُرِّق بينهما بمجرد دعواها، وكذا المملوك إذا ادعى عدم الملكية وهي روايات غريبة بعيدة.

وفيها مات الشريف الرئيس هاشم بن حازم بقطعته بلدة زبيد، ولما مات وجد في وصيته أن خيله تكون لبيت المال. وله تعلق بالعلم وأهله. وكان من القادة الكبار مع الحسن، في حصار الأتراك بزبيد، وتقدم له ذكر حسن في (سنة ١٠٤٤هـ).

فتح عدن

وفي (شوال سنة ١٠٥٥هـ) سار الإمام المتوكل من ضوران إلى صنعاء، فاستقر بها أياماً، وجهَّز ابن أخيه أحمد بن الحسن على الأمير الحسين بن عبد القادر بعدن وأبين. وقد ذكرنا فيما مضى انفصال الصفي عنه بخاطر مكسور، ويذكر أنه في أثناء ذلك المقام اطلع أحمدُ من سيرة المذكور على ما يقبح من الأمور فأسرَّها لهذا الوقت، وزحزحه عن

ذلك التخت.

ولما وصل الصفي إلى تلك الديار شبَّ على الأمير سعير النار وأحاطت ببلاده أجناده وضاقت به أغواره وأنجاده، فاقتدح الأمير زنداً، ولم يترك من الجلاد جهداً، وأصدق أصحابه السيف في أصحاب الصفي حتى أُفرِدت لهم مقبرة تعرف بمقبرة أحمد بن الحسن، ثم أن الصفي شدَّ له شدة الهصور، وأحاطت أجناده به إحاطة السور، فكانت الهزيمة فيه وفي حزبه، وخرج عن مملكته مصاحباً لكربه، واستولى الصفيُّ على ذخائره وخزنته. فلجأ الأمير إلى يافع، بعد أن علم أن ليس له عاصم ولا نافع، ثم إن الصفيَّ قرر ولاةً على البلاد، بعد أن تم له المراد، وعاد إلى صنعاء حضرة الإمام، وقد وقع على الركاز وظفر بالمرام. ولما شارف العسكر دخول صنعاء وقع بين معسكره وأهل كوكبان ما لا يزال بين العسكر من المنافسة على البيارق، فوقع خصام وترام بالبنادق، ذهب من عسكر كوكبان ثلاثة أنفار، ولما وافَى الصفيُّ حضرةَ الإمام قرَّ نظرُه وطاب منه خُبْرُهُ وخَبَرُهُ.

وفي ذيل رَوح الرُّوح: أن توجّه المولى أحمد بن الحسن من صنعاء إلى بلاد خنفر عدن وأبين في (يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ١٠٥٥هـ). وفي (يوم السبت ١٠ شعبان)، وصل الإمام المتوكل إلى صنعاء ورجوع أحمد بن الحسن من عدن، وما كان بين جنده وجند الأمير الناصر بن عبد الرب أمير كوكبان، كل ذلك في شعبان (سنة ١٠٥٥هـ).

وفي (شعبان سنة ١٠٥٥هـ)، كان رخص الأسعار وتفجر الأنهار وصفاء الأحوال. وفيه كان بمكة المشرفة السيل الرائع دخل الحرم والكعبة المشرفة، وصعد جدارها حتى حاذى القناديل وأخرب جانبي البيت المعمور، وفيه قال السيد إسماعيل بن إبراهيم جحاف:

أتى السيلُ مجتازاً بمكة موهناً ... فطهرها واجتاح منها أباطيلا
وما قصَد الضُّر الشنيعَ وإنما ... أراد من البيت المعظم تقبيلا
يقولون أرخ كونَه قلت فاحسبوا ... (سمعت بأن الماء لاقى القناديلا)

(٥٧٠)(١٢٥)(١٣٢)(٢٢٧)= (سنة١٠٥٤هـ)

وللقاضي عبد الرحمن بن محمد الحيمي:-

إن شئت تدري لطيف صنع قضَى به الله في بناه
في حرم الأمن حيث يُعطَى لطالب الأمر ما رجاه
إذ طاف بالبيت طائف الما وخرٌ إذ ذاك جانباه
(بشهر شعبان جاك سيل)
(٩٣٠) + (١٢٤) = (١٠٥٤ هـ)

وفيــــات

الحسين بن عبد الله الحمزي

في (٦ شعبان سنة ١٠٥٥هـ) توفي السيد الحسين بن عبد الله الحمزي الحسَني الكوكباني الشهير بالأدرن عن سن عالية. وكان حافظاً لأخبار أيام المطهر بن شرف الدين وأيام الأتراك، ووُزِّر للأمير علي يحيى بن المطهر وغيره.

صلاح بن عبد الخالق جحاف

وفي هذا العام مات السيد العلامة الأديب صلاح بن عبد الخالق بن يحيى بن الهادي بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد جحاف. وفي الطبقات والبغية: إن وفاته في جمادَى الأولى (سنة ١٠٥٣هـ) بحبور. قرأ على الإمام المؤيد بالله بن القاسم والقاضي أحمد بن سعد الدين المسوري في (سنة ١٠٣٤هـ). وكان إمام الآداب ونادرة وقته، وأقام آخر أيامه بحبور والصحيح أن وفاته (سنة ١٠٥٥هـ)، وكان ذا دراية بأصول الفقه والعربية شاعراً محاضراً، وله شرح على تكملة الأحكام، وله قصيدة نقم فيها على الهر الذي أكمل الحمام:

يا هر في غير حفظ الواحد الصمد احتثت سيرك عن داري وعن بلدي
وقد نزلت فأحسنَّا جوارك لم نبخل عليك بما تحويه ذات يد
رجوتُ أنكَ تكفينا أذيةَ ما في البيت من جُرَذٍ عاد ومن خُلَدِ
فلم ترعها بشيء بل عمدت إلى حمامةٍ ضعفت في البطش والجلد
ضعيفة لم تكن تدري بفتكك يا أعق ما خلَق الرحمن من ولد

أبديت رعشة منهوك فحين دنت ... فعلتَ ما يفعل الضرغامُ ذو اللُّبَد
أما نظرت إلى أطوافها ولها ... تلوُّن الدرِّ فوق الجِيْد ذي الجَيَد
وحين رابك ما في النفس من جزع ... رحلت غضبانَ لم تعطف و لم تعد
و لم تطف بفناء الدار قط سوى ... في الأربعاء لأجل اللحم والأحد
هذا جزاء امرئ غذاك نعمته ... بالمخض تكشف عنه رغوة الزبد
فالآن ثُبتَ إلى بيداء بلقعة ... أو مهمه في أقاصي الأرض منجرد
وحقٍّ من قال إن الطير آمنةٌ ... في وكرها في أداني الأرض والبُعُد
والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبانُ مكة بين الغيل والسند
لو أنها علمت هذا إذاً لنجت ... فالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد
وقد رضيت بأن الفأر يفسد في ... داري ويسعى لضري سعيَ مجتهد
فخلنا غير مأسوفٍ عليك ولا ... برحتَ ما عشت في هم وفي نكد
فما أقول لنفسي فيك مُتَّسِياً ... (إحدى يدي أصابتني و لم تزد
كلاكما خلف من بعد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي)
بل سوف أنشد تسكيناً لخاطرها ... (لله يبقى على الأيام ذو حيد)

فأجاب على لسان الهر السيد العلامة الجدلي الحسن بن أحمد الجلالي:-

سمعتُ عتبك والتأنيبَ يا سندي ... فهاج لي حسرة أوهى بها جلدي
وصرت أعجب من دعواك أنك لم ... تبخل علي بما تحويه ذاتُ يد
إذ تلك دعوى ولا برهان يصحبها ... ومثل ذلك عند الحق لم يُفد
فما أقول كما قلتم إلي جَفَاً ... يا هر في غير حفظ الواحد الصمد
لكنني مظهر ما كنت أستره ... كَيلاً لخلي كما قد كال لم أزِد
خدمتُكم غَير وانٍ في منافعكم ... ولا لأعدائكم أبقيت من سَبَد
وبالخصاصة أرضَى في محبتكم ... ما لي سوى قطعةٍ في الوعد من كبد
دليله قولكم ما جئت قط سوى ... في الأربعاء لأجل اللحم والأحد

علامَ يُهضَم قدري بين أظهركم ... وصفع رأسي من شيخ ومن ولد
أقول للنفس إن الربَّ سطوتُه ... كالدهر لا عار فارضَيْها ولا تَحِدي
حتى غدا دأبكم كفران منفعتي ... لنظمك الزور قولاً غيرَ معتقِد
فقلت للنفس أرض الله واسعة ... وكل موت ولا موت على الكمد
وخدمة المرء مولًى ليس يعرفها ... ولا يُقر بها من أعظم النكد
(ولا يقيم على ضيمٍ يراد به ... سوى الأذلّين عير الحي والوتد)
فجد جدي ولا زاد ولا سغب ... وليس إلاّ به الإمضا إلى الأبد
وقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أجهد حتى لات مُجتَهد
حتى عمدتُ ولي في ذاك مأربةٌ ... إلى الحمامة ذات المنطق الغرد
لأذهبَ الجوع إذ أنفدتُ فاركمُ ... وتعلموا سطوتي فيهم بلا عُدَد
إذ تلك تشبههم بل هي أحق كما ... قد قلت تنجو من الشؤبوب ذي البرد
ولو رعيتَ حقوقي منك أجمعها ... وحقُ مثلي حقٌ هيّن المدد
(ما إن أتيت بشيءٍ أنت تكرهه ... إذاً فلا رفعت سوطي إلي يدي)
(ها أنّ معذرةٌ إن لم تكن نفعت ... فإن صاحبها قد تاه في البلد)

وقد أورد ابن خلكان والدميري في حياة الحيوان قصيدةً نَفَسُها هذا النفَس في غير الوزن:

يا هر فارقتنا ولم تعد ... وكنتَ عندي بمنزل الولد

وهي لأبكر الحسن بن علي بن العلاف المقري.

الحسن بن شمس الدين جحاف

وفيها توفي السيد العلامة الحسن بن شمس الدين جحاف. وكان ذا دراية بعلوم العربية والمنطق زاهداً خاملاً. وهو خال الإمام المتوكل إسماعيل، أقام أعواماً بمجسد الأخضر بصنعاء، وله ترجمة مفيدة في مطالع البدور، وفي الطبقات.

أحمد بن محمد الشرفي

وفي (٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٥٥هـ) توفي ودفن بمعمرة الأهنوم عن (٨١ سنة) السيد العلامة الكبير أحمد بن محمد بن صلاح بن أحمد بن محمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود المترجم بن عبد الله بن القاسم بن سليمان بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن القاسم الجراري — نسبة إلى جرارة قرية بالبون — بن محمد بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. مولده (سنة ١٠٧٥هـ)[1]. ومن جملة مشائخه الإمام القاسم، وله تلامذة جهابذة وأخبار حسنة وأشعار وجهاد واجتهاد. وله (ضياءُ ذوي الأبصار شرح الأزهار) في أربعة مجلدات (وشفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس) في مجلدين، و(مختصره عدة الأكياس المنتزع من شفاء صدور الناس) في مجلد، وله (اللآلئ المضيئة في مناقب أئمة الزيدية) في ثلاثة مجلدات ضخمة، شرح حافل لبسامة الوزير وذيلها بذكر القاسم والمؤيد للشرفي، وكان مفتياً بصنعاء.

محمد بن أحمد السلفي

في آخر (سنة ١٠٥٥هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة محمد بن أحمد السلفي. وكان له معرفة تامة بعلم العربية والأصول، وكان حافظاً للقرآن الكريم يتلوه سفراً وحضراً، ولي مخلاف حراز مدة. ثم عرض له آخر مدته استعطاش، فترك الولاية وطلع صنعاء، وسكن بداره ببئر العزب. وجمع كتباً نفيسة في الحديث وفي سائر الفنون، وأجازه بعض علماء الشافعية وقبر بخزيمة. ومن مآثره البناء بمقدم مسجد قرية القابل.

حوادث

وفيها خرج أحمد بن الحسن بأمر عمه المتوكل على الله إلى بلاد ملاحا من أطراف خولان، وكان الطاغوت قد فشا فيهم وتغلبوا على الحقوق الواجبة وصرفوها فيما يريدون. وسائر بلاد خولان قد هموا بذلك، فلما أوقع بهم الصفي حذر الكل.

---

(١) أي إبراهيم.

وفيها أمر محمد بن الحسن بعمارة مشهد على قبر الإمام أبي الفتح الديلمي شرقي ذمار بجنوب بنجد الجاح طرف قاع القعودين، وأمرت زوجته الشريفة دهما بنت المؤيد بالله ببناء سمسرة هنالك للمسافرين.

وفي (سنة ١٠٥٦هـ) أعلن السيد إبراهيم بن محمد حورية المؤيدي بدعوته، ودعا الناس إلى بيعته وهو من العلم بمكان، ومن المنصب بحيث لا يختلف فيه اثنان.

من آل يحيى مساميح قساور في الـ		ـهيجاء سُنّع الأسامي مسبلي الأزُرِ

وله في الشام أتباع وأعوان، قد حَلَّ منهم محل الروح من الأبدان، فهو أنفس عندهم من الزمرد الأخضر، وأعز عندهم من الكبريت الأحمر، يودعون دراريَ فتاواه أصدافَ قلوبهم.

ولما استفاض هذا الخبر وشاع، وجَّه الإمامُ كفايةَ هذا المهم إلى ابن أخيه المقدام محمد بن الحسن بن الإمام، فنهض بجيش كثير. ولما تخلل بلاده استوثق عليه من الجهات وسلك في سبيل قبضه كل الطرقات فهيَّأ الله أسباب الصلاح، ونادى مناد الظفر حي على الفلاح، وانقلب به عز الإسلام إلى حضرة عمه الإمام، وهو بصنعاء، فجمع الأعيان بديوان القصر.

وتقدم إليه السيد المذكور مؤدياً لبيعته ملاطفاً للحضرة بما حضره من لطيف المقال، ثم طلب الرخصة من الإمام في عوده إلى الشام، فأنعم عليه بذلك المطلب وساعده إلى ما أحب.

ولَمَّا وصل إلى عِيان ببلاد سفيان اجتمع بقضاة من آل العنسي وغيرهم، فأفاض عليهم أنها لم تكن بيعته للمتوكل عن اعتقاد صحيح، وللتقيَّةِ فيها مسرح فسيح، فلم يحصل منهم على ما يشفي الفؤاد، ولا ظفر منهم ببعض المراد، فنفذ إلى بعض الشام، وأفاض عليهم ذلك الكلام، فقالوا له: الأمر إليك، فانهض ولا بأس عليك، وأعاد ذلك النداء حتى عاد الأمر كما بدأ.

ووفدت الأراجيف إلى صنعاء، ففزع الإمام إلى ابن أخيه المقدام أحمد بن الحسن بن الإمام، فتوجه تلقاءَ مدين، ذلك المطلوب، وانفصل في أبهى زِي وأبهج أسلوب. وحين ضربت في (بوصان) خيامُه، ونُصبت في ذلك المقام أعلامُه، تفرق شمل أصحاب

الصارم[١]، وعلموا أنه لا قدرة لهم على ذلك الصارم، ولما تكدَّرَتْ عليه الحياض، وانحاز إلى أطراف بلاد قراض، أنشد لسان حاله:

هو الخط خذه إن أردتَ مسلَّماً ولا تطلب التعديلَ فالأمرُ مُبهَمُ

وكتب من هجرة باقم هذه الرسالة:-

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله مدبر الأمور على مقتضى إرادته كل يوم هو في شأن، المتصرف في مصالح خلقه على مر الدهور بلطيف حكمته من غير مؤازر ولا ثان. والصلاة والسلام على المبعوث لإعلاء كلمته في الإنسِ والجان، وعلى آله المطهرين أحسن طهور من رجس الشيطان والمترهين عن معصيته، فهم لأهل الأرض أمان.

وبعدُ.. فليُعلَم أن الداعي إلى الله بالمغفرة وراجيها إبراهيم بن محمد بن عز الدين ثبته الله على قواعد الشريعة ومبانيها، يقول: لما ظهرت الدعوة المتوكلية ظهور الشمس عقيب ليل الفتن، دان لها ذوو العقول وخضعت لها غُلْبُ الرقاب، ورفعها المسلمون معزين لها ومكرمين، وذهبوا إليها ثبات وعِزين.

ووُكِّل بها قوم ليسوا بها بكافرين حتى صارت ماضية لشأنها قائلةً بلسانها:

دعوني أجوبُ الأرض في طلب العُلا

وعقد المسلمون للمسرة بها تاجاً، ودخل تحت أوامرها المسلمون أفواجاً، وما ذاك إلاَّ لأنَّ مُتحملَها ينبوع العلم الفوَّار، وغيث الفضائل المدرار، وزبرقان الفلك الدوَّار.

عليمٌ رست للعلم في بحر صدره جبالٌ جبالُ الأرض في جنبها قُفُّ

ذلك فاتح الأرتاج، ودرة التاج، المولى أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين إسماعيل بن أمير المؤمنين، فعند أن خصه الله بالخصائص الجليلة، ورأيت المصلحة في مخالفته قليلة، وقد أمر الله بالوفاق، فقال تعالى: **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾**[الشورى:١٣] سلمت ما كنت تحملته من الأعباء الثقيلة، تسليمَ راضٍ لا شبهة فيه ولا حيلة، لوليه وابن وليِّه الإمام المذكور المتوكل على الله إسماعيل.

---

(١) أي إبراهيم.

إلى قولــه: فليعلم من وقف على مكتوبي هذا ما التزمتُه من أحكام الطاعة للإمــام، وأن ما تقدم مني واعتقدت فيه المطابقة لمراد الملك العلاَّم، فإن كنت موافقاً لمراد الله فقد مضَى بما فيه من الأجر، وإلاَّ فأنا أستغفر الله وأسأله التوفيق فإليه مرجع الأمر، والإنسان محل الخطأ والنسيان، والكريم محل المسامحة والغفران، وقد ألزمت نفسي بالوفاق وأوقفتها عن حلبة السباق، وأنا أستغفر الله، وجل من لا عيب فيه وعلا.

ألا لا أبــالي مــن رمــاني بريبــةٍ إذا كنــت عنــد الله غــير مريــب

إلخ..

حرر يوم الجمعة من (شهر جمادى الأولى سنة ١٠٥٦هــ).

وكتب القاضي العلامة أحمد بن يحيى حابس على هذه الرسالة اسمه وحرر فيها لمزيد التأكيد رسمه.

وسيأتي في (سنة ١٠٦١هــ) ما يضاف إلى هذا الكلام. ثم عاد أحمد بن الحسن من بوصان في (١٧ جمادى الآخرة)، واستناب بعض أصحابه يتأخر بعده في تخليـص آداب على أهل نجران ومن يليهم من البدوان لذنوب اجترموهــا، خــالفوا الشــرائع ومــا احترموها.

وفيها اتفق بين أهل صنعاء وأهل برط خصام أفضَى إلى قتل رجلين من برط وخرجوا عن صنعاء هاربين إلى فوق مصلى العيد، ثم إن الإمام عطف عليهم وأحســن بــالقول والفعل إليهم.

وفيها سار الإمام إلى شهارة وأمر ألاَّ تؤخذ زكاة السوائم إلا من النصاب التَّام.

وفيها أمر الإمام بقطع شجرة في بلاد عذر، اعتقد فيها العوام بــالتعظيم والنــذور، وكادت أن تصير كشجرة ذات نواط التي كانت في وقت رسول الله - صلى الله عليــه وآله وسلم-.

وفيها نزلت بجامع صنعاء صاعقة، فأخذت جانباً من المنارة الشرقية، وفتحت باباً في عرضها ونفذت إلى المؤخر، فأهلكت رجلين كانا في الصلاة.

وفي ذي الحجة وقعت زلزلة بصنعاء وغيرها، ولما عاد أحمد بن الحسن بعــد أخــذه موالاة صارم الدين إبراهيم المؤيدي هنأه كثيرون بتهانٍ منها:

لا زلت معتضداً بالنصر والظفر مسَلَّماً من يد الأحداث والغِيرِ

ومنها:

جمعت شملاً لآل المصطفى فغدا يختال في حلل الديباج والحبر
وافاك صارم أهل البيت منتضياً فاضرب به وهو بالإجلال منك حري
وسَلِّم الأمرَ في برصان معتمداً بحسن رأيك يا ابن الطهر من مضر
ولم يكن شارطاً شرطاً لتعطيه من الولايات أو شيئاً من البِدَر
سوى الأمان له أو من يلم به مدَى الزمان ودفع الجور والضرر
وأنت أهل لما يرجوك من منن من الإمام إمام البدو والحضر

وكان نية أحمد بن الحسن الحج، فرجح الإمام تأخيره إلى العام القابل لانزعاج العثمانيين بمكة لما كان ببوصان وتوهموا سريانه إليهم، ورتبوا جدة وغيرها، مع توهمهم في موالاة الشريف زيد بن محسن للإمام لما قوبل به ووالد بصنعاء من الإحسان، وإنما كان يداجي السلطنة.

وفيات سنة ١٠٥٦هـ

الهادي بن المطهر الشويع

وفي (سنة ١٠٥٦هـ) توفي الأمير المقدام الهادي بن المطهر بن الشويع بصنعاء. وكان إليه ولاية لهم.

إبراهيم بن أحمد عامر

وعلى الصحيح كانت وفاة السيد الأفضل إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد بشهارة في (١٧ رجب سنة ١٠٥٦هـ). وله خطب نافعة ومواعظ وازعة وعلم واسع وأعمال مشكورة. ومولده في شوال (سنة ١٠١٨هـ). وكان علامة كريماً مطلقاً، فقضاها خاله الإمام المؤيد بن القاسم.

زين العابدين بن العيدروس

وتوفي (سنة ١٠٥٦هـ) السيد العلامة زين العابدين العيدروس الشافعي. وكان ذا

وفيها استخرج المولى محمد بن الحسن غيل المحدادة، وهو نهر عظيم، عذب الماء من تحت سوق المحدادة بصنعاء، يسقي من باب شعوب إلى الجراف. وصارت غيول الروضة سبعة، وهو من الأنهار القديمة، وقد ظهر في أيام الإمام المتوكل شرف الدين، ثم غار إلى هذا العام.

وفيها خطب السلطان ناصر بن عمر الكثيري للإمام بحضرموت، فنازعه أقاربه وهجموا عليه ليلاً في زي النساء، وأوثقوه رباطاً وخلعوه وسجنوه، وقلدوا السلطنة بدر بن عبد الله.

فلما بلغ الإمام اهتم بإرجاعه إلى سلطنته، فلم يلتفتوا، فسكت الإمام على مضض حتى كان ما سيأتي.

وفي (سنة ١٠٥٨هـ) نهض أحمد بن الحسن عن أمر الإمام إلى الجوف (بخمسمائة راجل ومائة فارس)، فوصل إليه ببراقش الأشراف آل شكر والحمزيون، فرفعوا ولاتهم عن الحصون، وولّى من يرضاه، ثم نفذ إلى معين والزاهر، ثم رجع إلى معين وغزا بدواناً من المفسدين، فاكتسح (٢٥٠ من الإبل)، وخضعوا له بالطاعة، ثم أغراه جماعة أن يغزو الجدعان وراءَ جبل اللَّوذ، فتقدم من معين إلى قريب الحلق، فحذروه بلزوم الاستعداد، فاتهمهم وتوجه من العصر إلى الفجر، فلم يجدهم باللوذ، ولعلهم أُنذروا.

فنفذ إلى القرظ ساكنه الجدعان ودهمه، ولا يوجد فيه ماء، فاحتشدوا من الشرق، ووقع بعض قتال ساعةً قتل منهم ستة وأُسر من مشائخهم جماعة وفر الباقون، ونفرت الخيل وتفرقت في الأودية، وقد كادت تهلك المحطة جميعها لعدم الماء، لولا أن المشائخ الأَسْرى دلوا على الماء اليسير، ثم عادت المحطة جميعاً إلى اللَّوذ نصف الليل، ووجدوا ماءً في الآبار شربت منه الخيل، وارتحلوا آخر الليل.

فلما صاروا بالرمل أسفل جبل اللَّوذ غلبهم الحر والعطش، وأمنوا فتفرقوا وأختل النظام وأجهدهم العطش، فشربوا ماءَ الحنظل والأبوال، ولقوا من الشدائد ما لم يخطر ببال.

مهامه لم يَملك بها الذئبُ نفسَه ولا حملت فيها الغرابَ قوادمُه

ثم وصلوا الحلق عصر ذلك اليوم بعد جهد جهيد، وفُقِد (١٣ رجلاً)، ومن الخيل ربعها، وبقي أحمد بن الحسن بالحلق ستة أيام حتى تراجعت إليه المحطة، وبعد أن ثَبَّت

الحصون وأزال المعاملات بالربا وبالطاغوت أسرع العود إلى الروضة ووجد في نفسه على الذين دَلُّوه من ذو حسين إلى هذا المذهب، وبعد أيام سلمت الجدعان دية الذين قُتلوا خوفَ العواقب.

وفيها حج أحمد بن الحسن حجته الثالثة بعد حجتين في أيام المؤيد.

وطلع الإمام شهارة وقد ضاقت الأحوال لعدم الماء، فصلى بهم الجمعة واستسقى، فأنزل الله الغيث الهنيء.

وفيات سنة ١٠٥٧هـ

الحسن بن علي العبالي

وفي (سنة ١٠٥٧هـ) مات بالظفير السيد العلامة الحسن بن علي بن صلاح بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبدالله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن القاسم الرسي المعروف بالعُبالي، نسبة إلى محل العُبال في بلاد حجة.

قرأ على الشيخ لطف الله بن محمد الغياث، والإمام القاسم وزوجه بابنته الشريفة جمانة بنت الإمام القاسم. وكان إماماً في المعقول والمنقول، شيخاً للعلماء الجهابذة الفحول، عالي الرتبة، حاوياً للفضل، مرجوعاً إليه سيما في علم الآلة. هاجر إلى شهارة واستمر بها، ثم انتقل قبل وفاته إلى ظفير حجة، كما في الطبقات أن وفاته في (جمادى الآخرة سنة ١٠٥٦هـ)، ولعله الأصح، وله شعر جيد.

وكان ممن تأنَّى عن مبايعة المولى أحمد بن القاسم وحث على مفاوضة أخيه إسماعيل أولاً، فلم يُساعَد على ما اختار، وأخذت بيعته بدون الاختيار.

حوادث سنة ١٠٥٨هـ

وفي (سنة ١٠٥٨هـ) حصل في مياه الآبار والأنهار زيادة ظاهرة في صنعاء وما حولها كالروضة والجراف، وظهر غيل الجراف بأيسر حفر، وجرى من أعلى السد بشعوب واستدام وانتفع به أهل الجراف، واستراح الناس من عناء المساني باستصلاح

العيون الغوَّارات والساعي في استخراجه هو المولى محمد بن الحسن، وهو أساس قديم دفنته الدولة الطاهرية مع دفن غيول صنعاء. وتعقبه استنباط غيل آخر للمولى علي بن الإمام المؤيد عامل صنعاء، استخرجه بأقرب عمل وجره إلى مناظر الحشيشية، فسقاها وفاض إلى الروضة.

وفيها وقعت بين الإمام المتوكل وعلماء عصره مطارحات ومراجعات منها: ما هو في التكفير بالإلزام الذي يذهب إليه الإمام المتوكل، ووضع في ذلك رسالةً القاضي العلامة عبد القادر بن علي المحيرسي، تدل على غزارة علمه ورسوخ قدمه.

ومنها في شأن التأديب الذي يعم البلد، وسببه خاص.

ومنها ماهو في شأن المكوس والمجابي، ومنها ما هو يتعلق بالزكاة. والمطارحات والمراجعات ما زالت بين المخلوقين حتى بين الأنبياء المعصومين. كما اتفق بين آدم وموسى في حديث الصحيحين محاجَّة موسى لآدم بقوله: (ما بالُك أخرجتنا ونفسَك من الجنة وآخرُه فحج آدمُ موسى)، ولما سأل يحيى بن الحسين بن القاسم صاحبُ أنباء الزمن المتوكلَ إسماعيلَ عن المطالب الشهرية التي تؤخذ من أهل اليمن الأسفل، وسبب أخذها كان من جملة جواب المتوكل أن مذهب أهل العدل أن المجبرةَ والمشبهةَ كفار تأويل، وأن الكفار إذا استولوا على أرض المسلمين ملكوها، وأنه يدخل في حكمهم من والاهم واعتزى إليهم، ولو كان معتقده يخالف معتقدهم، وأن البلاد التي تظهر فيها كلمة الكفر كفرية، ولو سكنها من لا يعتقد الكفر، ونحن أخرجنا الأتراك فملكنا كل البلاد التي أخرجناهم منها، فنضع عليها ما نشاء، ثم قال: هذه الأصول معلومة عندنا بأدلتها القطعية ومدوَّنة في كتب أئمتنا، ولا ينكر ذلك عنهم أحد ممن له أدنى بصيرة ومعرفة بمصنفاتهم، كالأزهار وغيره... إلى أن قال: فإذا استفتح الإمامُ شيئاً من البلاد التي كانت تحت الأتراك، فله أن يضع عليها ما شاء، سواء كان أهلها ممن هو باق على ذلك المذهب أم من أهل العدل.

فالمقلّد من الناس إن أراد أن يكتفي بالتقليد فهذه الأمور معروفة في المختصرات، وإن أحب الوقوف على الدليل ففي المطولات ما يكفي ويشفي.

ومما رد به المولى يحيى بن الحسين بن القاسم على المتوكل، قوله: ((إنكم لستم الذين

أخرجتم الأتراك وحدكم، وإنما أخرجهم جميع أهل اليمن، فيملك كل واحد ما تحت يده، ولا تملكونه أنتم، وهذا بناء على أساسكم بالتكفير باللازم، ولا نسلّمه، فتكفير من أصله الإسلام خطر ويحتاج إلى دليل قطعي لا تكفي فيه هذه القواعد)).

ثم جاء العلامة المجتهد الإمام الورع نخبة آل القاسم الحسين بن عبد القادر بن علي بن الحسين بن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم، فناصح المنصور حسين بن المتوكل قاسم بن الحسين بن المهدي وآل الإمام بقصيدته الآتية في ترجمته ومنها:

قد استبدوا ببيت المال أجمعه ... وأخذُه من ذوي الإسلام عدوانُ
قالوا : إمامُهم إسماعيل عالمُهم ... أفتاهمُ بمقال فيه برهانُ
يقول إن جنود الترك كافرةٌ ... دانت لهم من جميع القطر بلدانُ
وبعدَهم قد ملكناها بقوتنا ... صارت إلينا حلالاً بعد ما بانوا
وكلُّ شخص من الزراع عامُلنا ... على الذي بيديه أينما كانوا
أصولنا تقتضي هذا فلا حرجٌ ... بما أخذنا، ولا والقولُ بهتانُ
إبليسُ سوَّلَ هذا والنفوسُ دعت ... إليه، رغبتُها فيه لها شانُ
هذي الخيالات لا تجدي ليوم غدٍ ... إذا قضى بين أهل الأرض ديان

ولعل المتوكل إسماعيل يشير بقوله: إن ذلك في كتب الأئمة كالأزهار وغيره إلى ما في الأزهار في آخر كتاب الخمُس (وما أجلَى عنها أهلُها بلا إيجاف فملك للإمام وتورث عنه)، لكن قوله (بلا إيجاف) لا ينطبق على ذلك، فالظاهر أنه يشير المتوكل إلى ما في الأزهار في كتاب السيرَ. وفي العلَم الشامخ للمقبلي مزيد إيضاح.

ومن المراجعات والمطارحات ما جرى بين المتوكل إسماعيل والسيد الحسن بن أحمد الجلال، حيث اعترض على المتوكل في قتاله لأهل المشرق الشافعية لأجل أخذه الزكاة منهم برسالة الجلال، (براءة الذمة بنصح إمام الأمة) ومن كلام الجلال للمتوكل: ((إنك تقاتل أهلَ المشرق الشافعية بناءً على أن ولاية الزكاة إليك، وأنهم بغاة مع أن مذهبهم أن ولايتها ليست إليك، فليس الباغي بأولى من العكس)).

ووقع مراجعات ومطارحات ورسائل بين السيد العلامة الهادي بن أحمد الجلال،

وبين المتوكل إسماعيل أُشير إليها في نشر العرف في ترجمة الهادي الجلال المستطردة في ترجمة ابن أخيه محمد بن الحسن في حرف الميم في الجزء الثاني وهي:

أن للمتوكل إسماعيل رسالةً منها، قال محققو العلماء: ((ما أمر به الإمامُ على الناس أو على بعضهم من نفقة الجهاد فهو مال حقاً مستحقاً وديناً لازماً، كالخراج وضربة السيد على عبده.

ودليلُ ذلك أمرُ الله تعالى بالإنفاق في الجهاد ترغيباً وترهيباً، وأمرُ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم - به.

وليس الجهادُ مجرَّد ملاحمة الحرب، ولكنه ذلك وإعداد ما يستطاع من القوة التي هي في زماننا هذا الجند.

ثم إن الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة، ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين الذين لا يمتثلون لأحكام الشرع إلا كرهاً وخوفاً من صولة الإمام بجنده أو بعضهم، وقد يكون ذلك من كثير من أهل الشوكة الذين يحتاجون إلى فئة من المسلمين من الجند تردهم عن ذلك، وقد يكون ذلك من أفراد الضعفاء، لكنهم كثيرٍ بالنظر إلى جملة البلاد، فلا يقوم بأمرهم إلا الجند، فعلى كل حال إعداد الجند والنفقة عليهم من أعظم الجهاد، وهم مجاهدون، إلاّ من فسدت نيتُه.

فإذا تقرر ذلك فالمطالبُ التي وضَعها الإمامُ كالحق والدين اللازم على الناس على قدر الأرض أو الملك أو المواشي، فهو مما يعين حكمَه الشرعُ، ولا ريب في ذلك، فكيف يقال: هذا مرجعه إلى غير الشرع، كما رأيناه من بعض الفقهاء، فليتيقظ لذلك)).

فأجاب السيد الهادي الجلال -رضي الله عنه- بقوله: ((الحمد لله الذي جعل المؤمنين بعضهم لبعض في الدين كالبنيان، وافترض كلمة الحق والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم على كل إنسان. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من نطق بالبيان، وعلى آله نجوم الهداية وتراجمة التبيان.

وبعدُ، فلما اطلع العبد المعترف أفقر عباد الله هادي بن أحمد الجلال على كلام المولى أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين ولم يعرف تلك المعاني ولا تلاءَمت له تلك المباني، فأردت أن أستكشف عن حقيقة الحال وأعرف على أي أصلٍ ترتب ذلك

المقال. فقلت:

قولكم أبقاكم الله (قال محققو العلماء..) ينبني على أحد ثلاثة أشياء، إما قياس الأرض العشرية على الخراجية، والحر على العبد، وهو كقياس الأعمى على البصير والظلمات على النور، وإما أن الإمام يملك رقاب المسلمين وأموالهم، والمراد بقولكم كالخراج التماثل والقياس، وعليه يتمشى أخذ المعونة من السكان الذين لا يملكون بيتاً ولا مالاً ولا متجراً، فهذا هو ضربة السيد على عبده، لكن هذا يُنسب إلى الإماميَّة فقط، وهم لا يثبتونه إلا لاثني عشر إماماً فقط، ليس المولى حفظه الله أحدَهم. وإما على أنَّ أرض اليمن خراجية أصلاً لا قياساً، فيقال: قد كانت على عهد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عشرية، فإن أهلها أسلموا طوعاً، وذلك مستفيض، فماذا أخرجها؟ إن كان هو استيلاء الترك البغاة وهم فساق، إذ لا سبيل إلى تكفيرهم مع إقامة الأركان الخمسة، ولو كانوا كالكفار لم تجز ذبائحهم ولا نكاح نسائهم ولا دخولهم المسجد ولا مكة، ولا أحصر ما بين أحكام الكفار والفساق من الفروق الظاهرة، ولو سلم وجود الجامع فإن شرط حكم الأصل ألاَّ يكون معدولاً به عن سنن القياس، وقياسُ تقرير الشارع ملك كلٍّ لما تحت يده، وأن لا يخرج عنه إلا بأي وجوه التماليك المعروفة، قاضٍ بأن ملك الكفار إن صح دليله بغير وجه من تلك الوجوه خارج عن سنن القياس كشهادة خزيمة، وكيف يملكون علينا وقد أخرج أبو داود عن سعيد بن زيد عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: ((ليس لعرق ظالم حق))؟ وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لا آكل مال امرئٍ مسلم إلاَّ بطيبة من نفسه))؟ وما أخرجه أبو داود عن ابن عمر أن غلاماً أَبَقَ إلى العدو، فظهر عليهم المسلمون فرده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مولاه، وقصة أخذ المشركين إبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيها الجدعاءُ وامرأةُ أبي ذر راعيتها وساقوها معهم حتى أتوا دارهم، وفي الليل ركبت امرأةُ أبي ذر الجدعاءَ، ونذرت إن نجاها الله عليها أن تنحرها، فنجاها الله، فأخبرت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بنذرها فقال: (بئس ما جزيتيها به) وأخذها منها، ولم ير أنهم قد ملكوها بأخذها إلى دار الحرب؟ وأيضاً فتحريم مال الغير معلوم قطعاً، فلا يعارضه إلاَّ صريح آية أو خبر متواتر، أو إجماع، وأين ذلك؟ ولا بد أيضاً للاستدلال على جواز أخذ هذا المال من أحد هذه الأدلة القطعية، ولا تكفي الظنية لعدم

معارضتها للقطعي.

وأيضاً فقد استولت الأحْزابُ على أموال المسلمين و لم يأخذها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل أقر كل واحد على ما تحت يده على ما كان عليه بالملك الأول.

حتى قال الهادي الجلال عند إيراده ما في عبارة الإمام المتوكل من تسامح في الإعراب: (وكان القياس رفع حقاً ومستحقاً وديناً لا نصبه).

ثم قوله أبقاه الله (قال محققو العلماء) لا ينبغي أن يكون معتمداً لمجتهد؛ لأنه إن وجَدَ الدليل اعتمد عليه، وإن لم يجده طلبه، ولم يرجع إلى اجتهاد غيره أو تقليده أيضاً؛ لأنه مأخوذ عليه الوقوف عند قواعد أهل مذهبه، وهذه المسألة مخالفة لقواعد المذهب (فأي فائدة) في (قال محققو العلماء)، ثم من هم هؤلاء المحققون؟

ثم قال أبقاه الله: (ودليل ذلك أمرُ الله تعالى بالإنفاق في الجهاد.. إلخ)، ظاهر هذا الاستدلال أنه للمحققين؛ لأن سياق القول لهم، أو أنه دليل آخر، ولا شك في قوله تعالى: ﴿**جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[التوبة:٤١]، وهو خطاب للمكلفين بالنهوض بأنفسهم والتجهُّز من أموالهم.

بيَّن مجملَ الآية فعلُ الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما في إجمال ﴿**أَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ بينه فعلُ النبي، ولم يؤثر أن النبي ألزم أحداً بتسليم مال، وترغيبه - صلى الله عليه وآله وسلم - بنحو قوله: (من جهَّز غازياً) فعلى سبيل الندب لا (ديناً لازماً وحقاً مستحقاً)، وإلاَّ فبينوه لنا.

ثم قال أبقاه الله: (وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب.. إلخ)، فنقول: إطلاق الجهاد على الإعداد ليس حقيقة الجهاد اللغوية ولا الشرعية يعرف هذا كل أحد، وإن أطلق الجهاد على الإعداد، فمجازٌ ولا يصلح دليلاً. وأماوجوب الإعداد فلا شك فيه لقوله تعال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾[الأنفال: ٦٠] وفُسرت بالقسي؛ لأن الرماة أشد بأساً، أي أن الإنسان يملك فرساً وقوساً لنفسه يجاهد بهما في سبيل الله، هكذا فعل الصحابة مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فالمكلفون يعدون من أموالهم لأنفسهم والإمام مما تحت يده يعينهم.

وأما قوله: أبقاه الله (إن القوةَ في زماننا الجند) فلاشك في فساد الزمان، لكننا لا

نُفسد الأحكامَ الشرعيةَ تبعاً لفساد الزمان ونفسِّر القرآن بخلاف ما بينه فعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه. والإمام إنما قام ليبين الأحكام الشرعية لا ليعمل على ما يقتضيه الزمان فيما قد حُكِم به شرعاً.

وقال الهادي - عليه السلام-: ((والله ماهي إلا سيرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو النار)). ولله در الشافعي حيث قال:من استحسن فقد شرَّع.

ثم قال أبقاه الله: ((إن الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة، ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين))، وفسَّرهم بأنهم الذين لا يمتثلون لأحكام الشرع إلا كرهاً وخوفاً من صولة الإمام. إلخ

فالمعروف من تفسير المنافق أنه من يظهر الإسلام، ويُبطن الكفر فيا لَلّهِ من الحكم بالكفر والنفاق على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمجرد المعاصي، وهل هذا إلاَّ رأيُ الخوارج.

ثم قال أبقاه الله: (وقد يكون ذلك من كثير).. إلخ.

فأمَّا بمجرد اختياره فنعم، وأما بنظر الشرع فيُعِدُّ لهم المؤمنون أجمعون، فإن أطاعه المؤمنون قام وقاموا بما أوجب الله عليهم، وإن لم يطيعوه سقط عنه التكليف،و لم يكلفه الله أن يطيعه المسلمون مع أن المسلمين إن شاء الله لا يتقاعدون عن نصرة المحق، كما فعلوا مع الإمام القاسم، فإنهم جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم و لم تُجنَّد الجنود إلاَّ بعد أن فلَّ الله شوكة العدو، ووُجِد بيت المال فأُنفِق في هذا الأمر،ثم في الدور والمصانع والحلي والحلل.

ثم قال أبقاه الله: (وقد يكون ذلك من فرد من الضعفاء..) إلخ.

فنقول: مهما لم يتحزبوا فلا يجب جهادهم،وإذا فعلوا جاهدهم المسلمون.

وأما (قول القائل: مرجع هذا إلى غير الشرع)، فلعمري لقد نطق بالحق في مذهب الزيدية وغيرهم؛ إذ داهنَ أهلُ العلم فجزاه الله عن دين نبيه أفضلَ الجزاء.

ووالله إني لم أُرد بمقالتي العناد و لم أقصد إلا الاسترشاد والإرشاد، وما جرَّأني على هذا المقال إلاَّ أني قد رأيت المولى قد تعرض برسالته هذه للمباحثة في ميدان الاستدلال. والله يأخذ بنواصينا الجميع إلى واضح السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وممن لهم المباحث المفيدة في هذا البحث من أكابر علماء الزيدية المجتهدين المعاصرين للمتوكل إسماعيل القاضي المحقق الكبير عبد القادر بن علي المحيرسي المتوفى (سنة ١٠٧٧هـ) والسيد الإمام الحسن بن أحمد الجلال المتوفى بالجراف (سنة ١٠٨٤هـ)، والسيد الحافظ يحيى بن الحسين بن القاسم المتوفى بصنعاء (سنة ١١٠٠هـ) والفقيه المحقق الشهير صالح المقبلي صاحب العلم الشامخ المتوفى بمكة (سنة ١١٠٨هـ) وغيرهم رحمهم الله، وكانوا أهل صراحة لا يسكتون على ما يستنكرون.

وفي يوم الخميس (١٣ جمادى الآخرة سنة ١٠٥٨هـ) كان قران المريخ وزُحَل في برج الجوزاء.

وفيها بدا للإمام رأي سديد، وهو أن يجعل أميراً على حجَّاج اليمن بصحبة جريدة من الخيَّالة، وبجماعة من العسكر الرجَّالة معهم الأسلحة ويستصحب أميرُ الحاج صِلاتٍ يصرفها للمستحقين في الحرمين الشريفين.

وفيها حصةٌ وافرة لشريف مكة، ففعل ورفع بذلك لليمن شناراً، وفي القلوب صيتاً ومناراً، وكان قبل ذلك في أيام أخيه الإمام المؤيد يعزم أميراً للحجاج السيد الفاضل إبراهيم بن أحمد بن عامر ليس بهذه الأهبة والصلات والعسكر، وإنما كان السيد محمد بن صلاح عامل جازان وأبي عريش يصحب الحاج في بلاد الحرامية لحفظهم.

ثم استمر ما فعله المتوكل في أيام من بعده من الخلفاء أكثر من مائة وخمسين سنةً.

وفيها أُتِيَ إلى المولى محمد بن الحسن برجل كان يقطع الطريق بين ذمار وصنعاء، وكان قد اشترك هو وآخر في قتل رجل وأَخْذ ماله، فأفلت الآخَرُ، وجيءَ بهذا فقتله وصلبه بباب شعوب، وكان لقتله موقع في قلوب المفسدين وسكنت بفعلته سورةُ الشياطين.

وفيها توفي الفقيه النحوي محمد بن عبد الله الآنسي.

وفي (سنة ١٠٥٩هـ) جهز الإمامُ ابنَ أخيه الحسين بن المؤيد إلى قبة خيار حاشد، وأمره بإخراب بيوت أشرار حصل منهم الأضرار، فأوصل إلى أساسها الشمس، وتركها كأن لم تغنَ بالأمس، وعاد إلى محروس شهارة.

وفيها عزم أحمد بن الحسن إلى الإمام بشهارة، فزوجه الإمام بابنته، وتزوج الإمام

بابنة السيد الحسن بن الحسين جحاف بحبور وتزوج محمد بن الحسن بذمار.

وفيها توفي السيد محمد بن الإمام الحسن بن علي بن داود، وكان من قادة الجهاد.

وفي (سنة ١٠٦٠هـ) وصلت اعتراضات على الإمام من السيد صارم الدين إبراهيم محمد حورية المؤيدي، وتولّى جواباتها الإمامُ، والسيدُ عمادُ الدين يحيى بن أحمد الشرفيّ، والقاضي شهابُ الدين أحمدُ بنُ صالح بن أبي الرجال.

وفيها مات علي باشا نائب السلطنة على الحسا بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم. وسببُ مصيره إلى المدينة، أن ولده عيسى باشا ترشَّح في وقت والده، ولم يعلم بمضمر مقاصده، فلما قوي زندُه، وخفق بندُه جنح إلى المروق، ومال إلى العقوق، وكسَر خاطرَ والدِه بالرفع،وخبَّ في ميدان جهله بالوضع والرفع، فاغتم والده لهذه القضية المكيفة، ولجأ إلى المدينة المقدسة والحجرة المشرفة، واستقر به المقام حتى وفد عليه الحِمام. وكان من خبر ولده أنْ لاطَفَ جنابَ السلطان إبراهيم بن أحمد مراد، وتوسل برشيق الوسائل إليه فيما أراد، فوصله التشريف والخلعة إلى الحسا، وترشَّف كؤوسَ الباشويةِ بعد أبيه واحتسَى، فلم يكن من الذين أحسنوا فلهم الحسنَى، ولا لاحظ قوله تعالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت: ٨].

وفي (سنة ١٠٦٠هـ) نُسب[١] إلى السيد الإمام الحسن بن أحمد الجلال الجنوحُ إلى شيء من مذهب الظاهرية وطريقة ابن حزم من العمل بالبراءَة الأصلية. وإسقاط الاحتجاج بالأخبار الآحادية، وقصر التعويل على المتواتر، وإنكار حجية العموم، ودليل المفهوم، وتحليل المتعة، وإسقاط الأذكار في الصلاة والإعتدالِ، والقول بأن الإمامةَ لا

(١) وجد في هامش طبق الحلوى بخط البدر محمد بن إسماعيل الأمير ما لفظه: كتُب الجلال بأنه يقول: لا بد في قبول الخبر أن ينقله اثنان، من بدايته إلى نهايته، فيكون العمل به عزيمةً، فإن نقص كان العمل به رخصة، ولا يشترط التواتر في كلما يجب العمل به، وهو مذهب أبي علي الجُبائي وجماعة. وأما إسقاط حجة العموم فقد صرح به في شرح الفصول وغيره، وتحليل المتعة صحيح عنه، وأما إسقاط الأذكار فلم يقل به، وأما الإمامة فلا يقول بما قال به نشوان، ولم يقل بحل الزكاة لبني هاشم، بل صرَّح في ضوء النهار أنها كالميتة تحل للمضطر، وإن أكلها الهاشمي، فهي كالغصب. انتهى

منصب لها معين، بل هي صالحة في جميع الناس مع التقوى، كما يقول نشوان والخوارج، وتحليل الزكاة للأغنياء والهاشميين، وعدم وجوب الجمعة إلا بحضور الإمام الأعظم وغير ذلك، والله أعلم بحقيقة هذه النسبة.

وفيها ظهر أيضاً من الشيخ العلامة أحمد بن علي بن مطير الحكمي من علماء الشافعية بتهامة ما امتاز به على أهل مذهبه، مع تشديدهم على التقليد والإلتزام من ذلك أن أحاديث الإفتراق في الأُمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلُّها في النار إلا فرقةً، أحاديث باطلة لمخالفتها المعقول، والمقرر من الأصول، ومتواتر المنقول، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] فتصير بعد هلاك أكثرها شر الناس؛ لأن افتراقها زاد على افتراق من قبلها بفرقتين، كما في لفظ الحديث، وعما ذكره جواب لا يسعه المختصر.

* وفيها مات السيد العلامة محمد بن علي بن الحسين بن علي بن الإمام شرف الدين. وكان سيداً نجيباً عارفاً بالفقه.

الأمير رجب الرومي

وفيها مات الأمير رجب بن مصطفى الرومي بصنعاء. وهو الذي بعثه السلطانُ زيادةً لحيدر باشا، فترجح له موالاة الإمام المؤيد، فولاّه على المخادر، فشيد بها العمائر، واخترع بها عجيب المآثر، ومن عجيب ما صُنع له في داره دولاب في المطبخ من أسفل إلى أعلى المناظر، فإذا حضر وقت الطعام رفعت فيه نفائسه العجيبة، وأنواعه الغريبة، فيصل إلى أعلى الدار بلا كلفة ولا انتظار.

ولما عرض له غرض إلى المولى محمد بن الحسن، وصل إليه إلى صنعاء فقُضِيتْ له أمنيتُه، لكنها عاجلته منيتُه ودفن بحوطة قبة البكيرية.

إبراهيم بن يحيى السحولي

وفي (٢٠ جمادى الأولى سنة١٠٦٠ هـ) توفي حاكم صنعاء وخطيبها وعالمها القاضي العلامة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن صلاح الشجري السحولي الذماري،ثم

الصنعاني أعاد الله من بركاته، عن (٧٣ سنة)، فإنَّ مولده بذمار (ليلة الجمعة ٢٣ جمادى الأولى سنة ٩٨٧هـ).

وقد ترجمه في مطالع البدور ترجمةً وافية. كان محققاً للفقه مقرراً لقواعد المذهب. وله في أصول الدين تحقيقات على نمط الأصحاب، وله حاشية على الأزهار، وشرح الثلاثين المسألة وغير ذلك من الفوائد، قرأ في الفنون على الإمام محمد بن عز الدين المفتي والقاضي عبد الهادي الثلائي الحسوسة والقاضي الشكايذي، واجتمع له بصنعاء القضاء والخطابة وإمامة الجامع الكبير، وذكر عنه أنه لم يسجد للسهو مدة إمامته.

وكان مع اشتغاله بالقضاء لا يفتر عن التدريس، واختار جوازَ صرف الزكاة إلى فقراء بني هاشم، ولمصالح الأغنياء.

وكان قد دفن بجربة الروض، فنقله صنوه لرؤيا رآها إلى قرب المسجد الذي عمره في حياته بمنطقة المحاريق جنوبي صنعاء، وقبره الآن مشهور مزور جوار مسجده مسجد السعدي، وقد انضمت إليه قبورُ جماعة من أهله، وعند نقل جثته وجدت كما هي لم تتغير.

ومن مؤلفاته الطراز المذهب في إسناد المذهب. وممن قرأ عليه الأخوان محمد بن الحسن، وأخوه أحمد، وآل السحولي لا يخلو عنهم الفضل بحال، وحب أهل البيت فيهم غريزة،وتلاميذه كثيرون.

عبد الحفيظ المُهلاَّ

وفي (سنة ١٠٦٠هـ) توفي الشيخ الحافظ المحدث عبد الحفيظ بن عبد الله بن المهلا الزيدي. وكان آية باهرة في علم السنة.

وفي خلاصة الأثر: أن وفاته ليلة الخميس سلخ ربيع الأول (سنة ١٠٧٧هـ)، وقبره بالأشعاف بشجعة الشرف، وترجمته عظيمة استوفى أحواله في خلاصة الأثر.

حوادث سنة ١٠٦١هـ

وفي (سنة ١٠٦١هـ) رجع السيد إبراهيم بن محمد حورية المؤيدي إلى ادعاء الإمامة؛ لما صدر من الفقيه محمد بن علي جميل والعسكر من العسف بخولان الشام، وقام معه بنو بحر آل روكان، وشيخهم يحيى روكان.

فقتلوا من أصحاب الفقيه محمد جميل نحو خمسة وعشرين قتيلاً، فتقدم المولى أحمد بن القاسم فلم يؤثر، فوجه الإمام ستمائة نفر بقيادة النقيب سرور شلبي، فارتفع القبائل وأخلوا بلادهم، وتأخر السيد إبراهيم إلى بني جماعة، وتفاقم أمره، فوجه الإمام محطة أخرى بقيادة علي بن صلاح الجملولي.

ثم وجَّه الإمامُ الحسينَ بنَ المؤيد بمحطة، فطلب المشائخ، وأوثق من يتهمهم بالفساد، وأحسن إلى كثير منهم، وتجهزت المحاطُّ على السيد إبراهيم، فلما علم بالغلب تظاهر بالرجوع إلى الطاعة، وطلب اللقاءَ إلى ضحيان، فلقيه المولى الحسين بن المؤيد بنجدة، فاعتذر السيد عن الحضور، وأظهر التوبة، وأقر بالخطأ، ثم حضر ووصل مع الحسين إلى الإمام إلى شهارة، وأقام لديه أياماً أوسعه إحساناً وإكراماً، ثم أذن له بالعود إلى وطنه، وأقطعه الإمامُ رغافَةَ وما إليها، فعزم، وقد ثلجت الصدور وانتظمت الأمور.

وأما الشيخ يحيى بن روكان فوصل إلى الإمام بضوران بعد أزمان، وسيأتي أنه عاد إلى الخلاف، فأبقاه بحضرته ورعى جانبه غاية الرعاية بعد القدرة، وعوَّضه عما فات عليه عند قيامه مع السيد إبراهيم، وأعانه على عمارة بيوته بعد خرابها، وأعفى أصحابه ثلاث سنين عن الواجبات. وبقي بضوران وتوفي بها.

وفيها حصل انتشار في النجوم في الثلث الأخير فارتاع لمنظرها الكثير.

وفيها خرج على الإمام السيد محمد بن علي الحيداني المعروف بالفوطي، وقال: أنا إمام وإسماعيل إمام، فقالت له الأقدار: حُمَي صمام، لا خلف ولا أمام. فخرج من بيته إلى برط ثم الجوف، ثم خولان، ثم المصعبين، وقيفة، رُوي عنه أنه المهدي المنتظر وتكفير المسلمين، إلا من اتصف بمذهب أبي الجارود، فقاتله أهل المصعبين، فعاد إلى مسكنه بالشام بخفي حنين، بعد أن نُهبت كتبه وثيابُه وانقطعت أسبابُه.

وكان أحمد بن الحسن قد تقدم إلى رداع للتحذير من الاغترار وإطفاء هذه النار، فما وصل إلا وقد انحسم الضرر وأطفئ الشرر، وكان قد دعا في دولة المؤيد، فوقع في البُؤس، وقتلت نفوس، وكان مما جرَّأه أنه ذكر له أن في الجفر اسم محمد بن علي بحروف مقطعة، ثم توفي بوطنه كما يأتي.

وفيها انتقل الإمام إلى درب الأمير بوادي أُقر برهةً من الزمن.

وفيها قُتل الأمير مصطفى نائب جده من قبل الباشا الذي بمصر، وكان النائب بها قبله الأمير قبطاس، وذُكر أن سبب قتله معارضته لأمير مكة الشريف زيد بن المحسن لمّا أخذ الشريف بحصة من الانتباه على المحرمات والرِّيَب، وتكسير آلات الطرب، وأباد الملاهي، وانتمى إلى الإمام في الأوامر والنواهي، فكان قتله وهو متنزه في بريَّة الطائف، وأنكر قتله الشريف لعلمه أنه لا يخفى على السلطنة خَبَرُه، ولا ينطمس على صاحب مصر أثرُه.

ولما احتاجت جده إلى تجديد النائب أعيد إليها قبطاس، فأظهر بها النجدة والبأس، وفوَّق إلى الشريف بسهام التعنيف، ورماه بالغدر وعدم الوفاء، ونسب إليه قتل الأمير مصطفى. ثم تجهَّز بعد ذلك عليه، فالتقيا خارج الحرم واشتد بينهما الجلاد، وخطرت الصعاد ولمعت الحداد، وذهب من الفريقين من دنا أجلُه وانقطع من الدنيا أملُه.

ولما تفطَّن الأمير قيطاس، وتفرس لخسَّة نتيجة هذا القياس، وأن الشريف إذا طال الحرب وتلاحم الطعن والضرب لا بد أَن يُشرِق بدرُه ويقهَر نصرُه، فيلحق قيطاس بمصطفى. ويؤول مصباح رئاسته إلى الإنطفاء، وقد يؤُول الحال إلى الإلحاد في الحرم، فرجع إلى بندر جده، وعاد الأمر بينهما إلى السداد لا غالب ولا مغلوب.

وفيها وفد من صعدة إلى شهارة المولى أحمد بن القاسم، ثم إلى صنعاء، فوجد الأحوال غير ما يعهد، فرجع إلى صعدة سريعاً وأوسع البلاد والأهل توديعاً.

وفيها هبت ريح عظيمة في ذمار وبلادها، فأخربت جانباً من دائر القصر وحملت بعض الكلاب في الهواء.

وفيات سنة ١٠٦١هـ

في ربيع الأول (سنة ١٠٦١هـ) توفي قاضي صعدة وناظر أوقافها ومجتهدها وإمام جامعها وخطيبها ومفتيها العلامة أحمد بن يحيى حابس الدواري. وكان بهجة المحافل وزينة المجالس والمدارس من الحكّام المعتبرين الزهاد المبرزين، يلحق بأكابر المجتهدين ومن رجال الدنيا والدين. له شرح الكافل في أصول الفقه، وله المقصد الحسن في عدة من النقول في الحديث المقبول، وله شرح الثلاثين المسألة، شرح مفيد، وشرح تكملة

الأحكام للإمام المهدي، وله التكميل في الفقه على شرح الأزهار في غاية المناسبة والاستظهار بالأدلة والأنظار، وكان لا يرتزق من بيت المال، ويأكل من تجارة له قائمة بالحال، وخلفه من بعده أخوه الحسين بن يحيى، مشى على منهاجه واستمر على النظر فيما هو إليهم، والتولي على أوقاف صعدة، وأقام على ذلك مدة. ولما ولاّه الإمام قضاء صنعاء جعل ما كان إليه من أوقاف صعدة إلى الفقيه علي الطيري الملقب بالوحش، ولما صار بصنعاء وكل إليه المولى محمد بن الحسن أملاكه بالجهات الصنعانية وعامله المولى أحمد بن الحسن في المصرفات؛ لأنه كان يتجر، وهو المرجع، وخلّف ما لا يُظن من مثله جمعُه، ولا يُدرى من أين أصله وفرعُه.

أحمد بن سعيد الهبل

وفيها توفي القاضي العلامة الفقيه الكبير أحمد بن سعيد بن صلاح الهبل الخولاني بصنعاء، وقبر بمشهد السيد الفاضل عبد الله الديلمي بالأبهر، وكانت له في الفقه على قواعد المذهب اليد الطولى ودرّس فيه وفي غيره، وكان لا يفتي إلاّ شفاهاً.

قال في مطالع البدور: إن بعض الفضلاء، رأى قبل وفاة هذا القاضي أنه انهدم الجامع الكبير من الجهة الشرقية، وهي الجهة التي كان يدرّس فيها فتعقب ذلك وفاته رحمه الله.

عبد الحميد بن أحمد المعافى

وفيها مات الفقيه النحوي شارح ملحة الإعراب عبد الحميد بن يحيى بن عمرو المعافى بالسودة بلدته. وله أشعار جيدة ذكرها في اللآلئ المضيئة، وشرحُه على الملحة يدل على تحقيقه وقوة نظره وتدقيقه.

عبدالله بن عامر الشهيد

وفيها توفي بهجرة حوث السيد العلامة عبد الله بن عامر بن علي الذي تقدم دعوته (سنة ١٠٥٥هـ)، وكان يعتمد مذهب الهادي وكتبه. وله مؤلف سماه (التصريح في المذهب الصحيح).

محمد بن علي البكري

وفيها مات بمكة المشرفة الشيخ المحدث العلامة محمد بن علي بن علان البكري

الصديقي. نشأ بمكة، فاستفاد بها وأفاد ودرَّس في الفنون، وكان عين وقته. ومن مؤلفاته شرح قواعد الإعراب، وله أسانيد عالية استفادها القاضي صالح بن محمد العياني عند إقامته بمكة، وكان جمَّاعاً للكتب محباً لها، ولما مات تفرقت وكثير منها وصل إلى اليمن.

عبد الواحد النزيلي

وفي (سنة ١٠٦١هـ)، توفي الفقيه المحدث الفاضل عبد الواحد التزيلي بمحله المحويت، وهو شيخ السيد الإمام محمد بن إبراهيم بن المفضَّل في صحيح البخاري والسيد العالم عبد الرحمن بن محمد بن شرف الدين جحاف في صحيح مسلم قرأه عليه بخفاش.

يحيى المخلافي

وفيها توفي القاضي الرئيس يحيى المخلافي، كان له في زمن محمد باشا قيام مع الإمام القاسم آخر مدته، ثم لما وقع صلح الباشا مع الإمام سكن بجهته بالحيمة موالياً للإمام، ثم نجم منه الخلاف على أصحاب الإمام في أيام الباشا حيدر بعد انتقاض الصلح في أيام المؤيد واختلف مع المولى الحسين بن القاسم، ووصل معيناً للباشا حيدر بجنده حتى بلغ محطة حدة، وكتب إلى الباشا يؤذنه بوصوله، وخلعه طاعة الإمام وألَّب عليه مخلافه وسائر الحيام.

ولما فتحت صنعاء بالحظ الأغلب، وخرج حيدر خائفاً يترقب، أظهر القاضي الأسف، واعتذر عما سلف.

صالح داود الآنسي

وفي (سنة ١٠٦٢هـ) توفي بآنس ببلدة حدقة القاضي العلامة المحقق صالح بن داود الآنسي الحْدَقي. له تصانيف، منها شرح عقيدة المتوكل إسماعيل، ومختصر شرح الجامع الصغير للعلقمي.

ناصر بن محمد صبح العياني

قال في الطبقات: في (سنة ١٠٦٢هـ) توفي بشهارة السيد ناصر بن محمد بن يحيى صَبَح الغُرباني، ينتهي نسبُه إلى الإمام القاسم بن علي العياني، تقدم ذكر دعوته سنة ١٠٢٩هـ، ثم أُسِر إلى شهارة، فتاب وأناب، وبقي مدرِّساً بشهارة حتى مات، وقد

سبق كيفية دعوته. وفي طبق الحلوى أن وفاته (سنة ١٠٧٣هـ).

محمد بن أحمد المؤيدي

قال في الجامع الوجيز: في (سنة ١٠٦٢هـ) توفي ببندر المخا، ونقل إلى حيس السيد العلامة محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي بن داود المؤيدي. وكان عالماً محققاً مصنفاً، له شرح على كافية ابن الحاجب، وشرح على الهداية، وتولّى للإمام المؤيد بن القاسم بلاد العُدين.

وابنته الشريفة فاطمة التي كتبت إلى المتوكل إسماعيل تشكو أن عامله بالعدين أخذ ضيعتها التي أنحلتها أمُّها فقالت:

مولاي بنتُ رسول الله فاطمةٌ ... تملكتْ فَدَكاً قدماً بإنحالِ
فنُوزعتْه فماتت غير راضيةٍ ... عن الخليفة في حكمٍ وإبطالِ
وكان شاهدَها زوجُ النبي به ... وابناه ثم عليٌّ سيدُ الآل
وها أنا ابنتها سُميتُ فاطمةً ... وأنحلتني أُمي بعضَ أموال
وكان في صحةٍ منها وعافيةٍ ... وعُمِّرتْ بعدَ هذا بعضَ أحوال
فنازعوني وقالوا لا سبيل إلى ... ملكي كذلك فانظر أنت في حالي
وانظر إلى حظ هذا الاسم كيف ... في سالف الدهر ما لاقاه في الحال
لا يظلموني أمير المؤمنين وأنـ ... ـت الحمد لله فينا الحاكم الوالي
وأسأل الله أن يوليك أنعمَه ... مُعَمَّراً لك في عزٍّ وإقبال
وأن يصلي صلاةً لا انقضاءَ لها ... على النبي رسول الله والآل

ولما وصلت هذه الأبيات إلى المتوكل وشيخ الإسلام أحمد بن صالح أبي الرجال أمروا برد ضيعتها، وكانت أنحلتها أمها لما زوَّجتها بابن عمها، فلمَّا ماتت الأم أخذ الورثة تلك الضيعة. وقد خمَّس هذه الأبيات القاضي يحيى بن إسماعيل المعافَى والسيد إسماعيل بن إبراهيم جحاف بتخميسين عظيمين. وأختها هي الشريفة العالمة الأديبة زينب بنت محمد بن أحمد بن الإمام الحسن سيأتي ذكرها في عام وفاتها (سنة ١١١٤هـ).

ووفاة والدهما السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن في (١٨ ذي الحجة سنة ١٠٦٢هـ) عن (٥٣ سنةً)، قرأ بصعدة وصنعاء، وشارك آل الإمام القاسم في المهمات، وكان لا يعد نفسه ولا يعدونه إلاَّ منهم، وقاد المقانب معهم وحاصر صنعاء، وكانت حضرتُه معمورةً بالعلماء والفضلاء، وأنه مع عظيم تكليفه وعلو جاهه وصيته لا يفتر عن البحث في العلوم والمذاكرة.

ومن مؤلفاته تحفة الطالب وزلفة الراغب، شرح كافية بن الحاجب، وله ديوان شعر.

ولما حج المولى أحمد بن الحسن، والمولى محمد بن الحسين، والقاضي أحمد بن سعد الدين، والمولى محمد بن أحمد بن القاسم في (سنة ١٠٥٣هـ) أيام الإمام المؤيد كان المترجم له هو الأمير عليهم وعلى جميع الحجاج لكماله وأهليته للإمارة. وقبره مشهور مزور بحيس بجنب قبر الولي المعروف بالخامري، وحفيده هو السيد العلامة محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الإمام الحسن، سيأتي ذكره، وكان للمترجم له محمد بن أحمد رئاسة كاملة وشجاعة هائلة في حصار صنعاء وغيرها، ثم ولاَّه المولى الحسن بن القاسم بعد الفتح بلاد العدين فاستمر عليها، ثم زاده المتوكل إسماعيل بندر المخا وبلاد حيس وما إليها من المخاليف حتى مات.

حوادث سنة ١٠٦٣هـ

وفي (سنة ١٠٦٣هـ) عاد الشيخ يحيى رَوكان إلى الخلاف، فسيَّر الإمام إليه المولى محمد بن الحُسين، وما زال يروغ له من ساقين، إلى أن وضع الحديدَ منه في الساقين، وأرسل به إلى حضرة الإمام، ومات بضوران، وسبق له ذكر في (سنة ١٠٦١هـ)، وتلبَّث أياماً لتقرير أعمال الشام، وكان قبل أيام جوَّز الإمام من حال ابن روكان الانتظام، فأذن له بالعود إلى أهله وعين له معونة في عمارة الخراب، وصلاح الأسباب.

وفيها وقع فساد ببحر القلزم، وذلك أن جماعة من الإفرنج الذين أسرهم السلطان في حرب مالطة، كانوا تحت الترسيم ببندر السويس، فهربوا منه وركبوا بحر اليمن يريدون النفوذ إلى الفرنج الذين بالهند، ثم اللحوق بديارهم من وراءِ الحبشة، فصادفوا قرب القنفذة سفينة إلى جدة عابرة، فطلبوهم الإزواد والإمداد، ثم أخذوا سفينتهم غصباً وأتوا

على آخرهم قتلاً ونهباً، ثم توجهوا في البحر سائرين.

وحين علم بهم نائبُ اللحية النقيب سعيد المجْزَبي، ونائب المخا السيد الرئيس محمد بن أحمد بن الإمام الحسن، أخذا عليهم الموارد والمصادر، ولزما عليهم جوانبَ البحر الزاخر، ولما انتشر لواءُ القتال، طووا شراعَ الإرتحال، وحانت لحَينهم الآجال، وقبض الأميران عليهم، وتوجّه الأدبارُ إليهم، وأُدخلوا بندر المخا، وعُرض عليهم الإسلام، الراحض لما قبله من دَرَن الآثام، فمالوا إلى الحيف، واختاروا أن يعمل فيهم السيف، فقتلوا عن آخرهم، وهم زهاء سبعين، وزُجِر بهم من وراءَهم من الملاعين.

وفيها ظهر نيزك في المشرق غير مستطيل، ولله غيبُ السموات والأرض من دقيق وجليل، وتعقبه نجمٌ خر من جهة المغرب إلى جهة المشرق بعد العِشاء، فكان له صوت كالرعد الشديد.

وقال صاحب ذيل رَوح الرُوح: في (١٧ محرم سنة ١٠٦٣هـ)، ظهر بقدرة الله عمود من نور في جهة الغرب، ورأسُه ممتدٌ إلى جهة الشرق، وله ذؤابة ممتدة إلى جهة العدن، و لم يزل هذا النيزك يتنقَّل في البروج إلى جهة القبلة إلى أن بلغ مترلة الثريا، ثم غاب.

وفي العشر الآخرة من محرم هذا ظهر نجم آخر من النيازك، ولم يكن له نورٌ ساطع مثل الأول وتعقب هذه النيازك ارتفاع سعر الطعام.

وفيها سار الإمام إلى ظفار داود لبث فيه ثلاثةَ أشهر، ثم عاد إلى السودة.

وفيها وصل من بلاد الحسا، وقيل من الحجاز شرح لعقيدة الإمام المتوكل إسماعيل التي أنشأها.

وفيها وصل إلى الإمام عالم من مصر يقال له: حجازي بن علي المصري الشافعي الأشعري، فأحسن إليه الإمام وشرح عقيدته شرحين، وأهداهما للإمام.

وفي هذه (سنة ١٠٦٣هـ) وصل إلى الإمام الشيخ العارف جعفر الواعظ من علماء الحنفية الخائضين في علومهم الظاهرة والخفيّة الأصلية والفرعية، فأقام عنده أياماً واستملى عقيدته وطالت المراجعة بينه وبين القاضي شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال في مسألة الرجا والشفاعة، واحتدَّ طبعُ كلٍ منهما حتى أشار الإمام إلى القاضي بتخفيف المقال. ولما وصل المذكور إلى صنعاء اتفق بينه وبين العلامة محمد بن الحسين بحث تلك

المسألة بعينها.

وفيها وردت الأخبار إلى اليمن بوفاة السلطان إبراهيم بن أحمد خان وألقى مقاليد الملك إلى ذي القهر والسلطان، فاتفق رأيُ الوزراء والأعيان على أن ينتصب في دست ملكه ولده السلطان محمد بن إبراهيم، وكان يومئذٍ بسن البلوغ، لكنه ثابت الجأش، كامل الحزم نبيه القدر، وكان له ثلاثة إخوة: مرادٌ، وسليم ابني إبراهيم ضُبطا تحت قيد الترسيم، وأحمد بن إبراهيم قتله أخوه لأمر حدث منه.

ولما اجتمع الأمر في يد محمد بن إبراهيم أقبل على افتقاد الأقاليم وجهَّز إلى طوائف الفرنج كل جيش عظيم، فاستفاد الممالك الفاخرة، وافتتح البلدان العامرة منها جزيرة مالطة، كما سيأتي.

وفي (سنة ١٠٦٣هـ) أعاد المولى أحمد بن الحسن الحج إلى بيت الله الحرام، وزار تربة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. ويُذكَر أنها فُتحت له قُبةُ جده بالعناية، بعد أن تشمَّس عن فتحها أهل الولاية، قال السيد العلامة محمد بن إسماعيل عشيش في تتمته للبسامة، مشيراً إلى هذا للمولى أحمد بن الحسن:

وحج في عصبةٍ غرٍّ غطارفة بيتَ الإله وزاروا خاتم النذر
وشاهدوا الآية العظمى التي بهرتْ لما دنا فتح مثوى سيد البشر

وإلى مثله أشار السيد العلامة المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسي في اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، وفي العناية التامة شرح تكملة البسَّامة، فقال: إنه في (سنة ١٠٦٣هـ)، أعاد المولى أحمد بن الحسن الحجَّ وصحبتُه جماعة من العلماء والأعيان، ونحو ثلاثمائة من الجند والفرسان، وكانت طريقه من الساحل، وزار جده نجم آل الرسول الإمام القاسم الرسي بن إبراهيم.

ولما وصل إلى أبيار علي أراد أمير وشريف مكة والأتراك منعَه عن الدخول خشيةَ وثوبه عليها، فكتب إليهم ابن مُصان كبير قبيلة حَرْب، وهُذيل: إن لم تتركوا صاحب اليمن يدخل المدينة لزيارة جده أدخلته إليها في مائة ألف سيف، فكان دخوله المدينة بعد ذلك بكفالة ابن مصان في زيٍّ عظيم، ولما طلب من الآغا رئيس السدنة أن يفتح له باب الحجرة الشريفة امتنع السادنُ، فقال له: تمنعني من جدي؟ فأجاب عليه: إذا كان جدك

فسيفتح لك،فلم يشعروا بعد ذلك إلاّ بانفتاح الباب بسرعة، فخالط السدنةَ الوجلُ وانبهر من حضر، وتحدث بهذه الكرامة أخلاط الرفاق، وشاع خبر وقوعها في الآفاق.

قال صاحب طبق الحلوى: والذي ذكر لي الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي عند وفوده إلى صنعاء: أن الصفي عرض على الآغا أن يدخله القبةَ المنورةَ، فامتنع بإعذار، فلما أقنعه بالإياس عدل إلى شفاعة الأكياس، فبعث إليه على جهة الخفية بجملة من الذهب الأحمر، فانقلب طبعُ الطواشي، وعاد تشمُّسه إلى التلاشي، وأنشد منه لسان الحال ملاطفاً للصفي بقول من قال:

ونُبِّئتُ ليلَى أرسلت بشفاعةٍ إليَّ فهلاّ نفسُ ليلى شفيعُها
أأكرمُ من ليلَى عليَّ فأبتغي به المال أم كنت امرءًا لا أُطيعُها

ففتح له المقام الأزهر، وقضى منه جميع الوطر، وكان بعد أحيان، أن انتبهت للآغا عيونُ السلطان، فزحلقوه عن ذلك المقام.

(الشيء بالشيء يذكر) أخبرني سيدي السند المقام غصن السيادة المورق، وروض المجد والكرم المؤنق، الحسن بن أحمد بن الحسين بن القاسم أنه أيام جواره بالقبة النبوية، وإقامته بالمدينة المحمية، حاول الولوج إلى حضرة جده، فامتنع ذلك الآغا، وتعدى بمنعه عن بيت أبيه وبغَى،

قال: فداخلني من الإكتئاب ما قدُمَ وحدث واشتد بي الكرب، ثم إني واجهتُ الحضرةَ النبويةَ بكلام مضمونُه: إن كنتُ من أولادك يا أبت فلأي شيء يحول بيني وبينك هؤلاء الذين يزعمون أنهم خَدَمُك، وداخلني الإنكسارُ، فلم أشعر إلاّ بالآغا يلاطفني في المقال، ويستدعيني إلى حضرة الكمال، فبادرت بالدخول، وقرَّ خاطري بالمثول، وأسرجتُ القناديل من أيمن الداخل، وظفرت من العز المنيع والجاه الرفيع بطائل، وأنشد لسانُ حالي وقد أسعفني بسؤالي:

إن يدنُ مني فلي في قربه نسبٌ أو ينأ عني ففي عرنينه شمَم

ثم ظهر لي من بعد أنه انكسر أحد القناديل.

كرامة لم يحزها غيره أبداً ولا تبختر في أثوابها القُشُب

وأنفق أحمد بن الحسن في حجته هذه مائة ألف حرف. ذهب وعاد إلى الروضة -وطنه- ومعه رجل يقول: إنه من ولد عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر، فأنكره آلُ عبد الرحيم. وخرج معه السيد أحمدبن محمد الآنسي القهدة، وكان فاراً إلى مكة مدح الشريف زيد فأعتاه ثم قابله الإمام بالإكرام.

وفي هذه الأيام استقر المولى محمد بن الحسن بصنعاء وتوجه إليه معظمُ السياسات والأوامر والنواهي فيها وفيما حولها من البلاد، وقويت يده في الإصدار والإيراد.

وفيها حُولت الجزرة بصنعاء إلى باب اليمن، وجُعل لذلك واستصلاحه سجل، سعَى فيه الفقيه محمد أفندي، ورَسَمتْ فيه أعيان صنعاء، وكان محلها قبلُ بسوق الحطَب.

وفيها منع أهل الشُعيب عن الواجبات التي تؤخذ منهم ويُرَد على رؤسائهم قسط منها، وأعلنوا التظاهر بالملاهي، وأغمضوا عن توريث النساء، فتقدم عليهم السيد علي بن هادي المحرابي من تعز؛ لأن قعطبة تابعة لتعز، ففرمنه المخالفون، ووصل إليه شرف الدين بن مطهر وصلاح بن محمد من جماعة المولى أحمد بن الحسن، فمهدًا قواعد الدولة، ورجع أهل الشُعيب إلى الطاعة. وكان قد انخرطوا في سلك يافع وابن شعفل، فلم يعضدوهم، وعاد المحرابي إلى تعز، فاستمر فيها نائباً لمولانا محمد بن الحسن، حتى ساءَت تصرفاتُه واستنكرت حركاته بعقب قضية صدرت منه، وهي أنه اجتذب إمام محراب تعز في صلاة العيد وأهانه وجرده من ثيابه وانتهبه، فتعقبه اضطراب بدنه وحصول رعشةٍ معه لا يمكنه القيام.

وكانت زوجته بنت الأمير رجب بن مصطفى السابق، وفاته (سنة ١٠٦٠هـ) فأقامت عليه البينة باختلال عقله، وفسخت نكاحه، فلم تمض أيام حتى مات بصنعاء، ولم يبق من ذرية الأمير رجب بن مصطفى إلا هذه الزوجة المذكورة، وبعد موته تخربت داره بالمخادر.

وفيات سنة ١٠٦٣هـ

محمد بن صلاح السلامي

فيها مات القاضي العارف محمد بن صلاح بن سعيد بن قاسم السلامي الآنسي. قرأ على سيدنا العلامة إبراهيم حثيث، وكان زاهداً خشنَ الثياب، وهو أول من بايع المتوكل إسماعيل، ووفاته بذمار. وكان المدرِّس بتلك الديار، في مثل التذكرة والبيان، وشرح الأزهار، والمتصدر للفتيا للسائلين، ولفصْل الحكومات بين المتخاصمين، إلى أن كف بصره. وقبرُه في مقبرة ذمار الغربية،وهو من بيتِ صالحٍ، وقد ترجمه في الطبقات وبغية المريد.

يحيى الشبيبي

وفي (سنة ١٠٦٣هـ) مات حاكم ذمار القاضي يحيى الشبيبي، وكان هو السبب في عزل المولى عبد الله بن الإمام القاسم عن ولاية ذمار لاستنكاره لأشياء من أحواله، وما زال عبد الله بن القاسم يعاود أخاه المتوكل إسماعيل إلى أماكن سكونه، ولم يتم له إرجاع ولايته، فآل أمره إلى سكونه في بيته، بذمار إلى وفاته بها. وفي مطلع الأقمار في ترجمة هذا القاضي يحيى بن محمد بن علي بن معوضة بن علي الشبيبي الذماري أن المتوكل عزل صنوه عبد الله وعين بدله السيد أحمد بن هادي بن هارون الهاروني من بلاد الشام، فقبض على هذا القاضي الشاكي ما كان يعتاد في الماضي، فعضَّ على يديه بالنواجذ، وقال: يا أسفا على تعدينا على الوالي الأول بالشذائذ.

عبد الله بن أحمد الجربي

وفيها مات القاضي عبد الله بن أحمد بن معوضة الجربي بالروضة. وقراءته على السيد الحسن بن شمس الدين، والسيد صلاح بن أحمد الرازحي، وله اليد الطولَى في علم الكلام والفقه وتقدم له ذكر عند وفاة والده (سنة ١٠١٦هـ).

حوادث سنة ١٠٦٤هـ

وفي (سنة ١٠٦٤هـ) ارتحل الإمام من السودة إلى عمران، وكانت هذه السنة سنة قحط. ولما وصل الإمام إلى عمران تلقاه أولاد إخوته جميعاً للاستبشار بوصوله بعد الغيبة، فمنهم: محمد بن الحسن، وأحمد بن الحسن، والحسين بن الحسن، ومحمد بن أحمد بن القاسم، ومحمد بن الحسين بن القاسم، ومن كوكبان الأمير الناصر بن عبد الرب، وطلب من الإمام وآل الإمام تشريف حصن كوكبان، فوصل إليه جميعهم، وبذل الناصر مجهوده بأكمل الإكرام، وقدم للإمام اثني عشر من نجائب الخيل، وأنفق إنفاقاً دل على كرم نفسه وطيب أعراقه. ثم إن آل الإمام رجعوا إلى صنعاء، والإمام توجه إلى ثلا، وطاف قلعته الشامخة، وقُنَنه الباذخة، وهي من شوامخ القنن، لا سيما في نظَر المطهر بن الإمام، فإنها أعلى من شِمام، واتخذها كنّاً من مصائد الصدام، وحِرزاً من مكائد الأروام، ولما انقضى مرام الإمام عاد إلى مدينة سام فلبث بها إلى آخر شعبان، ثم سار بخيله ورجله إلى ضوران.

وفيات سنة ١٠٦٤هـ

قال في الوجيز: في شعبان (سنة ١٠٦٤هـ)، توفي السيد العلامة محمد بن الحسن بن شرف الدين. وكان زاهداً عابداً ودفن بجنب والده، ولعله محمد بن الحسن بن شرف الدين جحاف الذي سبق وفاة والده (سنة ١٠٥٥هـ).

صلاح بن علي الشويطر

قال في الطبقات: وفي (سنة ١٠٦٤هـ) توفي الفقيه العلامة صلاح بن علي المداني الحارثي الشُوَيطر الذماري. قرأ على عبد الوهاب المسلمي، وعنه أخذ القاضي عبد السلام السلامي وأكثر الفضلاء، وكان ورعاً زاهداً لازم الأذان بمدرسة الإمام شرف الدين بذمار زيادة على (٤٢ سنة) كما أخبر بذلك تلميذه الفقيه سعيد الويناني.

حسن بن علي الاكوع

وفي بغية المريد أنه في ليلة الجمعة (٢ ربيع الثاني سنة ١٠٦٤هـ)، توفي القاضي

العلامة الحسن بن علي بن صالح بن سليمان الأكوع الشهاري وعمره (٦٤ سنةً)، وله ترجمة في مطالع البدور، وذكرُ وفاته (سنة ١٠٢٤هـ) توهمٌ والصحيح ما هنا.

وفي (سنة ١٠٦٥هـ) في صفر، طلب الإمام إلى ضوران آل الإمام محمد وأحمد والحسين أبناء الحسن ومحمد بن الحسين، ومحمد بن أحمد وأمر بحشد الجنود، وزف البنود إلى بني أرض بلاد الرصاص، ويافع لإصلاح فاسدها، وتقويم مائدها، فاجتمع لأولاد إخوه الإمام، وأمير كوكبان زهاء عشرة آلاف رجالة وألف عنان من الخيل، وأنفذ قبل ذلك رسائله إلى الشيخ حسين الرصاص؛ لأنه أول قفل لتلك الأقفاص، وإليه التصرف في بلاد بني أرض.

وأما ما يليها كبلاد دثينة، فإلى الهيثمي ومن خلفه العولقي، ومن خلفه الواحدي، ومن خلفه الفضلي، وبلاد هؤلاء متصلة بحضرموت. فلما علم الرصاص بما عزم عليه الإمام شمخ بالعرنين، وبرز بروز ليث العرين، وحشد قبائل البلاد، وحرَّض على التأهب في الأغوار والأنجاد.

وكان مراد الإمام هو حضرموت لمواصلة السلطان الكثيري المحبوس المستنجد بالإمام، فرأى الرصاص أن نفوذ العساكر إلى خلفه؛ دلالة على عجزه، وآية على ضعفه، فركَّز نفسه هدفاً للحَين، وانتقش في رِق تاموره قول أحمد بن الحسين:

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌ فمن العجز أن تموت جبانا

فرتَّب هو والعولقي عسكرهما بنجد السَّلْف. وجنحا ببقية السلاطين من أمام ومن خلف. وكان قليل من أصحاب الإمام قد نفذوا إلى الزهراء، وهي مما غلب عليه الرصاص، وكانت في الأصل للقايفي. ثم تقدم جماعة منهم إلى قرية بالقرب منها، تسمى (بذي كريش)، ولمَّا سئم الرصاص الانتظار، بادر إلى ذي كريش بجيش جرار، فعدم التبصر برأيه والاستضاءة، وبادر إلى أمر كان له فيه أناءة، ودارت به الدوائر، وزل عنه قول الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

فإن أمراء الإمام لما جاءَهم العيون بما أزمع عليه الرصاص رموا بنفوسهم إلى نجد السِّلْف وبادروا إليه يوم الخميس (٤ ربيع الآخر سنة ١٠٦٥هـ)، فباتوا تلك الليلة وانقض جمعُهم بكرةً على الشيخ ومن إليه، فقصد أحمد بن الحسن مركزه وهو المقام الأول والمركز المعدل، فاشتجر الرماح، واشتد الكفاح، واختلفت الرصاص، ونادى لسان الحال ولات حين مناص، وحزت الرؤوس، وتداعت إلى فنائها النفوس، ولما حَمِيَ الوطيس، وهدرت الأبطال بشقاشق العيس، وقد أبان الصفي عن تحليق العقاب، وشجاعة حيدر حين اقتلع الباب، فانخزل عن الرصاص منصر العولقي، وتأخر عن دائرة المركز للهول الذي لقي، وتبعه قبائل يافع بمن بقي.

وثبت للكفاح الرصَّاص. وصار وقومه دَرِيَّةً للرماح، وهدفاً للرصاص.

وفي أثناء هذا الالتحام عطف عليهم من جانب الوادي عز الإسلام محمد بن الحسن بن الإمام، فاتفق الفشل من الجانبين، وركبتهم موجات البحرين، وأمر أحمدُ بن الحسن أصحابه بترك الرمي، فاخترطوا السيوف، وأقبلوا على الحتوف، واختلط الفريقان حتى اغبرَّ الدَّوْ، واصطدمت الهامات في الجوِّ، وانجلت المعركة عن قتل السلطان حسين الرصاص، ورسَبَ في حبائل الاقتناص.

وحُمِل رأسُه إلى القائد للجميع محمد بن الحسن إلى رداع، ثم إلى الإمام.

والذاهب من أصحاب الصفي قدر ستين نفراً، وقتل من أصحاب الرصاص الجم الغفير، فقد تبعهم الصفي والسيف يعمل فيهم ذات اليمين وذات الشمال، وأكثر مولانا الصفي من الحمد لله والثناء عليه، لما ساق من النصر والفتح على يديه.

وبعد النصر على الرصاص أمر المولى الصفي بجمع النساء وميَّز الحرائر، وأرجعهن إلى أهلهن حالاً، وقسم الإماء المملوكات كغيرها من المأخوذات، وقومت الإماءُ وأعطى كل غانم القيمة، و لم توطأ امرأة، ولو مع شدة العزبة، وأرجع الجميع لأهلهن. وأما الأثاث والحبوب فشيء واسع، غنم أهل قيفة، حيث بيع القدح بأرخص الأثمان، وحمل ألفافُ الناس ما لا تطيقه الأقلام، مصائب قوم عند قوم فوائد، وأما سراة الناس فما كان مغنمهم إلا القتال، وانتزاع أرواح الكماة والأبطال.

إن الأسودَ أسودَ الغاب همتُها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وكان الصفي قد أمر إلى الخيالة والرجَّالة ألاَّ يشتغلوا بقطع الرؤوس أو بالطمع؛ لئلا يشتغلوا عن القتال، فعملوا بهذا الأمر في المبادئ.

ولما هبت ريح النصر انحطوا إلى الأطماع، وقطع الرؤوس وأضربوا عن ذلك التنادي، والذين قاتلوا مع السلطان حسن الرصاص بنجد السلف، فمنهم: آل علي وهم عترته الذين ثبتوا في اللقاء، ومنهم: بنو أرض بطون كثيرة، ومنهم: بنو غيلان نحو أربعمائة رجل، ومنهم: أصحاب ناصر الدرع، ومنهم: أصحاب غراب، نحو: ستمائة مقاتل، ومنهم: الصاغبة ومنهم: أهل مظفر والظفير وأهل حصين، ومنهم: آل هشام وآل سعادة، وعليهم عهدة الطريق إلى البيضاء لا غير، ومنهم: أهل هصيص شيخُهم ناصر معوضة آل عُمر، ومنهم: الملاحم الذين تقدموا إلى ذي كريش، ومنهم: العوالقة خيل ورجل، ومنهم الهيائمة، أصحاب الهيثمي المجاور لدثينة، وأغلب هؤلاء لما أحسوا يوم الخميس بصدق الضرب والطعن نكصوا على الأعقاب، وأسلموا قومهم للعذاب، وفروا فرارا الآبق، وما رعوا للرَّصاص عهده السابق. ووقع القتل الذريع في آل علي بطانة الرَّصاص، قتل منهم نحو المائتين من رؤسائهم علي بن مزاحم الجرهمي، وأبو بكر بن ناصر.

ولقد ثبت الرصاص الثبات الهائل، ولم يسمع له صوت فزع عند التصاول، وأصيب بثلاث رصاصات.

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولم يكونوا عدواً ذلَّ جانبُه وإنما غرقوا في سيلك العَرِمِ

ولما انجلت المعركة أقام أحمد بن الحسن في الصلالة خمسة أيام. وعد للأجناد بها معلومهم العام، وجملةُ العدد لمن حواه المعسكر نحو أربعين ألفاً.

وارتحل وصلَّى الجمعة الثانية بالبيضاء، وبذل لمن وصل الأمانَ في نفسه وأهله وماله فأتوا إليه أفواجاً، فمن مشائخهم: منصر بن صالح العولقي صاحب دثينة، وصل في قومه وأبهته وقدَّم من الخيل ما أبان عن نعمته. فأكرم الصفي نزله، وأُخِذَ عليه العهد، (ودثينة من أخصب البلاد، فيها الثمرة، وأنواع الفواكه)، ثم أذن الصفي للعولقي بالعود إلى وطنه. ووصل إلى الصفي السلطان سالم بن حيدر الفضلي، وكان موالياً من (سنة

١٠٥٥هـ) وعطاياه تجري عليه من ذلك الحين. ووصل السلطان صالح بن عبد الواحد الواحدي، فقوبل بالإحسان، ومثله الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله العمودي، وبلاده محاذية لحضرموت، ولم يُسلِفْ شيئاً من التعدي، وأنفذ مولانا الصفي أولاد هؤلاء إلى صنوه محمد برداع، وهو أنفذهم إلى حضرة الإمام بضوران نابوا عن آبائهم، وأُكرموا بالمقام الشريف غاية الإكرام، وقُرِر الجميع على ولايتهم وأُخِذَ عليهم ما يؤخذ على العمال من الرفق، وانقلبوا إلى أوطانهم شاكرين.

وأما السلطان صالح بن أحمد الرصَّاص فشرد بأهله من بين يدي الفتنة، فوضع له مولانا الصفي الأمان، فحذر من شدة الخوف وطلب المواثيق الأكيدة على يد مولانا الحسين بن الحسن وسلمهُ ورقه، فتأكد له من الصفي، فأسعف له ووفى، وهو الأحق بأن يفي، فبلغ إلى الصفي وبايعه باليدين، ولما أحب الرجوع إلى بلاده أعطاه العطاء الجزيل وأجراه على معتاده، وأوقر له الجمال من العطايا، وجعله هو وقومه علَماً بين البرايا، ولم يشرط عليه غير الطاعة والعمل الموافق للشرع، وأقام في جبل يُقاف من أعمال البيضاء.

ثم تحشد أهل يافع، فأرسل إليهم أولاد الإمام، وحرضوهم على الطاعة والإئتمام، فأصروا على قبيح أفعالهم، وانحازوا إلى شواهق جبالهم.

فسار بعض الجند إلى الحلقة مع المولى محمد بن الحسين، فاستقر بها يومين. ووصلت الأخبار أن الشريف سالم بن حسين الحسيني قادم لنصرة يافع بغارة.

وفي نهار الاثنين (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٦٥هـ)، تقدم محمد بن الحسين إلى دائر جبل العرّ لاستخراج يافع، فنزل جماعة منهم إلى سفح الجبل، فاشتجر الحرب بينهم، فقتل من أصحاب محمد بن الحسين نحو أربعة عشر نفراً وجرح نحو الثلاثين. ثم حملوا على أهل العرّ بسفح الجبل فهزموهم إلى أعلاه، واتصل الضرب في أعقابهم، ثم طلع عسكر الإمام وخيله إلى أعلى الجبل، واختلط الجميع وحصل الاستيلاء على رأس الجبل، وقُفْلة، ودخل الجند بلاد (مرفد).

وكان المتولي للملحمة فيهم السلطان عبد الله بن هرهرة، ومعه رايات الشيخ الحبيب سالم، ولهم فيه اعتقاد عظيم، وهو شريف من أولاد الشيخ أبي بكر بن سالم من آل با علوي.

ولما استقر أصحاب الإمام بمرفد اجتمع يافع من كل أوب يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٠٦٥هـ) وأحاطوا بمرفد، فرأى أصحاب الإمام ألاَّ يخرجوا إليهم فيتركون لهم سَوْرتَهم حتى يفلوا شوكتهم.

وفي خلال ذلك وصل صفي الإسلام من البيضاء، فلما ضربت طبوله ولوا الأدبار، واستولى عليهم الإدبار، ثم طلبوا بعد ذلك الأمان، فبذله لهم، ودخلت الأجناد الموسطة.

ولما سكنت الزعازع، وصلح أمر يافع، أمر الإمامُ الأمراءَ بالتريث زيادة في الاستقرار والاطمئنان، لكنهم راجعوا الإمام بسرعة وصولهم إليه وبالعود، فعادوا إليه وأمَّروا على البلاد الرئيس شرف الدين بن عبد الرحمن بن المطهر شرف الدين، وكان على الأمراء أن يتلبثوا ولا يسرعوا بالعود.

ولما بلغ سلطان حضرموت هذا النصر الجسيم، والفتح العظيم أطلق عمه من قيد الترسيم، وأشعر الإمام بالطاعة، والاعتزاء إليه في الجمعة والجماعة، فأرسل إليه الإمامُ الأميرَ صالح بن الحسين الجوفي، فلما وصل هنالك وجد الأمر على حقيقته، وعاد الأمير وقد صلحت البلاد والديار، فوُجِّه إلى بدر بن عُمر ولاية ظفار.

وفيما عاد الشيخ يحيى روكان إلى عناده، وحنَّ إلى ما ألفه من فساده، فجهَّز عليه الإمام من قصده إلى عقر داره، وعطله عن وساوسه وأوطاره، ففر هارباً إلى شهارة مستشفعاً بالحسين بن المؤيد؛ فأعرض عنه، ثم سار إلى الإمام بضوران، فبقي بها حتى مات كما سبق.

وفيها وفدت الأخبار أن الباشا بمصر عزل الباشا الذي بسواكن.

وفي ذي الحجة (سنة ١٠٦٥هـ) ظهر لآل الإمام عاقبة حسن الرأي الذي كان رآه الإمام وهو ألاَّ يرتفعوا عن بلاد يافع حتى تستقر القواعد وتعرف المقاصد، فإن ابن العفيف تغلب على البلاد، وطرد عامل الإمام بالسيوف الحداد، وأخرجه من الجهة اللحجية على قدميه بعد قتل بعض أصحابه.

فلما علم الإمام انتدب للدخول إليهم ولده الناسك البار الزاهد محمد بن المتوكل، وكان يومئذٍ في سن البلوغ، لكنه من الرسوخ في سن الشيوخ، وبادر إلى الوصول إلى البيضاء خشية أن ينجم خلاف الرصاص، فقد انتهب عقيب هذا الخلاف قافلة بنجد

السلف، واستدعَى ابنُ الإمام، أولاد أعمامه الأعلام.

فساروا جميعاً وتتابعت الأجناد إلى البيضاء، ثم إلى الموسطة بلاد ابن هرهرة؛ لأنه لم يظهر منه شقاق، وإن كان في الباطن مع أصحابه بالاتفاق.

وفيات سنة ١٠٦٥هـ

أحمد القيرواني

فيها مات بصنعاء الشيخ العارف أحمد القيرواني المالكي المغربي.

وصل إلى صنعاء في دولة المؤيد محمد بن القاسم، ثم سار إلى مكة للحج. استقر مدة ثم عاد اليمن ومعه كتبه لا يفارقها، فتوفي وقبض كتبه القاضي الحسين بن يحيى السحولي إلى أن يظهر وارثه.

إبراهيم بن يحيى جحاف

وفي رابع عشر شعبان (سنة ١٠٦٥هـ) توفي بحبور السيد العلامة الأديب إبراهيم بن الهُدَى بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد جحاف عن (٧٥ سنة)، فإن مولده (سنة ٩٩١هـ).

كان مفتياً وذا عناية بالحديث، وله فيه مستجازات عن الشيخ أحمد بن علي بن مطير وغيره، وهي مجموعة بخطه، وكان حاكمَ حبور وإمامَ جامعه، وله في الفرائض تأليف حسن، خرج فيها الأحاديث من أصولها، وكان من أهل الملكة والرياضة الكلية لنفسه، عاكفاً على كتب الطريقة مواظباً على الجماعة في مسجد حبور، وله شرح على أبيات الجعبري في التلاوة لآي الفاتحة. وكان بينه وبين الحسن والحسين ابني القاسم غاية الصداقة والمفاكهة. وكان يرى رفع اليدين عند تكبيرة الافتتاح، ووضع الكف على الكف، كما هو قول أكثر العلماء.

وأعلى ما وقع له من الطرق ما يرويه عن الشيخ العلامة علي بن محمد بن مطير، عن عمه عبد الله بن إبراهيم بن مطير، عن القاضي زكريا عن الشيخ ابن حجر العسقلاني بأسانيده المعروفة. وله تخميس قصيدة الصفي الحلي التي أولها: (فيروزة الصبح أم ياقوتة

الشفق). ومن شعره:

وإذا أسبلَ الظلامُ رواقاً ... وهدأ معشرٌ به واستراحوا
فأنا أرفع الأكف إلى من ... خطرة القلب عنده إيضاح
قائلاً رب أنت تعلم بالحال ... ففيمَ السؤال والإلحاح
ولعمري ما يهدم اليأسُ ظَني ... والإله المؤملُ المِسماح
لو تكون السماء والأرض رتقاً ... أو تحول السيوفُ والأرماح
هذه سنة الأوائل من قبـ ... ـل بها طال ما استراحوا وراحوا
كلما جاءَهم من اليأس كأسٌ ... فلهم في رجائهم أقداح

محمد بن الحسين المحرابي

وفيها مات ببلاد عذر السيد العارف حاكم الشريعة بها محمد بن الحسين المحرابي، ويُروى عنه أنه كان يميل لمذهب الشافعي.

حوادث سنة ١٠٦٦هـ

وفي (سنة ١٠٦٦هـ) تحرك جند الإمام إلى ابن العفيف والناجي، فالتقاهم الشيخان ومن معهما بحرب عوان، ورتبوا الأحزاب في ظهور الهضاب وبطون الشعاب. وما زالت سعير الحرب حامية، وأحوال الفريقين متكافية، إلى أن جادت صولة أصحاب الإمام، وخفقت بريح نصرهم الأعلام، فانهزم ابن العفيف، وآلَ كيلُه إلى التطفيف، ثم هتف بالأمان والوصول، فأسعف إلى ما يقول، ووصل إلى الموسطة. ثم سار من حينه إلى حضرة الإمام بضوران، ولم يلبث أن توفي فصلّى عليه الإمام صلاة الجنازة، وحضر غسله وجهازه، وأما الناجي فإنه قاتل بعض القتال.

ثم دخل فيما دخل فيه ابن العفيف، فأخذ له الأمان، وكان قد قتَل من أهل آنس مقاتيل، فغدروا به وقتلوه.

وبعد هذه الملحمة أذعن أهل يافع بالطاعة، وغيرهم من حد العرَّ إلى عدن وهي بلاد واسعة ذات أرزاق نافعة، ووصل إلى الإمام أعيان المشائخ كالشيخ عبد الله بن هرهرة

وغيره، ولما وصل الشيخ صالح بن أحمد الرصَّاص إلى الإمام، خلع عليه؛ لأنه لم يجر منه خلاف في هذه الحرب، وأعاده إلى بلاده. واستبقى ابن هرهرة لديه.

ثم رجح الإمام أن يأمر الأمراء الذين بيافع أن يقبضوا سلاح أهل يافع إلى حصن الدامغ، فأوصله أهل يافع على ظهورهم، وأودع خزانة الحصن، ثم أرسل الإمامُ الشيخ محمد بن الحاج أحمد عواض الأسدي، إلى بلاد بيحان إلى الشريف طالب بن حسين الجوفي الحمزي، فسار إليه وعاد به، وجعل الإمام ولاية البيضاء ويافع إلى ابن أخيه الحسين بن الحسن، فاستمر عليها واستقر أولاً بالبيضاء ثم برداع عهداً طويلاً.

وفيها تألب جماعة من أهل صنعاء وصوفيتها على البانيان بسبب تغيير قانون البيع والشراء، واستعلائهم في الخانات على المسلمين، وراموا إخراجهم، فلما بلغ الإمام أنكر عليهم ما صنعوه وعرفهم أنهم في جواره بأداء الجزية، وأنه لا بد من برهان شرعي يُستَند إليه في خرم الذمة، ثم أودع جماعة من المتعصبين السجون، ثم أطلقهم بعد أيام.

وفيها هم الإمام أن يجهز إلى الحبشة بسبب ما وصفه رسوله القاضي الحسن الحيمي، وحرَّض الإمام بقصائد، ولم يتم ذلك.

وفي شعبان ورمضان (سنة ١٠٦٦هـ) اشتد الطاعون بصنعاء حتى خرج منها ليلة عيد الفطر، قدر ثلاثين جنازة، ولله الأمر.

وفي آخر رمضان انصب مطر الخريف بغزارة، ووصل السيل العظيم، فأخرب جانباً من عقود الدوائر وبيوتاً من السائلة، ثم تكرر فأخرب بقية العقود من الطرفين، ودفن غيول السد بشعوب، وخرج بعضه من باب السبحة ولولا انكسار الخندق الأسفل لركب المدينة وأخرب فيها ما شاء من البيوت.

وفيها مرَّ محمد سعيد رسول ملك الهند باليمن راجعاً من الأبواب السلطانية إلى الهند، وكان أرسله ملك الهند يستصرخ السلطان على شاه العجم، لما أخذ من أطراف بلاده، وطلب من السلطان أن يشن عليه الغارات من الشمال، فيحصل بذلك التنفيس عليه، فاعتذر السلطان بما بينه وبين شاه العجم من الصلح المعقود، والأيمان والعهود.

وفيها استدعى الإمامُ السيدَ العلامة أحمد بن علي الشامي بسبب أن ولده قتل مملوكاً له، فأوضح للإمام الحقيقةَ أن قتله للعبد دفاعاً؛ لأنه ألقى عليه حجرة عظيمة، لولا دفاعه

لقتله فعذره الإمام.

أبو طالب أحمد بن القاسم

وفي (٢٣ صفر سنة ١٠٦٦هـ) توفي بصعدة المولى الإمام والغرة في أبناء الإمام صفي الإسلام أبو طالب أحمد بن القاسم، وكان أكبر من أخيه المتوكل، وعمره (٥٩ سنة)، فإن مولده في (صفر سنة ١٠٠٧هـ). وكان من أعضاد الدين وأعمدة المسلمين، تولى لوالده وأخيه المؤيد الشرف وصعدة، وكان يأمر باصطناع الطعام الواسع، وتفريقه بالليل على الضعفاء إلى بيوقم، وكان لا يرد سائلاً، ولو يعطيه من ثيابه حتى سمي أبو الطالب، وله مقامات محمودة في جهاد الأتراك. وكان مع أخيه المؤيد أسيرين بكوكبان ست سنوات، وادَّخر للحرب عدةً كاملة.

وعقيب وفاة المؤيد دعا بشهارة، وبايعه شيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسوري، لكن تغلبت السياسة والقوة وتجمُّع الأمراءُ لمصلحتهم، فجرى ما انتهى إليه استقرار دعوة المتوكّل، فولاّه على صعدة وبلادها، حسبما سبق ودفن بقبته المعروفة بصعدة.

وله تراجم حسنة في مطالع البدور وبغية المريد، وكان محباً للصدقات والمآثر الحسنة، ومنها الحسنة الجارية والمنقبة العالية، جامع الروضة فهو على كيفيةٍ يقطع من شاهدها أنها برٌّ موصول وعمل متلقى بالقبول، حتى قال بعضهم:

لا تحسب الجامعَ في روضة وإنما الروضةُ في الجامع

ووقف عليه ما يقوم به من أموال في سعوان وغيره، ومعمورات، منها سمسرة سوق العنب، ومن مآثره سمسرة الأزرقين، عمرها بوصية من زوجته بنت المعافَى وسمسرة ريدة وغير ذلك، وبعد وفاته وجه المتوكل ولاية صعدة لولده المولى علي بن أحمد، وأما ابنه محمد بن أحمد فبقي قائداً كبيراً، يتردد إلى حضرة الإمام، وولايته بلاد الظاهر وخمر وعمران، وما جاورها، وكان قد أشار على المتوكل بأمرين ترك الصِّر الذي يصير إلى مكة مع أمير الحج، وترك فتح المشرق تفرُّساً منه أنه لا ينضبط الأمران، فكان الأمر كما تفرس.

من حوادث سنة ١٠٦٦هـ

وفيها وقع بين ذو محمد وذو حسين من برط إِحَن، وقتال، ذهب فيه منهما جماعة.

وفيها أنشأ السيد العلامة الحسن بن أحمد الجلال رسالةً لعلها (براءة الذمة بنصح إمام الأمة) استشكل فيها التجهيز على المشرق – سبق إشارة إليها – ويمكن المناقشة لبعض أطرافها، كأبحاث ومؤلفات الجلال الأخرى، وقد كتب عليها بعض القاصرين جواباً شغل فيه القرطاس، واستنتج من غير قياس.

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قرنٍ   لم يستطع صولة البزل القناعيس

وفيها وصلت إلى اليمن نسخة من كتاب فتح المتعال في مدح النعال للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نزيل القاهرة المحروسة، وكان قد صنف قبله في ذلك ابن عساكر والشيبي والبلتيني، لكنه أوعب فيه ما يتعلق بالنعال الشريفة، وما قيل فيها من المِدَح اللطيفة، وانجر كلامُه إلى أطراف تقضي بسعة إطلاعه، ورتبه على فاتحة في معنى النعل والقِبال، والشراك والشِسع وما يناسب ذلك وأبواب.

الباب الأول: في بعض ما ورد فيه من الأحاديث وتفسير ألفاظها وما يتبع ذلك.

الثاني: في صفات النعال العظيم البركات، وما يتصل بذلك.

الثالث: في إيراد نبذة من المقطعات والقصائد المقولة فيه، وما يتصل بذلك.

الرابع: في سرد جملة من خواصها وخاتمة في زبد مما يتعلق بها وما يتصل بذلك. ومثّل في هذا الكتاب النعال الشريف بالذهب الأحمر على الأنحاء المختلفة، يقول صاحب طبق الحلوى: فكتبت في ديباجته ما صورته: لما وقف العبد الحقير الضعيف على مثال النعل الشريف هزه الشوق إلى من به كمال التشريف، وتعلل عن رؤية الذات المقدسة بمشاهدة هذا المثال اللطيف منشداً للحال قول من قال:

يا عين أن بَعُد الحبيبُ ودارُه   ونأت منازلُه وشط مزارُه

فلكِ الهنا فلقد حُظيت بطائل   إن لم تريه فهذه آثاره

ثم أنشد في الحال مواجهاً لتمثال شريف النعال:-

أي عيوني نزهي الأحداق في   شبه نعل المصطفى فهي حديقة

صُـــورتْ بـــالتبر كـــي ترمقَهـــا ... أعـــينُ النظـــار في ذات رشـــيقة
أيهـــا الكتـــاب إن كانـــت لكـــم ... في مثـــال النعـــل أمثـــال عميقـــة
فارسموهـــــا بســـــواد العـــــين أو ... بالســـويدا مـــنكمُ فهـــي خليقـــة
واخضـــبوها بســـحيق المســـك إذ ... حملـــت طـــه إلى أرضِ ســـحيقة
واجعلوهـــا عـــوذةً مـــن كلمـــا ... يُتحـــامَى مـــن صـــداع أو شـــقيقة
يـــا لهـــا نعـــلاً بهـــا جـــاز إلى ... ســـدرة راقـــت بـــأوراق وريقـــة
وسمـــت حـــين أقلـــت قـــدماً ... جـــاوزت ســـبع سمـــاوات أنيقـــة
ثبتـــت أقدامـــه فيهـــا وقـــد ... صـــرِّفت أقـــلام أســـرار دقيقـــة
لي قلـــب يشـــتهي تقبيلـــها ... في قِبالَيهـــا لكـــي يطفـــي حريقـــه
وطريقـــي في هواهـــا واضـــح ... إنمـــا يســـكله أهـــل الطريقـــة
أحمـــدٌ جـــدي ومخـــدومي ومـــا ... أنـــا إلاّ عبـــدُ نعليـــه حقيقـــة

(القِبالان تثنية قِبال بقاف مسكورة زِمامٌ يكون بين الأصبع الوسطى والتي تليها كما في القاموس وغيره).

ولصاحبنا الصدر الأديب سنبل بن سرور.

عليك إن كنت تهوى أرفـع الرتـب ... بلثم نعـل رسـول الله خـير نـبي
تجد نصيبك من عـز ومـن شـرف ... نصيب شانيك من هم ومـن نصـب
وكرِّر اللـثم واستشـعر لـه قـدماً ... بين الشراكين من دُر ومـن ذهـب
رقَى بها السبعَ حـتى جـاز منـتعلاً ... من قاب قوسين والأمـلاك في لجـب
مسـبحين لمـولاهم وقـد عجبـوا ... مما به خاتم الرسـل الكـرام حُبِـي
من لي بلـثم تـراب مـن أصـابعه ... وكيف والنعل باق في حشا الكتُـب
من نعـل أروع أن تسـأله مكرمـة ... يهَبْ وإن باشـر الهيجـاءَ لم يَهَـب
نفسي الفداءُ لأقـدامٍ رسـخن بهـا ... مِن بعد ما نكص الشـيطانُ للعقـب
مصـوَّراً لا تـزال الكتـب تحرسُـه ... أعظم به معجزاً يبقى علـى الحُقُـب

فكيف لو قبَّل النعلَ التي ارتفعت على السماك على الجوزا على زُحل
بل كيف لو كان ذاك اللَّثمُ في قدمٍ علت محلاً على الروح الأمين علي
فضُمَّه يا كسير القلب منتصباً للثمه فهو عندي قُبلةُ القُبَل
أفديه من شبه نعلٍ لست أنزلُه إلا السوادين من قلبي ومن مُقَلي
بالله يا فكري الوقاد خاطرُه أرح فؤادي عن التشبيب والغزل
وخل عنك (ألا يا دارَ ميَّة بالـ ـجرعاء) أو عُج برسم الدار فالطلل
ومِل عن البان في سحر البيان ولا تكل طبعي بذكريَ جيْرة الكِلَلِ
وانزل على السهل من أرض الكلام ودع لصخر شعر ابن هاني ذروة الجبل
وهات ما ساقه الطبعُ اللطيف بلا تكلفٍ ومضَى فيه بلا مَلل
فإن أجدت فلم أسمع بمتذلٍ فيما نظمتَ ولم أعثر على ثقل
فاختر لنا خير ما يهديه ذو كلم نمدحْ به شبهَ نعلَيْ خير منتعلِ
ولا تثب وثبةَ المغرور ممتدحاً لصاحب النعل تدعَى صاحبَ الخطَل
فأنت أقصر باعاً أن تطول يداً لذاك بعد كلام الواحد الأزلي
فقف لدى النعل واشمخ بالمديح لها أنفاً وتِه وافتخر وامرح وَصُل وطُل
ونظِّم الشهبَ ثم اجعل صحيفتها جبينَ شمسِ الضحَى والشمسُ في الحمل
عسى تقوم بحق النعل إن هجمت بك السعادةُ في الدنيا على الأمل
(وقد وجدتَ مكان القول ذا سَعة فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقل)
قد مثَّل الرومُ في الكاسات قيصرَهم وذاك موضعُ أهلِ البغي والزلل
وذا الذي شرف النعلَ التي لمست أقدام هادي البرايا واضحِ السُبل
لو صِيغ من شكلها تاجٌ لمملكة لما استحقته إلا أشرفُ الدُوَل
ويا أخا الهم هذا نعلُ من شرفت أفواهنا من ثرى نعليه بالقُبَل
قَبِّلهُ واضرب به وجهَ الهموم إذا ما بِتَّ في غمرات الغم في شُغَل
وقل لعقرب هَمٍ خفتَ عودتها على الفؤاد مقالَ الناشط الجذِل

يا عقربَ الهم هذي النعلُ حاضرةٌ	إن عُدت عُدنا إلى عاداتنا الأُوَل
يا سيدَ الرسلِ لي شكوى إذا ذُكرتْ	لاح الضحَى من سواد الليل في حلُلَ
وكادت السحبُ من وهَّاج لفحتها	تنهلُّ جمراً مكانَ العارض الهطل
شكوَى تبرَّأ لفظي من فضاعتها	عن وصفها ودعا بالويل والوهَل
واللهِ واللهِ ما قاسيتُ شدتَها	إلاّ حسبتُ الردَى ضرباً من العسل
وقد توسلت بالنظم الذي لحقت	ألفاظُه في مثال النعل بالمثَل
في حل عقدهما يا من تُحَل به	من الخطوب عقودَ الحادث الجَلَل
فاشفع فما خاب لا واللهِ من علقت	يداه منك بحبلٍ غير منفصل
صلى عليك إلهُ الخلق ما أمنت	بك النفوسُ شديدَ الخوفِ والوجل
وما حلا ختمُ نظمٍ بالصلاة على	كرام آلك أهلِ العلم والعمل

أما قوله: فإن أجدتَ.. إلخ، فسحر بابل وتغريد بلابل، وما ألطف الجمعَ بين السماع والابتذال والعثور والثقل، وهكذا فليكن ابتكار المعاني، وإسكانها من لطيف الألفاظ أرفع المباني، وقولُه: وقل لعقرب هم، وما بعده ناظرٌ إلى قوله:

إن عادت العقربُ عدنا لها	وكانت النعل لها حاضرة

وإذْ وقع ذكر النعل الشريفة هنا، فلا بأس بذكر أبحاث في ذكرها مزيد تشريف بآثارِه - صلى الله عليه وآله وسلم - غير مخرِجة عما نحن فيه.

البحث الأول في النعل والنعال والشسع

أما الأولان، فقال صاحبُ القاموس: النعلُ ما وقيتَ به القدمَ عن الأرض كالنعلة مؤنثة وجمعُه نعالٌ وهو خلاف ما في المصباح وغيره أن النعل مؤنثة يعني التأنيث المعنوي وعلى القول بالتأنيث، فتصغيره على فُعَيل خارج مخرج الشذوذ، كما جاء في درع وحرب وناب وذود وغيرها، وقياسُ تصغيره فُعَيلةٌ، وقد اقتصر عليه بعض الأئمة وقول بعض الأنصار: يا خير من يمشي بنعلٍ فرد، يؤيدُ ما في القاموس.

وأما قول ابن الأثير: إنه محمول على أن تأنيثه غير حقيقي فغني عن بيان ضعفه كما لا يخفى، ولو قيل: إنه مما جاء فيه التذكير والتأنيث، ويشهد له التصغير على فُعَيل

وفُعَيلة، لكان توفيقاً حسناً، وفي الحديث: ((لتركبُنَّ سَنَنَ من قبلكم حذوَ النعل بالنعل)) أي قِطَع النعل على النعل، قال الترمذي عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: ((ليأتينَّ على أُمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل)) ومن الحديث في مسألة ضالة الإبل: ((مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها))، وهو من الاستعارة لصبرها عن الماء، وفي الحديث (إذا ابتلت النعالُ فالصلاة في الرحال)) ورحلُ الرجل منزلُه المعنى صلوا في منازلكم عند ابتلالها من المطر، وقال الحريري: في دُرَّة الغوَّاص في أوهام الخواص: إن النِّعال في هذا الحديث جمع نعل، وهو ما صلب من الأرض. انتهى

وروى ثعلب عن أبي سلمة عن الفرّاء أنه قال: النعال الأرضون الصلاب وأنشد:

قوم إذا اخضرَّت نعالُهم يتناهقون تناهقَ الحُمرِ

وفي الخبر: ((إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال))، يقول: إذا تزلقت الأرض فصلوا في منازلكم، انتهى

ويطلق النعل كما في القاموس على الزوجة، ومنه ما ألغزه الحريري في مقاماته: إن من لَمَسَ ظهر نعله ينتقض وضوءه من فعله.

ومن أمثال العرب: كاد المنتعل أن يكون راكباً.

وروى ابن عساكر عن أنس مرفوعاً ((المنتعلُ راكبٌ))، وروى غير واحد كالبخاري في تاريخه وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك عن جابر والطبراني في الكبير عن عمران بن حُصين، وفي الأوسط عن ابن عُمر (استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما دام منتعلاً).

وأما الشِسع فهو القِبالُ كما في القاموس، وقال الحافظ بن عساكر: الشسع واحدُ شُسُوع النعل، وهو الذي يُدخِله المنتعل بين إصبعيه ويدخل طرفَه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. والزمامُ السيرُ الذي يعقد فيه الشسعُ ونحوُه للنووي في شرح مسلم، وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق، فانقطعت شسعُه، فقلت: يا رسول الله، ناولني أصلحه، فقال: ((هذه أَثَرةٌ ولا أحبُّ الأثَرةَ)). انتهى

الأَثَرَة بفتح الهمزة والثاء الاسم من آثَرَ يُؤثِر إذا أعطَى والأثرةُ الاستئثارُ وهو من

الانفراد بالشيء، فكأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كره أن ينفرد أحد بإصلاح نعله فيحوز فضيلة الخدمة، ويكون له بمثابة الخادم، ويكون له - صلى الله عليه وآله وسلم - ترفعُ المخدوم على خادمه لتواضعه - صلى الله عليه وآله وسلم - مع من يصحَبُه، وأورد الفتّني عند ذكر حديث الاستخارة في الأمور قولَه - صلى الله عليه وآله وسلم - : ((ليسألْ أحدكم ربَّه حتى في شسع نعله)).

وروى أبو يعلى في مسنده عن عائشة رفعته: ((سلوا الله كل شيء حتى الشسع، فإن الله إن لم ييسره لم يتيسر))، وروَى ابن السني في عمل اليوم والليلة عن أبي هريرة ((ليسترجِعْ أحدُكم في كل شيء حتى في شسع نعله فإنها من المصائب)).

وروى ابن عربي في الكامل عن أبي هريرة: ((إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع فإنها من المصائب)).

واعلم أن النعل لباس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قاله ابن العربي، قال: وإنما اتَّخذ الناس غيرَه لما في أرضهم من الطين، أو قال: المطر. انتهى

نقله عنه غير واحد كالشيخ عصام.

البحث الثاني فيما ورد في النعال الشريفة

عن قتادة عن أنس كانت نعل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لها قبالان، وعن ابن عباس: كان لنعل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبالان مُثَنَّى شراكُهما، وقوله: مُثَنَّى بضم الميم وفتح الثَّاء المثلثة، وتشديد النون اسم مفعول والتثنيةُ جعل الشيء اثنين أو بفتح الميم وسكون الثاءِ كمرَ ميٍّ اسم مفعول.

وعن عيسى بن طهمان، قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جرداوين لهما قبالان، قال: فحدثني بعدُ ثابت عن أنس أنهما كانتا نعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قوله: جرداوين بالجيم أي لا شعر عليهما.

قال في النهاية: استعارة من أرض جرداء، لا نبات فيها وفسره في شرح السنة بالخَلَقين، وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - يلبس النعال السِّبتيةَ.

وفي جواب عبدالله بن عمر على عبيد بن جُرَيج، وقد سأله عن لبس النعال، قولُه: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ

فيها، فأنا أحب أن ألبسها. انتهى

السِبْتية بكسر السين نسبة إلى سِبْت، بمعنى جلد البقَر المدبوغ مطلقاً أو بالقرَض خاصة، كما قاله الأصمعي، وهو ورق السلم يجلب من اليمن، قيل: وكانت نعله - صلى الله عليه وآله وسلم - مخصوفة وكانت صفراءَ، وفي حديث ابن عمر ما يقضي بهذا، وكان يقدِّم اليمنى في اللُّبس واليسار في الخلع، كما كان يحب التيامن في شأنه كله.

البحث الثالث

أفاد ابن الجوزي أن الذي يديم لبس اليمنى من قبل اليسرى ينال الأمن منَ الطحال، وقد ساق منافع النعال صاحب فتح المتعال، وأطاب وأطال، فمنها أن من أدام حمله أعني مثال النعل النبوي، نال القبول عند الأنام، وشاهد نبيَّه - صلى الله عليه وآله وسلم - في المنام، حائزاً قصَب السبق في الاغتنام، ومن احتوى عليه غلب الأضداد والطغاة والبغاة وأحرز نفسه من مردة الشياطين وعيون الحاسدين، وهذا من طريق التجربة لخواص النعل الشريفة. انتهى

وفي هذه السنة أيضاً خرج إلى اليمن كتاب ريحانة الألبَّا وزهرة الحياة الدنيا، وقد ذكر هو أيضاً في النعل الشريف مبحثاً، وأورد جملة من المقطعات المسمَّى واحدُها (دُوبيت) بالمهملة لفظةٌ فارسية معناها اثنان، ومنه ما جاء في حديث سلمان الفارسي: التمر بك بك والعنب دو دو بك بمعنى واحد بالفارسية، فالمعنى من دوبيت بيتان وضبطُه بالذال المعجمة تصحيف.

وفيها وصل درويش من الهند إلى صنعاء يحدث من أكرم غريباً في غربته فكأنما أكرم سبعين نبياً مرسلاً، وما زال يطرحه تجاه المصلين يوم الجمعة، ثم زاد فيه بعد أيام بعد قوله في غربته في بيته، وهو مما لا أصل له، ولا ذكره السخاوي، ولا سيدي أحمد بن عبد الله بن أحمد في الأحاديث الدائرة على الألسنة، ولا الديبع في تمييزه وما عليه شيء من طلاوة الحديث النبوي.

حوادث سنة ١٠٦٧هـ

في (صفر سنة ١٠٦٧هـ) وصل السيد صارم الدين إبراهيم بن محمد المؤيدي إلى الحضرة المتوكلية ونال من التعظيم ما هو أهله وبعد شهرين انتقل إلى حضرة محمد بن الحسن، فتلقاه بالرحب والإنعام، ثم عاد بلاده، وقد أقطعه الإمام بعض البلاد كما سلف، فاستقر في محله وعَمرَه بالشريعة النبوية والمسائل العلمية مع حضور أصحاب وأولاد وأحباب أجلهم قدراً ولده السيد العلامة التقي الكريم أحمد بن إبراهيم.

وفيها وصل من قبائلَ بحدود البصرة من بلاد الخميل البديع ما بين الحسا والدواسر، مكتوب يذكرون اشتياقهم إلى دولة الإمام وتسليمهم له واجباتهم لما بلغهم من عدله، ولم يتم ذلك لبعد الديار والأبدان، وكون تلك الجهة مما يضبطه نائب السلطان العثماني وهو أقرب إليهم وأشد في الوطئة عليهم.

وفيها جاءت الأخبار أن السلطان محمد بن إبراهيم استولى على البعض من بلاد مالطة وأسر عالماً من النصارى.

وفي ربيعها أرسل الإمام القاضي الحسن بن أحمد الحيمي إلى أمير حضرموت بدر بن عبد الله الكثيري فتلقاه بالإكرام، وعاد إلى الإمام بهدية عظيمة ونفائس لها قيمة للإمام.

وفيها عمر محمد بن الحسن السمسرة العظيمة في سوق البز للتجَّار، فاستعملت للبيع والشراء ومخازين، وكان لها شهرة ودَور كبير مئات السنين ومن بعد نهب صنعاء سنة (١٣٦٧هـ) تعطلت.

وفيها عاد أحمد بن الحسن لعمارة حصن ذي مرمر، وأملاه بالحبوب والمعدات والذخائر، ثم كان مقر ملكه، ودفن بجنب جامعه الذي بناه بقرية الغراس تحت الحصن مشهور مزور، ولما استوطن ذي مرمر والغراس السيد العلامة صلاح بن أحمد بن عبد الله الوزير، أيام إقامة والده فيه أثناء الدولة المطهرية وعقب أيام الإمام شرف الدين، قال:

لله أيامي بذي مرمرٍ وطيبُ أوقاتي بسفح الغراس
والجنس منضم إلى جنسِه وأحسن النظم نظام الجناس

والشـــمل مجمـــوع بمـــن ارتضـــي والسر فيـــه الســـر والنـــاسُ نـــاس
وللصَّـــبا غصـــن إذا هـــزه نسيم أنفاس صـــبا الوصـــل مـــاس
وســـفح حَـــذّان إلى جـــانبَي غضرانَ من تلـــك الربـــوع الأنـــاس
ملاعـــب تجـــري بهـــا خيلنـــا في السلم والحرب الشـــديد المـــراس
والشـــامخ الفـــرد لنـــا مؤئـــل يمنعنـــا الله بـــه كـــل بـــاس
لـــه مـــن الزُهـــر نطـــاق ومـــن جُون غوادي المـــؤن أبهـــى لبـــاس

ولعله كان مع زوجته ابنة خاله السيد العلامة علي بن الإمام شرف الدين، فهي التي أشار إليها بقـــوله: والشمل مجموع بمن ارتضي، وانظر إلى رقة هذا النظام وما اشـــتمل عليه من الانسجام، وله من هذا النمط ما يعلق بالأرواح كقوله:

ولي حبيـــب كـــأن الله صـــوره من ناضر الزَّهر أو مـــن ذائـــب الـــبرد
أو أنـــه صـــافي البلـــور أودع في أحشائه الورد محمـــر الطبـــاق نـــدي
إذا تـــذكرت أني عنـــه منتـــزح ضممت صدري إشفاقاً علـــى كبـــدي
وإن تذكرت أرضـــاً قـــد أقـــام بهـــا قبلت من فرط أشـــواق إليـــه يـــدي
أهابـــه عنـــد أفـــراح اللقـــا فـــأرى في الظبي ما يتقيـــه النـــاس في الأســـد
فمن يبث إليـــه بعـــض مـــا انطبقـــت عليه أحشاي من وجـــد ومـــن كمـــد

وفيـــات

محمد بن الحسين بن القاسم

وفي عصر يوم (الجمعة ٨ شوال سنة ١٠٦٧هـ) توفي بصنعاء ودفن بجوار مســـجد حجر في بستان المتوكل السيد العالم الإمام صاحب المؤلفات التي منها منتهى المرام شرح آيات الأحكام. وكانت له في العلوم اليد الطولى المولى محمد بن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد.

ومن مشائخه القاضي عبد الرحمن بن محمد الحيمي والقاضي أحمد بن صالح العنسي،

إسماعيل بن يحيى حجاف

قال في الوجيز في (١٤ شعبان سنة ١٠٦٧هـ) توفي السيد العلامة إسماعيل بن يحي بن إبراهيم بن المهدي جحاف بحبور ، وكان عالماً محققاً في فنون شتى حتى الطب، وكان معتزلي المذهب في الصفات وأكثر القواعد.

حوادث سنة ١٠٦٧هـ

وفي (شوال سنة ١٠٦٧هـ) وفدت الأخبار إلى الحرم الشريف واتصلت باليمن أن السلطان محمد بن إبراهيم قد وجه إلى الحرم خارجةً بأسباب منها، ما نُمي إليه من الشريف زيد من عدم الوفا، وإهمال عين الزرقاء ونهرها الأصفى، وما نسب إليه من قتل مصطفى، وهذه الخارجة بخمس بوش من أمراء بني عثمان يتفرد كل باشا بخيل سوابق، وألوية بواسق وسناجق خوافق، وآغوات وبكر ليكيه وأعيان، فانبهر لها الشريف زيد، وأظهر مواد القوة وأسباب الأيد، وقطع أنه أول مرمي بتلك الصواعق، وأقدم مَعنيّ بتلك الفيالق، وتوقع سائر البلدان اليمنية، زائلةَ هذه الخارجةِ العثمانية. فلما توسطت تلك الأجناد ينبع، وما ولاها من البلاد أخذت أكثرَهم الرمضاءُ بجمرها اللفّاح، وانقطع عنهم لذيذُ الماء القراح، فتفتت أكبادُهم بالأوام، ووصل البعض منهم إلى مكة وقد فُل حدُّهم وقَلَّ جهدُهم، ورأوا الشريف في أهبة رائعة وقوة مانعة، فما زادوا على عتابه لإهمال عين الزرقاء، فاعتذر بأن عملها كان موجَّهاً إلى سواه، وأن إهمالها كذلك مما لا يهواه، فحلموا عنه بعد ذلك الكلام، ولكن.

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لا جيءٌ إليها اللئامُ

وفيها نفر جماعة من عسكر الإمام إلى ابن أخيه عز الإسلام، فما زال بهم حتى عادوا إلى حضرة الإمام.

وفيها مات الأمير حسين عبد القادر صاحب عدن.

حوادث سنة ١٠٦٨هـ

في (شهر ربيع الثاني) سار الأمير الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين أمير كوكبان إلى حضرة الإمام، فأدرَّ شآبيب الإحسان عليه، وطلب منه إعانةً على تكاليف الجند حتى لزمته ديون لكفايتهم، ولأهل الحقوق، فأخذ الإمام بضبعه، وأعاده مجبور الخاطر إلى ربعه.

وفيها أول ظهور القرش - الريال - الدكني باليمن ولكثرة الغش فيه امتنع الناس عن التعامل به في بادئ الأمر، ثم تعاملوا به بإسقاط ثمنه.

وفيها عقد المولى محمد بن الحسن لولده يحيى ولاية تعز والحجرية، فأصدر فيها وأورد، وبَسَق غصن ملكه وتأوَّد، وأعطى فأخجل الغيث الهامع، واستوى في سَيبه الداني والشاسع، وارتفع له قدر وتفخيم، وانتصب له كرسي ملك عقيم، فامتدت ذيول أوامره على غير تلك البلاد، ولباه إنسان السعادة بلسان الإسعاد، والسرُّ في كمال هذه المعاني، واقتعاد الكرسي السليماني، هو الكرم الذي لا يوضع من الأناسي إلاَّ في العيون، ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون.

وفيها جهزَّ الشاه عباس على اللاهجان أو الشاهجان.

وفيها سار محمد بن الحسن إلى اليمن الأسفل، فقوَّم المعوَّج وأصلح المهمل وبنَى في مدينة إب بابنة السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن الذي كان متولياً للعدين، فزفت إليه من العدين وهي أخت الشريفة العالمة الأديبة زينب بنت محمد الشهارية واستقرَّ بإب أياماً.

وفي رجب هاجت ريح بلا مطر، فرفعت البحاح وكسرت الشجر.

وفي ذي الحجة ثار السلطان جعفر بن عبد الله بن عمر الكثيري على عمه بدر بن عُمَر، فخرج من حضرموت إلى ظفار، وما إليها، وذُكر أن ذلك بعناية من أخيه صاحب حضرموت.

وفيها توفي أمير الحاج المصري رضوان باشا فناب عنه في الأمارة مملوكه الأمير قيطاس النائب على جدة.

وفيات سنة ١٠٦٨هـ

عبد الرحمن بن محمد نهشل الحيمي

في (ربيع الأول سنة ١٠٦٨هـ) توفي القاضي الحافظ العلامة عبد الرحمن بن محمد بن نهشل الحيمي، بصنعاء وقبره بجربة الروض مشهور مزور، عليه صخرة عظيمة فيها التعريف باسمه وحاله. وكان في الحفظ لألفاظ السنة النبوية نسيج وحده، درَّس مدة في الفنون على أنواعها مرجعاً في البحث في كتاب الكشاف والعَضُد وحواشيهما، ودرَّس مدةً في كتب الحديث كجامع الأصول.

ولما قرأ في هذا الكتاب القاضي الحسن بن يحيى حابس على العلامة محمد بن عز الدين المفتي، وحضر القراءةُ القاضي عبد الرحمن الحيمي، فقال له المفتي: القراءَةٌ في التحقيق عليك والوقوف في المعنى بين يديك، وناهيك باعتراف هذا الإمام، شهادةً لهذا البحر اللُّهام.

وللأديب أحمد بن الحسن بن حميد الدين مؤلف ترويح المشوق.

إن وجيهَ الدين حَبْر عصره عالي السند
خير ثقات قام بالعلوم دهراً وقعد
وحثٌ فيها عزمه حين انتقاها وانتقد
بحر الكلام البر قاموس الصحاح المعتمد
عاش سعيداً ومضَى على الطريقة الأسد
فأرخوا ميلاده (بقل هو الله أحد)(١)
وجاء عَد عمره (الله) ذي الطول الصمد
هذا وتاريخ الوفاة جاء مجموع العدد

(١) لأن جملة عدد حروف قل هو الله أحد إلى آخر السورة ألف واثنين ١٠٠٢، وهو تاريخ مولده إلا اسم الجلالة ست وستين فهو عمره، والمجموع ألف وثمان وستين تاريخ وفاته.

بشــــــارة إشــــــارة ... عنــــوان فضــــل ومــــدد
بــــالله يــــا مــــن سبقه ... إلى المعــــالي والرشــــد
يــا جــامع الشــارد ممــا شــذ عــن قــوم ونــد
يــا بــاذل المجهــول في العليــا ومــن جــدَّ وجــد
مــا فعلــت تلــك اللســان والبنــان والجلــد
والكلــم الغُــر الــتي ... سَــبَتْ وروّت مــن وَرَد
أقســم لــولا أســوةٌ ... أضــحت علــي في الأبــد
وإن بعــد اليــوم والأمــس علــى التحقيــق غــد
لــذُبتُ مــن فــرط الشــجا ... وحَــرِّه فقــد وقَــد
وكــل شــيء صــائر ... بعــد البقــا إلى أمــد
عــادت عليــك رحمــةٌ ... نعــدها أســنا العــدد
ولازمــت مثــواك مــا ... أبــرق غــيم ورعــد

وقــوله (فقد وقد) من البديع الجديد سماه في الريحانة إيهام التأكيد، نقل عن القاضي عبد الرحمن الحيمي أنه انتقل من مذهب الهادوية إلى مذهب الشــافعية، وقــد يظهــر ترجيحه لمذهب الشافعي من عبارة شرحه لبلوغ المرام ومــن مشــائخه في الحــديث الصابوني.

وحصل بينه وبين المؤيد بن القاسم وحشة، وكان العلامة الحسين بن القاسم يكافح وينافح عنه، وكانت الرصانة من لوازمه، فبدر منه بعضَ الأيام أنه ذُكر له طولُ قعــود الدولة العثمانية في تخت السلطنة، فقال: **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾**[الرعد: ١٧].

ومن شعره:

صنعا إذا كنــت مشــغوفاً بمســكنها ... فاعدد لها من حروف الحاء ما رُسِمَــا
حَبٌّ وحــبٌ وحمَّــامٌ مــع حطــب ... حظــيرةٌ وحمــار حرفــةٌ وحمــا

وزيد عليها الحلبة.

صالح بن الناصر الجوفي

وفيها مات الأمير الشريف صالح بن الناصر الجوفي الحمزي. وكانت إليه إمارة بلاد الزاهر، وخلفه أخوه الشريف علي بن الحسين الحمزي.

علي السريحي

وفيها مات شيخ القراءات السبع بجامع صنعاء الفقيه علي السريحي قصد الحج، فلما وصل إلى حلي بن يعقوب توفي.

عبد الهادي القويعي

وفي (رمضان سنة ١٠٦٨هـ) توفي بصنعاء ودفن بمقبرة باب اليمن الفقيه العارف عبد الهادي القويعي الحضرمي الأصل الشافعي.

كان متجرداً عن أحوال الدنيا مائلاً قلبُه إلى العلم، وأهله. وله كُتب نحو ستمائة مجلد صارت إلى القاضي الحسن بن يحيى حابس بعد وفاته، إلاّ ثُلثَها، فقد جعله لفقراء المسلمين بصنعاء تباع وتصرف فيهم، وكان له ولوع بأكل القات، وهَصْر أغصانه بأنامل اللذّات، ويعد ذلك عوناً على مطلبه، وزيادة في مكسبه، وما أحسن قول بدر الدين محمد بن علي بن الخُواجَا لطف الله الشيرازي الأصل الصنعاني مولداً ومنشأ:

إني امرءٌ لي في الرضا مشربٌ   اقطع فيه جلُّ أوقاتي
اقنع بالوصل إذا جاءني   وقهوةٍ تبسط أو قاتِ

والمترجم له هو الذي أخبر بسماع النداء من الهواء للإمام القاسم.

علي جابر الشارح

وفيها توفي بصنعاء الفقيه العلامة شيخ شرح الأزهار والبيان، علي بن جابر الشارح. قرأ على الفقيه العلامة إبراهيم بن حثيث، والإمام محمد بن عز الدين المفتي.

ونقل عنه أنه أحال بحضرة المفتي مقدوراً بين قادرين، فداعبه المفتي بأن حمل طرف حجر، وأمره أن يحمل الطرف الآخر، ثم قال له: هذا مقدور بين قادرين، فانقطع مع أن محل المسألة هل تتعلق قدرة زيد بعين ما تعلقت به قدرة عمرو؟ والمثال بمعزل كما لا يخفى.

ومما أخبر به أنه رأى على رأس قبة الإمام يحيى بن حمزة نوراً كالمصباح، فأنكر شيخه إبراهيم بن حثيث، فسار إليه، فوجد المصباح، فاطفأه، فانطفأ، ثم عاد إلى الظهور بعد الخفاء، وهذا كما ظهر على قبر الشيخ حسن بن ناجي في قبته بذمار، ذكره الموزعي المؤرخ وغيره.

ومن تلاميذ صاحب الترجمة العلامة الحسين بن محمد المغربي، وصنوه الحسن والعلامة صالح بن أحمد السراجي والعلامة عثمان بن علي الوزير، والعلامة المهدي بن حسين الكبسي، والعلامة الحسن بن لطف الزباري وغيرهم، وكان يُقرئُ في مسجد الجديد بصنعاء حتى توفي.

محمد بن علي الحيداني

وفيها مات ببلدة السيد الداعي محمد بن علي الحيداني وسبق في (سنة ١٠٦١هـ).

أحمد بن علي مطير الحكمي

وفيها (سنة ١٠٦٨هـ) مات الشيخ العلامة أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم بن عُمر بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد بن عيسى بن مطير الحكمي الشافعي. كان بمساقط جبل تيس وجوار جبل ملحان.

وهم بيت علم، وكان يرجح أشياء تخالف مذهب إمامه الشافعي، وله منظومة للأزهار، وشرح على غاية السؤل ومصنفات أُخَر.

أخذ في الحديث عن والده وغيره، وعنه أخذ الفقيه علي بن محمد العُقيبي، ونقل عنه أنه أنشأ رسالةً، وذكر فيها أنه لا يصح حديث ((ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فِرقَة واحدة))، وهي ما أنا عليه وأصحابي، كما أخرجه أهل السنن، وقال: الحديث إنما هو من طريق معاوية بن أبي سفيان لم يروه غيره، كما أخرجه أبو داود في سننه وهو آحادي لا يحتج به في هذه المسألة، هذا ما نقل عنه، لكن الحديث رواه غيرُ أبي داود بطرقٍ كثيرة عن جماعة من الصحابة غير معاوية مثل أبي هريرة وآخرين.

وكان في مسألة الإمامة على مذهب الزيدية، قال ما نصُّه: اعتقدنا مودةً الآل رحمة

الله على محسنهم ومُسيئهم، ونُفضِّلهم ونُصلي عليهم، فلأجل القُربَى يُكرَمُون.

ثم قال: واعلم أن اعتقادنا أن الإمامَ بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - عليٌّ بن أبي طالب، ثم أبناؤه مرتبين.. إلى آخر كلامه.

وعباراتُه في العلميات تدل على سبقه في كثير منها، وكمال عنايته، وقد ثارت بينه وبين أهل مذهبه بجهته أذية لميله إلى مذهب أهل البيت.

حوادث سنة ١٠٦٩هـ

فيها سُمع في الجو صوت مهول، وأمرٌ من وراء العقول، وهو شيء من نمط الصواعق، والآيات الباهرة الخوارق، وحسب كل من بجهات شهارة، وما والاها أنه في بلدته فأخرب في دار القبة بشهارة جانباً وهلك في سَيران رجل أو اثنان.

وفي (ربيع الثاني سنة ١٠٦٩هـ) وصل إلى الإمام السلطان بدر بن عُمر شاكياً بما وقع من ابن أخيه من الغدر والاستيلاء على ظفار وأن ذلك بسبب إثبات الخطبة للإمام في تلك الأقطار، فاغتم الإمام لذلك الخلاف، ووعد ذلك البدر بالإنصاف، وأنزله في برج القبول، وأَهَبَّ على مطلبه المقبول، نسمة القبول.

ولما استهل (جمادى الأول سنة ١٠٦٩هـ) برز الإمام في المنشية، خارج ضوران بضرب الوطاق، ووصل إليه في أول جمادى الآخرة، محمد بن الحسن من صنعاء، فأحكما عقدَ ذلك المرام وأزمعا على اصطفاء الصفي لفتح حضرموت والشحر وظفار.

وفي (آخرِ جمادى الآخرة)، وصل إلى الإمام من مكة المشرفة الشريف الحسن بن باز بجميع حشَمه وخدمه مغاضباً للشريف زيد، وكان إليه ولاية القوز، فأحسن له النزول وتلقاه بالقبول، وبقي بأهله في بيت الفقيه برغبته، لكون الجهات التهامية، أنسب من الجبال بحال أهل مكة، وجعل الإمام لبيوته وأتباعه هنالك ما يقوم بهم.

وفي (شعبان) جاءَت الأخبار أن طائفةً من أهل ينبع أثبتوا للإمام الخطبة في بلادهم، وكان له هناك عين من أهل صنعاء المهاجرين إلى تلك الديار، يقال له الفقيه حُسين النحوي.

ولما علم بقيةُ أهل البلاد أشفقوا من إشرافِ الشريف على ما فعلوه وسعوا في ترك الخطبة، فتُركت، وكان الشريف، قد توعدهم، وكتب عليهم سجلاً وأراد رفعه إلى السلطان، وكتب أيضاً إلى أهل المدينة بمثل ذلك.

وفي شعبان أخذ الإمام يرعد ويبرق، ويؤذن بالنفوذ إلى المشرق، وعيَّن له البيهس الهصور والحسام المشهور أحمد بن الحسن بن المنصور.

وفي رمضان كان بخروج محمد باشا عن طاعة صاحب الأبواب ما أخرجه عن دائرة الصواب، وجرعه من النية ما هو أمر من الصاب، وكان مُبَوَّشاً بِبَحر إِيْجَة، فأمسك عصى الكِبْر، وضرب بها مِن بحر الخلاف في لُجَّة، فعزله السلطان عن تلك البلاد، ورماه إلى دائرة الإبعاد، ووجه إليه الأمير قيطاس نائب الدفتر دار بمصر على جدة وغيره من الأمراء الكبار، فأصلوا عليه جحيم الحروب، وأهبُّوا على مَعاطنه زعازع الخطوب، وأمسكوه في قبضة الآسار، فبرز عليه أمر السلطان بقطع معقد الأزرار، وأُصيب قيطاس بذلك الحرب، فحمل إلى مصر، فأدرك حِمامَه وفقد مقامه.

وفي (١٥ شوال سنة ١٠٦٩هـ) تهيأ الصفي للترال، فسار إلى السِّر وخولان وقحوان، ثم رغوان، واستقر به إلى تمام ذي الحجة، ثم سار إلى مأرب وبيحان، وبقي بمحل يقال له: الحمَايم، ثم دخل أطراف بلاد العولقي، فوصل بلدة واسط، ثم إلى وادي حجر، وأدرك الجندُ بهذه البلاد مشاقَّ وتعويقاً لتوَعُّر مسالكها، وأكلوا لُحُوم الحمر وانقطعت القوافل عنهم.

وفي هذه الأيام سار أخوه عز الإسلام إلى رداع ردءاً للجند العازم، ولما بلغه من المشاق التي نالتهم.

وفي هذه السنة (١٠٦٩هـ) أكمل محمد بن الحسن عمارة سمسرة سوق البز بصنعاء وهي أجمل وأنفع السماسر والخانات العظيمة للتجارة، وقد عم انتفاع التجار بها مخازين للتجارة، ودكاكين بداخلها وأماكن حتى للعلماء، كان للسيد محمد بن إسماعيل الأمير فيها مكان يؤلف فيه فهي واسعة وطبَقات، وقد رسم إكمال تاريخ عمارتها في أبيات مكتوبة فيها آخرها:

كملت عمارتها وجا تاريخها (ربح التجار بها وفاز المالك)

٢١٠ + ٦٤٣ + ٢١٦ = ١٠٦٩هـ

ثم بقيت مئات السنين عامرة مستقيمة عمدة للتجار الكبار، مأمونة محروسة محكمة الأقفال كبنك قبل حدوث البنوك بصنعاء جامعة للفلوس والتجارة والدفاتر، يتسابق التجار الكبار على شراء سهوم فيها بأغلى الأثمان.

وفي (سنة ١٣٦٧هـ) لما حوصرت صنعاء بادر كثير من التجار بأموالهم وحُليِّهم لحفظها بها لما عرفوه أنها محفوظة دائماً بحراستها وأمنائها، فلما نهب القبائل صنعاء تسابقوا إليها حتى بلغ أنه كان أحدهم يأخذ الخيشة من الريالات الفضة فوق ظهره فيقتله آخر ويأخذ الخيشة، وهكذا، ونهبوا منها أموالاً جزيلة بالملايين، ونقبوا جدرانها، وأخيراً حرقوا بعضاً منها، وكثيرٌ ممن أوصلوا إليها أموالهم وحليهم سلمت بيوتهم التي كانت أموالهم وحليهم بها وذهبت في السمسرة التي كانوا يظنونها أحفظ من بيوتهم.

وفيات سنة ١٠٦٩هـ

أحمد بن صالح العنسي

في صفر مات القاضي العلامة أحمد بن صالح العنسي الأصل ثم العياني، ثم البرطي، ثم الصنعاني. كان عارفاً بالنحو والمعاني والأصول، وغلب عليه علم الكلام واللطيف، فتبحر فيهما على قواعد المعتزلة، وحقق الغايات وتذكرة ابن متويه على القاضي عبد الهادي الثلائي، وغلب عليه الشك في وضوئِه وصلاته، وهو داء يعتري الفضلاء، وأصابه آخر مدته داء النقرس في قدميه ودفن بخزيمة مقبرة صنعاء.

وفي مطالع البدور أن هذا القاضي كان من أجلاء العلماء وخيارهم، ومن خواص الحسين بن القاسم بن محمد وعيبة سره، وشَرَح الرياضة، ولعله لم يتم شرحه لها، وله كرامات منها رؤيته للنور في مواضع ومناجاة بعض الجن له بأخبار خاصة، وقبره بخزيمة بجنب قبر السيد محمد بن عز الدين المفتي.

وفيها مات القاضي العارف حاكم ظفار وذيبين محمد بن صالح بن حنش.

عبد الله بن الإمام القاسم

وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٦٩هـ) توفي المولى الأمير عبد الله بن الإمام القاسم بن

محمد بذمار. وقبر إلى جنب قبر أخيه الحسين بقبته، وهو جد السادة آل الوريث، وآل عُبَاد، وكانت له ولاية ذمار، ولكنه استعجل بمبايعة الإمام أحمد أبي طالب، فعتب عليه المتوكل، وانفصل عن الولاية إلى وفاته.

وفي (ذي القعدة) مات الآغا محمد بن ناصر المحبشي نائب زبيد بألم النقرس، وكان طلع صنعاء وأناب بزبيد ولد أخيه الشيخ عبد الله سراج، ولازم محمد بن الحسن بذمار وصنعاء حتى توفي.

أحمد الشرفي شريف الجن

وفيها توفي السيد أحمد الشرفي المعروف بشريف الجن. وكان له معرفة بأحوال الجان ويدَّعي أنه يراهم ويسمع أقوالهم، وقدم من الشرف إلى المتوكل بضوران، فمات بها، وكان يقول: إنه أخذ المعرفة عن الإمام القاسم.

حوادث سنة ١٠٧٠هـ

فيها انقطع حاج العراق لما حصل بين الشريف زيد والشريف أحمد بن الحارث من الفتنة وطريق العراق تقطع عرض بلاد اليمامة، وهي بلاد ولاية الشريف أحمد، وأمَّا تجار الحسا، فإنهم نفذوا من بندرهم البحرين المعروف بالقطيف إلى البحر الفارسي، وخرجوا إلى عدن وتركوا مكة.

وفيها جهَّز الإمام ولده الهمام محمد بن الإمام، وولد أخيه محمد بن أحمد بن القاسم بعساكر إلى البيضاء لإصلاح الطريق وتسكين القبائل، فترلاها، واستقرا بها أياماً.

وفيها صالت الجراد على البلاد.

وقام منها خطيب فوق سنبلة إنَّا على سفر لا بد من زاد

حتى أفسدت مغارس البن في وادي أخرف، ثم إن الصفي تجرَّد تجرُّد الحسام، وعبَّ عبة البحر فانفصل عن حَجْر وطلع العقَبة.

وقد قدم بعض عيونه يَسبُر الطريق، فلما استقَر الصفي بأعلى العقبة شارف على إدراك بعض الطِّلبة، فانهزم من أعلاها أولُ مقدمي للسلطان، ثم انهزم البقية فاستولى

الصفي على الخزائن والأزواد والذخيرة والإمداد، وهذا المحل هو الذي يقال له ريدة أبي مسدوس، وعند ذلك طلعت على الصفي طلائع الانتصار وتواتر إليه قبائل تلك الأقطار، ثم تقدم إلى بلاد المحجرين، و لم يبق بينه وبين السلطان غير يومين، وكان السلطان إذ ذاك بهنين.

فدافع الحضارم ركباناً ورجاله، وقاتلوا عن منصب سلطانهم لا محالة، فأُطلقت عليهم الرصاص المذابة، ووَجَّه إليهم الرَّدَى أسبابه، فخرَّ منهم جماعات للجنوب، وانهزم أكثرهم إلى الأودية والشعوب، فانهزم السلطان من هنين إلى شبام، وقد طُوِيَ عنه بساط الأحكام، وحُلَّ عنه تاجُ الحَل والإبرام، وأدبرت عنه ريح النصر، وكاد أن يلقَى يوم بدر، فدخل الصفي هنين بمن معه من الرجال والفرسان، واستلم البيعةَ للإمام واغتنم ذخائر السلطان، ثم عطف الصفي على شبام، فدخلها وهي عين في مدائنِ الإسلام.

وخرج السلطان إلى محل يقال له شنافر، واستولى الصفي على منازل البدر، ونسي أصحابه ما قاسوه في أيام حَجْر، وفرق الصفي بينهم الأموال والتحف، حتى أنساهم الإقلال فيما سلف، ولما سُقِط في يدي السلطان، وفارق الأوطان رجع إلى الطاعة، وتوسَّل إلى الصفي بالشفاعة، وأعلن بإنابته وبعدم إصابته.

وفيها جهَّز الإمام ولده محمداً، وولد صنوه محمد بن أحمد في عساكر جمة إلى البيضاء من أجل إصلاح الطرقات، خلف الصفي والرزم على أهل تلك الجهات، تخوفاً من مثل ما مضَى وغزَوا في خلالها إلى بلاد الشيخ على الهيثمي، فاستوليا عليها، وأخذا ما ظفرا به، ففر الهيثمي إلى بلاد الفضلي، وكان ذلك لمعاضدته صاحب حضرموت، ولقطعه الطريق النافذة من جهته إلى الصفي، ثم أرسل الصفي بالسلطان بدر بن عبد الله الكثيري إلى مقام الإمام، فأعاده إلى ولايته بعد البيعة والإئتمام.

ثم وصل الهيثمي والقرعة والفضلي إلى حضرة الإمام؛ فبذل لهم ما يليق بحالهم من العطايا والإكرام.

وبعد صفاء الخواطر أعادهم إلى بلادهم، وفيها حصل بين أولاد السلطان اختلاف وشجار، وأمور غير مبنية على قرار، لما أدركوا من شيخوخة والدهم، مع اضطراب أحوالهم واختلاف مقاصدهم، ولما كانت بلاد البسوط، ونعمان متوسطة بين بلاد

العولقي وبلاد الواحدي، وكانوا أيام الخروج على حضرموت قد قطعوا الطريق، وسعوا في سبيل التفريق، فقرن منهم الفقيه علي الجملولي في الأصفاد كل شيطان مريد، وبغلّهم صلحت البلاد، ونفذ فيها الإصدار والإيراد، وأرسلهم الجملولي إلى مقام الإمام، ومن جملتهم الهيثمي، ولتكرر عصيانه حبسه الإمام بكوكبان، وأرجع الآخرين بلادهم بعد العهود.

ثم ارتحل صفي الإسلام يؤم حضرة الإمام، فوصل ضوران في أُهبة فأخرة، ودولة قاهرة، تعنو لها الأكاسرة ونصر عجيب، وفتح قريب بعد أن استقر في البيضاء مدة، وفيها جاء الخبر أن جماعة خرجوا من حضرموت، وكانت طريقهم شبوة، انتُهِبوا في الطريق ثم قُتِلوا.

وفيها جاء الخبر أن صاحب عُمَان جهز على ظفار بدلالة جعفر بن عبد الله الكثيري.

وفي هذه المدة انتهب عسكر الحيمة سوق الحُصَين، ولما أطلع الإمام رأى أن الصواب في أن يتغاضى، فأودع كبارهم الحبس، وكان قادراً على ما هو فوق ذلك بلا لبس.

وفي (يوم الخميس ٦ رجب سنة ١٠٧٠هـ) بعث الإمام إلى قبائل برط من دهمه بدراهم وأكسيه بواسطة قاضيهم أحمد بن علي وأمرهم بالغزو إلى أطراف بلاد الرمل، فغزوا إلى هنالك وبلغوا إلى بدو يقال لهم: المَعَضَّة والعرصان، فانتهبوا إبِلَهم ورجعوا مقتصرين على ذلك الفعل، وأراد الإمام من غزوهم هذا أن يُقوِّم مدد جند حضرموت، ولم يكن له أثر في ذلك لبعدها عن حضرموت.

وفي هذه السنة أمر الإمام بضرب الخمس الكبار، فارتفع بسببها صرف القرش إلى مائة بقشة، ثم إلى ثلاثة أحرف، وقلت القروش، ثم ضرب أحمد بن الحسن البقشة الأحمدية المعروفة.

وفيها جهَّز الإمام ولده علياً للحج إلى بيت الله الحرام، فقضى المراد، وعاد إلى الإمام، وفيها اتفق بين الإمام وسلطان الهند رموز لطيفة بأفكار صحيحة وأذهان شريفة تبصرة للمشاعر وتذكرة بقول الشاعر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا　　ونحن صموت والهوى يتكلم

وذاك أنه وصل إلى الإمام رجل من الهند يقال له: محمد بن إبراهيم، له اتصال

بالسلطان، والسلطانُ في العقيدة على نهج أبي الحسن الأشعري، ويعزى إليه العرفان والإنصاف، وفي تهذيب الحاكم من كتب أصحابنا ردوده على الأشعرية فيها متانة، فطمع الإمام في أن يتأمل السلطان تلك الردود، وأن تحقق من ميله إلى مذهب الزيدية والمعتزلة بنود، فرتَّب هديةً تليق بالشاهجان، وصدَّر من جملتها ذلك الكتاب في الفرسان، فلما اتصلت الهديةُ بالجناب، ووقعت عينه على الكتاب، عرف المراد، عندما نظر منه في مظان الاعتقاد، وهيأ للإمام هديةً سنيَّة، وأدمج أثناءها أجل تفاسير الأشعرية، وهو مؤلَّف الرازي المسمَّى مفاتيح الغيب، فآيس الإمام عن تلك الطلبات وعرف أن العقائد صارت موروثةً مع التركات.

وفي آخر شوال خر نجمان عظيمان في بلاد شرعب ضحوة النهار ببلدة يقال لها الأجشوب، فأحرقا ما فيها، ويقال: إنه سمع صوتهما في بلاد عتمة، وأدرك بعض القريبين صمم، وقيل: إن هذه الآية وقعت عقيب إحراقهم الجراد والدبا بالنيران.

وفيها وفدت الأخبار من الهند أن رجلاً من الباطنية استخف قومه فأطاعوه، وأظهر دعوة النبوة وأشاعوه؛ فمزَّق السلطان درع سحره المركوس، ودمغ بالتنكيل به رؤُوس الثنوية والمجوس، بأن رماه بصواعق الجيوش، حتى أودع جماعةً من أتباعه بطون الوحوش، وعطله عن بلده، وفرق بينه وبين أهله وولده، وأحرق كتبه التي تلعبت بالدين، وأربت في الخبث على أساطير الأولين.

وفيها اشتهر رجل من لاعة من بني الناشري يتعاطَى الكيميا فنمي إلى الإمام، وهو بصنعاء، فأفرغ له منظره، فاحتال في ترويج صنعته، وأدرج في البوتقة فضة مع ترب قد أعده، ثم نزع من البوتقة سبيكةً قطَع الإمام أنها من أثر صنعته ولطيف حكمته، فأجازه الإمام، ولما انفصل شكا به الغرماء أنه استدان منهم مالاً ولم يقضه فعُرف احتياله، والمعادن في اليمن مشهورة، لكن صنعتها لا تكون إلا بالأكسير، وكان مع ملوك حمير مخزوناً، وهو الذي بجَّل ملكهم ونضَّد سلكهم.

وقد عُدَّ في اليمن ما بين بيشة وعدن قدر خمسة وعشرين معدناً منها معدن جبل عيشان، ونهم وخولان وبينون.

وفيها أظهر التعمية شريف من بني الجلال يسمى بعلي، وليس حاله بعلي، وانهمك في

أنواع منها أنه كان يضم راحتيه على شيء مُدرَك ثم يفتحها خاليةً فحبسه الإمام بكمران، فبسط حصيره على ماء البحر، ثم وثب إليها، وخرج سائراً إلى البر عليها، وكان خليعاً يقطع الصلوات وينهمك في اللذات، ويعدل عن سيرة سلفه السادات، ودخل المشرق، وكان منتهى سفره، ومنقطع خبره.

وفيها خرج إلى اليمن والحرمين السيد محمد بن إبراهيم الهندي المذكور سابقاً، ومعه للإمام هدية عرف منها قدر عشرين من البراذين الملوَّنة ببياض وسواد، وهي مما لا يوجد بهذه البلاد، وهدية إلى صاحب الحرمين وعارضه في يريم ألم، فتوفي هنالك ونفذ الآغا من جهته إلى حضرة الإمام بالهديتين، فقبض ما هو له وحفظ هدية الشريف حتى وصل لها نائب آخر من السلطان.

وفيها جاءَت الأخبار باضطراب أولاد الشاهجان بعد وفاته، واستقرار الملك والترتيب في يد ولده أورنگ زيب، بعد أن عرض واحداً من إخوته على الأنطاع وطرد الآخر في البحر، وهو الشاه شجاع.

وفيها خطب القاضي أحمد بن سعد الدين المسوري على منبر جامع صنعاء، فأثبت ذكر الإمام زيد بن علي والإمام الهادي ثم استمر ذلك.

وفيها نشر السيد العلامة أحمد بن علي الشامي رسالة منها:-

((اعلَم أرشدنا الله وإياك أنه قد صار يتعاطى بعض علماء العصر التجاري بالتفكير والتفسيق والفتاوى بإهدار الدماء، وهو ظاهر البطلان؛ لأن دار الحرب حيث فُرضت، وقيل بها في البلاد التي ولاتها أهل الجبر والتشبيه، إنما هي دار إباحة فيما بين الكفار، وأما بين المسلمين فلا وجه لإهدار الدماء التي حرمها الله وأكد تحريمها، وأجمع أئمة الآل وشيعتهم على ذلك)) إلى أن قال: ((وكذلك القول بسقوط القصاص فيها إنما يتجه على قول من يجعله حداً، وذلك غير معمول عندهم، والرواية الصحيحة عن أبي طالب القول بثبوته كما في التذكرة وغيرها))، ثم قال: ولو فرض صحة النقل عن أبي طالب، فهو مسبوق بإجماع سلفه، كيف والأدلة القرآنية والسنة النبوية قاضية بثبوته نحو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾[البقرة: ١٧٨] **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾**[البقرة: ١٧٩] **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ.. إلخ﴾**[البقرة: ١٩٤] **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ**

فَعَاقِبُوا..إلخ﴾[النحل: ١٢٦] ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة: ٤٥] وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم-: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين». والمصير إليه في الدار المفروضة لا يعتمد عليه ولا يلتفت إليه مع ما ذكر.

وأما لو قال: إن المسلمين يكفرون بإقامتهم في تلك الدار، فهو أبعد ونفيه أحق وأرشد لقيام الأدلة الواضحة في ثبوت الإسلام في دار الكفر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾[الأنفال: ٧٢] وللإجماع السلف والخلف على صحة إسلام من أسلم في مكة من النساء والرجال وإسلام أهل البيعتين وغيرهم ممن وفد على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع كونهم في بلاد الشرك، وأما تكفير القاعد مع الخائض فالسبب أن ذلك القاعد كافر بالأصالة؛ لأنه من أهل النفاق، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٤٠] ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام:٦٩] وفي القعود المنهي عنه ما عرف من الخلاف، مع أن كفر من وقف مع الخائض إنما هو حيث رضي بالكفر بدليل: (ولكن من شرح بالكفر صدراً)، ومن لم يعلم منه الرضى فالإقدام على تكفيره هجوم على ما لا ينبغي لذي دين ولب وحذر، فكيف بمن هو من أهل العلم والنظر؛ لأن التكفير والتفسيق إنما هو بالأدلة القطعية كما لا يخفى.

مع ما في هذا القول من المفاسد، فإنها لو امتدت يد إمام زمان على أقطار كثيرة صاروا مسلمين، فإذا كانت الكرَّة بعد ذلك لأهل العدوان لزم أن يكونوا مرتدين علمائهم وجُهَّالهم، ولزم عدم صحة أنكحتهم ومواريثهم، وهذا باطل.

والتكفير باللازم لا تقوم له حجة؛ لأن التكفير إنما هو بالأدلة القطعية، وللإمام شرف الدين كلام حسن في هذا الشأن.

انتهى كلام العلامة الشامي باختصار، وهو رد على المتوكل إسماعيل، كما رد عليه العلامة الهادي بن أحمد الجلال - كما سبق - وقد حرر المتوكل جواباً، وكلام الشامي متين ورصين، وقيل: إن جواب المتوكل في غير محل النزاع.

وفيات سنة ١٠٧٠هـ

المهدي المهلا

في (ربيع الثاني سنة ١٠٧٠هـ) توفي القاضي العلامة الأديب المهدي بن عبد الله المهلا النيسائي الأصل، ثم الشرفي. كان محققاً في النحو مشاركاً في غيره، وله شعر متوسط وخط حَسَن، حصَّل عدة كتب بالأجرة للمتوكل ومحمد بن الحسن.

وفي الطبقات: القاضي العلامة المهدي بن محمد بن عبد الله بن المهلا بن سعيد، وأنه تلميذُ الحسين بن القاسم، وكاتِبُه، وأجازه المتوكل إسماعيل (سنة ١٠٦٠هـ)، وأخذ عنه ولده علي بن المهدي، والقاضي أحمد بن صالح أبو الرجال، والسيد صالح بن أحمد السراجي وغيرهم، وأنه العلامة المنطيق، ولسان الصواب والتحقيق، وله ذيل على البسامة، ذكر فيه الحسن والحسين، وقيام الإمام المؤيد بن القاسم والمتوكل إسماعيل، وله إلى الحسن أبيات في شأن الغاية للحسين بن القاسم.

عبد الله بن محمد السلامي

قال في الطبقات: وفي (سنة ١٠٧٠هـ) توفي القاضي العلامة عبد الله بن محمد بن صلاح السلامي الآنسي. قرأ على عدة من الأعلام الكبار، وعنه ولده عبد السلام وابن أخيه صلاح بن عبد الرحمن، وغيرهما، وكان فقيهاً، فاضلاً محققاً، تولى أعمال يريم، وأوقاف تعز، وكان حاكماً للمولى محمد بن الحسن في السفر والحضر، وله الرأي السديد والبلاغة.

ناصر بن عبد الحفيظ المهلا

قال في الجامع الوجيز: في (سنة ١٠٧٠هـ) توفي بشجعة الشرف، القاضي العلامة ناصر بن عبد الحفيظ المهلا، وقد سبق ذكره عند ذكر وفاة والده (سنة ١٠٦٠هـ).

حوادث سنة ١٠٧١هـ

وفي (سنة ١٠٧١هـ) منع الإمام أهل الذمة من عصير الخمر وأمر بكسر أوانيه.

وفيها ظهر في صنعاء، ثلج على الأشجار.

وفي (صفر سنة ١٠٧١هـ) عقد الإمام لولده محمد ولاية ضوران، وبلاد آنس، فسار إليها من صنعاء، واستقر بها وهو في الاستقامة والورع على نمط واحد ما عرف بغيره.

وفيها جاءَ الخبر أن أولاد ملك العجم ثارت بينهم الفتن في بلاد اللاهجان، فتمزقت ممالكهم، وأهلها إمامية، وحكى قطب الدين النهرواني، أنه كان بلا هجان زيدية في رأس المائة التاسعة، لكن ذكر بعضهم عن الحكيم محمد بن صالح الجيلاني حكيم صنعاء أنه لم يبق للزيدية مذهب هناك في هذا العصر الأخير.

وهذا محمد بن صالح خرج من العجم إلى اليمن بدولة المتوكل، وقد برع في الطب وظهرت عنه فيه خوارق، وعلى الجملة لم يسمع في العصور المتأخرة بعد الشيخ داود صاحب التذكرة بمثله، وكتب بخطه عدة من كتب الطب في اليمن، وكان قد خدم رجالاً في العجم في هذا الفن، وترتب عليهم وتنقل معهم في الأسفار، وخاض معهم البحار.

روى العلامة الحسين بن محمد المغربي عنه، قال: خدمت حكيماً نصرانياً، وكنت متشدداً في نجاسة رطوبته ولا أظهر له ذلك، فركبت معه البحر، فاتفق أنه قطع ذات يوم حبة من الخيار وقلبها من اليمين إلى اليسار، ثم أرسل إلي قطعةً لآكلها، (فانتولتها) وما زلت به حتى غفل عني، فألقيتها في البحر، وكان يتعاطى علم العربية وشيئاً من علوم الفقه بدون معرفة. والكمال موزع وأصله من بلاد الجيل.

وفي هذه السنة (١٠٧١هـ) في أول جمادى الأولى سار الإمام إلى بلاد شهارة.

وفيها انتشرت الجراد وأتت على ثمرات البلاد، فوجفت القلوب، وارتفعت أسعار الحبوب.

وفيها وقع اختلاف بين الأمراء الذين بمصر من قبل السلطان، وافترق العسكر بقاهرة مصر.

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٧١هـ) حصل بعض اختلاف في طريق عدن من حدود بلاد الفضلي في الجهة الجنوبية، وقتل هناك أربعة من العسكر، فأرسل صفي الإسلام من كشف أمر العسكر ورسم أدباً بمقتضى ذلك الفعل المنكر، ثم وقع اختلال ببلاد الفضلي والهيثمي، اقتضى نهوض الصفي إلى تلك الجهات بنفسه، فأصلح ما فسد وهرب الفضلي عن محله.

وفي آخر رمضان ذكر أنه اتحد الأمر بين السلطان بدر بن عُمر الكثيري، وولد أخيه السلطان جعفر وطلب من عمه أن يتوسط له في أخذ الأمان من الإمام والوصول إليه.

وفيها خرجت بنت سلطان الهند من البحر إلى المخا بأموال وخدم وأتباع وحَشَم تريد الحج إلى بيت الله المعظم، ونفحت نائبَ المخا السيد زيد بن علي جحاف بمال عظيم وهدية فاخرة، وأخبرتْ أن بالهند شدة شديدة.

وفيها ساخ جبل في جهات بني عَشَب، فأخرب قرية تحته إلاَّ بيتين في طرفها، ودفن كثيراً من أموالها.

وفي آخر ذي القعدة جاءت الأخبار أن أصحاب الصفي غزوا إلى بلاد الجِيْد لقبضه وقبض الفضلي، فلم يظفروا بالجيد وظفروا بالفضلي، ثم أفلت من أيديهم وفر إلى والي عدن أمير الدين القرشي، فأمَّنه وأرسله إلى حضرة الإمام.

وفيها وصل السلطان جعفر الكثيري والشيخ الفضلي إلى حضرة الإمام.

وفي آخر ذي الحجة وصل صفي الإسلام أحمد بن الحسن إلى مستقر أهله بالغراس وذي مرمر وفيه انتشر مرض الحُمَّى والنافض، فتعطلت منه بيوت، والأمر لله سبحانه.

وفيها مر بعض الهنود بهيجة من بلاد تهامة، فعقر عليه الأسدُ حمارَة وتركه فريسةً يوافيها بالليل فيأكلها كما هي عادة الأسد في أنه لا يأكل ما عقره بالنهار إلا بالليل، فأُلهِم الهندي إلى سم الفأر، فوضعه في جوف الحمار ثم وافاه الأسد فأكل منه، فهلك ثم جاءت الأسود، فأكلت منه فهلكت، ثم كذلك حتى تعطلت الأسود بتلك الهيجة وكثير من الهياج.

وفيها أمر الأمير يحيى بن محمد بن الحسن بن القاسم بإعادة النوبة، وكانت قد تركت من أيام سيف الإسلام الحسن بن القاسم وأيام أخيه الإمام المؤيد من حين فتحت صنعاء، واستمر بيت القاسم على تركها حتى أعادها الأمير يحيى بن محمد بتعز، فهُيِّئت أدواتُها، واستُكملت آلاتها، فرجفت طبولها في قلوب أهل العناد، وأوَّبت عند سماعها الجبال والصافنات الجياد.

وفيها نزل بصنعاء ثلج عظيم غير معهود وقد نزل بها أيام الإمام شرف الدين، وأيام الصليحي وأيام الرشيد، ثم (في سنة ١١٤١هـ)، ثم في (سنة ١٣٨٢هـ) وغيرها.

وفيات سنة ١٠٧١هـ

إبراهيم بن الحسن العيزري

في (النصف الآخر من ربيع الأول سنة ١٠٧١هـ) توفي القاضي العلامة إبراهيم بن الحسن بن سعيد بن محمد بن جابر بن علي بن عواض بن مسعود بن علي بن الحسن العيزري الأهنومي بصنعاء. وكان ملازماً للكتابة للإمام، وعليه فصل القضاء والأحكام، وله مقصد مليح ورأي صحيح ودفن بخزيمة.

وفي بغية المريد: كان القاضي إبراهيم بن الحسن بن سعيد بن محمد بن جابر بن علي بن عواض بن مسعود بن علي العياني النوِّفي المعروف بالعيزري، رفيع المترلة مراقباً لحقوق الله. وكان بصحبة الإمام المتوكل إسماعيل عند توجهه إلى شهارة، فأدركته الوفاة بصنعاء.

ونسْبتُهم إلى بني نوف بطن من همدان، سكنوا جبل الأهنوم، وكان بين القاضي إبراهيم وبين السيد أحمد بن هادي بن هارون كمال الصداقة والصحبة، ولما توفي السيد أحمد بن هادي قبل أسبوع من وفاته تمنى جواره، فمات بعده بأسبوع، وقبر جواره بخزيمة، وتاريخ وفاته في آخر مرثاة له كانت على ضريح قبره:

(نعيمك إبراهيم في جنة المأوى) بجعل تاء جنة أربعمائة.

(١٠٧١هـ)

أحمد بن هادي بن هارون

قال في بغية المريد: والسيد العلامة أحمد بن هادي بن هارون الهدوي، توفي بصنعاء في (ربيع الأول سنة ١٠٧١هـ). وكان سيداً سرياً، ذكي القلب، ثابت الجنان، له فراسة صادقة، ومسكة في العربية، وعرفان في الفقه، واشتغل بأمور الإسلام العامة وسد الثغور، وقام بأمور لا يقوم بها غيره، وقام مدةً بأمور صعدة، وغزا نجران، وتولى بذمار، وكان قد تولى بلاد خولان، وسكن حيدان، فحمدت سيرته، وكان لا يُعرف كُنه ما عنده من العلم لشدة ذكائه، وله كرامات كثيرة.

قال الإمام المؤيد بن القاسم: إنه لما ألح على صاحب الترجمة في قيامه بعمل خولان واستدناه إلى مقامه رأى الإمام في ليلة وصوله من يقول له:

بشراك يا ابن الطهر من هاشم بماجد دولته تحمد
بأحمد المنصور من مثله بورك فيمن اسمه أحمد

وهذه الرؤيا كانت للسيد سليمان بن محمد بن المطهر عند ولادة ابنه الإمام أحمد بن سليمان، وأخبر صاحب الترجمة أنه إذا غفل عن بيته ظهر في غرفته سراج وتلاوة.

وجاءه رجل له مقام عجيب في الاتصال بالجن، فقال له: إن بعض الجن توصي أنه إذا صرع أحد من المسلمين كتب له المترجم له ١٣ مرةً (قل هو الله أحد) ثم يكتب اسمه أحمد بن الهادي بن هارون، ففعل ذلك وشفي من ابتلي.

وكان بينه وبين المؤيد محمد بن المتوكل أنس عجيب وصحبَه عند عزمه إلى البيضاء، وقبره بخزيمة مقبرة صنعاء، وعليه لوح من شعر القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال هذه الأبيات:

هذا الضريح الذي فوق الضراح سما وجاز من بعد أفلاك السماء سما
فيه الهمام ضياء المبهمات ومن بالذكر والغزو شق الخَندسَ البَهِمَا
ما زال بالحرب والمحراب مشتغلاً إن قيل ما ذا الذي تهواه قال هما
قد حالف الخط والخطي مدّته ما زال ينشر فيها العلم والعلما
عليه أسنا سلام الله ما حمدت منه السِّماتُ وما مزنُ السحاب هَمَى

إبراهيم بن أحمد العبالي

قال في مطالع البدور وغيره: وفي (رمضان بصنعاء سنة ١٠٧١هـ) توفي السيد العلامة إبراهيم بن أحمد بن علي بن صلاح بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم الرسي بن إبراهيم العبالي. كان علامة محققاً، وله حواش وأنظار، وعمره اثنان وعشرون سنة لا غير، لم يعرف من الدنيا غير العلم وإحيائه، والمذاكرة لأربابه في صباحه ومسائه، حتى بذَّ الأقران وصار على صغره كبير الشأن. ووضع على المغني لابن هشام ما يجري مجرى الحاشية، وقرأ على عمه عز الدين بن علي العبالي، وله حواش على شرح الأزهار وغيره بخطه الجميل.

أحمد بن علي العنسي

وفي العشر الوسطى من (جمادى الأولى سنة ١٠٧١هـ) توفي بصنعاء حاكم برط القاضي العلامة أحمد بن علي بن قاسم بن يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن قاسم بن إبراهيم العنسي، ثم العياني. كان بالفقه وعلم الكلام كوالده، وكان استقراره ووالده بمدينة عيان، ثم لما خربت ذلك الوقت انتقلوا إلى برط، فاستقروا بها وصار إليهم واجبات قبائلهم باختيارهم وتخيرهم، وأجراهم على ذلك المؤيد بن القاسم إلا ما فضل عن كفايتهم واستمروا على ذلك ووصل إلى الإمام المتوكل وهو بصنعاء مع قبائله من برط لزيارة الإمام فصادف وفود الحمام، فكانت وفاته ببئر العزب غربي صنعاء ودفن بخزيمة.

محمد بن علي العنسي

وأخوه هو القاضي العلامة محمد بن علي بن قاسم العنسي. كان يتولى القضاء الشرعي، وهو أول من تلقب بالقاضي الشرعي من أسرته، كان عالماً فاضلاً ذكياً نبيلاً زاهداً كريماً، توفي ببرط في (ربيع الأول سنة ١٠٦٥هـ)، وقبره جوار أبيه في قبتهم بهجرة الرضمة، ووالدهما سبقت ترجمته في (سنة ١٠٤٥هـ) ثم قد وافانا القاضي العلامة محسن بن يحيى العنسي بزيادة إيضاح عن أسرتهم الشهيرة، فالقاضي علي بن

قاسم بن يحيى بن محمد.. إلخ. وأخوه حسين هما علمّان وذريتهما كثيرة، فالقاضي علي كان من وزراء وأنصار الإمام القاسم بن محمد وقادة جيوشه، وتولى القضاء في عدة مناطق، ووفاته في (رمضان سنة ١٠٤٥هـ)، كما أفاد القاضي محسن بن يحيى، وقبره بقبة هجرة الرضمة شمال المسجد الأكبر غربي العنان.

الحسن بن محمد العنسي

ومنهم القاضي الحسن بن محمد بن علي بن قاسم العنسي. كان عالماً أديباً نبيلاً ورعاً، توفي يوم (الجمعة في ذي الحجة سنة ١٠٩٨هـ)، وقبره بقبتهم بهجرة الرضمة غربي العنان ببرط.

صلاح الفلكي

وفي (سنة ١٠٧١هـ) توفي قاضي جبلة العارف صلاح الفلكي.

علي بن يحيى الخيواني

وفي (شوال سنة ١٠٧١هـ) توفي بصنعاء الفقيه العارف علي بن علي الخيواني، ثم الصنعاني. كان مكفوفاً، وزاد عمره على الثمانين سنةً، وشارك في الفنون مع جَدَل وحدة، وله في حفظ السِّيَر والقصائد يدٌ طُولَى ودرَّس في أصول الفقه غيره، وفي الطبقات: أنه قرأ بصنعاء، ثم هاجر أيام الأتراك عن صنعاء إلى صعدة، ودرَّس بها واستقر إلى أن فتحت صنعاء، فعاد إليها، وقرأ وحقق وأعاد شيئاً من مسموعاته على السيد محمد بن عز الدين المفتي، وكان أحد عيون أصحابه، فاستفاد وزاد علمه، ونوَّر الله قلبه بأنوار المحبة لآل محمد عليهم السلام، وله حاشية على الأزهار، ولم يزل بصنعاء حتى توفي بها، وقد أخذ عنه جماعة، منهم السيد صالح بن أحمد السراجي، والقاضي علي بن يحيى السماوي، والقاضي علي بن محمد سلامة وغيرهم.

أحمد بن علي الشامي

وفي (العشر الأواخر من شوال سنة ١٠٧١هـ) توفي السيد العلامة شمس الإسلام أحمد بن علي بن الحسن بن محمد بن صلاح بن الحسن بن جبريل بن يحيى بن محمد بن سليمان بن أحمد بن الإمام يحيى بن المُحسِّن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن

الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين الشامي، نسبة إلى شام صعدة مدران، حيث خرج جده الحسن بن محمد إلى مسور خولان وأخوه الهادي بن محمد إلى بلاد يريم وخبان.

ودفن بجنب قبر الأمير محمد بن الحسين بن القاسم جوار مسجد حجر بُستان المتوكل غربي صنعاء، (ثم قد نقل مسجد حجر إلى جنوبي صنعاء، ونقلت جثث الموتى إلى المقبرة العامة، وعُمر في المحل بنك الإنشاء والتعمير سنة ١٣٩٠هـ)، مولده بمسور في حجر أهله، ثم هاجر إلى صنعاء وأقبل على العلوم فحققها في أيام الوزير حسن باشا، وبرع في فقه الزيدية والفرائض، وتخرج بالسيد محمد بن عز الدين المفتي والقاضي إبراهيم بن يحيى السحولي، وغيرهما، وجعله الباشا إمام مسجد الشهيدين، وفوَّضه في غلة بئر الشهيدين، فبقيت في يده حتى مات، ثم قبضها نظار الأوقاف.

وما زال مع اشتغاله بالعلوم ووظيفة المسجد يشارف على عقود النكاح وأجوبة الأسئلة، وهما مما يصير إلى الأفندي المعين من قبل الباشا، فبلغ إلى السيد ما أوحش خاطره من الأفندي، فخرج إلى الحيمة، وكانت مائلةً إلى الإمام القاسم، فعظَّموه ونزَّلوه منزلة أمثاله من العلماء العاملين، واستنابه الإمام على جانب من أعمالها، ولازم آخر مدته الحسين بن القاسم سفراً وحضراً، واعتمده من الفتاوى والحكومات وحكَّمه فيما شاء من وجوه الرعايات، وهو بذلك خليق، فإنه عين أهل اليمن علماً وعملاً ورئاسةً، واستقر بعد موت الحسين ببيته باب السبحة، جوار مسجد حجر يدرِّس في الفنون ويفيد بالفتاوى، وقد كُفَّ بصرُه.

وكان له على أهل البطالات وطأة شديدة، وله أنظار على وجه الصحة والرصانة مشحونة بها الكتب للدرس والتدريس، واختيارات منها، فسخ زوجة الغائب، والقول بمذهب القاسم الرسي والمالكية بطهارة الماء قليلاً أو كثيراً ما لم تتغير أحد أوصافه.

والقصاص في اللطمة كما هو مذهب الهادي والإمام شرف الدين، وانفرد بقوله: إن الزوال ميل الظل أدنى ميل في الشتاء والصيف من دون فيء الزوال، كذا روي عنه، ونقل القرآن غيباً بعد أن كف بصره واستكتب جامع الأصول لابن الأثير، وسمعه عليه بعض أولاده، فكان حسن الختام، وكان قد أحرز الفنون نحواً وصرفاً وبياناً وأصولاً وفروعاً

وتفسيراً وحديثاً، وفرائض، والمساحة والضرب والتقسيم، وله حواش على شرح الأزهار وغيره.

محمد علاء الدين البابلي

وفي (سنة ١٠٧١هـ) توفي العلامة المحدث أبو عبد الله بن محمد بن علاء الدين البابلي المصري، استقر بمكة أياماً تتفتق به زهور العلوم العقلية والنقلية، وتتعطر مجالس السنة النبوية، مع حفظ رائع حتى شهد له أهل العرفان في فنون شتى بأنه وحيد عصره وإمام دهره، ولما فقد بصره اشتاق إلى وطنه مصر، فسار إليها ومات بها، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠٨٠هـ) ومن شعره:

رب إمام قليل فقه يؤم بالناس ثم يجحف
مخالفاً فيه قول طه من أم بالناس فليخفّف

عبد الرحيم اللاهوري

وفي (شوال سنة ١٠٧١هـ) توفي بشهارة الشيخ العارف عبد الرحيم بن بادشاه اللاهوري الحنفي، سمع في الحديث عن البابلي المصري السابق ذكره، والعلامة زين العابدين بن عبد القادر الطبري، وذكر أن أعلى الأسانيد في وقته إسناد زين العابدين، واستكتب بحضرة الإمام المتوكل إسماعيل أحكام الإمام الهادي وأمالي أحمد بن عيسى ومستدرك الحاكم، وأكثر مجمع الزوائد للهيثمي، وكان بمحل من الديانة، ومن لطيف ما اتفق له أنه قدَّمه المؤتمون بمسجد جامع ضوران ليصلي بهم لعدم حضور الإمام الجلالة قدره، وهو يرى أن الرفع والضم سنةٌ، قال: فعارضت في نفسي بين أن أفعل بمذهبي الذي يجهلونه وهم عامة ويستنكرونه، وقد يتفرق بعضهم وتتغير خواطرهم، أو أترك السُّنَّة في مذهبي، ثم رأيت الترك وأديت الصلاة حسبما يعرفون بدون ضم ورفع، وما فاتني من ثواب السنة جبره ثواب التجميع وعدم التفرق في الدين.

وكان ملازماً للمتوكل حضراً وسفراً، فسافر بسفره إلى شهارة، فتوفي بها.

الرملي سليمان

وفيها توفي السيد الرملي، الفلكي سليمان بن محمد بن عامر.

حسن بن باز

وفيها توفي الشريف حسن بن باز المكي.

علي بن إبراهيم الحيداني

وفي سنة ١٠٧١هـ توفي السيد العلامة علي بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن صلاح بن المهدي بن الهادي بن علي بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن القاسم الرسي المُحَنَّكي الحيداني. قرأ على العلامة علي بن قاسم السنحاني بصنعاء، وعلى القاضي إبراهيم بن مسعود صاحب الظهرين، وعلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم، وكان سيداً هماماً ذا عزيمة صادقة.

وله في الجهاد وقعات هائلة، وكان محققاً مبرزاً في الفقه، يعارض بأنظاره أهل الأنظار في الفن، وكان نائب بلاد ذيبين وأوقافها زيادة على ثلاثين سنة، وجاوز عمره المائة السنة حتى سقطت شعور حواجبه على عينيه وأقعد آخر عمره، وأما سمعه وبصره فلم يتغيرا.

الشيخ السُلَمي الخديري

وفي (سنة ١٠٧١هـ) توفي الشيخ السلمي من أكابر مشائخ اليمن الأسفل، وممن عظم شأنه في ذلك الزمن، وبموته اضمحل جلالهم وتفرق عبيدهم في الجهات، وتشتتوا لطلب الأقوات، ثم قد استمر المَشْيِخ في ذريته أزماناً.

الحسن بن أحمد الحيمي

وفي (ثاني عيد النحر سنة ١٠٧١هـ) توفي بشبام القاضي العلامة حاكم المسلمين ببلاد كوكبان الحسن بن أحمد بن صالح اليوسفي الجمالي الحيمي. سكن وأهله شبام، وكان أحد أعيان دولة المؤيد بن القاسم، ثم أخيه إسماعيل وهو من أكابر العلماء،

وأفاضل الأدباء، يقوم بالأمور العظيمة الدولية ويشتغل بالعلم درساً وتدريساً، وكان يوجهه المتوكل إسماعيل في المهمات لفصاحته ورجاحته وتدبيره، منها إرساله إلى حضرموت لما وقع من اختلاف السلاطين آل كثير، فقام بالأمر أتم قيام. وإرساله إلى الحبشة لما وصلت كتب من ملكها يفهم منها رغبته في الإسلام.

فتوجه في أكثر من خمسين رجلاً من المخا ولاقى مشاقاً عظيمة واستمر سفره بحراً وبراً نحو تسعة أشهر، ودخل على ملك الحبشة في يوم عيد النصارى لابساً شعار الإسلام، وظهر أنه لا يريد الإسلام، وإنما مكاتبته للاتصال بين الحبشة واليمن وموانيها، وأكرمه الملك وأصحابه وأراد أن يخلع عليه خلعة حرير خالص وسوارين من ذهب، فقال له: هذا لا يحل في شريعتنا!

وكانت للقاضي وجماعته صولة ببلاد الحبشة، حتى كان أصحابه يبطشون بالنصارى إذا تعرضوا لهم ويضربوهم، وشاع أن العرب يأكلون الناس، فزادت مهابتهم، وكان أعظم معين لهم على ذلك البنادق، فإن أهل الحبشة لا يعرفونها إذ ذاك، وقد حصل عليها أهل اليمن من الشراكسة والعثمانيين، ولولا هي لما قدر القاضي وجماعته المرور في أراضي الحبشة؛ لأنهم كانوا يَنصبُّون عليهم كالجراد، فيرمونهم بالبنادق فيقتلون منهم، فينهزمون لأصواتها وتأثيرها.

ثم لما آيس من إسلام الملك استأذنه في العود اليمن، فتثاقل عنه، ثم أذن له، وكان الملك لا يصحو عن شرب الخمر، فعين له وقتاً للوداع ترك فيه الشرب وجمع وزراءه وأعيان دولته، فأمر القاضي أصحابه أن يرموا بالبنادق عند وصولهم إلى باب الملك، كما يفعله أهل اليمن ويسمونها تعشيرة، فلما سمع الملك صوت البنادق هرب من إيوانه والوزراء والأعيان، فدخل القاضي إلى الدار، ثم عاد الملك إلى إيوانه، وأخذ في أهبة سفرهم إلى اليمن، وكانت مدة غيبته سنتين، ورجع إلى الإمام سالماً، وقد جمع رحلة نفيسة في كراريس متداولة بأيدي الناس أثبتها المؤرخ السيد مطهر بن محمد الجرموزي في كتابه: تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، مخطوط، منها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله على ما آتانا من الإيمان والبلوى، ونصبه لنا من البرهان الموصل إلى التمسك بالسبب الأقوى، وعلمنا من البيان ما يؤثر خبره للأعقاب

ويُروَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أنور من فلق الصباح وأضوى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أسري بجسده إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، وبعثه إلى الثقلين على حين اختلاف الأديان واتباع الأهواء، فأخرج بغيث هدايته في رياض قلوب أوليائه عُشب الإيمان، فأصبح للنضارة أحوى، صلى الله عليه وعلى آله صلاة نبلّغهم بها كل أمل ورجوى، وسلم عليهم سلاماً لا يقحل غصن دوحته ولا يذوى.

وبعدُ.. فإنه سألني من وجَّه إليَّ أملَ الإسعاف، وأمرني من لا تسعني مخالفته على طريقة الإنصاف، أن أصف له ما ينبغي مذاكرته من سفرنا إلى الديار الحبشية، واتصالنا بملك الفرقة النصرانية المسيحية، عن أمر مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله الداعي إلى كتابه المبين، وأمينه على تبليغ ما أنزله على قلب جده سيد المرسلين، المتوكل على الله رب العالمين، إسماعيل بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

فأجبته إلى ذلك إيثاراً لقصده، وقضاءً لما ثبت علي من حقوق وده، ولما أرجوه من نعش أهل الخمول والحث على ارتكاب الأخطار في طاعة الله وطاعة أئمة الرسول، وشجعني على رقمه أنه ليس من التأليف المفتقر إلى كمال الاجتهاد، ولا من التصنيف الذي يتطرق إليه انتقاد النقاد، لا تتعلق بروايته معرفة الإرسال والإسناد، ولا المعلول بالانقطاع والإعضال، ولا علم الجرح والتعديل في أحوال الرجال، وإنما أخبار عن مدركات الحواس، وشهادات النظر التي يستوي فيها الكافة من الناس، ولذلك لم أدخل في قول من قال من صنف فقد استهدف، وإنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، وبالله أستمد الهداية والتوفيق، وأعوذ به أن أكون ممن جذبته الأهواء فهوت به إلى مكان سحيق.

والسبب الباعث للسفر إلى ملك الحبشة المسمى بلغتهم (سجد فاسلداس) ابن السلطان (سجد شينوس) ومعنى سجد كثير السجود وسينوس اسم للباري بلغتهم، أنه بعث إلى مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله رب العالمين رسولاً من مسلمي تلك الديار في (سنة ١٠٥٢هـ)، وأصحبه بهدية من الرقيق والزباد وسلاح الحبشة، وضمن كتابه

استدعاء رجل يصل إليه من خاصة الإمام.

كما أخبرني سيدنا القاضي العلامة غرة علماء الشيعة والعَلاَمة، وجوهرة عقد أعضاد الخلافة والإمامة، شمس الملّة والدين أحمد بن سعد الدين بن الحسين المسوري - أطال الله أيامه - أن مولانا المؤيد لم يستحسن المسارعة إلى إجابة هذا الملك بإرسال أحدٍ إليه قبل المعاودة منه، وتكرار المراسلة، ووجه مولانا المؤيد هدية سنية وعطية فاخرة هنية.

وصدر رسوله من الحضرة الإمامية مثنياً عليه بلسان الثناء متملياً من أنوار ذلك الفضل والسنا.

وتوجه راجعاً من بندر المخا بتجهيزه في المراكب المعدة مع جماعة العسكر المحافظين وإعداد عدة المحاربة في تلك المراكب من المدافع والزبارط مع البنادق المتخذة سلاحاً للعسكر المنصور، وذلك لأجل الخوف من الأتراك الذين بجانب (سواكن) وبندر (مُصَوَّع)[1] وقطع دابرهم، فوقع التجهيز من النائب في البندر على هذا التقرير، وبلغوا به إلى بندر (بيلول) المعروف لم يعرض لهم شيء من جانب الخصم، وتوجّه رسول ملك الحبشة إلى مخدومه بتلك الهدية، والجواب عليها فيما ذكره.

ثم إن ملك الحبشة عاود في (سنة ١٠٥٧هـ) إلى مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله بكتاب آخر وهدية أخرى، واستعجل من المؤيد الرجل المطلوب وصوله إليه، وذكر في كتابه: نيل الفرض بإرسال الرجل الذي استدعاه، فلما وصل رسوله إلى أطراف الحبشة وبلغه وفاة مولانا الإمام المؤيد أرسل إلى الملك يعلمه بذلك، فرجع إليه كتاب إلى الإمام المتوكل وأمره أن يبلغ الكتابين معاً إلى المتوكل (سنة ١٠٥٧هـ)، فخرج إلى بندر المخا، وجاءت طريقه بطن تهامة من جانب زبيد ثم مور والأمروخ والأهنوم، ووصل إلى الإمام إلى شهارة مستقر الأئمة وعمدة معاقل الزيدية، فأعظم مولانا أمره وأكرم مثواه، وأحسن نزله، وعرف ما في كتبه، وما استدعاه الملك من وصول رجل يفيض إليه بسرٍّ لا تحمله بطون الأوراق، ولا يطيب له أن يفيضه إلى رسوله لما يخالطه من الإشفاق.

---

(١) وردت هذه الكلمة مرات بالسين (مسوع) ومرات بالصاد (مصوع) ولعلها بالصاد أصوب.

وكان في هذا ما لا يخفى من الإجمال، فاختص مولانا عليه الصلاة والسلام بذلك الرسول في بعض مجالسه الخالية، وسأله عما في كتاب الملك، وهل عنده ظن بمراده من ذلك، فقال: الذي يبلغ إليه ظني أنه يريد الإسلام، فلما قال ذلك سُربه مولانا أيده الله، ولمعت أسارير وجهه، وأسرَّ في نفسه أن هذه نعمة جليلة، وأمر عظيم يتوصل إلى إتمامه بكل حيلة.

ثم شاور أهل حضرته واستنصحهم في ذلك، وما الذي يتوجه فيه من الرأي، فاتفق نظر كثير من أهل الفضل والقول الفصل، أن إجابة هذا الملك إلى وصول رجل إليه تجب قطعاً، ويتوجَّه لزومها شرعاً، حيث قد تعلق الطمع بإسلامه، وانخراطه في هذا الدين ونظامه، فإنه يجب إجابة من يظن فيه ذلك، ولو لم يُرج إلا صلاحه بنفسه، كيف ومن المعلوم من طريق العادة أنه يتبعه الجماهير وقد وقع في ذلك الرأي خلاف من بعض أهل النظر، استناداً إلى ما ثبت لديهم بالفكرة وتقرر، وهو أن هذا الملك الثابت في تخت ملكه المتقرر لديه أباطيل شركه، لا يغلب في الظن أن هذا المنهج قصده، ولا يجدي فيه عِيْسه، ولا يوري فيه زنده، فاطِّرح هذا الرأي لما كان القائل به القليل، والترجيح بكثرة الرجال دليل، وأي دليل، لا سيما وقد طابق ذلك رأي صاحب الحل والعقد والإبرام والنقض المهتدَى بهداه، الذي يقصر كل نظر في المصالح عن منتهى نظره ومداه، مولانا أمير المؤمنين مع الاستظهار لذلك بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لأن يهديَ الله رجلاً على يديك خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))، وليس الطريق إلى إمكان الهداية إلا الظن، فاستقر الرأي على وجوب إجابة هذا الملك بوصول رجل إليه يبحث عن سره، ويطَّلع على حقيقة أمره.

وكنت في تلك السنة في سفر الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة الضريح النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وكان من فضل الله عليَّ أن هذه هي الحجة الثالثة.

ولما رجعنا من ذلك السفر الميمون ووصلنا إلى الحضرة المولوية أعزها الله في (غرة شهر ربيع الأول سنة ١٠٥٧هـ)، وهذا الخبر شائع أمره، ذائع سرُّه، كنت ممن تشرف بالمفاوضة فيه مع مولانا أمير المؤمنين - أيده الله- وأجبت بما ظهر لي من النظر، وسنح لدي من خاطر الظن الذي حضر، بما يطابق رأي الأكثر، وكان مولانا يكرر النظر في

تعيين الرجل الذي يتوجه إلى تلك الديار، ثم إنه خصَّني بفضيلة هذه العزيمة، وقلدني القيام بهذه الفريضة العظيمة، وأدلى إليَّ بحسن ظنه، وإن ذلك من فضل الله علي ومنه.

فأجبته إلى ذلك وسألت الله أن يضيء لي أنوارَ هذه المسالك، ثم إن مولانا أخذ في تعيين هدية فاخرة، وعارفة تليق بمقامات الملوك ومكارمه الطاهرة، أسنى من هدية الملك من خلع الديباج العجيبة، ومطارف الملوك السنية القشيبة، والسيوف القاضبة القاطعة والدروع السابغة، والبنادق الفاخرة البالغة، مع شيء من الآت الخيل النفيسة؛ والأتراس المناسبة لكل حضرة رئيسة.

ولما استكمل ما يريده من ذلك أرسل رسالتين إلى الملك عظيمتين، كنت أحبُّ إثباتهما إلا أن إحداهما ذهبت بحريق النار الذي سيأتي ذكره، والأخرى التي وصلت إلى الملك فاتنا ذلك منها بفواتها من أيدينا ولم يخطر بالبال رقمها إلا بعد الذهاب، وكان مولانا أودعنا ما اقتضاه نظره وحسن تدبيره، وهو أن قال: إذا انتهيتم إلى هذا الملك أظهرتم له هذه الرسالة الظاهرة المتضمنة لجواب عليه وذكر الهدية، وأخَّرتم الرسالة الأخرى حتى تجتمعوا به في موقف خال، وهو لا بد أن يفيض إليكم ما عنده، فإن وجدتموه يريد ذلك الأمر الذي تعلق به الأمل، وأنه يريد الدخول في ملة الإسلام المشرفة دفعتم إليه الرسالة الأخرى وخضتم معه في ذلك على ما يقتضيه الحال سراً وجهراً، وإن وجدتموه تائهاً في ضلالته، سادراً في ظلمات جهالته لا سبيل إلى ولوج النصيحة في لبه، ولا طريق إلى تقرير ذلك في قلبه، أعرضتم عنه صفحاً، وطويتم عنه كشحاً، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، والحازم من تنفعه النصائح والتجارب، فاعتمدنا هذه الوصية النافعة، ووجدناها، ولله الحمد لأسباب الرشاد جامعة.

ذكر ابتداء السفر

وتوجهنا من حضرة الإمام – عليه السلام– في (غرة جمادى الآخرى سنة ١٠٥٧هـ) مقدِّمين بين يدي ذلك حسن التوكل، وخالص التوسل، والمبالغة بتقوى الله عز وجل، وطاعته تعالى وطاعة خليفته الإمام الأجل؛ فإن ذلك أبلغ ما يستعان به على نجاح المقاصد الصالحة، ونموّ متاجر الخير الرابحة، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ**

اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠، ٧١] ، وكان في صحبتنا جماعة ممن يليق مصاحبته في ذلك السفر من الشيعة والعسكر وأهل الرعاية والمروءة والحماية، وكان مرورنا على السيدين الأعظمين والرئيسين المكرمين عز الملة والدين، وجبل العلم والحلم الشامخ الحصين محمد بن الحسن بن أمير المؤمنين، وصفي الإسلام والمسلمين وسيف الله على أعدائه المفسدين أحمد بن الحسن بن أمير المؤمنين - حفظهما الله- وهما إذ ذاك بمدينة صنعاء حرسها الله وعمرها بأهل الإيمان والتقوى.

وكان هذا الرسول الواصل من الملك استصحب إليهما كتابين وما تيسر من الهدية، فأجابا عليه ووجها إليه ما تسنَّى من الهدية مضافة إلى هدية مولانا أمير المؤمنين - أيده الله تعالى- فكانت هدية من أسنا الهدايا وعطية من أجزل العطايا، واستقبلنا السفر المبارك على تيسير الله وتدبيره، وهو الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد، ولا يجمعهما غيره تعالى؛ لأن الصاحب لا يكون خليفة والخليفة لا يكون مستصحباً.

فلما انتهينا إلى بندر المخا وقد أمر مولانا - أيده الله- إلى نائب المخا بتجهيز جميع العسكر المحافظين في البندر بأعظم ما يكون من الإعداد في المراكب لما يُتوهم أن يعرض من الأتراك من بندر سواكن ومن بندر مُسَوَّع، ففعل النائب ما أُمِر به، وتجهزنا من هنالك في (نصف شعبان سنة ١٠٥٧هـ)، وكان جملة سفرنا في البحر يومين، والمسافة مع استواء الريح أقرب من ذلك، فقد تقطع في يوم واحد.

ولما وصلنا إلى بندر (بيلول) وكنا استصحبنا إلى السلطان شحيم بن كامل الدنكلي كتاباً من نائب المخا لما بينهما من الاتصال وحسن المعاملة، وجميل المواصلة، وكان السلطان شحيم غائباً حين وصولنا إلى بندر بيلول، فراسلناه حتى وصل، وكنا قبل وصوله ضاربين خياماً في مكان خارج البلد بينها وبين البحر؛ لأنا كنا أدركنا من أهل البلد تشوشاً من وصولنا، فبقينا هنالك حتى وصل سلطانهم شحيم.

وقد كان صحبتنا جماعة من تجار الحبشة، ولما وصل السلطان شحيم تلقانا بالإكرام وسني الضيافة، واطلع على أخبارنا وعلم أنا نريد الوصول إلى ملك الحبشة، وكان له اتصال به، كما هو عادة من هنالك ممن يدعي الإسلام، وليس له منه إلا اسمه.

ولما اجتمعنا به ومعه بدو كثيرون مُنكَرو الصُّوَر، خالون عن التخلق بالشرع

الشريف؛ لما شاهدناه من اختلاط نسائهم برجالهم ولا يسترون عوراتهم ولا يتسترون بمنكراتهم، كأنها من المعروف، والبِدَعُ لديهم أمر مأنوس مألوف، ولسانهم أعجمية تخصهم، قليل من يعرفها وجعلوا ينظرون إلينا من بعد ويتعجبون منا كما نتعجب منهم.

ولقد حُكي لنا أن كبيرهم متزوج باثنتي عشرة امرأة وغيره مثله، ولعلهم يريدون الإطلاع على أحوالنا، والتجسس ليقفوا في طريقنا ويصلوا إلى شيء مما بأيدينا، كما يفعله المتخطفون، وكان من فضل الله ومما أمدنا به إمامنا عليه الصلاة والسلام استصحاب البنادق، فإنها دفعت عنا المكروهات، وكانوا يعجبون من رميها غاية العجب، وأحسب أنهم اعتقدوا أن صاحبها إذا رمى بها تمكن من متابعة الرمي بدون انقطاع، ونحن نوهمهم ذلك، فتحدثوا به وشاع، وملأ القلوب والأسماع.

ثم إنا بقينا في بندر بيلول قدر شهرين منها رمضان وخرجنا لصلاة العيد والسلطان شحيم معنا بأصحابه، ناشرين الأعلام مظهرين شعائر الإسلام، وصلينا في الجبَّانة، وخطبنا خطبة العيد المأثورة مع ذكر الإمام - عليه السلام- والدعاء له جهراً على رؤوس الأنام.

ثم لما كان بعد العيد بثمانية أيام توجهنا من بيلول وفي صحبتنا السلطان شحيم بأصحابه نحو ثلاثين، والقافلة من الجيوش نحو ثلاثين نفراً، وسبب هذا التحير في بيلول أن الطريق كثيرة الأخطار من وجوه، منها: أنها مفاوز منقطعة الماء لا يعرفه إلا الدليل الماهر، وأهل الأمانة قليل فيهم، فإن الدليل إذا شاء سلك بالناس حيث لا يوجد ماء فيهلكهم أو يتحكم في أموالهم، ومنها الخوف من البدو، ومنها الخوف الأعظم من (القالة) أبادهم الله لإمكان وصولهم إلى هذه الطريق، فاحتجنا إلى نفي المخاوف ومراسلات كبار البدو بنظر السلطان شحيم، وبذل الأموال لهم، وقد توجهنا من بيلول في أرض مستوية كثيرة الأشجار نحو مرحلتين، ثم دخلنا في أودية بين جبال عالية فيها ماء جارٍ.

وجاء لنا أخبار أن البدو يريدون غزونا في تلك الليلة، فأمرنا بالاحتراس، فكان من عجائب الاتفاق أنها جاءَت أربعة فِيَلة، وسمعنا حنينَها فرمينا عليها بالبنادق، فسمع البدو الرمي فهربوا، وكانوا نحو خمسمائة، ثم سافرنا اثنتي عشرة مرحلة، فوصلنا (عين ملي)

وهو أعظم خطراً لقربه من (القالّة)، وهم أمة شديدة البأس متينة المراس، كثيرة العدد؛ إذا توجهوا للحرب في مدينة (أوسة) وما إليها، فقد يبلغ عددهم نحو مائة ألف وهم أهل قوة وصبر، ولقد حُكِي لي أن الرجل منهم إذا صرخ بأعلى صوته عند ملاقاة الحرب، وسمع ذلك عدوه انفلق قلبه، وهم مسلطون على النصارى بالحبشة، وأكثر السبي إنما يكون بأيديهم.

ثم أقمنا في (عين ملي) شهراً، وكان السلطان شحيم قد قدم رسولاً بكتاب إلى بعض أمراء الحبشة يخبره بوصولنا، وأن يتلقانا إلى محل معين سبق الكتاب من بيلول، ورجع الجواب إلى عين ملي، فأظهر السلطان شحيم المسرة وضرب بالنقارة، واجتمعوا للعب لتبشيرنا، ثم ارتحلنا وهو في صحبتنا خمس مراحل، ثم أشعرنا أنه يريد الرجوع؛ لأنه إذا جاوز لم يتيسر له الرجوع منفرداً بأصحابه عنا، ثم جَمَعنا وقافلة الحبشة، وكان هنالك ثلاث طرق، إحداها: ظاهرها الأمان من القالّة. والثانية: تحتمل المخافة منهم. والثالثة: مقطوع بخوفها.

فاختلف رأي قافلة الحبشة، فرسول الإمام المرافق لنا يريد سلوك الطريق المأمونة، وإن كانت بعيدة المسافة، وقافلة الحبشة يريدون سلوك الوسطى، وكلهم لا يريدون الثالثة، فطلب لنا السلطان دليلين وعهدهما، وقال لنا: تسيرون مرحلتين وليس بعد ذلك إلا أرض مقفرة، حتى تصلوا أرض الحبشة، فتودَّعناه وعزمنا ثلاث مراحل إلى جنب جبل عظيم طولاً وعرضاً وبحيرة، يتصل ماؤها بالجبل وبجبال أخرى، ثم أدركنا من الدليلين دلائل الخيانة، فتحيرنا في ذلك المحل ثلاث ليال مع عظيم الوحشة وكثرة السباع، وخوف القالّة، فلم نشعر إلا وقد انصبَّ علينا ثمانية أشخاص وتشاوروا مع الدليلين، فلم نجد بداً من تسليم شيء من المال لهم، ثم ارتحلنا غرباً شمالاً، ثم مالوا بنا غرباً مقابَلةً، فعلمنا أنهما قد تاها بنا في غير الطريق، ونكثا العهد، فتواثب عليهما أهل الحبشة، وقالوا لهما: قد غدرتما بنا، فهذه محال القالّة، فأجاباهم: غير هذه الطريق ليس فيها ماء، فتوسلنا إلى الله من خوف الهلاك بالعطش أو الجوع أو القالّة، وقد نفد الزاد.

وكان رسول ملك الحبشة يستقبلنا في رأس جبل عال يستطلع أخبارنا، وقد أعد معه زاداً، وصار يتنقل في الجبال، فأدرك نارنا في شاطئ البحيرة، ومعه جماعة تعرف القالة

والقفار، كما يقال (أهدى من دعمص الرمل) فانحدر إلينا من الجبل بمن معه، ففزعنا منه، وتأهبنا للقتال، فتقدم أحدهم، فعلمنا أنه من رسول ملك الحبشة، فكان الفرج بعد الشدة، فهرب أحد الدليلين وربط أهل الحبشة الدليل الثاني، وقالوا: يسترجعون منه المال، فلم نستحسن استرجاعه.

ثم وصلنا إلى ماء جارٍ شربتْ منه مواشينا، فهلك بعضها لانقطاع بطونها من الماء، ثم بشَّرنا الرسول أن أمير ملك الحبشة أمره أنه متى وجدنا بعث إليه رسولاً ليتلقانا بعسكره وأمرنا بسرعة الإرتحال، وأمر أصحابه أن يكونوا في أعالي الجبال عيوناً، وكان يترل بنا في أماكن حصينة. وسرنا أربع مراحل، ثم اجتمعنا بالأمير المسمَّى بلغتهم (أحدانبسه) ومعناه واحد من الأسود، وهذا اسمه العلم، ولقبه (نعل جاده) وهو لقب يلقب به كل من يتولى ذلك القطر، وكان على جبل صعب، فانحدر إلينا، ولما ضربت البنادق هالتهم، وانحطوا برؤوسهم نحو الأرض، وهو أشيب مكشوف الرأس على عادتهم، طويل الشعر والأظفار، وقد استصحب معه من الطعام الحاصل لسرعة الإرتحال، فارتحلنا خمس مراحل إلى قرية بين جبلين عند نهر يسمى (وسمه) في ولايته، وعليه الحراسة من القالّة في كل شهر عشرة أنفار يتناوبون في جبل يُسمَّى (كحل) لا مسلك للقالة إلى بلاد النصارى، إلا منه، فإذا علموا بالقالة أنذروا قومهم ليهربوا إلى رؤوس الجبال، ويخلون بينهم وبين بيوتهم.

وللتحيرات المفاجأة فقدنا الزاد، فكنا نشتري غنماً لنأكلها فلم تنفع نفع الزاد، فوهنت منا القوى ونحلت الأجسام، وكان بعض عسكرنا يأكلون ثمر الدوم البهش، والمسافة بين بندر بيلول وبين بلاد الحبشة نحو شهر.

فلما وصلنا مع الأمير إلى (وسمه) توجهت رسله ورسل رسول الإمام المرافق لنا، ثم تقدمنا إلى مسكن الأمير في جبل عال اسمه (حنطالوه) واسم هذه البلاد عموماً (أندَرته) كثيرة الخيرات، كنا نشتري أكثر من أربعين رطلاً عسلاً شهداً أبيض، ما رأيت مثله بالشقة السوداء من بز المراددي، وأقمنا في محله أربعين يوماً، وكانت صلاة الأضحى، فخرجنا لها إلى ساحة البلد، ومن انضم إلينا من المسلمين، وأقمنا الصلاة وهم يتعجبون، ووصل إلينا إلى ذلك المحل الفقهاء (آل كبيري صالح) وهو اسم تعظيم، وكان معنا

كتاب إليهم من مولانا أمير المؤمنين، وكسوة سنية دفعناها إليهم، ورأينا عليهم سيماء الصلاح، ونور الإسلام، فسررنا بهم غاية السرور، وكان بعضهم يتكلم العربية، فسألناهم عن أمور نحتاج إلى معرفتها، ووصل معهم رجل آخر اسمه (كبيري خير الدين) له معرفة جيدة بمذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهو أفقه من آل كبيري صالح، وهم أشهر منه لعلو منصبهم.

ثم رجع جواب الملك مع خمسة من رسله، فتلقاهم الأمير (نعل جاده) وقرأ كتاب الملك قائماً كعادهم، وأخبرنا بما أمر به الملك من إكرامنا وصحبتنا في الطرق المخوفة، فشكرنا ذلك للملك وأحسنا مخاطبة رسله بما يليق، ثم حملوا أثقالنا وسافرنا ثلاث مراحل إلى بلاد (السحرت) وتلقّانا أميرها اسمه (إسحاق)، واجتمع الأميران، وقد كان أسلم لدينا رجل، فقبلنا إسلامه، وقال (نعل جاده): هو باختيار إذا أحب الإسلام، وقال (إسحاق): سنقتل الرجل الذي خرج من ديننا، فقال له (نعل جاده): إن العرب أهل مروءة ونجدة وشهامة، يرضيهم القليل ويغضبهم القليل، ولا يتركون الرجل الذي دخل في دينهم ولو ذهبوا عن آخرهم، ولا فائدة من الإساءة إلى أضياف الملك، فكفه بذلك.

ثم إن أمير السحرت أمر أهل بلاده بالحضور لحمل أثقالنا، وطلب منهم جيشاً لصحبتنا، فحضر نحو ألفي رجل بالحراب والخيل وسار بنا خمس مراحل حتى اتصلنا بلاد (امرَقلي) فتلقانا أميرها (قباقسطوس)، فسارع في تجهيزنا وسار بنا سبع مراحل، ووجدنا نهراً عظيماً كنيل مصر وسيحون وجيحون، وفيه حيوانات عظيمة، فرأينا فيه حيواناً ميتاً كالقبة العظيمة، يقال له: فرس البحر، ومقدار عرض النهر مائة ذراع، ويصب في نيل مصر، ثم اتصلنا ببلاد (الفلايسة) أولها واد عظيم اسمه (أُغنه) تحت جبل اسمه (سُمين) وهو أعظم جبال الحبشة لا يبرح الثلج فيه شتاءً وصيفاً، وهذه البلاد ولايتها إلى بعض وزراء الملك اسمه (دَمُّوه) وله وكلاء في البلاد، وهو لا يفارق حضرة الملك.

وقبيلة (الفلايسة) من أعظم قبائل الحبشة على دين اليهودية، وهم أهل نجدة، وما زال الملك يغزوهم حتى غلبهم ولا يعترض عليهم في أمور دينهم، ثم سرنا حتى اتصلنا ببلاد (الامحرة) عشيرة الملك وكرسي مملكته، وكان سيرنا في بلاد الفلايسة والامحره اثني

عشرة مرحلة، ثم وصلنا قرية قريبة من مدينة الملك أهلُها كلهم مسلمون، وفيها مسجد، ومكتب لتعليم الصبيان القرآن، فأنسنا غاية الأنس وتسرَّى عنا ما ثقل على قلوبنا مما قاسيناه من مخالطة الكفار ومنكراتهم، وجاء مسلم إلى رفيقنا الحاج سالم بن عبد الرحيم رسول الملك إلى الإمام يخبره أن رجلين قد اتصلا بوزراء الملك وألقيا إليهم كلاماً؛ بأن الحاج سالماً قد جاء صحبته بهؤلاء العرب المسلمين، ليدخل الملك في دينهم، ونصحنا النذير بافتقاد ما معنا من كتب الإمام لئلا يكون فيها شيء مما يصدق الكلام، وجاء الحاج سالم إليَّ مبهوتاً من ذلك خائفاً، وقال لي: انظر في كتاب الإمام، فإن كان فيه ما تُخشى عاقبته أصلحته، فأعدت النظر في كتاب الإمام، وليس فيه إلا ما نجد له عذراً، وإن كان فيه مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**.. إلخ﴾[آل عمران: ٦٤].

ولم نجد في قلوبنا قلقاً، ثم تقدمنا إلى محل قرب مدينة الملك وبتنا طاوين، فهؤلاء النصارى ليس فيهم مروءة، ولا مكارم أخلاق التي لا تخلو منها أمة، فهم لؤماء وبخلاء، ولبعد الإتصال بالملك وسوء معاملة وزرائه، لم يصلنا جوابه إلا آخر اليوم الثاني، فدخلنا إلى بيت وزير اسمه (حواريا) يوم (الجمعة سلخ صفر سنة ١٠٥٨هـ)، واجتمع علينا في أزقَّة المدينة الرجال والنساء بلا حجاب، ليتعجبوا منا، ووصلت إلينا الضيافات من بيت الملك، ومن وزرائه طعام مصنوع، وعسل كثير وبقر وغنم، ودنان خمر، فأشار إليهم الحاج سالم أن يرفعوه.

ثم في الصباح استدعانا الملك، فتقدمنا إلى قلعته الباهرة مبنية بالحجارة والنورة، وأكثر البيوت عشاش والباني لدار الملك هندي، والقلعة تشتمل على دور عديدة وساحات مديدة، وفي كل مكان الفرش الرومية ومطارح الهند بالذهب مرصعة والأسرة الفاخرة، بالحلية والجواهر ملمعة.

ولما وصلنا إليه وقد انتظم مجلسه وتهيَّأ الوزراء وغيرهم بأفخر هيئة، حيث لبسوا مطارف الديباج المطرزة بالذهب والحرير، وجعلوا في أوساطهم مناطق الذهب المحلاة بالفصوص الفاخرة ونفيس الجواهر، وأخذوا في أيديهم السيوف السنَّاريَّة المحلاة كذلك بالذهب الخالص، وانتظموا قياماً أحسن انتظام بصورهم عظيمة الأجسام، ليست سوداء

ورؤوسهم مكشوفة عن الشعر الجعد الناعم، وفي أيديهم أساورة الذهب، وفي آذانهم الأقراط المتلألئة كاشتعال اللهب.

وقد كان في النفس شيء من الكلام، فخطر في البال أن الوزراء يريدون معرفة حقيقة ما نقل إليهم، والإطلاع على كتاب الإمام؛ لأن لهم اليد القوية على الملك. ولما رآنا الملك نزل من سريره وقعد على الأرض إكراماً لنا وإعظاماً لإمامنا، وقاعدته أنه لا يترل من سريره إلاَّ لأكبر وفد، ثم إن كل وفد لا يقعد بين يديه إلا بإذنه، فأقبل علينا بعد استقرارنا، وقد أعد ترجماناً شريفاً يقول: إنه من آل الحسين بن علي - عليهم السلام- من أرض بخارى، يعبِّر بالعربية أحسن عبارة، فسألنا عن أحوالنا وأحوال الإمام وأولاد إخوته، ثم سألنا عن كتاب الإمام، واستدعاه، فأجبنا أن معنا كتاباً وهدية من الإمام إلى الملك، ولإيصال الكتاب والهدية بمجلس آخر، فأجاب علينا الشريف قبل أن يترجم جوابنا أن قواعد هؤلاء القوم غير ما عرفتموه، وهي: أن الوفد يقدم هديته ورسالته حال قدومه، فقلنا له: بلغ الملك ما قلناه، واعتذر لنا فيما جهلناه، فبلغه، وقبل عذرنا، ثم قال لنا: في أي محل تريدون الترول في منازل النصارى أو المسلمين، فقلنا: في منازل المسلمين والكل في جوارك وحماك، فأمر بترلنا ببيوت تصلح لنا.

ثم أستاذنا في الوصول إليه في اليوم الثاني بالكتاب والهدية، فوجدنا حضرته كالأمس، فقرأ الشريف كتاب الإمام جهراً، ثم سلمنا الهدية شيئاً فشيئاً، وسألناه أن يجعل لنا رجلاً يتولى رفع حوائجنا إليه، فاستحسن ذلك وعينه على الوزير (حواريا) فأجرى علينا في كل شهر ثلاثين حملاً من الحنطة وأربعين رأساً من الغنم، وأربع رؤوس من البقر وعشرين جرة من العسل وست جرار من السمن.

وبعد ستة أيام طلبنا الملك وأمرنا أن نقلل من المصاحبين، ففهمنا أنه يريد كشف السر الذي إليه يساق الحديث، فتوجهنا و لم يكن في حضرته إلا ثلاثة وزراء، وأمر الحاجَ سالماً أن يترجم، فحدثنا وجاريناه في حديثه، ثم قلنا: هل بقي في نفسك شيء؟ فقال: لا: فانصرفنا نتصفح أحواله، وهل نجد سبيلاً إلى ذلك الأمر الذي هو غاية الأمل؟ فلم نجد لذلك النداء عربياً ولا مجيباً، فكنا نحن وهو كما قيل: إنك لفي واد وإنا في واد ولكم بين مريد ومراد، فأعرضنا عنه صفحاً وطوينا كشحاً.

ثم وصل إلينا رسول من بعض تجار اليمن بجهة مسوَّع يرفع ما نريده من أخبار اليمن وأحوال إمامنا، وانتظام أمور ساداتنا أيدهم الله، فسرنا ذلك غاية السرور وحمدنا الله على تلك الأخبار التي هي قرة العيون، ثم إنا سارعنا بتحقيق الأخبار إلى مولانا أمير المؤمنين وعرفناه أنا نريد العود من جهة مُسَوّع وأنه - حفظه الله - يكتب إلى باشة الأتراك هنالك، يستأمن لنا منه؛ لأن عودنا من الطريق الأولى لا سبيل إليه، ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، ثم كان من ألطاف الله أن وصل إلى الملك رسول من باشة الأتراك بسواكن بهدية، وهو عربي اللسان من أهل سواكن اسمه الأمير عبد الوهاب، حسن الأخلاق، كامل الصفات، جميل المعاشرة، له نسك أهل الصلاح، يحفظ القرآن غيباً حفظاً جيداً، وله معرفة بكتب السير والآداب، فروح عنا بأدبه، وجرى لنا على يديه منافع كثيرة، فأسررنا إليه ما نريد من العود عن جهة مُسَوع، وأنا قد رفعنا إلى ذلك إلى مولانا الإمام ونريد تمامه على يديك:

إن أراد الصديق نفع صديق فهو أدرى في نفعه كيف يسعى

فأحسن الجواب، وقال: قد عزمت أن أعطيك عجري وبجري، إعلم أني ما وصلت بالهدية إلى الملك إلا للإحاطة بأخباركم، فإن محمد باشا بسواكن أقعده وصولكم وأقامه، فأراد استكشاف ذلك.

وأمْرُ سفرِكم على طريق مصوَّع، سيكون على أحسن الوجوه، واتفقنا على أخذ رأي الملك؛ لأنه لا يحب مرورنا من جانب الأتراك لما يلقاه أهل الحبشة من سوء معاملتهم، فهو يحب فتح الطريق من جهة بيلول، وربما كان هذا هو ضميره المستكن من هذه المواصلة لإمامنا، فإنه يعلم أنه لا يتم فتحها إلاَّ بقوة وعناية من وجوه منها: معاودة الإتصال بالإمام، من هذه الطريق، فأجاب بأن مروركم من جانب الأتراك لا سبيل إليه، فإنهم أعداؤنا وأعداؤكم، فقلنا له: لا ننكر عداوتهم، وأما غدرهم فلا نظنه، وهم على ملتنا ونبينا وكتابنا نبيهم وكتابهم، فكيف لا نقبل الأمان منهم، ثم لم يجد بداً من إسعافنا غير أنه طلب منا شاهداً نكتبه بيده ببراءته من رأينا، فكتبناه وخلى سبيلنا عن طريق مسوع، فكانت عاقبتها أحمد، وكانت أمورنا من نفقة وغيرها على يد الوزراء المعتادين للرشاد ونافسونا على علو منزلتنا عند الملك والاتصال به في أي وقت، وأدركنا منهم

العداوة واتهمناهم بالحريق الذي وقع معنا، فإنا لم نشعر ليلة وقد هدأت العيون إلا وقد اشتعلت النار بجانب العشة التي أنا فيها، وكانت الريح شديدة، فاشتعلت وأتلفت ما لدينا من الآلات والأثقال، ولم ننج إلا بالنفوس، وأعظم ما أهمنا حريق الكتب التي استصحبناها وحمدنا الله على سلامتنا.

إذا سلمت رؤوس الرجال من الردى فما المال إلا مثل قص الأظافر

فأقام الملك الحريق وأقعده وأبرق وأرعد، ولم نرفع ذلك إليه، وقلنا له: ليس في هذا بأس، ولم نتوجع واستعنا بالحزم، واشتغلنا بحصول إذنه لعودنا، فطاولنا حتى مضت تسعة أشهر، والعذر في تأخيرنا دخول شهور الخريف والأمطار ليلاً ونهاراً أربعة اشهر يحتبس الناس فيها، ولقد رأينا كثرة الأمطار والعيون ونضارة السهل والجبل والأرجاء بالزهور والخضرة الزبرجدية، والحمرة الوردية، والصفرة العسجدية، ومع الأمطار لا تتيسر الأسفار فأقمنا كالقبض على الجمر.

رضيت قسراً وعلى العسر رِضَى من كان ذا سخط على صرف القضا

ولما انقضت شهور الخريف عاد إلى المماطلة؛ لأنهم لا يرون الكذب عاراً، وطلبنا من نجتمع بهم من أهل شريعتهم، فلم نجد إلا رهباناً طريقتهم الزهد والعبادة والخلوة واجتناب الأنكحة.

وبلغنا خبر رجل عظيم من القسيسين والأحبار، ولكنه وقع في قضية اقتضت حبسه في جزيرة ببحر النيل، وهو من أقباط مصر، والقاعدة أنه لا يقعد هذا المقعد إلا قبطي، بأمر صاحب بيت المقدس يبعثه إلى الحبشة، ولسان القبط عربي وإنجيله بالعربي، وجميع شريعتهم بالقلم العربي، ويسمونه في الحبشة (الأبون) كما يقال في العربية القاضي، ويشارك الملك في نصف ما يُجبى إليه، فكان هذا ممن طالت مدته اثنتي عشرة سنة وعظم ملكه، وتكبر في نفسه، ومالت إليه الأكابر، واعتمدت عليه العساكر، فاغتار منه الملك وعمل له الحيل.

وكان من الأسباب أن الأبون بطش بمسلم كان من بطانته، فانتهبه وهتك ستره، وهذا المسلم من أهل الهمة، والأنفة، فرفع إلى الملك أموراً يستنكرها على الأبون فأودعها أذناً واعية، فطلب الملك الوزراء وأطلعهم على أن هذا الأبون صار يخبط في مهاوي الهلاك.

وللرهبان كبير يسمونه (الإخِّيق) على وزن زنديق، فشاوره، واجتمع رأيهم أن يصيحوا في المدينة أن من علم بفاحشة على الأبون تخالف دينهم، وصل إلى الملك في يوم معلوم، فأجفل إليه الناس وأعلموه بمعاصي الأبون ومخازيه، ورقموا شهادتهم بخط الشريف محمد بن موسى البخاري؛ لأنهم يريدون رفعها إلى صاحب بيت المقدس العربي، ثم أشاروا على الملك بقتله، فرجح حبسه في جزيرة، وطلبوا رأي صاحب بيت المقدس، واستدعوا من يقوم مقام الأبون.

ثم خرجنا يوماً للضيافة إلى بعض المنتزهات إلى محل الأبون، فوجدناه محلاً نفيساً من أعجب ما رآه الراءون، وفيه تلامذته، فأحسنا مخاطبتهم فاطمأنوا وكان كبيرهم غائباً، فوصل إلينا في اليوم الثاني وهو ناسك يتكلم العربية اسمه (خاطروس) أحسن من رأيناه، فسألنا عن شريعتنا، فذكرنا إليه الأركان الخمسة، وأحكامها والطهور والأذان والإقامة والتوجه والزكاة، فقال: من يأخذها؟ فقلنا: الإمام الأعظم ويصرفها في مصارفها، فأعجبه الصرف في الفقراء ليشاركوا الأغنياء والصرف في الجهاد سبيل الله.

وما برح يعاودنا ويتأسف على ما مضى من الأيام، ونحن أعجبنا به، ثم قال: لولا أني كبير يظهر خبري لصحبتكم إلى بلادكم على أن تتركوني على ديني، فقلنا: لدينا نصارى ويهود على دينهم، منهم من يبقى على دينه مستأمناً بالجزية، ومنهم من يعود بلاده، ثم قال: عندنا الإنجيل ثلاثة أسفار بالعربي، فاطلعت على الأول وهو مواعظ، وأما الأحكام ففي الأخيرين.

وسمعنا قضية وهي أن هذا الملك لما مات أبوه وله خمسة عشر ولداً من أمهات شتى، فأوصى بحبسهم وإجراء النفقات لهم لئلا ينازعوا الملك إلاَّ أخا الملك من أمه ليعضده، فبقي عاضداً له قائماً بأمر جنده، حتى أدركته نخوة، واستقلال وهمة بقتل الملك، والوثوب على المُلك، فدبر الملك عليه الحيلة وقبضه ليلاً وهؤلاء الأمحرة أهل كيد متين، فسألته أمهما وألاَّ يقتله، فأرسله إلى جزيرة في بحر النيل و لم يظهر خبره.

ثم هيجت أحزاننا مماطلة الملك بسفرنا، ووقعت مراسلة منه، ومن وزرائه لبعض عساكرنا يرغبونهم في البقاء، ورأينا رسلاً من أهل (أوسه) (وسنار) والأتراك قد حيرهم الملك، فلم نجد ملاذاً غير الإلتجاء إلى الله ودرس القرآن، فيسر الله لنا منامات مبشرات،

منها: إني رأيت في منامي وصولي إلى إمامنا المتوكل على الله إلى ديوانه الذي يقعد فيه لقضاء حوائج الناس، فوجدته مملوءاً بالعلماء كل واحد منهم فارش سجادته يصلون وينتظرون وصول الإمام -عليه السلام- إليهم لصلاة الجماعة، فوصل فسلمت عليه وشق الصفوف إلى محل صلاته، فجعلت أطلب لي مكاناً للصلاة، فلم أجد متسعاً إلا في سجادة سيدنا القاضي العلامة عبد القادر بن علي المحيرسي، فصليت بجنبه، ثم سمعت المُسبِّح يقول:

هات الأحاديث تصريحاً وتنبيهاً ... لعلها من عليل النفس تشفيها
إن الأمور التي في النفس تخفيها ... لا تخشها إن ذكر الله يكفيها

فقمت من منامي رقمتهما. ثم رأيت رؤيا أخرى قائلاً يملي علي هذين البيتين:-

وكن حازماً في كل أمر تريده ... فإن صواب الرأي ما كان أحزمه
وشاور عليماً في الأمور مجرباً ... حليماً إذا ما دبَّر الأمر أحكمه

ورؤيا ثالثة وهي أني رأيت أني أتلو القرآن على سيدنا علي بن سعيد السريحي القارئ المشهور بمحروس صنعاء حرسها الله، فوصلت إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[الأنفال: ٤٦]، فقال لي: قف على هذه الآية، ومرائي أُخرى وهي جزءاً من ستة وأربعين جزء من النبوة.

ولشدة الضجر والسهر وصفت ذلك في قصيدتين من الأولى:-

على كل سعيٍ في الصلاح ثواب ... وكل اجتهاد في الرشاد صواب
وليس على الإنسان إدراك غاية ... ودون مداها للعيون حجاب
ولو علم الساعون غاية أمرهم ... لما كان شخص بالشرور يصاب
فقل لأمير المؤمنين لقد دعا ... وحق له بعد الدعاء يجاب
ولكن دعا قوماً يظنون أنهم ... رموا غرضاً في دينهم فأصابوا
يقولون: إن الله جل جلاله ... هو الروح عيسى إن ذا لعجاب
وحيناً وقالوا: بالأقانيم فرية ... فيحصرها ضبط لهم وحساب
وقالوا: هي الرب الثلاثة كلها ... بذلك أفتت فرقة وأجابوا

ولكـــن يقولـــون الثلاثـــة واحـــد وهـــن لتكميـــل الإلـــه نصـــاب
وهـــذا ضـــلال بـــين وجهالـــة تَفطَّرُ منـــه الصـــمُّ وهـــي صـــلاب
لقد ضاق ذرعي لاحتباسي بأرضـهم وكُـــدِّر مـــني مطعـــم وشـــراب
وحَبَّـــب أوطـــاني إلي بـــأن لي بها جـــيرةٌ طـــاب الزمـــان وطـــابوا
وللعدل والتوحيـد فيهـا مسـارحٌ ورَبـــع منيـــع شـــامخ وجنـــاب
فهـــل لي إلى تلـــك المنـــازل عـــودة وهـــل لي إليهـــا مرجـــع ومـــآب
وهل أردنْ للشـــرع مـــورده الـــذي تـــدل عليـــه ســـنةٌ وكتـــاب
وهل أسمعن صوت المنـادي لجمعـة ينـــادي بـــأعلى صـــوته فيجـــاب
وهل أنظر الدار الـتي ضُـربت لهـا مـــدارسُ علـــم حولهـــا وقبـــاب
وهل يسعدن دهري إلى نيـل مطلـبي فمـــالي منـــه غـــير ذاك طـــلاب
فإن لم يكن يا دهـرُ عُتبَـى فطالمـا عُتبتَ فلـم ينفـع لـديك عتـاب
ولكـــنني أقفـــو مقالـــة شـــاعرِ فللقـــول حكـــم بـــالغ ولُبـــاب
إلى الله أشـــكو أنـــني في منـــازل تحكَّـــم في آســـادهن كـــلاب
تمـــر الليـــالي لـــيس للنفـــع موضـــع لـــدي ولا للمعـــتفين جنـــاب
أرى الكفر مكشوفَ القنـاع وأهلَـه يظنونـــه خـــيراً فخـــاب وخـــابوا
فشـــمِّر أمـــيرَ المـــؤمنين لحـــربهم فهـــم نَقَـــدُ البيـــدا وأنـــت عُقـــاب
وأنت سليل القاسـم القـائم الـذي رمت شهبُه أهـل الضـلال فغـابوا
وقل يا بني الهادي أجيبـوا إمـامكم تجبـــك شـــيوخ منـــهمُ وشـــباب
يفـــادون بـــالأرواح دون إمـــامهم ويصـــدق طعـــن منـــهمُ وضـــراب
ونـــاد بأبنـــاء المكـــرَّم حمـــزةٍ تجبـــك ســـيوف منـــهمُ وحِـــرابُ
ولا تـــنس أشـــراف القواســـم إنهـــم أســـود لـــديها صـــولة ووِثـــاب
ومن بعد هذا ناد من كـان يقتـدي بزيـــد إمامـــاً حـــب ذاك صـــحاب
إذا أقبلـت يومـاً طوائـف جمعهـم تضيق بهـم عـن بسـطهن رحـاب

ولا تسـمعن قـول العـذول فربمـا	يشـير بقـول بـالخمول يشـاب
يقـول بـلاد الكـافرين بعيـدة	وقد حال مـن دون البعيـد عُبـاب
ورأي الذي قد شاهد الحـال راجـح	على رأي مـن لم يشـهدوه وغـابوا
ولله علـم سـابق في أمورنـا	فما كان فيـه لـيس عنـه ذهـاب
فيـا رب وفقنـا وأيِّـد إمامنـا	فأنـت لكـلٍ في الأمـور مثـاب

.. إلخ. ومن الثانية:

من لقلـب ولطـرف مـا هجـع	ولصب لم يـزل حِلـف الوجـع
ولمحـزون نـأى عـن داره	وعن الأحبـاب كيـف المرتجـع
كـل يـوم ولـه مـن همـه	مـا أطـار النـوم عنـه ووزع
صـرت في أرض قليـلٍ خيرُهـا	وكـثيرُ الشـر فيهـا يُصـطنع
جعلـت ربـاً نبيـاً مرسَـلاً	جـاء بـالحق وبالصـدق صـدع
ثلّثـوه وهـو ربٌّ واحـد	جـل عـن ذلـك ربي وارتفـع

.. إلخ، وهي طويلة في سيرة الجرموزي للمتوكل إسماعيل.

وحَدَث أن مسلمة ارتدت وتنصرت، ولها بنتان على مسلم من مسوع، ولهما خالة مسلمة هربت بهما، ووضعتهما لدينا، فجاءت أمهما المرتدة مع نصـارى يريـدونهما، فخرج أحد أصحابنا بالسيف، فهربوا، ولم يَجيء إلينا من الملك ووزرائه شيء، وشاعت القضية وسكتوا، ثم سيَّرناهما إلى أبيهما بمُسَوَّع على يدي الأمير عبد الوهـاب رسـول باشة الأتراك، فالحمد لله الذي أعزنا بالإسلام.

وبعد التسعة الأشهر سافرنا في آخر (ذي القعدة سنة ١٠٥٨هـ) وأصحبنا الملـك بثلاثة من كبار حضرته للقيام بضيافتنا، وغيرها، ولما سافرنا عشر مراحل انقضت مهمة أحدهم، وقد قام بنا أحسن قيام، ثم أفضت نوبة الثاني، فقبض الضيافة لنا من النـاس، وأخذها لنفسه، وفارقنا ومعنا نفوس كثيرة من الرقيق، والخدامين أكثر من مائة نفـر، فاعتمدنا على الله، ثم على أنفسنا، فكلما وصلنا قرية طلبنا أهلها وعرفناهم بمقدار ما أمر به الملك من الضيافة، فإن سلموها وإلا أخذناها قسراً، وكنا قد أعددنا ما نحتاجه مـن

سلاسل الحديد نربط بها المتمردين والحراميين.

ومرض بعض الرقيق، فاحتجنا من يحملهم على سرر، فكنا نربط رئيس القرية ونسيِّره تحت الحفظ معنا، وكان يحمل المرضَى تسعة أنفار إلى القرية الأخرى، فنربط رئيسها ونترك الأول وهلم جراً، فوصلت جميع أثقالنا سالمة مع المرضى، ولولا ذلك لهلكنا:

إذا لم تكن إلاَّ الأسنةُ مركباً ... فلا رأي للمضطر إلا ركوبها

ولقد حاول أهل قرية، الامتناع بالهرب، فأمرنا نساءهم بالحمل، فرجعوا مغلوبين، وتمت لنا هذه الأمور بشرف الإسلام، ولو اجتمعوا على إهلاكنا لم يشعر الملك بشيء وسُرَّ الإمامِ بما فعلناه عليه وعلى آبائه وعلى جده أفضل الصلاة والسلام.

ثم سافرنا خمساً وعشرين مرحلة، وانقضت نوبة المأمور الهارب، ثم أفضت النوبة إلى الثالث، ففعل ما أمره الملك مع زيادة وصيَّر إلينا من الزاد ما يبلغنا إلى بندر مسوع لأجل المفازة بين (مسوع) و (دياروي) وهي عشر مراحل، وأقمنا في (دياروي)[1] اثني عشر يوماً نصلح ما نحتاج إليه من أمورنا.

وبلغ إلينا أن مولانا أمير المؤمنين، قد أرسل رسولاً قاصداً إلى باشة الأتراك بسواكن ليأخذ لنا الأمان، ويقف في مسوع حتى نصل إليه، فأسرعنا السير، ولما توسطنا المفازة رأينا بدواً من الأشرار نحو خمسمائة، حملوا علينا من جهتين، فأرسلنا حبشياً ليعرف ما يريدون، فإن كان المال بذلناه لهم، وإن كانت النفوس، فالموت دونها، ثم سلمنا لهم شيئاً من المال، وكنا قد أرسلنا رسولاً خبيراً إلى نائب الباشا بمسوع، فعاد جوابه مع مائة من العساكر، وقد أحاط الله بأولئك البدو الأشرار بجيش من أعدائهم، فقتلوا منهم وسبوا نساءهم وباعوهن في مسوع، وتحدثوا أنها من كرامات إمامنا - عليه السلام- ولا شك في ذلك ولا ريب، فإن حقه عند الله عظيم، وقد دفع الله عنا ببركته المهالك ووصل إلينا رسول الإمام مع المائة من العساكر، فسر بوصولنا وفرحنا به وارتحلنا، فوصلنا مسوع، فتلقانا نائب الباشا بأحسن كرامة وأقمنا به ثمانية أيام لنتهيأ لسفر البحر ثم ركبنا ثلاث

(١) لعلها دردوَى.

سفن إلى بندر اللحية، فوصلنا جزيرة دهلك وبقينا بها أربعة أيام لعدم استواء الريح، ثم سافرنا على الجلاب ليلاً ونهاراً مع الاهتداء بالنجوم، فطلع علينا سحاب متراكم مع ريح عاصف، فهاج البحر المتلاطم وأمطرت السماء فاجتمع هول المطر والريح والظلمة، وأهل الجلبة يعالجون أعمالها وينتظرون الفرج، فضعفت قواهم، ودام المطر تلك الليلة واليوم الثاني، وكان زورق مربوطاً بالسفينة، فامتلأ ماءً، فأشرفت على الغرق، فقطعناه بالسيف فانفصل.

وأما السفينتان الآخرتان فرمَى بهما البحر إلى جزائر، فتأخرتا، ولما وصلنا إلى بندر اللحية رفعنا الخبر إلى مولانا أمير المؤمنين، فرجع جوابه مشتملاً على مقبول الدعوات والتحنن والبركات والتحيات، وتوجهنا إلى حضرته الشريفة، فوصلنا إليه (٤ ربيع الأول سنة ١٠٥٩هـ) على ٢١ شهراً، منذ فارقناه، فاستبشر بنا أيده الله، كما استبشرنا به، وأكرمنا بأفضل ما يكرم به الغائب بعد إيابه، وتلقانا بمكارم الأخلاق وأحسن في كرامة المصاحبين لنا من العسكر وغيرهم أتم الإحسان.

ثم عاود ملك الحبشة المكاتبة والهدية إلى الإمام المتوكل إسماعيل (سنة ١٠٦٢هـ) فأجاب الإمام بقوله: ((بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، إلى السلطان الملك المعظم عمدة سلاطين الأمة العيسوية التي هي أقرب الناس مودةً للذين آمنوا من الأمة المحمدية.

المرجو من الله أن يجمعنا وإياه على كلمة سواءٍ ألاَّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

السلطان (سنجد فسلد) ابن السلطان (سنجد سينوس) سلام على من أتبع الهدى، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ختم به النبيين، وصدَّق به المرسلين - صلى الله عليه وسلم - وعلى أهل بيته الطاهرين، وأن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلَقه من روحه ونَفخه، كما خلق آدم بيده، وأقول كما قال رب العزة معلماً لنا في كتابه الذي أنزله أن نقول لأهل الكتاب: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٦] ونرجو أن تكونوا إن شاء الله ممن قال الله فيهم من سلفكم: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾** [المائدة:٨٣-٨٥] وأنه وصل إلينا كتابكم الاعتذار في تأخير رسل الهدية عن رسولنا القاضي حسن أحسن الله إليه بما ذكرتم من الأسباب، وإنا لم نختر إرسال القاضي حسن إليكم لاستمداد شيء من الهدايا الدنيوية التي أحقر من أن تذكر، فإنه يقوم بها أدنى حامل، وإنما اخترناه ليحمل عنا إليكم الهدية الدينية، والدعوة الإسلامية المحمدية، حين أنسنا منكم القبول، واستدعيتم وصول الرسول، ليكون تواصلنا على أمر الله، وتعارفنا على كلمة الله، التي يقول عز وجل فيها معلماً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[آل عمران:٦٤] وبقوله عز وجل: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.. إلخ﴾**[الشورى: ١٣].

فهذه هي الهدية التي قصدناها، ونرجو أن تكونوا لها قابلين، وبسيفها على الأعداء صائلين ولنا سلف في ذلك جدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولك سلف في ذلك (أصحمة النجاشي) - رحمه الله- كتب إليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة سلْم أنت وإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونَفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شَريك له والموالاة على طاعته وأن تَتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلَّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى)).

ولما وصل إليه الرسول بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الرسول

له: ((يا أصمحة إن عليَّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقّة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك؛ لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخف من شيء قط إلا أمناه، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور))، وقد أرسل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رسله إلى الناس فرجاك بما لم يرجهم وأمنك على ما خافهم.. إلخ.

فقال النجاشي: ((يا لله إنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل))، ثم كتب النجاشي جواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

((بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله وما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، وإنه كما ذكرت، وقد عرفتُ بما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، وأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين)).

وإذا كان الأمر كذلك فحق علينا أن ندعوك إلى ما دعا إليه سلفنا، وحقٌّ عليك أن تجيب إلى ما أجاب به سلفك إن شاء الله، فإن ذلك منا ومنك أنفس الهدايا.

هذا وهديتكم التي صحبت رسولكم وصلتنا كما ذكرتم في كتابكم وهو خمسون رأساً من الرقيق الأحمر والأصفر والأخضر وعشرة رؤوس من السود وبغلة بسرج ذهب وعذارات فضة وعدها فضة وبغلة أخرى بسرج وعدها وعذاراها نحاس، وقبلناها، وصدر في حفظ الله مع رسولكم ما تقفون عليه، إن شاء الله في البيان الصادر طي هذا الكتاب، يكون إن شاء الله سبباً إلى التوصل إلى الغرض المطلوب، والأمر المحبوب من الاجتماع على كلمة الله والاتحاد في أمر الله، والقول كما علمنا الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[البقرة:١٣٦].

ولصاحب الترجمة القاضي حسن الحيمي أشعار جيدة وله ذرية لهم مروءة ورئاسة،

رئيسهم ولده القاضي العلامة محمد بن الحسن، ستأتي ترجمته في الجزء السادس في (سنة ١١١٥هـ)، وفاته وذكر بعض الأعلام من أقاربه، وحفيده القاضي العلامة الخطيب أحمد بن محمد بن حسن الحيمي المتوفى (سنة ١١٥١هـ) ستأتي ترجمته في الجزء السابع.

أنباء سنة ١٠٧٢هـ

في (سنة ١٠٧٢هـ) غلت الأسعار وقلت الثمار وشمل القحط البلاد وانتشرت الجراد، وفيها انتهبت قبائل عَنَزه ولام بالحجاز محمل الحج الشامي.

وفي (ربيع الثاني سنة ١٠٧٢هـ) سار الأمير محمد بن الحسن من صنعاء إلى اليمن الأسفل، فاستقر بإب وجبلة، وانقضى الحال أن يكف يد ولده يحيى عن كثرة التصرفات لما رآه من كرمه وتهالكه على فعل المعروف.

واستبد في نزوله هذا بمحصول بلاد العدين، وكانت ولاية للسيد العلامة محمد بن أحمد بن الإمام الحسن المؤيدي، فلما مات خلفه السيد حسين المؤيدي فتوفي، فأراد أولاد السيد محمد بن أحمد، والإمام المتوكل إسماعيل توليتهم، فلم يتم، واستولى عليها يحيى بن محمد بن الحسن، ونبَّه أبوه الإمامَ أن البلاد بلادي وفيها عاملي.

وفيها سار المولى علي بن أحمد بن القاسم، والفقيه الجملولي إلى فيفا، فواجه إليه بنو مالك ومن انضم إليهم.

وفيها انتهب الثمثمي من مشائخ سفيان دراهم للحطروم في العمشية في الوقت الذي العهدة عليه في تأمين الطريق، فعيَّبه قبائله واسترجعوا منه أكثرها.

وفيها تهَيَّأ السيد عبد الله بن حسين جحاف للحج، فلما وصل صبيا حضر صلاة الجمعة، فسمع من الخطيب تقديم الخلفاء على علي، والجمع بين الإمام وسلطان الروم في الدعاء، فلم يتماسك عن القيام والتكلم في جانب الخطيب بما ينكي، وكاد الحال يفضي إلى قتال.

وفيها غزا الشريف محمد بن الحسين صاحب صبيا إلى أطراف بلاده، فنشبَ الحرب بينه وبين الحرامية، وكانت الدائرة عليه، قُتل من أصحابه نحو السبعين، وانتهب سلاحهم، ووقعت فيه جناية، وكان هو الذي يغزو وينهب، فانقلب الدست، وصار

يقصد إلى عقر داره.

وفيها حصل ما بين قبائل ديبان وشوابه، وهران، حرب أفضى إلى قتل ثم اصطلحوا.

وفي (رجب سنة ١٠٧٢هـ) سار الأمير أحمد بن الحسن إلى رأس غيل الخارد الأعلى وسكن هناك أياماً، وقطع شجرةً كانت العوام قد أعادت بها شنار الأصنام، ولأهل لهم فيها اعتقاد، ثم رجع الغراس وقد قطع ذلك الغراس، ثم ما برح يعاود غيل الخارد، وعمر به الحمام، وطنب فيه الخيام، وطاب به المقام.

وفيها أشار الإمام إلى الأمير محمد بن الحسن أن يسمح بالعدين، فلم يسعد وهو حقير في جنب وفود الأجناد، وكثرة الإمداد، والسعي منه في حياطة البلاد والعباد.

وفيها أذن الإمام للشيخ عبد الله هرهرة في العود إلى بلاده.

وفي (نصف شعبان سنة ١٠٧٢هـ)، سار الإمام من وادي أقر إلى سودة شظب، ثم إلى بلاد عفار وكحلان، ثم عاد.

وفي نصف (رمضان سنة ١٠٧٢هـ)، خرج جماعة من شياطين البرتغال من سواحل الهند إلى ساحل عدن في ثلاثة أغربة، فجرت الريح بأمرهم رخاءً، وحالوا بين التجار وبندر المخا، وكان النائب به السيد زيد بن علي جحاف، وكان بحر الود بينه وبينهم غير صاف، فأردف عليهم بردفين ، ووجه إلى أغربتهم مدفعين، فلما علموا أنه لا قدرة لهم عليه دبروا الحيلة وتفطنوا لجبخانة البارود في مركب المسلمين فرموها، فانقضت كالسهام المقرطسة أو الطيور التي النيران لها أجنحة، فأحرقت الجبخانة مركب المسلمين وانكسر، ثم هلك منهم بالسيف من أدركه الفرنج، وغرق بعضهم وأُسِر بعضهم وأرسلهم النصارى إلى سلطانهم، وأخبر الفتى سرور من أهل المخا، وكان من جملة الأسرى الذين رجعوا إلى اليمن بعد أن أطلقهم سلطان الفرنج أنهم سافروا في البحر سبعة أشهر، وفي البر أكثر. وبعد ذلك ترسم الفرنج على باب المندب، وأخذوا الأتاوة.

ولما بلغ سيف الإسلام أحمد بن الحسن هذا الفعل الشنيع فلم يأخذ الاستئذان من الإمام لتضيق هذا الحادث، فوالى المراحل، وترك ما كان عزم عليه من معاودة الحج، لترجيح هذا المهم، ورفع المدلهم، فرقم له في عليين ثواب الغزاة المرابطين، ولم يظفر بطلبته من أولئك الشياطين، فإنها طارت بهم الغربان إلى بلادهم، ثم سار سيف الإسلام

إلى عدن، واستقر بها، وجهز إلى ملك الهند هدية من الخيل العتاق اليمنية العربية المحبوبة، فعاد الرسول بعد أيام بهدية مضاعفة وتُحَف مرادفه.

نبلاء سنة ١٠٧٢

عبد الرحمن بن محمد جحاف

فيها توفي السيد العلامة عبد الرحمن بن محمد بن شرف الدين جحاف بصنعاء. وكان عاملاً بحفاش للمولى الحسين بن القاسم، ثم للإمام المؤيد بن القاسم، ثم للمتوكل إسماعيل، ثم استقر بصنعاء على أحسن حال. وكان عارفاً بالنحو وأصول الفقه والمنطق، وله شرح على غاية السؤل. وكان متواضعاً إلى نهاية متمسكاً بالسنة النبوية، اسمع تيسيراً لديبع على السيد العلامة إبراهيم بن يحيى بن الهُدَى جحاف، وأجازه، وأسمع صحيح مسلم على العلامة عبد الواحد التريلي.

الحسين بن محمد النعمي

في (العشر الأواخر من ربيع الثاني سنة ١٠٧٢هـ) توفي السيد العلامة الحسين بن محمد النعمي التهامي القِبي من صبيا.

هاجر إلى صعدة، فقرأ بها الفقهَ على القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى حابس وغيره، ثم وصل إلى صنعاء، فقرأ على السيد محمد بن عز الدين المفتي في الفقه وغيره، ودرَّس فيه وفي غيره.

قال في الطبقات فيه: النعمي القِبي التهامي العلامة، قرأ بصعدة على حابس وغيره وبصنعاء على المفتي وعلى الفاضل أبي القاسم ابن الصديق البيشي وأخذ عنه كثيرون كالسيد مهدي بن الحسين الكبسي، والقاضي علي بن أحمد السماوي والسيد عثمان بن علي الوزير وغيرهم.

وكان عالماً ورعاً محققاً سيما في الفقه وقواعده، وله حواش على شرح الأزهار وغيره، وهو المراد بقولهم في الحواشي، تمت تمامي.

وأثنى عليه تلميذه مهدي الكبسي، ووصف شيئاً كثيراً من أحواله وزهده وتحقيقه.

أحمد بن الحسن بن حميد الدين

وفي (ليلة الثلاثاء ١٨ محرم سنة ١٠٧٢هـ) توفي السيد أحمد بن الحسن بن حميد الدين بن المطهر بن الإمام شرف الدين صاحب (ترويح المشوق بتلويح البروق). كانت وفاته بالروضة ودفن بخزيمة، كما أشار إلى ذلك القاضي الأديب الحسن بن علي بن جابر الهبل المتوفى (سنة ١٠٧٩هـ) في هذين البيتين:

يا قبر أحمد قد حويت مكارماً ومحامداً
شهدت بذاك خزيمةٌ وكفى بذلك شاهداً

وفي البدر الطالع والجامع الوجيز: أنه توفي (سنة ١٠٨٠هـ) والصحيح أنه (سنة ١٠٧٢هـ) لأدلة كثيرة.

وقد ترجمه أبو الرجال في مطلع البدور ترجمة طويلة، والحيمي في طيب السمر، وفي روح الروح وطبق الحلوى.

وكان عالماً شاعراً أديباً زاهداً، ذكر في كتابه ترويح المشوق ما دار بينه، وبين جماعة من أدباء عصره وترجمه محمد أمين في نفحة ريحانة الألباء، ومن شعره قصيدة أولها:

إياك من سود الحدَق فهي التي تكسو القلق

وقصيدة أولها:

يا رشأً أشمت بي العواذلا ما لك جانبت الوفاءَ عادلا

وقصيدة أولها:

ما بين معترك المقل لله أيام الغزل

وقصيدة أولها:

سقى الأثل كل سحاب مُظلة عليه ولا برحت مستهلة

ودرس كثيراً لدن الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل، والقاضي العلامة عبد الرحمن بن محمد الحيمي بشبام، ولقد كانت مقاماتهم رحلة للطالبين ونزهة للناظرين ومن

مراسليه القاضي محمد بن إبراهيم السحولي، كما في مطلع البدور.

أحمد الذنوبي

وفيها توفي السيد أحمد الذنوبي، درس ببلاد حجة والظفير في الفقه، وكان إذا سار إلى بلده الذنوب يشغل نفسه في أمواله ويفتي ويدرِّس مع ذلك.

محمد بن علي الجملولي

وفيها توفي حاكم السودة بها القاضي العلامة محمد بن علي الجملولي، وقد ولي القضاء ببندر المخاء زماناً، ثم نقل لقضاء السودة.

ناصر صبح

وفي (آخر جمادى الأولى سنة ١٠٧٢هـ) توفي بشهارة السيد العارف ناصر صبح بن محمد بن يحيى الغرباني من ذرية القاسم العياني الذي عارض الإمام القاسم آخر أيامه بالحيمة، فقصده محمد باشا فاستسلم أصحابه، ففتك بهم الباشا وفر السيد صبح إلى العصيمات، ثم سكن شهارة وفي الطبقات أن وفاته (سنة ١٠٦٢هـ) كما سبق.

المهدي بن الهادي النوعة

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٧٢هـ) توفي السيد العارف المهدي بن الهادي النوعة، كان ذا ولوع بالتاريخ وصنف فيه مؤلفاً في جزئين سماه الإقبال.

ولاَّه الأمير الحسن بن القاسم ذي السفال، واستمر كذلك زمن المؤيد ثم المتوكل إسماعيل ثم سار إلى بلدة ساقين بمال جزيل فرُفِع خبره إلى المتوكل، فاستدعاه من الطريق، فوصل، وذكر أن المال من غلة أمواله التي شراها منذ تولية الحسن له ومما أحياه هنالك، فكفَّ عنه المتوكل. ثم إنه بطيبة نفسه سمح من ماله بشيء لبيت المال، ولما عرف المتوكل طيبة نفسه به قبله.

ثم استوطن ذريته ذي السفال في أعمال بعلم وعدل وصلاح وكرم وهم سادة أجلاء إلى عصرنا آخر القرن الرابع عشر.

حمد بن محمد القشاشي

وفي (١٩ ذي الحجة ١٠٧١هـ) توفي بالمدينة المنورة الشيخ العلامة الحافظ أحمد بن محمد بن يونس بن أحمد الدجاني بن علي بن الحسن بن ياسين المقدسي الأصل المدني المولد والوفاة المعروف بالقشاشي، عن ثمانين سنة إلا أشهراً؛ لأن مولده في (٢ ربيع الأول سنة ٩٩١هـ)، وهو الذي شرح عقيدة المتوكل إسماعيل.

وترجمه الشيخ إبراهيم الكردي، وأثنى عليه كثيراً، وذكر أنه أخذ عن أبيه، وعن أبي المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس في الحديث والأصول وغيرهما.

وله مؤلفات واسعة، ومنها شرح العقائد النسفية، وشرح الحكم العطائية، وحاشية على المواهب المدنية وديوان شعر، وله زاوية معروفة بالمدينة، وهو من الزهاد ومؤلفاته تزيد على خمسين.

الناصر بن عبد الرب

وفي (يوم الثلاثاء سلخ ذي الحجة سنة ١٠٧٢هـ) توفي الأمير الكبير الصدر الشهم الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين ملك كوكبان وحافظ حوزته وهو فرع من الشجرة المتوكلية.

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة بعد الممات جمال الكتب والسير

كان اليمن بحدوده، تحت رسم آبائه وجدوده. تلقاها المطهر عن أبيه الأطهر، فرقم ملكه على صفحاتها بلسان السيف الأبتر، رد عنها فيالق الأتراك، بملاحم بلغت الدماء بها إلى كعب الشراك، حتى طهر منهم كل رستاق، وأذاق شجعانهم السم الزعاق، وما خلا عن العرفان المنسوب إلى أخويه فخر الدين عبد الله الرِّضَى، وجمال الدين علي المرتضى، ولكنهما تربعا في كرسي مملكة المعارف، ولبسا من قميص التحقيق أجمل المطارف، ومن وقف على ما دار بينهما في معنى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها)) تنسَّم نفحة كلام أمير المؤمنين، وعلم أن السلالة النبوية هم المراد بقول الصادق المصدوق الأمين (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)، واختص جمال الهدى باكتناه السر العرفاني، وسمت ذاته إلى ارتفاع التجرد عن حضيض

هذا العالم الفاني.

ولما انقضى دور الدولة المطهرية المطهرة، تَلَعَّب من بعده وبعد أخيه شمس الدين بالمملكة تلعُّبَ الصولجان بالكرة، وفاتهم ضم النشر وجمع الأمر، ففاضت روح مملكتهم إلى جسد الاشتراك، واستحكمت الأتباع على أمرهم حتى سقط إلى أيدي الأتراك، وأُشخِص منهم إلى الأروام، من نفذت عليه أحكام، وصرفت بامتحانه أقلام، ثم لما استحكمت الدولة المنصورية والعصابة القاسمية كان أهل هذين البيتين زوجين في جثمان، وجوادين في مقبض عنان، فانضمت أيديهم على ملك كوكبان فأمروا فيه بالمعروف ونهوا عن العصيان، وقسموا بالسوية، وعدلوا في الرعية، وما زال الأمير منهم يقفو الأمير، والخطير المقدار يتبع الخطير.

نجوم سماء كلما انقض كوكب　　　بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

وهم الآن درة تاج مجد باذخ، وعصابة دائرة بهامة ذلك العلم الشامخ، فيهم البلغاء والعلماء والعباد والكرماء. ولما مات الأمير الناصر خلفه ولده عبد القادر محبب الأفعال، منقطع الأشكال.

وفي المواهب السنية للسيد الحسن بن عبد الرحمن أن وفاة الأمير الناصر في سنة ١٠٧٣هـ وأرخ وفاته السيد العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل وكتب على ضريحه:

غيث رضوان من الرب الرحيم　　　بضريح الملك والمجد المقيم

ناشر العلياء باني مجدها　　　الكريم ابن الكريم ابن الكريم

الخضم البحر في يوم الندى　　　والهزبر الليث في الخطب الجسيم

رفعت روحٌ له طاهرة　　　وسمت في درج الفضل العظيم

وأتى التاريخ: (في الرفع بها　　　ولي الناصر جنات النعيم)

(١٠٧٣هـ)

وقيام الناصر الناصر بعد وفاة أبيه بالجند سنة ١٠٣٨هـ أيام الجهاد، كما سبق.

حوادث ١٠٧٣هـ

ابتداء شعار يوم الغدير

في سنة ١٠٧٣هـ كان من الصفي أحمد بن الحسن ابتداء شعار يوم الغدير ١٨ ذي الحجة بنشر الأعلام والزينة والاحتفال، ولما وصل الصفي إلى حضرة عمه الإمام بجبور، اجتمعا على فعل هذا الشعار، فقام به للشيعة شنار.

وجاء الخبر مع حجاج اليمن أن قبائل عنـــزة انتهبوا الركب الشامي، وهزموا أميره، وأسروا ابنه الصغير، فتفاداه بمال جزيل.

وأما أمير حاج اليمن، فإن الحراميين قتلوه في رجوعه وقتلوا من عسكره أربعة أنفار، ومن الحجاج رجلاً بسبب تقصيره، فيما يعتادونه وقت دخوله.

وحاج العراق، حج على أتم الأحوال، وفيها ظهرت ببلاد صنعاء دود خضر وسود، فأكلت النبات وظهرت الدبا بالتهائم والسهول.

وفي صفر عزل صاحب مصر النائب بسواكن والنائب بمصوع، وجدد صاحب مصر مقام الشافعي وأصلحه.

وفي ربيع الأول كثرت الجراد بتهامة، فأكلت الزرائع.

وفي هذا العام لم يدخل إلى المخا غير يسير من البز بسبب فتنة الفرنج المتقدمة.

وفيها سار المولى محمد بن أحمد بن القاسم؛ للإصلاح بين قبائل ذيبان وعيال عبــد الله، ونشب الشر بين أهل الرجو، وبعض أهل البلاد؛ بسبب ضربهم الطبــل في بــلاد الرجو، ثم زال الشر.

وفيها وقع حرب في عنس ومذحج، وقتل منهم نحو العشرة. وفي (جمادى الآخــرة) هرب الشيخ الجيد من حبس ضوران إلى بلاده بالمشرق.

وفيها وصل إلى أحمد بن الحسن شيخ يقال له الحميلي، وبلاده، يقال لهــا: البــديع متوسطة بين الدواسر وبين الحسا وولايتها إلى شريف مكة، فأكرمه الصفي وعاد بلاده، ومعه خطيب استدعاه وخطب ببلاده للإمام جمعةً أو جمعتين، ثم عاد الخطيب، ولم يــتم

الترتيب، ولما قبض محمد بن الحسن بعض بلاد ولده يحيى، فأذن لأهل النوبة بالانصراف، فساروا إلى حضرة عمه أحمد بن الحسن، فأمرهم بالاستمرار عليها معه، فضربت، واشتاق إليها العوام، لما كانوا يسمعونه عنها في دولة الأروام، و لم يكن قصد محمد بن الحسن إلا زحلقتها من باب ولده يحيى لتكليفها جملة من المال، ثم أمر بها محمد بن الحسن، فضربت بين يديه.

وقد سبق أن ضربت بين يدي الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي، وقد ذب عنها وعن الدواة المحلية، وإسدال الحجاب بعض الأحيان، ونحو ذلك الهادي بن إبراهيم الوزير في كتابه (كريمة العناصر في الذب عن سيرة الإمام الناصر).

وفي آخر (رجب سنة ١٠٧٣هـ) اضطرب الأمر على خلف الأمير على ظفار من جهة العُماني سلطان بن سيف، فإن آل كثير ما زالوا ذلك المعقل شجًى في حلقه وهم يرون أن خلفاً تطفل على ظفار فشنوا الغارات عليه، وقتلوا من أصحابه زهاء أربعين، فهرب على سواع في البحر، ولم يترك بظفار إلا مدفعين، فدخلها السلطان محمد بن جعفر الكثيري، وبدل قوانينها والأحكام، وحوَّل الخطبة للإمام، فقال: العماني: لم نبعث بالأمير خلف إلا تلبية لداعي آل كثير، وإلا فنحن في غنية عن ذلك الصقع الحقير بمملكتنا الوافرة وهو في الحقيقة يتنفس الصُّعَدَاء.

وفي (أول فصل الصيف من سنة ١٠٧٣هـ) حصل غيم طبق اليمن رجب وشعبان فبطل بعض الزرع.

وفي (شعبان) حصل حرب بين بلاد خيار ووادعة، فقتل سبعة أنفار من الجانبين، فأدبهم الإمام وارتفع الخصام.

وفي رمضان حاول الهيثمي الفرارَ من حبس كوكبان إلى بلاده بالمشرق، فضوعف عليه التضييق.

وفي شوال طلع محمد بن الحسن من اليمن الأسفل إلى مقام الإمام بضوران، ثم توجه إلى صنعاء.

وفي هذا العام حكم حاكم بلاد بعدان بالحق على غريم ألَد ففتك بالحاكم، فقتل بعده بالقصاص اللازم.

وفيها توالت الفتن بين بني حذيفة وسحار فسار إليهم الأمير علي بن أحمد فأدبهم.

وفيها كتب الإمام إلى عباس شاة سلطان العجم للمعاهدة والألفة فأجاب الشاه بما يدعو إلى الصفا والوفاء.

نبلاء سنة ١٠٧٣هـ

الحسين بن يحيى السحولي

في (نصف محرم سنة ١٠٧٣هـ) توفي بصنعاء حاكمها القاضي العارف شرف الدين الحسين بن يحيى السحولي. ودفن إلى جنب أخيه بالتربة التي تجمعهم جنوبي صنعاء جنب مسجدهم السعدي.

محمد بن صالح الفلكي

وفي (سنة ١٠٧٣هـ) توفي حاكم ذمار القاضي العلامة في الفقه والفرائض محمد بن صلاح الفلكي. وكان له اليد الطولى في الهندسة والمساحة مع دماثة أخلاق.

ترجمه في الطبقات فقال: القاضي العلامة الكامل عين الشيعة محمد بن صلاح بن محمد بن ناصر بن محمد بن صلاح الفلكي نسبةً إلى قرية فلكه بذمار الذماري المذحجي، ويعرف جده الأعلى بناصر الدين الفرائضي لمهارته في علم الفرائض، أخذ المترجم له عن والده، وعن العلامة إبراهيم حثيث.

وأخذ عنه محمد بن صلاح السلامي وحسين المجاهد وحسينَ دعفان ومهدي الشبيبي وغيرهم، وكان فقيهاً محققاً فاضلاً بارعاً عارفاً فريد الدهر، وآية العصر بذمار وما إليها. كان مذهب الهدويَّة بطرف لسانه، وتعتريه الحدة، فيرجع عنها سريعاً، مع الرفق والبر بالطلبة. وكان غاية في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك مما يتعلق بالفن، وتولى القضاء مدةً طويلة، فكان محمود الأثر يصدع بالحق ورثاه غير واحد.

أنباء سنة ١٠٧٤هـ

في نصف محرم خسف القمر ببرج الدلو حتى انطمس جرمه.

وفيها سار الإمام من ضوران إلى صنعاء وفي عيد النحر حصل حرب بعمران بين قبائلها وعيال سريح بسبب دخولهم إليها بالطبول على ما جرت به عادة القبائل من الأنفة عن ذلك، فقتل أربعة من الفريقين.

وفي (٢٠ جمادى الأولى سنة ١٠٧٤هـ) سار الإمام من الروضة إلى الخارد استدعاه للضيافة الصفي أحمد بن الحسن ، ثم سار إلى ناعط، ثم خرج إلى السودة ثم شهارة واستقر زمناً.

وفيها وصل رجل من المغرب الأقصى من القيروان، ومما أخبر به أن بعض أمراء تلك الجهة له مْرآةٌ يرى الإنسان فيها باطنه، كما يرى ظاهره[1]، وهذا لا يكادُ يصدَّق.

وفي (رمضان سنة ١٠٧٤هـ) جاءَت الأخبار أن الانقليز انتهبوا بندر سورت بالهند.

وفيها حصل شجار بين سفيان وسحار بحضرة الإمام بشهارة وتراجموا فحجز بينهم عسكر الإمام.

وفي (ذي القعدة سنة ١٠٧٤هـ) حصل حرب في صعفان حراز بسبب المرعى وقُتل سبعة أنفار فبادر الإمام بالإرسال عليهم وأدبهم بمقتضى الحال.

وفيها أمر الإمامُ الشيخَ عامر بن صلاح الصايدي بالنزول إلى تعز لافتقاد ما شجر بين السيد حسين المحرابي عامل محمد بن الحسن والشيخ راجح الكينعي عامل الإمام فالتأمت بوصوله الأحوال بين الرئيسين.

وفيها أمر الإمام ببناء قصر مدينة عيان وإعادته كما كان في دولة آل عثمان، فبناه السيد الرئيس صالح عقبات واستقر به وأمر الإمام أن تجمع زكاة خيوان وغيره إليه، وما زال السيد عقبات مستقراً به إلى أن ظهر له من سفيان خداع وعصيان، ولم يكن عنده

---

(١) وجدت الكشافة في المغرب قبل زهاء أربعمائة سنة.

نصاب يقطع به الأسباب، فوصل إلى الإمام.

فيها ساخ جبل في مدوم الشرف، وكان على ظهره أموال هلكت بهلاكه.

وفي ذي الحجة ثارت فتنة بين خيوان وبين صبارة سفيان، وقتل منهما سبعة فأدبهم الإمام، وهدأت فتنتهم، وفيها أحرق الإمام كتاب الفصوص لابن عربي، محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن عربي الطائي الحاتمي الأندلسي بناءً على أن ما فيه كفر بحت.

والناس في ابن عربي على ثلاثة أصناف: صنفٌ جزم بتكفيره كالشيخ أحمد بن تيمية الحنبلي، والحافظ الذهبي، والشيخ إسماعيل المقري الزبيدي الشافعي، والشيخ الحسين الأهدل اليمني الشافعي، وأبي مخرمة صاحب الفتاى.

وصنفٌ جزم بإسلامه، بل قال: هو من الأولياء، وإنما جهل المكفرون مقصاده وهم خلائق لا يحصون جزموا بتزيهه كصاحب الروض في فقه الشافعية، وشارح رسالة القشيري وخرجوا قوله بوحدة الوجود على معنى استناد كل الأشياء إلى واجب الوجود بناء على ما ذكره الشهرورزي في المعارف في الجمع والفرقة، وقد شرح القيصري، وبين مقاصده ونزَّهه عن الحلول، كما تنزه ابن الفارض بنفسه عن الحلول في تائيته.

والصنف الثالث: توقف في شأنه كالسيوطي والسخاوي وهو الأولى بمن لم يعرف مقاصده.

ومن ألغازه في فص الحكمة الأحدية، في الكلمة اليهودية، قوله: ((وما ثمة ما يدب بنفسه، وإنما يدب بغيره، فهو يدب بحكم التبعية للذي هو على الصراط المستقيم، فإنه لا يكون صراطاً إلا بالمشي عليه)) .

وقوله في فص الحكمة العلية في الكلمة الإسماعيلية، ((يُسَمَّى الله أحديٌّ بالذات كلٌّ بالأسماء وكلٌّ موجود، فماله من الله إلا ربه خاصة يستحيل أن يكون له الكل))، وقوله في الحكمة الإحسانية في الكلمة اللقمانية:

إذا شاء الإله يريد رزقاً ... له فالكون أجمعه غذاءُ

وإن شاء الإله يريد رزقاً ... لنا فهو الغذاء لما يشاء

وغير ذلك، وقد خرجها القيصري في الشرح على وجه لا يتجاسر معه إلى نسبة الكفر البواح إلى ابن عربي، ولهم اصطلاحات معقدة.

وحديث لُبس الخرقة ضعفه الدميريُّ في حياة الحيوان وغيرُه، ولا يدل على خصوص مذهبهم ولا تفاصيله التي لا يساعد عليها نقلٌ عربي، ولا الكتاب والسنة، وقال بعض الصوفية: إن التصوف أمر يرد على الخاطر فيقع منه بمحل.

نعم، ولا نقدح في جانب أهل التصوف المحمود، كما كان عليه جماعة من سلف أهل البيت وكالجنيد والشبلي وغيرهم ممن هو على مسلك حميد ورأي سديد.

وقال العلامة القاسم بن الحسين بن إسحاق المتوفى (سنة ١١٦٥هـ):-

ألا قل لمحيي الدين لا در دره ... ولا بل من فيض الفتوحات راقمه

فصُوصُك شانت كف دينك إذ غدت ... تمائم منا كلنا وتسالمه

فمن عقدت يوماً خناصره على ... فصوصك قد والله ساءَت خواتمه

نبلاء سنة ١٠٧٤هـ

طالب بن الحسين الجوفي

في شوالها توفي الأمير طالب بن الحسين الجوفي أمير بيحان، وتلك البلدان استدعي إلى صنعاء بسبب قرابته ببيحان فمات بصنعاء.

علي بن سعيد الهبل

وفي (شوال سنة ١٠٧٤هـ) توفي بالروضة القاضي العالم علي بن سعيد بن صلاح الهبل، بعد أن طعن في السن، وفقد بصره، قاضي الإمام المؤيد بن القاسم بشهارة وزين حضرته، وكان من الزهد والورع بمحل عظيم، وبعد وفاة المؤيد خرج مع الإمام أحمد بن القاسم إلى ثلا، ثم حضر معه إلى المتوكل إسماعيل، فولاه جهات خولان، فاستقر بها إلى أن كف بصره، فانتقل إلى الروضة ولازم جامعها المقدس للعبادة والإفادة والتلاوة. وقبر بالمقبرة شرقي الروضة، جوار قبر الحاج أحمد عواض الأسدي وغيره من الفضلاء.

وروي عنه أنه قال: رأيت رؤيا أني لا أموت حتى أسمع ألفاظ الأذان من أعضائي، فلما مرض مرض الموت سمع الأذان منها، فقطع بالموت فمات.

ورثاه القاضي الأديب الشاعر الحسن بن علي بن جابر الهبل أنشأها في الحال عند دفنه - ولم يكن لديه قلم وقرطاس- فكان يكتب أبياتها على التراب ويتحفظها ثم أملاها في يومه، منها:

أتدري من تخرمت المنون ... ومن أرقت لمصرعه العيون
ومن ذا أثقل الأعناق حملاً ... وخف لحزنه العقل الرصين
ومن ملأ القلوب أسىً وحزناً ... فكل فتىً لمصرعه حزين
ومن في جنة الفردوس أضحى ... لديه الظل والماء المعين
أتدري يا زمان بمن دهتنا ... صروفك إنك الزمن الخؤون
لئن كدَّرت من عيش البرايا ... فمبدأ خلقهم ماءٌ وطين
هوى البدر الذي قد كان حقاً ... به نور الهداية مستبين
هوى الجبل الذي قد كان يأوي ... إليه الملتجئ والمستكين
مضى القرم الذي قد كان ذخراً ... تناط به الحوائج والشئون
فأي سحاب دمعٍ ليس يهمي ... وأي حصاة قلبٍ لا تلين
وليس يرد سهمَ الموت درع ... مزردة ولا حصن حصين
سقيت الغيث قبراً حل فيه ... تُقى وعلاً وإيمان ودين
رجعنا عن ثراه بجيش حزن ... له في كل جارحة كمين
وأجرينا جياد الصبر عنه ... ولكن شوط مَرزِئه بطين
فيا لهفي عليك وقد تدانى ... خروج الروح وانقطع الأنين
وأُسْكِنْتَ الترابَ برغم قومٍ ... محلك في قلوبهم مكين
يكاد النوم أن يغشى الأماقي ... فتلفظه لذكراك الجفون
أهَنَّى إذ دفقت عقودَ دمعٍ ... مخبَّأةً لغيرك لا تهون

وكيف الصبر عنك أو التسلي جميل الصبر بعدك لا يكون
فهل يدري سريرك من علاه علاه العلمُ أجمع واليقين
وهل يدري ضريحك من تغشّى ومن هو تحت تربته رهين
قرنت بصالح الأعمال فيه وحسبك أنه نعم القرين
يعز على العلوم نواك عنها وأنت لبحرها الطامي سفين
هلالاً كنت غالته الليالي وليثاً كنت أسلمه العرين
جعلتَ وداد أهل البيت ديناً لعلمك أنه الحبل المتين
ودنت بدينهم في كل حالٍ وذاك لعمرك الحق اليقين
وكنت من التشيع في محل تسافر دون غايته العيون
فيهنيك القدوم على كريم خزائن ملكه كاف ونون
ويهنيك ادخارك كل كسب إذا الجاني بمكسبه رهين
وأخذك للصحيفة يوم حشر إذا انتدبت لتأخذها اليمين
سأنظم فيك ما يعلو ويغلو ويرخص عنده الدر الثمين
عليك صلاة ربك بعد طه وعترته فأنت بها قمين

وأمر القاضي علي بن جابر ابنه الحسن أن ينشئ أبياتاً على ضريح علي بن سعيد، فقال أبياتاً منها:

يا قبر جادك وابل الرضوان واستوطنتك عواطف الغفران
فلقد ثوى بثراك حَبْرٌ ماجد حزنت لموقع موته الثقلان
يا ضاحكاً في جنة الفردوس قد أبكيت من كانت له عينان
ما كان أبرك منك عُمراً ماضياً قضَّيته في طاعة الرحمن
وسعيت في كسب الثناء فأنت مَن كفل الثناءُ له بعمرٍ ثاني
والعلم أجمع قد غدوت مبرزاً في شوط حلبته على الأقران
وبذلت نفسك للأئمة راعياً لعهودهم في السر والإعلان

جاهدت في مولاك حق جهاده ... تبغي رِضَى المتفضل المنان
أعرضت عن دار الغرور فأنت من ... دار المقامة في أعز مكان
كم ليلة أحييتها متهجداً ... بالفكر والصلوات والقرآن
تدعو إلهك في دجاها قائلاً ... جد بالفكاك على الأسير العاني
آه لو انك عشت من أعمارنا ... دهراً وكنا نحن في الأكفان
هيهات لا يبقى على ملكوته ... إلا الإله وكلُّ حي فان
فاذكر أهاليك الذين تركتهم ... يتجرعون مرارة الأحزان
واسأل لنا مولاكَ غفراناً إذا ... حضر الحساب وزلت القدمان
أحسِن ضيافتنا غداة قدومنا ... فلقد عهدتك مُكرمَ الضيفان
وصلاة ربك لا تزال مدى المدى ... تُهدَى إلى المختار من عدنان
والآل من عذبت موارد ذكرهم ... من كل مخلوق بكل لسان

المعافى بن سعيد الذماري

وفيها توفي بخبان من أعمال المغرب الصغير الفقيه العلامة الفروعي المعافَى بن سعيد بن سعيد الذماري الموشكي. أخذ عن ابن راوع وغيره، وأخذ عنه القاضي يحيى بن محمد السحولي، وكان زاهداً فاضلاً ورعاً علامة كبيراً سيما في الأصول.

وإلى هنا انتهى الجزء الرابع من خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، ويليه الجزء الخامس أوله (سنة ١٠٧٥هـ) إلى (سنة ١١٠٠هـ)، ثم السادس من (سنة ١٠٠١هـ) إلى (سنة ١١٣٩هـ)، ثم السابع إلى (سنة ١١٨٠هـ)، ثم الثامن إلى (سنة ١٢٠٠هـ)، ثم التاسع على (سنة ١٢٢٥هـ)، ثم العاشر إلى (سنة ١٣٠٠هـ)، وأما القرن الرابع عشر فنزهة النظر في أربعة مجلدات ضخمة، وقد تضمَّن إخلال التراجم أنباءً.

المصادر والمراجع غير المطبوعة

م	اسم الكتاب	المؤلف	المكتبة
١	بغية المريد في أنساب ذرية السيد علي بن محمد بن الرشيد	للسيد عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر بن علي	المتحف البريطاني رقم OR ٣٧١٩
٢	روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح	لعيسى بن لطف الله بن المطهر بن الإمام شرف الدين يحيى توفي سنة ١٠٤٨هـ	صورة في معهد المخطوطات العربية القاهرة رقم ٢/٢٦٢
٣	روح الروح أيضاً الجزء الثالث	لصلاح بن عيسى بن لطف الله	الامبروزيانا رقم D٢٨٤ ARABO
٤	أنباء اليمن ونبلاؤه، الجزء الأول والثاني من القسم الرابع	للقاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني	مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء رقم ٣٣٤
٥	النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة في أخبار المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد	للسيد المطهر بن محمد بن عبد الله بن محمد الجرموزي، توفي سنة ١٠٧٧هـ	مكتبة المتحف البريطاني رقم OR ٣٣٢٩
٦	السيرة المباركة سيرة الإمام المؤيد محمد بن القاسم	للجرموزي أيضاً	امبروزيانا رقم ARAB ١١٥A٧٣٥
٧	الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية	للجرموزي أيضاً	مكتبة الحكومة الألمانية، برلين رقم ٩٧٤٤
٨	سيرة المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم	للجرموزي أيضاً	مكتبة الفاتيكان رقم ٩٧١
٩	الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز	لصفي الدين أحمد بن عبد الله الجنداري	الجامع الكبير، صنعاء، ويوجد ما يكروفلم في دار الكتب المصرية رقم ٢١٣٢

م	اسم الكتاب	المؤلف	المكتبة
١٠	اللآلئ المضيئة في أخبار الأئمة الزيدية	للسيد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، توفي سنة ١٠٥٥هـ الجزء الثالث	الامبروزيانا رقم C ٢١٠١
١١	عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر	لمحمد بن أبي بكر الشلي	مكتبة حامعة كمبرج رقم (٢) OR ١٤٠٢
١٢	اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية	لمحمد بن إسماعيل الكبسي، توفي سنة ١٣٠٨هـ	مكتبة القاضي محمد بن علي الأكوع، تعز
١٣	مجهول تاريخ دولة الترك		مكتبة الجامع الكبير صنعاء رقم ٣٧
١٤	قطعة من كتاب تاريخ اليمن		الامبروزيانا رقم D ٣٦٥ عربي.
١٥	أنباء الزمن في تاريخ اليمن	ليحيى بن الحسين بن القاسم توفي سنة ١١٠٠هـ	دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ

وأما المصادر والمراجع المطبوعة فكثيرة مذكورة في آخر الرسالة للكاتبة الفاضلة حياة محمد البسام السعودية جزاها الله خيراً.

انتهى ما اختصرته من رسالتها في (٢٤هـ ربيع الثاني سنة ١٤٠٨هـ).

بقلم أحمد بن محمد محمد زبارة
(١٩٨٧/١٢/١٤م)

الفهارس